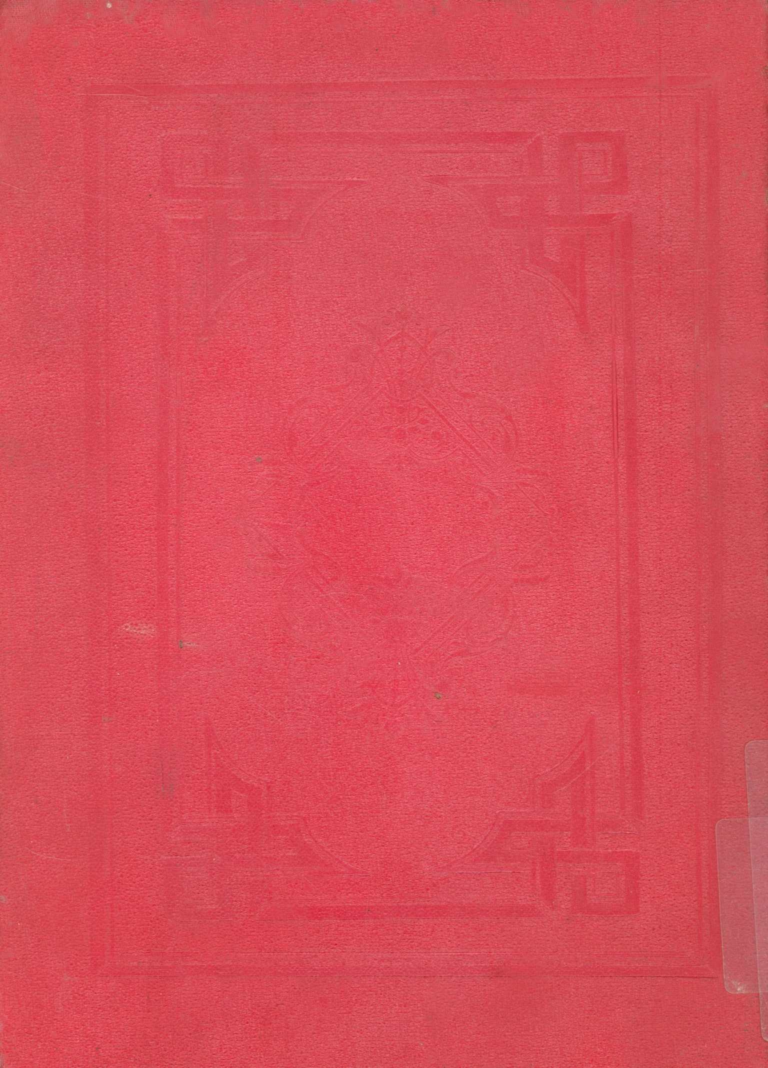


﴿فهرست الجزء الرابع وهو الربع الرابع من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى﴾

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت ﴾

الجزء الرابع

من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام
العالم العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي قدس الله روحه
ونور ضريحه
آمين

* وبهامشه باقي كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى
الامام السهروردي نفعنا الله بهم آمين *

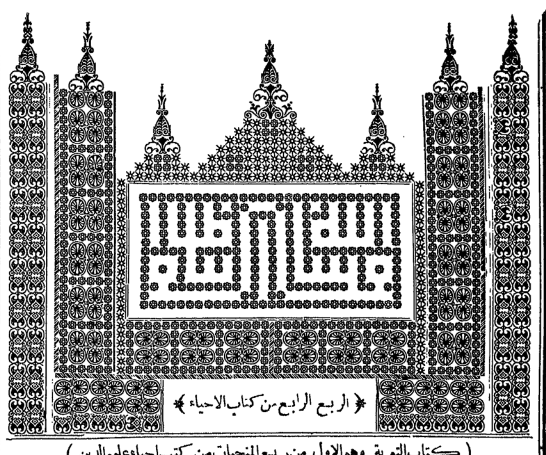
* ترجمة الامام السهروردي *

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم بن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه * كان فقيها شافعي المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف المعارف وله أشعار كثيرة في كلام القوم * مولده بسهرورد في أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفي في المحرم سنة ٦٣٢ ببغداد كذا في ابن خلكان وسهرورد بضم السين وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخره دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

* طبع *

* على نفقة حضرة الشيخ سيد موسى شريف الكتبي *
* وشريكه حضرة حسين أفندي شرف *

بالمطبعة العامرة الشرفية بمصر المحميه
سنة ١٣٢٦ هجريه



(كتاب التوبة وهو الاول من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب * و بذكره يصدر كل خطاب * وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب و باسمه يتسلى الاشقياء وان أرخى دونهم الحجاب * وضرب بينهم و بين السعداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ونتوب اليه توبة من يوقن انه رب الارباب ومسبب الاسباب * ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب * ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب * انه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب * ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب * وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب * (أما بعد) * فان التوبة عند الذنوب * بالرجوع الى ستار العيوب وعلام الغيوب * مبدأ طريق السالكين * ورأس مال الفائزين * وأول أقدام المريدين * ومفتاح استقامة المائلين * ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين * ولابينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء أجمعين * وما أجدر بالاولاد * الاقتداء بالآباء والاجداد * فلا غرو ان أذنب الآدمى واجترم * فهى شنشنة يعرفها من أخزم * ومن أشبه أباه فما ظلم * ولكن الاب اذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد ان هدم * فليكن النزوع اليه فى كلا طرفى النفى والاثبات والوجود والعدم * ولقد قرع آدم سن الندم * وتندم على ما سبق منه وتقدم فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم * بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين * والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين * والرجوع الى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين * فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان * والمتجرد للشر شيطان * والمتلافى للشر بالرجوع الى الخير بالحقيقة انسان * فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان * واصطحب فيه سجيتان * وكل عبد مصحح نسبه اما الى الملك أو الى آدم أو الى الشيطان * فالتائب قد أقام البرهان * على صحة نسبه الى آدم بملازمة حد الانسان * والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان * فاما تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير الى الملائكة فخارج عن حيز الامكان

﴿ الباب التاسع والاربعون فى استقبال النهار والادب فيه والعمل ﴾

قال الله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار أجمع المفسرون على ان أحد الطرفين أراد به الفجر وأمر بصلاة الفجر واختلفوا فى الطرف الآخر قال قوم أراد به المغرب وقال آخرون صلاة العشاء وقال قوم صلاة الفجر والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل صلاة العشاء ثم ان الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها وقال ان الحسنات يذهبن السيئات أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات (وروى) ان أبا اليسر كعب بن عمرو الانصارى كان يبيع التمر فأتت امرأة تبتاع تمرا فقال لها ان هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه

* فان الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه الا احدى النارين * نار الندم أو نار جهنم فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خبائث الشيطان واليك الآن اختيار أهون النارين * والمبادرة الى أخف الشرين * قبل أن يطوى بساط الاختيار * ويساق الى دار الاضطرار * اما الى الجنة واما الى النار * واذا كانت التوبة بموقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والادوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان (الركن الاول) في نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وانها واجبة على الفور وعلى جميع الاشخاص وفي جميع الاحوال وانها اذا صحت كانت مقبولة (الركن الثاني) فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها الى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الاسباب التي بها تعظم الصغائر (الركن الثالث) في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة (الركن الرابع) في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الاركان الاربعة ان شاء الله عز وجل

(الركن الاول) في نفس التوبة

* بيان حقيقة التوبة وحدها *

اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة علم وحال وفعل فالعلم الاول والحال الثاني والفعل الثالث والاول موجب للثاني والثاني موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت * أما العلم * فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الالم على القلب واستولى انبعث من هذا الالم في القلب حالة أخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال اما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسا وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه السلام الندم توبة اذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعني ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة انه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فان هذا يعرض لمجرد الالم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة انه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك الا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار الى المعنى الثالث من التوبة والاقاويل في حدود التوبة لا تنحصر واذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الامور أهم من طلب الالفاظ المجردة

* بيان وجوب التوبة وفضلها *

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالاخبار والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الايمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة فالسالك اما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه واما بصير يهدى الى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه

فهل لك فيه رغبة قالت نعم فذهب بها الى بيته فضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم ثم أتى النبي عليه السلام وقال يا رسول الله ما تقول في رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شيء مما يفعل الرجال بالنساء الا ركبه غير أنه لم يجامعها قال عمر بن الخطاب لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيأ وقال انتظر أمر ربي وحضرت صلاة العصر وصلى النبي عليه الصلاة والسلام العصر فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية فقال النبي عليه السلام أين أبو اليسر فقال ها أنا ذا يا رسول الله قال شهدت معنا هذه الصلاة قال نعم قال اذهب فانها كفارة لما عملت فقال عمر يا رسول الله هذا له خاصة أو لنا عامة فقال بل الناس عامة * فيستمد

وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر الى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير فسيره هذا وان طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى اشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الايمان وهو لشدة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج الى نص منقول في كل واقعة فمن هذا حاله اذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة الى التوبة ما هي ثم الى الوجوب ما معناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بان معنى الواجب ما هو واجب في الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك الابد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض فان ما لا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة الى سعادة الابد وعلم أن لا سعادة في دار البقاء الا في لقاء الله تعالى وان كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات والانس بهذا العالم الفاني والاكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للانس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي اعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في ان المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول الى المحبوب وهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به الى النجاة من الهلاك فليلاحظ قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا الآية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقال عليه السلام التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع الى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وفي بعض الالفاظ قال من شدة فرحه اذا أراد شكر الله أنا ربك وأنت عبدي ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي فأوحى الله اليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لاني قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب والاخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع منعقد من الامة على وجوبها اذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم ازالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الاحوال وذلك لا يشك في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلافي فكيف

العبد صلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا في أول الليل ثم يؤذن ان لم يكن أجاب المؤذن ثم يصلي ركعتي الفجر يقرأ في الاولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون وفي الثانية قل هو الله أحد وان أراد قرأ في الاولى قولوا آمنا بالله وما أنزل الآية في سورة البقرة وفي الاخرى ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد وان اقتصر على كلمة أستغفر الله لذنبي سبحان الله بحمد ربي أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار (ثم يقول) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ

لا يكرز واحيا بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله فان قلت
ثم ألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات
المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه
في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله والله خلقكم
وما تعملون هذا هو الحق عند ذوي الابصار وما سوى هذا ضلال فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك
قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا ان الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضا من خلق الله والعبد مضطر في الاختيار
الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب
بان هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة
وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بانه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الاسباب تنجزم الارادة
الباعثة على التناول فانجزام الارادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا
بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزام الارادة بخلق الله تعالى اياها تحركت اليد الصحيحة الى جهة
الطعام لا محالة اذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق
الله بعد حصول القدرة وانجزام الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزام الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم
بعدم الموانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله
تعالى في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة
وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق ارادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا
ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما ما لم يخلق علما بانه موافق للنفس اما في الحال أو في المآل ولا يخلق العلم أيضا الا
بأسباب أخر ترجع الى حركة وارادة وعلم فالعلم والميل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدا
تستردف الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فلذلك
يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا تخلق الارادة الا بعد العلم ولا يخلق العلم الا بعد الحياة ولا تخلق الحياة الا بعد
الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لا لان الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق
العلم لا لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم الا اذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم
الارادة لا لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة الا جسم حي عالم ولا يدخل في الوجود الا ممكن وللامكان
ترتيب لا يقبل التغيير لان تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف
من الجود الالهي والقدرة الازلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول
الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو
واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى انا كل
شيء خلقناه بقدر وعن القضاء الكلي الازلي العبارة بقوله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وأما العباد
فانهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة
في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما اليه ميله يسمى الادراك
والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الامور الاربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل
عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت
ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت اذ قتلت
ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل انه جبر محض
ومن قائل انه اختراع صرف ومن متوسط مائل الى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا الى عالم الغيب
والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا
الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من كوة نافذة الى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب

بها غائبي وترفع بها
شاهدي وتزكي بها
عملي وتبيض بها وجهي
وتلقني بها رشدي
وتعصمني بها من كل
سوء اللهم أعطني ايمانا
صادقا ويقينا ليس بعده
كفر ورحمة أنال بها
شرف كرامتك في
الدنيا والآخرة اللهم
اني أسألك الفوز عند
القضاء ومنازل الشهداء
وعيش السعداء
والنصر على الاعداء
ومرافقة الانبياء اللهم
اني أنزل بك حاجتي
وان قصر رأيي
وضعف عملي وافتقرت
الى رحمتك وأسألك
يا قاضي الامور
ويا شافي الصدور كما
تجير بين البحور أن
تجيرني من عذاب
السعير ومن دعوة
الثبور ومن فتنة
القبور اللهم ما قصر
عنه رأيي وضعف فيه
عملي ولم تبلغه نيتي
وأمنيتي من خير وعدته
أحدا من عبادك أو
خير أنت معطيه أحدا
من خلقك فأنا راغب
اليك فيه وأسألك اياه
يا رب العالمين اللهم

والشهادة لايظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق الا الله ولا مبدع سواه فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن ايصال ذلك الى الافهام بمثال فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل الى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل ان الفيل ما هو الا مثل اسطوانة خشنة الظاهر الا أنه ألين منها وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الاذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال ما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه اذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه وان كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع الى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وان الندم داخل في الوجوب لكونه واقعا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وارادته وقدرته المتخللة بينهما وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

﴿ بيان أن وجوب التوبة على الفور ﴾

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه اذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والمتفصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقطع التفصي عن عهدته ما لم يصر باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه السلام لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وما أراد به نفي الايمان الذي يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي وانما أراد به نفي الايمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلا فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها اماطة الاذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالايمان كالانسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذي ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة هو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا أصل الايمان وهو مقصر في الاعمال قريب من أن تقتلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل ايمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما سقي بالطاعات على توالي الايام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للطيع اني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة

اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين حربا لاعدائك وسلما لاوليائك نحب بحبك الناس ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء مني ومنك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان انا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ذي الحبل الشديد والامر الرشيد أسألك الامن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود انك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان من تعطف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد وتكرم به سبحان الذي لا ينبغي التسبيح الا له سبحان ذي الفضل والنعم سبحان ذي الجود والكرم سبحان الذي أحصى كل شئ بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في سمعي ونورا في بصري

وما أحسن جواب شجرة الصنوبر اذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجر مع الغفلة عن أسباب ثبوت الاشجار وسوف ترى اذا انجلى الغبار * أفرس تحتك أم حمار وهذا أمر يظهر عند الخاتمة وانما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها الا الاقلون فالعاصي اذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة اذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وان الموت غالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم اذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم اذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار فالمعاصي للايمان كالمأكولات المضرة للابدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصي فاذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم ومايضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الابد أولى بأن يجب عليه ذلك واذا كان متناول السم اذا ندم يجب عليه ان يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه الا هذه الدنيا الفانية فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فان المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته اذ ليس لمدته آخر ألبتة فالبدار البدار الى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الامر فيه الاطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولا يغرنك لفظ الايمان فتقول المراد بالآية الكافر اذ بين لك ان الايمان بضع وسبعون بابا وان الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي حروف وفروع سيساق الى الموت المعدم للروح التي هي أصل فلا بقاء للاصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الاصل ولا فرق بين الاصل والفرع الا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الاصل وأما وجود الاصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والاصل فلا يستغني أحدهما عن الآخر وان كان أحدهما في رتبة الاصل والآخر في رتبة التابع وعلوم المعاملة اذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فان هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردناه من الاخبار في كتاب العلم

* بيان أن وجوب التوبة عام في الاشخاص والاحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة *

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون فعمم الخطاب ونور البصيرة أيضا يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان ولا يتصور ذلك الا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان الى اغواء الانسان اذ كمال العقل انما يكون عند مقارنة الاربعين وأصله انما يتم عند مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة اذ لا يثبت أحدهما للآخر لانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة واذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ

ونورا في شعري ونورا في بشري ونورا في لحمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا ولهذا الدعاء أثر كبير وما رأيت أحدا حافظ عليه الا وعنده خير ظاهر وبركة وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والمحافظة عليه منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ثم يقصد المسجد للصلاة في الجماعة ويقول عند خروجه من منزله وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ويقول في الطريق اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا اليك لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت

أوليائه من أيدى أعدائه شيأ فشيأ على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعوده حيث قال لاحتنكن ذريته الا قليلا وان كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ولا معنى للتوبة الا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان الى طريق الله تعالى وليس فى الوجود آدمى الا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة فكان الرجوع عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل انسان نبيا كان أو غبيا فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها * سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التى لا مطمع فى تبديلها فاذا كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما تبعا لابويه غافلا عن حقيقة اسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغنى عنه اسلام أبويه شيأ ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله فى المنع والاطلاق والانفكاك والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الاكثرون اذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا وأما بيان وجوبها على الدوام وفى كل حال فهو ان كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبياء كما ورد فى القرآن والاخبار من خطايا الانبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا فى بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا فى بعض الاحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن طريق الى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص وانما يتفاوتون فى المقادير فأما الاصل فلا بد منه ولهذا قال عليه السلام انه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره فان قلت لا يخفى ان ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص وان الكمال فى الخلو عنه وان القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وانه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وان الانتقال الى الكمال من أسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة فى كل حال والتوبة عن هذه الامور ليست بواجبة اذ ادراك الكمال غير واجب فى الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة فى كل حال فاعلم انه قد سبق أن الانسان لا يخلو فى مبدا خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل بل لا بد من محو تلك الارين التى انطبعت فى القلب كما لا يكفى فى ظهور الصور فى المرآة قطع الانفاس والبخارات المسودة لوجهها فى المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الارين وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام أتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا لا يستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات هذا فى قلب حصل أولا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم باسباب عارضة فاما التصقيل الاول ففيه يطول الصقل اذ ليس شغل الصقل فى ازالة الصدا عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة فهذه أشغال طويلة

اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى انه لا يغفر الذنوب الا أنت (وروى) أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال ذلك اذا خرج الى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته واذا دخل المسجد أو دخل سجادته للصلاة يقول بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ويقدم رجله اليمنى فى الدخول واليسرى فى الخروج من المسجد أو السجادة فسجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة فاذا سلم يقول لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو

لاتنقطع أصلا وكل ذلك يرجع الى التوبة فاما قولك ان هذا لايسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال فاعلم أن الواجب له معنيان أحدهما مايدخل فى فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدى ذلك الى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج اليه فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثانى هو الذى لابد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع أى لمن يريدها فانه لايتوصل اليها الا بها فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لاجلها كما يقال العين والاذن واليد والرجل شرط فى وجود الانسان يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون انسانا كاملا ينتفع بانسانيته ويتوصل بها الى درجات العلا فى الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لايوصل الا الى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وماوراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الاعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة وفيه سعى الانبياء والاولياء والعلماء والامثل فالامثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولاجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام الى أن توسد حجرا فى منامه فجاء اليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذى حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا فلم لاتضع رأسك على الارض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الارض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الارض لايسمى واجبا فى فتاوى العامة أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه وشغله شراك نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلق لم يعلم أن ذلك ليس واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده فاذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك الا لانه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به أفترى ان الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ماعلم من الفقه هذا القدر وهو ان ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولايجب فى فتوى الفقه اخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب امكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك الا لسر وقر فى صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وان خطر طريق الآخرة لايعرفه الا الصديقون فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله واياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا واياك ثم اياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور فهذه أسرار من استنشق مبادى روائحها علم ان لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى فى كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وان ذلك واجب على الفور من غير مهلة ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره الا على تفويت مامضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل مابقى من عمره بمثل مامضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لاخلف لها ولابدل منها فانها صالحة لان توصلك الى سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد وأى جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وان صرفتها الى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشا فان كنت لاتبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لايعرف المصاب بها انه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس عن التدارك قال بعض العارفين ان ملك الموت عليه السلام اذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة وانك

حى لايموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده لا اله الا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ويقرأ قل هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما الى آخرها فاذا فرغ منها يقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الامى وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ما هو أهله واجزه عنا أفضل ما جازيت نبيا عن أمته وصل على جميع اخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اللهم صل على محمد فى الاولين وصل على محمد فى الآخرين وصل على محمد الى يوم الدين اللهم

لا تستأخر عنها طرفة عين فيه وللعبد من الاسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم الى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا وهو أول مايظهر من معانى قوله تعالى وحيل بينهم وبين مايشتهون واليه الاشارة بقوله تعالى من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها فقيل الاجل القريب الذى يطلبه معناه انه يقول عند كشف الغطاء للعبد ياملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه الى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى فيقول فنيت الايام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى شراسيفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل ايمانه فى صدمات تلك الاحوال فاذا زهقت نفسه فان كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وان سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا يقول وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن وقوله انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها ولذلك قال لقمان لابنه يابنى لاتؤخر التوبة فان الموت يأتى بغتة ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو والثانى ان يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد فى الخبر ان أكثر صياح أهل النار من التسويف فما هلك من هلك الا بالتسويف فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة الى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم ولا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان فى الامانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر قال بعض العارفين ان لله تعالى الى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الالهام أحدهما اذا خرج من بطن أمه يقول له عبدى قد أخرجتك الى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر الى كيف تلقانى والثانى عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فالقاك على الوفاء أو أضعتها فالقاك بالمطالبة والعقاب واليه الاشارة بقوله تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم وبقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون

﴿ بيان التوبة اذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لامحالة ﴾

اعلم انك اذا فهمت معنى القبول لم تشك فى ان كل توبة صحيحة فهى مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا ان كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ومستعد لان ينظر بعينه الباقية الى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليما فى الاصل وكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وانه لاطاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لاطاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون وكما أن الثوب الوسخ لايقبله الملك لان يكون لباسه فالقلب المظلم لايقبله الله تعالى لان يكون فى جواره وكما ان استعمال الثوب فى الاعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الازلى الذى لامرد له وهو المسمى فلاحا فى قوله قد أفلح من زكاها ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا يستعار لاحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لايتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين الا قشوره ولم يعلق به الا أسماؤه وقلبه

صل على روح محمد فى الارواح وصل على جسد محمد فى الاجساد واجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام اللهم انى أصبحت لاأستطيع دفع ما أكره ولاأملك نفع ماأرجو وأصبح الامر بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى فلافقير أفقر منى اللهم لاتشمت بى عدوى ولاتسىء بى صديقى ولاتجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولاتسلط على من لا يرحمنى اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها وما

فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه اذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه فمن يتوهم أن التوبة لا تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تترا كم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والاخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وقال تعالى غافر الذنب وقابل التوب الى غير ذلك من الآيات وقال صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة أحدكم الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القلوب وزيادة وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل الى النهار ولمسىء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم وقال أيضا ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم كفارة الذنب الندامة وقال صلى الله عليه وسلم التائب من الذنب كمن لا ذنب له ويروى أن حبشيا قال يا رسول الله انى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله أكان يرانى وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه ويروى أن الله عز وجل لما لعن ابليس سأله النظرة فانظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لاحجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه وقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ والاخبار فى هذا لا تحصى (وأما الآثار) فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى انه كان للاوابين غفورا فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الفضيل قال الله تعالى بشر المذنبين بأنهم ان تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين انى ان وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب ان حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين وقال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه فى أم الكتاب ويروى ان نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى اليه وعزتى لئن عدت لاعذبنك فقال يا رب أنت أنت وأنا أنا وعزتك ان لم تعصمنى لاعودن فعصمه الله تعالى وقال ان العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ليتنى لم أوقعه فى الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما انى قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له ويروى ان رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فاعرض عنه ابن مسعود ثم التفت اليه فرأى عينيه تذرفان فقال له ان للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق الا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فقال انى لارجو ان يكون المسلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغنى أن توبة المسلم كاسلام بعد اسلام وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم الا عن نبى مرسل أو كتاب منزل ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين وقال عمر رضى الله عنه اجلسوا الى التوابين فانهم أرق أفئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لى قيل ومتى قال اذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة ويروى أنه كان فى بنى اسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك فقال الهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك أتقبلنى فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك

عملت فيه من سيئة فاغفر لى انك غفور رحيم ودود رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا اللهم انى أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ومن بغتات الامور وفجآت الاقدار ومن شر كل طارق يطرق الا طارقا يطرق منك بخير يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وأعوذ بك ان أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك وعظمت نعماؤك أعوذ بك من شر ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها أعوذ بك من حسدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة اللهم انى أعوذ بك من

وعصيتنا فأمهلتك وإن رجعت الينا قبلناك وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى ان لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عي ولا بكم وانهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكاس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرؤا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة فان قلت أفتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله فأقول لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله الا ما يريده القائل بقوله ان الثوب اذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وان العطشان اذا شرب الماء وجب زوال العطش وانه اذا منع الماء مدة وجب العطش وانه اذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالايجاب على الله تعالى بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلا للعطش والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به ارادته الازلية فواجب كونه لا محالة فان قلت فما من تائب الا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه فأقول شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في أنه هل يسهل وذلك لشكه في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها ان شاء الله تعالى

﴿ الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها ﴾

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء الا بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل اليها الا به واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لامر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولها الى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها وروابط أقسامها والله الموفق للصواب برحمته

(بيان أقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد)

اعلم أن للانسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لان طينة الانسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط في المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين آثارا مختلفة * فأما ما يقتضي النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الاعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي كالامهات لاكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات * الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة الى البدع والضلال * الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الايتام وجمع الحطام لاجل الشهوات * الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الاموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم اذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب

مباهاة المكثرين والازراء على المقلين وان أنصر ظالما أو أخذل مظلوما وأن أقول في العلم بغير علم أو أعمل في الدين بغير يقين أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك اللهم أنت ربي لا اله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وابن عبدك وعلى عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي أنه لا يغفر الذنوب الا أنت اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان

الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة الى بيان تفصيل ذلك فانه واضح ﴿ قسمة ثانية ﴾ اعلم أن الذنوب تنقسم الى ما بين العبد وبين الله تعالى والى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الاموال وشتمه الاعراض وكل متناول من حق الغير فامانفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالاغواء والدعاء الى البدعة والترغيب فى المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالامر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء فى الخبر الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذى يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذى لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذى لا يترك فظالم العباد أى لابد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها ﴿ قسمة ثالثة ﴾ اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة وهذا ضعيف اذ قال تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيا ٓتكم وندخلكم مدخلا كريما وقال تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة يكفرن ما بينهن ان اجتنبت الكبائر وفى لفظ آخر كفارات لما بينهن الا الكبائر وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر من أربع الى سبع الى تسع الى احدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس اذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن الى سبعين أقرب منها الى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة وقيل انها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة وقال ابن مسعود لما سئل عنها اقرأ من أول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة الى هنا فهو كبيرة وقال أبو طالب المكى الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة فى القلب وهى الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره * وأربع فى اللسان وهى شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هى التى يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواكا من أراك وسميت غموسا لانها تغمس صاحبها فى النار والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الاجسام عن موضوعات الخلقة وثلاث فى البطن وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم * واثنتان فى الفرج وهما الزنا واللواط * واثنتان فى اليدين وهما القتل والسرقة * وواحدة فى الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة فى جميع الجسد وهو عقوق الوالدين قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما وان سألاه حاجة فلا يعطيهما وان يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء اذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهى جناية على الاموال ولم يذكر فى كبائر النفوس الا القتل فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لاشك فى أنه أكبر من أكل ماله كيف وفى الخبر من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم وهذا زائد على قذف المحصن وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة انكم لتعملون أعمالا هى

لله والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين اللهم انا نسألك بأن لك الحمد لا اله الا أنت الحنان المنان بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام أنت الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ياحى ياقيوم ياحى حين لا حى فى ديمومة ملكه وبقائه ياحى محيى الموتى ياحى مميت الاحياء ووارث الارض والسماء اللهم انى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم اللهم انى أسألك باسمك الاعظم الاجل الاعز الاكرم الذى اذا دعيت به أجبت واذا سئلت به أعطيت

أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقالت طائفة كل عمد
كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا ان نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا لا يصح ما لم
يفهم معنى الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا لا مطمع في تعريفه الا بعد تقرير معنى الحرام
أولا ثم البحث عن وجوده في السرقة فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع
وذلك لان الكبير والصغير من المضافات وما من ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى ما دونه وصغير بالاضافة الى
ما فوقه فالمضاجعة مع الاجنبية كبيرة بالاضافة الى النظرة صغيرة بالاضافة الى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة
الى ضربه صغيرة بالاضافة الى قتله نعم للانسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ونعني
بوصفه بالكبيرة ان العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيرا الى أن ما عجل عليه في
الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول تخصيصه بالذكر في
القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالاضافة اذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها
فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من
هذه الاحتمالات نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم
وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات كفارات لما بينهن الا الكبائر فان هذا اثبات حكم الكبائر
والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع الى ما يعلم استعظامه اياها والى ما يعلم انها معدودة في الصغائر
والى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن
الا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول اني أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها فان لم يرد
هذا بل ورد في بعض الالفاظ ثلاث من الكبائر وفي بعضها سبع من الكبائر ثم ورد ان السبتين بالسبة الواحدة
من الكبائر وهو خارج عن السبع والثلاث علم انه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعده
الشرع وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها
نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب
ونعرف أيضا أكبر الكبائر فأما أصغر الصغائر فلا سبيل الى معرفته وبيانه انا نعلم بشواهد الشرع وأنوار
البصائر جميعا ان مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق الى جوار الله تعالى وسعادة لقائه وأنه لا وصول لهم الى ذلك
الا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله واليه الاشارة بقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
أي ليكونوا عبيدا لي ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه
وربه فهذا هو المقصود الاقصى ببعثة الانبياء ولكن لا يتم هذا الا في الحياة الدنيا وهو المعنى بقوله عليه السلام
الدنيا مزرعة الآخرة فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لانه وسيلة اليه والمتعلق من الدنيا بالآخرة
شيآن النفوس والاموال فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسد باب حياة النفوس
ويليه ما يسد باب المعايش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على
الابدان والاموال على الاشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها
الملل فلا يجوز ان الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه اصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن
معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم باهلاك النفوس واهلاك الاموال فحصل من هذا ان الكبائر على ثلاث
مراتب * الاولى ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر اذ الحجاب بين الله
وبين العبد هو الجهل والوسيلة المقربة له اليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلو
الجهل الذي يسمى كفرا الامن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا أيضا عين الجهل فمن عرف الله لم يتصور
أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من
بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره
ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم الى ما يعلم انها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن
والى ما يعلم أنه لا يدخل والى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع * المرتبة

الثانية

يا نور النور يا مدبر الامور يا عالم ما في الصدور يا سميع يا قريب يا مجيب الدعاء يا لطيفا لما يشاء يا رؤف يا رحيم يا كبير يا عظيم يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والاكرام الم الله لا اله الا هو الحي القيوم وعنت الوجوه للحي القيوم يا الهي واله كل شيء الها واحدا لا اله الا أنت اللهم اني أسألك باسمك يا الله الله الله الله الله الذي لا اله الا هو رب العرش العظيم فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم أنت الاول والآخر والظاهر والباطن وسعت كل شيء رحمة وعلما كهيعص حم عسق الرحمن يا واحد يا قهار يا عزيز يا جبار يا أحد يا صمد يا ودود يا غفور هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين اللهم اني

الثانية النفوس اذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله فقتل النفس لا محالة من الكبائر وان كان
دون الكفر لان ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود اذ حياة الدنيا لا تراد الا للآخرة والتوصل
اليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضي الى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر
من بعض ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات
انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الانساب
ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التي لا ينتظم العيش الا بها بل كيف يتم النظام مع اباحة الزنا ولا ينتظم
أمر البهائم ما لم يتميز الفحل منها باناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا في
أصل شرع قصد به الاصلاح وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل لانه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله
ولكنه يفوت تمييز الانساب ويحرك من الاسباب ما يكاد يفضي الى التقاتل وينبغي أن يكون أشد من اللواط لان
الشهوة داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته * المرتبة الثالثة الاموال فانها معايش
الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاؤا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغي أن تحفظ لتبقى
ببقائها النفوس الا أن الاموال اذا أخذت أمكن استردادها وان أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الامر فيها
نعم اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق أحدها
الخفية وهي السرقة فانه اذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك الثاني أكل مال اليتيم وهذا أيضا من الخفيات وأعني
به في حق الولي والقيم فانه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب
بخلاف الغصب فانه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة في الوديعة فان المودع خصم فيه ينتصف لنفسه الثالث
تفويتها بشهادة الزور الرابع أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طرق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز
أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس وهذه
الاربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وان لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم
في مصالح الدنيا تأثيرها وأما أكل الربا فليس فيه الا أكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا
يبعد أن تختلف الشرائع في مثله واذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من
الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وان عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا
الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير الى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع
في مظنة الشك وأكثر ميل الظن الى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف
الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من
الزحف وعقوق الوالدين * أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بان يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات
الشرع وطريق النظر أيضا لان العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة بل لا خير في النفس دون العقل فازالة العقل
من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة
وانما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وايجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيعد ذلك
من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فان ثبت اجماع في أنه كبيرة وجب
الاتباع والا فللتوقف فيه مجال * وأما القذف فليس فيه الا تناول الاعراض والاعراض دون الاموال في الرتبة
ولتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالاضافة الى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن
الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريده
بالكبيرة الآن ولكن من حيث انه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل
كان يجوز أن يرد الشرع بان العدل الواحد اذا رأى انسانا يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد
شهادته فان لم تقبل شهادته فحده فليس ضروريا في مصالح الدنيا وان كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة
في رتبة الحاجات فاذا هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فاما من ظن أن له أن يشهد وحده

أعوذ باسمك المكنون
المخزون المنزل السلام
الطهر الطاهر القدوس
المقدس يا دهر يا
ديهور يا ديهار يا أبد
يا أزل يا من لم يزل ولا
يزال ولا يزول هو
يا هو لا اله الا هو يا من
لا هو الا هو يا من لا يعلم
ما هو الا هو يا كان يا
كينان يا روح يا كائن
قبل كل كون يا كائن
بعد كل كون يا مكونا
لكل كون أهيا أشراهيا
أدوناي أصبؤت يا
مجلي عظائم الامور
فان تولوا فقل حسبي
الله لا اله الا هو عليه
توكلت وهو رب العرش
العظيم ليس كمثله
شيء وهو السميع
البصير اللهم صل على
محمد وعلى آل محمد كما
صليت على ابراهيم
وآل ابراهيم وبارك
على محمد وعلى آل محمد
كما باركت على ابراهيم
وآل ابراهيم انك حميد
مجيد اللهم اني أعوذ
بك من علم لا ينفع
وقلب لا يخشع ودعاء
لا يسمع اللهم اني أعوذ

أوظن أنه ساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر * وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة والافعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف واذا قطع بان سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بغصب أموالهم واخراجهم من مساكنهم وبلادهم واجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر اذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر فاذا رجع حاصل الامر الى أنا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم الى ما علم أنه لا تكفره قطعا والى ما ينبغي أن تكفره والى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله الا نص كتاب أو سنة واذا لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال فان قلت فهذا اقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق اليه الابهام لان دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث انها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما وانما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة والابهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ولكن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس فان مجاهدته نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا أو لم يكن امتناعه الا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والاوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت اليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها الا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الى الصلاة كفارة ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلاث اشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل ما ترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وأمثاله من الالفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهما فان قلت الشهادة لا تقبل الا من مجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد الى أن هذه الامور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه اذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفيا واثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح في العدالة الا ما لا يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الاقوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على حد المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الاهل والولد جميع ما يحتاجون اليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها الا بأن يعتزل الناس ويتجرد لامور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل الا قول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات ولبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فالى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا الى الكبيرة

والصغيرة

بك من فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات اللهم انى أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلبي اللهم انى أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الاخلاق وضيق الارزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الاسقام اللهم انى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك اللهم انى أسألك الصلاة على محمد وعلى آله وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب اليها من قول

والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لاثر فى رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وسلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما ان المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر

﴿ بيان كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيآت فى الدنيا ﴾

اعلم ان الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فانا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك الا بضرب الامثال ولذلك قال تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وهذا لان عالم الملك نوم بالاضافة الى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وما سيكون فى اليقظة لا يتبين لك فى النوم الا بضرب الامثال المحوجة الى التعبير فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لا يتبين فى نوم الدنيا الا فى كثرة الامثال وأعنى بكثرة الامثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه ان كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل الى ابن سيرين فقال رأيت كان فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال انك مؤذن تؤذن فى رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون فقال ان كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فانها أمك سبيت فى صغرك لان الزيتون أصل الزيت فهو يرد الى الاصل فنظر فاذا جاريته كانت أمه وقد سبيت فى صغره وقال له آخر رأيت كانى أقلد الدر فى أعناق الخنازير فقال انك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله الى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الامثال وانما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة ان نظر الى معناه وجده صادقا وان نظر الى صورته وجده كاذبا فالمؤذن ان نظر الى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فانه لم يختم به قط وان نظر الى معناه وجده صادقا اذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذى يراد الختم له وليس للانبياء ان يتكلموا مع الخلق الا بضرب الامثال لانهم كلفوا ان يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم انهم فى النوم والنائم لا يكشف له عن شئ الا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا ان المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وهو من المثال الذى لا يعقله الا العالمون فاما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الامثلة فى النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعا تعالى الله عن قوله علوا كبيرا وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته فانه لا يفهم من الصورة الا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله من قوله علوا كبيرا ومن ههنا زل من زل فى صفات الهية حتى فى الكلام وجعلوه صوتا وحرفا الى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الاحمق ويكذب ويستدل به على كذب الانبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا الا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال وما يعقلها الا العالمون ولا يدرى المسكين أن من قال رأيت فى منامى أنه جئ بكبش وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد وذبح فقال المعبر صدقت والامر كما رأيت وهذا يدل على ان هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لان المذبوح وقع اليأس منه فاذن المعبر صادق فى تصديقه وهو صادق فى رؤيته وترجع حقيقة ذلك الى أن الموكل بالرؤيا وهو الذى يطلع الارواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لان النائم انما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا انما يكلمون الناس فى الدنيا وهى بالاضافة الى الآخرة نوم فيوصلون المعانى الى أفهامهم بالامثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن ادراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل الى الافهام حصول

وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل وأسألك ما سألك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لى من أمر ان تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى الى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله يا نور السموات والارض يا جمال السموات والارض يا عماد السموات والارض يا بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام يا صريخ المستصرخين يا غوث المستغيثين يا منتهى رغبة الراغبين والمفرج عن المكروبين والمروح عن المغمومين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين واله العالمين منزل بك كل حاجة يا أرحم

اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالامثلة وثبوت المعانى فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن عن سرعة التقليب وقد أشرنا الى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات فلنرجع الآن الى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيآت لا يمكن الا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته فنقول الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة الدنيا فى هذا المعنى أصلا ألبتة فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن ارادته الازلية مطردة لا تبديل لها الا أنا ان عجزنا عن احصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن احصاء الاجناس فنقول الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة الى أربعة أقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على اقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلى بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق فلا يقتل الا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له فى أصل الدولة ولا يعذب الا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلى الا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع الا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة واهلاك الهالكين اما تحقيقا بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم فى المعاندة وتعذيب المعذبين فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل فى دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون الى من يحلون فى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون الى من يعذب قليلا والى من يعذب ألف سنة الى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد فى الخبر وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى فلنذكر كيفية توزعها عليها ﴿ الرتبة الاولى ﴾ وهى رتبة الهالكين ونعنى بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى اذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه آيس من رضا الملك واكرامه فلا تغفل عن معانى المثال وهذه الدرجة لا تكون الا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه فان السعادة الاخروية فى القرب من الله والنظر الى وجهه وذلك لا ينال أصلا الا بالمعرفة التى يعبر عنها بالايمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا مع نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وانما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كان يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب الا ذاته فقط فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها اذ نار الفراق اذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للاجسام فان نار الفراق نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة ونار جهنم لا شغل لها الا مع الاجسام وألم الاجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل

وفى فؤاد المحب نار جوى * أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة اذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا فقد رؤى من غلب عليه الوجد فعدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما فى قلبه وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها فى الحال لان الغضب نار فى القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب قطعة من النار واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الاجساد والاشد يبطل الاحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف الا من حيث انه يفرق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الاجسام فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد احكاما من تأليف

الراحمين اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقلنى عثراتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن اغتال من تحتى اللهم انى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى وخذ الى الخير بناصيتى واجعل الاسلام منتهى رضاى اللهم انى ضعيف فقونى اللهم انى ذليل فاعزنى اللهم انى فقير فاغننى برحمتك يا أرحم الراحمين اللهم انك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى الا ما كتبت لى والرضا بما قسمت لى يا ذا الجلال والاكرام اللهم يا هادى المضلين ويا راحم المذنبين ومقيل عثرة العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم

الاجسام فهو أشد ايلاما ان كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة
هذا الالم و يستحقره بالاضافة الى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان وبين ألم
الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان
مع الصولجان أحب الى من السرير للسلطان مع الجلوس عليه بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة
والحلواء و بين فعل جميل يقهر به الاعداء و يفرح به الاصدقاء لآثر الهريسة والحلواء وهذا كله لفقد المعنى
الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا و وجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن استرقته صفات
البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها الا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها الا البعد
والحجاب وكما لا يكون الذوق الا في اللسان والسمع الا في الاذان فلا تكون هذه الصفة الا في القلب فمن لا قلب له
ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الالحان وحسن الصور والالوان وليس لكل انسان قلب
ولو كان لما صح قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب
ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الامر وهو اللحم الذي هو
من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر الاعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والامر جميعا ولكن ذلك السر
الذي قال الله تعالى فيه قل الروح من أمر ربي هو الامير والملك لان بين عالم الامر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الامر
أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي اذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف
نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادي روائح المعنى المطوي تحت قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق
آدم على صورته وينظر بعين الرحمة الى الحاملين له على ظاهر لفظه والى المتعسفين في طريق تأويله وان كانت
رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل لان الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر
وان اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الامر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي
حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولنعد الى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا
النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس الا للجهال
المكذبين وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها

﴿ الرتبة الثانية ﴾ رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الايمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس
الايمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد الا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ الهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل
معنى قولك لا اله الا الله معنى قوله تعالى قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهو أن تذر بالكلية غير الله ومعنى
قوله تعالى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد الا بالاستقامة عليه
أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة
ولو في أمر يسير اذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط
المستقيم فذلك يقتضي لا محالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت
بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ولكن
شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة انما يكون بسبب أمرين أحدهما قوة الايمان وضعفه والثاني
كثرة اتباع الهوى وقلته واذ لا يخلو بشر في غالب الامر عن واحد من الامرين قال الله تعالى وان منكم الا واردها
كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ولذلك قال الخائفون من السلف انما
خوفنا لانا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار
بعد ألف عام وأنه ينادي ياحنان يامنان قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل واعلم ان في الاخبار ما يدل على أن
آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة و بين سبعة آلاف سنة حتى
قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث و بين اللحظة و بين سبعة آلاف سنة درجات
متفاوتة من اليوم والاسبوع والشهر وسائر المدد وان الاختلاف بالشدة لا نهاية لاعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة

أجمعين واجعلنا مع
الاحياء المرزوقين
الذين أنعمت عليهم من
النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين
آمين يارب العالمين
اللهم عالم الخفيات
رفيع الدرجات تلقي
الروح بأمرك على
من تشاء من عبادك
غافر الذنب وقابل التوب
شديد العقاب ذا الطول
لا اله الا هو أنت الوكيل
واليك المصير يامن
لا يشغله شأن عن شأن
ولا يشغله سمع عن
سمع ولا تشتبه عليه
الاصوات ويامن
لا تغلطه المسائل ولا
تختلف عليه اللغات
ويامن لا يتبرم بالحاح
الملحين أذقني برد عفوك
وحلاوة رحمتك اللهم
اني أسألك قلبا سليما
ولسانا صادقا وعملا
متقبلا أسألك من خير
ما تعلم وأعوذ بك من
شر ما تعلم وأستغفرك
لما تعلم ولا أعلم وأنت
علام الغيوب اللهم اني
أسألك ايمانا لا يرتد

في الحساب كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الاعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط
وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق الى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف
الانواع اذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب
الاقارب والضرب وقطع اللسان واليد والانف والاذن وغيره فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل
عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الايمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها اما
شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها واما كثرته فبكثرتها واما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات
وقد انكشف هذا لارباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الايمان وهو المعنى بقوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد
وبقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وبقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وبقوله تعالى فمن
يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون
العقاب والثواب جزاء على الاعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح اذ قال تعالى فيما
أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم سبقت رحمتي غضبي وقال تعالى وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا
عظيما فاذا هذه الامور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع
ونور المعرفة فاما التفصيل فلا يعرف الا ظنا ومستنده ظواهر الاخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار
بعين الاعتبار فنقول كل من أحكم أصل الايمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض أعني الاركان
الخمسة ولم يكن منه الا صغائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فانه اذا حوسب
رجحت حسناته على سيئاته اذ ورد في الاخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن
وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير ان يدفع العذاب ان لم يدفع
الحساب وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من
الحساب في عيشة راضية نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الاعلى
فكذلك يتبع أصناف الايمان لان الايمان ايمانان تقليدي كايمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرون
عليه وايمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن
الكل الى الله مرجعه ومصيره اذ ليس في الوجود الا الله تعالى وصفاته وأفعاله فهذا الصنف هم المقربون النازلون
في الفردوس الاعلى وهم على غاية القرب من الملا الاعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم
وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر اذ الاحاطة بكنه
جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وانما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم
من الله تعالى في الازل فالطريق الى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم وأما المؤمن
ايمانا تقليديا فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين وهم أيضا على درجات فالاعلى من درجات
أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الادنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض
كلها أعني الاركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج فأما من
ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الاجل التحق بمن لم
يرتكب لان التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلا وان مات قبل التوبة
فهذا أمر مخطر عند الموت اذ ربما يكون موته على الاصرار سببا لتزلزل ايمانه فيختم له بسوء الخاتمة لا سيما اذا
كان ايمانه تقليديا فان التقليد وان كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن
يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما ان ماتا على الايمان يعذبان الا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة
في الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح
الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب
ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ففي الخبر آخر من يخرج
من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لاطراف

الاجسام

ونعيما لا ينفد وقرة عين
الابد ومرافقة نبيك
محمد وأسألك حبك
وحب من أحبك وحب
عمل يقرب الى حبك
اللهم بعلمك الغيب
وقدرتك على خلقك
أحيني ما كانت الحياة
خيرا لي وتوفني ما كانت
الوفاة خيرا لي أسألك
خشيتك في الغيب
والشهادة وكلمة العدل
في الرضا والغضب
والقصد في الغنى والفقر
ولذة النظر الى وجهك
والشوق الى لقائك
وأعوذ بك من ضراء
مضرة وفتنة مضلة
اللهم اقسم لي من
خشيتك ما تحول به
بيني وبين معصيتك
ومن طاعتك ما يدخلني
جنتك ومن اليقين
ما تهون به علينا مصائب
الدنيا اللهم ارزقنا حزن
خوف الوعيد وسرور
رجاء الموعود حتى
نجد لذة ما نطلب وخوف
ما منه نهرب اللهم
ألبس وجوهنا منك
الحياء واملأ قلوبنا
بك فرحا وأسكن

الاجسام كان يقابل فى فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فان هذا جهل بطريق ضرب الامثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار فان لم يفهم من المثل الا المثل فى الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان والجمل فى الكفة الاخرى عشر عشيره بل هو موازنة معانى الاجسام وارواحها دون أشخاصها وهيا كلها فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه الا الجوهريون فان روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبى بل القروى والبدوى ويقول ماهذه الجوهرة الاحجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب فى قوله انى أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبى ولكن لا سبيل الى تحقيق ذلك عنده الا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وان يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الاموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة اذ يقول صلى الله عليه وسلم الجنة فى السموات كما ورد فى الاخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوى وكما أن الجوهرى مرحوم اذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم اذا بلى بالبليد الابله فى تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل والانبياء مرحومون بين الامة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الامة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الازلى وهو المعنى بقوله عليه السلام البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذى ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم اذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه الى الله الا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر فاذا لا يخلو الانبياء عن الابتلاء بالجاحدين ولا تخلو الاولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلما ينفك الاولياء عن ضروب من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم الى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه السلام انه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات واياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فيكون حمارا برجلين لان الحمار يشاركك فى الحواس الخمس وانما أنت مفارق للحمار بسر الهى عرض على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنه وأشفقن منه فادراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف الا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم فن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالاعراض عنها فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف الا المدرك بالحواس فقد نسى الله اذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسى الله أنساه الله لا محالة نفسه ونزل الى رتبة البهائم وترك الترقى الى الافق الاعلى وخان فى الامانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لانعمه ومتعرضا لنقمته الا أنه أسوأ حالا من البهيمة فان البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة الى مودعها فاليه مرجع الامانة ومصيرها وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا القالب الفانى وغربت فيه وستطلع الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود الى بارئها وخالقها اما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة أيضا راجعة الى الحضرة اذ المرجع والمصير للكل اليه الا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين الى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم فبين أنهم عند ربهم الا

في نفوسنا من عظمتك مهابة وذال جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب الينا مما سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم انى أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسألك خير ما بينهما احينى حياة السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفنى وفاة الشهداء وفاة من تحب لقاءه ياخير الرازقين وأحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب العالمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم ماخلقت واغفر ماقدرت وطيب مارزقت وتمم ماأنعمت وتقبل مااستعملت واحفظ مااستحفظت ولاتهتك ماسترت فانه لااله الا أنت أستغفرك من كل

أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم الى أقفيتهم وانتكست رؤسهم عن جهة فوق الى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه فنعوذ بالله من الضلال والنزول الى منازل الجهال فهذا حكم اقسام من يخرج من النار و يعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار الا موحد واست أعنى بالتوحيد ان يقول بلسانه لا اله الا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع الا فى عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدى الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان وانما ينفع الصدق فى التوحيد وكمال التوحيد أن لا يرى الامور كلها الا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه اذ لا يرى الوسايط وانما يرى مسبب الاسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة فمن فى قلبه مثقال دينار من ايمان فهو أول من يخرج من النار وفى الخبر يقال أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من ايمان وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ومابين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال و بين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الاموال و بين النقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذى لا يترك فاما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير اليها فى الاثر ان العبد ليوقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة فتقول الملائكة يار بنا هذا قد فنيت حسناته و بقى طالبون كثير فيقول الله تعالى القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا الى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم اذ ينقل اليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض اخوانه اغتابه ثم أرسل اليه يستحله فقال لا أفعل ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره ذنوب اخوانى من حسنات أريد أن أزين بها صحيفتى فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن يصيب فى أكثر الاحوال ولكن قد تتوقى الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق الى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الاحياء وغموض الاسباب التى رتبها مسبب الاسباب بقدر معلوم اذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة لهما أسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى الى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضى الى الهلاك بالغضب والانتقام و وراء ذلك سر المشيئة الالهية الازلية التى لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصى وان كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وان كثرت طاعاته الظاهرة فان الاعتماد على التقوى والتقوى فى القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لار باب القلوب انه لا عفو عن عبد الا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ولا غضب الا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الاعمال والاوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد ولا قوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للانسان الا ما سعى وسعيه هو الذى يرى وكل نفس بما كسبت رهينة ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وهذا كله قد انكشف لار باب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر اذ البصر يمكن الغلط فيه اذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها وانما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب والا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب واليه الاشارة بقوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى (الرتبة الثالثة) رتبة الناجين وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا و يشبه أن يكون هذا حال المجانين

والصبيان

لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير خدمتك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل شغل بغير معاملتك اللهم انى أستغفرك من كل ذنب تبت اليك منه ثم عدت فيه اللهم انى أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به اللهم انى أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم انى أستغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ما ليس لك اللهم انى أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا يا حافظ الحافظين و يا ذاكر الذاكرين و يا شاكر الشاكرين بذكرك ذكروا و بفضلك شكروا يا غياث يا مغيث

والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالاعراف وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والاخبار ومن أنوار الاعتبار فاما الحكم على العين كالحكم مثلا بان الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ويبعد أن ترتقي اليه رتبة الاولياء والعلماء والاخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فانكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك فاذا الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام (الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون فان المقلدون كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلي والاساور فانهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة فقالت الجار ثم الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر الى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بانه فني عن نفسه ومعناه انه صار مستغرقا بغيره وصارت هومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت اليه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة الى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الالوان والالحان على قلب الاصم والاكمه الا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الموفق بلطفه

﴿ بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب ﴾

اعلم ان الصغيرة تكبر باسباب * منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها امثالها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الاعمال أدومها وان قل والاشياء تستبان باضدادها وان كان النافع من العمل هو الدائم وان قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات اذا دام عظم تاثيره في اظلام القلب الا ان الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الانسان عليها عمره * ومنها ان يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لان استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تاثره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الاثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فان القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة وقد جاء في الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وانما يعظم الذنب

يا مستغاث يا غياث المستغيثين لا تكلني الى نفسي طرفة عين فاهلك ولا الى أحد من خلقك فاضيع اكلأني كلاءة الوليد ولا تخل عني وتولني بما تتولى به عبادك الصالحين أنا عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك جار في حكمك عدل في قضاؤك نافذ في مشيئتك ان تعذب فاهل ذلك أنا وان ترحم فاهل ذلك أنت فافعل اللهم يا مولاي يا الله يا رب ما أنت له أهل ولا تفعل اللهم يا رب يا الله ما أنا له أهل انك أهل التقوى وأهل المغفرة يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك يا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين توفني مسلما وألحقني بالصالحين أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا

فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله فاذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهى كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين انكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات اذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامى فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف لان الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف * ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه حتى ان من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته اياه كما يقول أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ويقول المناظر فى مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى خجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول المعامل فى التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته فى ماله وكيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فان الذنوب مهلكات واذا دفع العبد اليها وظفر الشيطان به فى الحمل عليها فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر اناؤه الذى فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه * ومنها ان يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدرى انه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال اثما فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لامنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا الى جنايته فغلظت به فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الاسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الامر وفى الخبر كل الناس معافى الا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه وهذا لان من صفات الله ونعمه انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر فالاظهار كفران لهذه النعمة وقال بعضهم لا تذنب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ولذلك قال تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف وقال بعض السلف ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من ان يساعده على معصية ثم يهونها عليه * ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم واطلاق اللسان فى الاعراض وتعديه باللسان فى المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه الا الجاه كالعلم بالجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة فطوبى لمن اذا مات ماتت ذنوبه معه وفى الخبر من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيأ قال تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم والآثار ما يلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق وقال بعضهم مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها وفى الاسرائيليات ان عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الاصلاح دهرا فأوحى الله تعالى الى نبيهم قل له ان ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فادخلتهم النار فبهذا يتضح ان أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان احداهما ترك الذنب والاخرى اخفاؤه وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل الى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل

ثوابهم

واليك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وافراغ الصبر فى الخدمة وايزاع الشكر فى النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن المنقلب اليك اللهم صل على محمد وآل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا

ثوابهم وان مال الى التجمل مالت طباع من دونه الى التشبه به ولا يقدرون على التجمل الا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها اما بالربح واما بالخسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها

﴿الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها الى آخر العمر﴾

قد ذكرنا ان التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من بيانها (أما العلم) فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي (وأما الندم) فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه وأي عزيز أعز عليه من نفسه وأي عقوبة أشد من النار وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله ولو حدثه انسان واحد يسمى طبيبا ان مرض ولده المريض لا يبرأ وانه سيموت منه لطال في الحال حزنه فليس ولده باعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة وفي الاسرائيليات ان الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والارض ماقبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه فان قلت فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها فأقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فاذا قدم اليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا فان قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق الا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى الا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم الى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وان لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم اذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث انه سرقة وزنا بل حيث انه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب (وأما القصد الذي ينبعث منه) وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره الى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذي قصر فيه منها والى المعاصي ما الذي قارفه منها فان كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها فان شك في عدد مافاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على سبيل التحري والاجتهاد وأما الصوم فان كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فان الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدي ماعلم بغالب الظن انه في ذمته فان أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف الى الاصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك فان ذلك لا يجزيه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة

للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم اللهم اغفر لي ولوالدي ولمن توالدا وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر لاعمامنا وعماتنا وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الاحياء منهم والاموات يا أرحم الراحمين ياخير الغافرين (ولما كان الدعاء مخ العبادة أحببنا ان نستوفي من ذلك قسما صالحا نرجو بركته وهذه الادعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة اماما أو مأموما ويختصر منها ماشاء (الباب الخمسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الاوقات) فمن ذلك أن يلازم موضعه الذي صلى هو فيه

ذلك يطول ويحتاج فيه الى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء وأما الحج فان كان
قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه
أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف اليه من الزكاة أو
الصدقات ما يحج به فانه ان مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان
شاء نصرانيا والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها وأما
المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه
ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم
ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر الى غير محرم وقعود في
مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق
بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب
لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اتق الله
حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع
القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس
المصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر
شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب اليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وانما المقصود سلوك
الطريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلوب بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها
بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فان
البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه
أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم
ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده ان حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب
السرور بها والحنين اليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له اذ القلب
يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفي لفظ
آخر الا الهم بطلب المعيشة وفي حديث عائشة رضي الله عنها اذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها
أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه ويقال ان الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو
ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع فان قلت هم الانسان غالبا بماله وولده وجاهه
وهو خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد
روي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ
الكئيب فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فما له عند الله قال أجر مائة شهيد فاذن الهموم أيضا
مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله
تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في
المستقبل والاتيان بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل ايذاءه الناس بالاحسان اليهم ويكفر غصب
أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين واظهار
ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لان ذلك احياء اذ العبد
مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على أكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد وبهذا
تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق
رقبة ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد اما في النفوس أو الاموال
أو الاعراض أو القلوب أعني به الايذاء المحض أما النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية
ووصولها الى المستحق اما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وان كان عمدا موجبا
للقصاص فبالقصاص فان لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فان شاء عفا

مستقبل القبلة الآن يرى انتقاله الى زاويته أسلم لدينه لئلا يحتاج الى حديث أو التفات الى شيء فان السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجده أهل المعاملة وأرباب القلوب وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة الى المفلحون والآيتين والهكم اله واحد وآية الكرسي والآيتين بعدها وآمن الرسول والآية قبلها وشهد الله وقل اللهم مالك الملك وان ربكم الله الذي خلق السموات والارض الى المحسنين ولقد جاءكم رسول الى الآخر وقل ادعوا الله الآيتين وآخر الكهف من ان الذين آمنوا وذا النون اذ ذهب مغاضبا الى خير الوارثين فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وسبحان ربك الى آخر السورة

عنه وان شاء قتله ولا تسقط عهدته الا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه و يهتك ستره و يلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى و يقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فان رفع أمر هذه الى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى قد ظلمت نفسى و زنيت وانى أريد أن تطهرنى فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله انى قد زنيت فرده الثانية فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله انى قد زنيت فطهرنى فردها فلما كان من الغد قالت يا رسول الله لم تردنى لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعزا فوالله انى لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهبى حتى تضعى فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبى فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته أتت بالصبى وفى يده كسرة خبز فقالت يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها فأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فانتضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (وأما القصاص وحد القذف) فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وان كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فان ما يجب فى مال الصبى يجب على الصبى اخراجه بعد البلوغ ان كان الولى قد قصر فيه فان لم يفعل كان ظالما مطالبا به اذ يستوى فى الحقوق المالية الصبى والبالغ وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته الى يوم توبته قبل أن يحاسب فى القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه فاذا حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه ان لم تف بها حسناته حمل من سيآت أرباب المظالم فيهلك بسيآت غيره فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الاجل قريبا فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الاوقات هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام (وأما الجناية) على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم فى الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك الا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا فى القيامة وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفى وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فان كان فى جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له الا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة

ولقد صدق الله وأول سورة الحديد الى بذات الصدور وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا ثم يسبح ثلاثا وثلاثين وهكذا يحمد مثله ويكبره مثله ويتمها مائة بلا اله الا الله وحده لا شريك له فاذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظا أو من المصحف أو يشتغل بأنواع الاذكار ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس فان النوم فى هذا الوقت مكروه جدا فان غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائما مستقبل القبلة فان لم يذهب النوم بالقيام يخطو خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة فى ادامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر فى هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين وأثر ذلك فى حق من

فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال فان أبى الا الاصرار فيكون تلطفه به واعتذاره اليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى اذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى وكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الارض فدل على راهب فأتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة قال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الارض فدل على رجل عالم فقال له انه قتل مائة نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع الى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى اذا انصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الارضين فالى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى الى الارض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة وفي رواية فكان الى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها وفي رواية فأوحى الله تعالى الى هذه أن تباعدي والى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه أقرب بشبر فغفر له فبهذا تعرف أنه لا خلاص الا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلابد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى أمثالها كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جازما أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد في الحال وان كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره الا بالعزلة والصمت وقلة الاكل والنوم واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد اليه أبدا ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وان لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة الا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس ان هذه التوبة لا تصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لا تصح ان عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح ان أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب الى أنها لا تصح اني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل المعصية فان العلة شاملة لهما اذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم

يجمع في الاذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فاذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه وتبنى أوقات النهار جميعا على هذا البناء فاذا قارب طلوع الشمس يبتدئ بقراءة المسبعات العشر وهي من تعليم الخضر عليه السلام علمها ابراهيم التيمي وذكر أنه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وينال بالمداومة عليها جميع المتفرق في الاذكار والدعوات وهي عشرة أشياء سبعة سبعة الفاتحة والمعوذتان وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسي وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر والصلاة على النبي وآله ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ويقول سبعا اللهم افعل بي وبهم

يكون

يكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث انها معصية فلا يتصور ان يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فان استحال ذلك من حيث ان المعصية في الخمرين واحد وانما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الامر واحدة فاذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال الا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك المرتب على الايجاب والقبول فانه اذا لم يتم الايجاب والقبول نقول ان العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم الا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو اما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لانه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب الى تطرق العفو اليها فلا يستحيل أن يتوب عن الاعظم ويتندم عليه كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفا من الجناية على الاهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعره معه انه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر *الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو اليه فهذا أيضا ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر لان الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا اذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وانه اذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي *الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر الى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه امكانه انه ما من مؤمن الا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما اما ضعيفا واما قويا ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوته أقوى منه بأن لم يعارضه الا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه ان قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلي ويصوم ولقيل له ان كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وان كانت لله فاترك الفسق لله فان أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فانا أقهره فيما أقدر عليه وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له الا هذا واذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها والخوف اذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم

عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل انك غفور حليم جواد كريم رؤف رحيم (وروى) ان ابراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى في المنام انه دخل الجنة ورأى الملائكة والانبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل انه مكث أربعة أشهر لم يطعم وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة فاذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة الى أن تطلع الشمس قدر رمح (روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لان أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة الى طلوع الشمس أحب الي من أن أعتق أربع رقاب ثم يصلي ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه فقد نقل عن

يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل ان التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لانها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض الى سخط الله تعالى نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لان لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا انه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لابد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه اما في شدة المعصية واما في غلبة الشهوة واذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وان لم يكن قد أطاع الله في جميع الاوامر والنواهي فان قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة فأقول لا لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه اياه ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته اذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وان لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار ان ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذا لا يستحيل ان تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ الا أنه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيأ يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع الى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين أحدهما حرقة الندم والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا ان التوبة لا تقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا فان قلت اذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع اليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني ان المجاهد أفضل لان له مع التوبة فضل الجهاد وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لانه لو فتر في توبته كان أقرب الى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه ان الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان * احداهما أن يكون انقطاع نزوعه اليها فتور في نفس الشهوة فقط فالمجاهد أفضل من هذا اذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين وأعني بقوة الدين قوة الارادة التي تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل ان هذا أسلم اذ لو فتر لا يعود الى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه خطأ وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل لانه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لانه أسلم والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لاعدائه لان المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وان غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الاخطار وأن العلو شرطه اقتحام الاغرار بل هو كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لانه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الارض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب اذا كان قويا عالما بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد ﴿الحالة الثانية﴾ ان يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذا بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت

رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت واذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه أثرا ونورا وروحا وأنسا اذا كان صادقا والذي يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الاولى آية الكرسي وفي الاخرى آمن الرسول والله نور السموات والارض الى آخر الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه في يومه وليلته ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما في كل ركعة سورة وتكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شر يومه وليلته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ باسمك وكلماتك التامة من شر السامة والهامة وأعوذ

بادب الشرع فلا تهيج الا بالاشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك الى شهواته وان عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة فانت بعد فى طلب الظفر ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالاضافة الى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ولا يدرى كيف يسلم ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة الى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل فى هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات واماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل فى اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات فان قلت فما قولك فى تائبين أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما أفضل فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالاضافة الى حالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال وهذا نقصان بالاضافة الى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره اذ طريقه الى الله نفسه ومنازلة أحواله وقد يكون طريق العبد الى الله العلم فالطرق الى الله تعالى كثيرة وان كانت مختلفة فى القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك فى أصل الهداية فاقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدئ لانه اذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله فهو بالاضافة الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له مبادى الوصول وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات الى ما سبق من أحواله وهو الكمال بل لو عاق المسافر عن الطريق الى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر فى عبوره مدة من حيث انه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا امانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع نعم ان لم يكن الوقت وقت الرحيل بان كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يعبرها فليطل بالليل بكاءه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود الى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود الى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه الا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا الى تلويحات منه فى كتاب العلم وفى ربع المهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته ولكن ان كان شابا فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ما له نظير فى الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغى أن يتفكر فى لذة النظر الى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له فى الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدى أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الانبياء قياس فى غاية الاعوجاج لانهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللائقة باممهم فانهم ما بعثوا الا لارشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وان كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة الا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للامر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أما انى لا أنسى

باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر ما يجرى به الليل والنهار ان ربى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ويقول بعد الركعتين الاوليين اللهم انى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبحت مرتهنا بعملى وأصبح أمرى بيد غيرى فلا فقير أفقر منى اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسئ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى ولا تسلط على من لا يرحمنى اللهم انى أعوذ بك من الذنوب التى تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ثم يصلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الاطلاق والا فالاستخارة التى وردت

ولكني أنسى لاشرع وفي لفظ انما أسهو ولاسن ولاتعجب من هذا فان الامم في كنف شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة اما ترى الاب اذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل الى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل الى لكنته بل الذي يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا في تعليمه فاياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

﴿ بيان أقسام العباد في دوام التوبة ﴾

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات * الطبقة الاولى ان يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك مافرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه الا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع الى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين اليهم الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا فان فيه اشارة الى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع الى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها والى مالا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الانواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلى وأفضل اذ كل سيئة فانما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء انما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وان كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فيهيج الشهوة ويخطر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء ﴿الطبقة الثانية﴾ تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها الا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جديرة بان تكون هي النفس اللوامة اذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهي أغلب أحوال التائبين لان الشر معجون بطينة الآدمي فقلما ينفك عنه وانما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى اذ قال تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة فكل المام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فأثنى عليهم مع ظلمهم لانفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه خياركم كل مفتن تواب وفي خبر آخر المؤمن كالسنبلة يفيء أحيانا ويميل أحيانا وفي الخبر لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على ان هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه

بها الاخبار هي التي يصليها امام كل أمر يريده ويقرأ في هاتين الركعتين قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده في هذا اليوم اجعل فيه الخيرة ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ في الاولى سورة الواقعة وفي الاخرى سورة الاعلى ويقول بعدها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك أحب الاشياء الي وخشيتك أخوف الاشياء عندي واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق الى لقائك واذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عيني بعبادتك واجعل طاعتك في كل شيء مني يا أرحم الراحمين ثم يصلي بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيأ من حزبه من القرآن ثم

والاطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه على نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيآت المختطفات قال النبى صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم خطاؤن وخير الخطائين التوابون المستغفرون وقال أيضا المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه أى واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة فما وصفهم بعدم السيئة أصلا ﴿الطبقة الاولى﴾ أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة الا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى فى قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فامره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة فان تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ما سبق عليه من القول فى الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له فى الازل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء فى حقه واذا يسر له أسباب المواظبة على التحصيل دل على انه سبق له فى الازل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيآت بحكم تقدير مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم الا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين الا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق فى الازل بتدبير رب الارباب ولذلك قال تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها فاذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله اذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الانفاس والا وقع فى المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر ﴿الطبقة الرابعة﴾ أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى النفس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره فى مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وان ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الانبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الاعمال كطلب الكنوز فى المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون الا العالمون والعالمون كلهم محرومون الا العاملون والعاملون كلهم محرومون الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه

بعد ذلك ان كان متفرغا ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل فى الصلاة والتلاوة والذكر الى وقت الضحى وان كان ممن له فى الدنيا شغل اما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغى أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت الى جهة الا بعد أن يصلى ركعتين ليقيه الله سوء المخرج ولا يدخل البيت الا ويصلى ركعتين ليقيه الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من فى المنزل من الزوجة وغيرها وان لم يكن فى البيت أحد يسلم أيضا ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وان كان متفرغا فاحسن أشغاله فى هذا الوقت الى صلاة الضحى الصلاة فان كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر والا يصل ركعات يطولها ويقرأ فيها

كنز يجده تحت الارض فى بيته الخرب بعد عند ذوى البصائر من الحمق والمغرور بن وان كان ماينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته فى صيغة حسنة اذ يقول ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتى ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الاوعار فى طلب الدينار واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسالك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لاتحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ماهذا الهوس السماء لاتمطر ذهبا ولافضة وانما ينال ذلك بالكسب هكذا اقدره مسبب الاسباب وأجرى به سنته ولاتبديل لسنة الله ولايعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وان سنته لاتبديل لها فيهما جميعا وانه قد أخبر اذ قال وان ليس للانسان الاماسعى فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم وان ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد فى الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الامر فى الدنيا وينسى قوله تعالى وفى السماء رزقكم وماتوعدون فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا الا انتكاس على الرأس وانغماس فى ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى ولوترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا أى أبصرنا انك صدقت اذ قلت وأن ليس للانسان الا ماسعى فارجعنا نسعى وعند ذلك لايمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعى الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة الى سوء المنقلب والمآب

﴿ بيان ماينبغى أن يبادر اليه التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق ﴾

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيآت اما بالقلب واما باللسان واما بالجوارح ولتكن الحسنة فى محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات *وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسى وعملت سوأ فاغفرلى ذنوبى وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه فى كتاب الدعوات والاذكار * واما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفى الآثار مايدل على أن الذنب اذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهى التوبة أو العزم على التوبة وحب الاقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهو أن تصلى عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفى بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين وفى بعض الاخبار تصلى أربع ركعات وفى الخبر اذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار وفى الخبر الصحيح أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى عالجت امرأة فأصبت منها كل شئ الا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أوما صليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيآت وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة اذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات لما بينهن الا الكبائر فعلى الاحوال كلها ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيآته ويجتهد فى دفعها بالحسنات فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار وفى الخبر المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله وكان بعضهم يقول أستغفر الله من

القرآن فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة والاقل يصلى أعدادا من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير وأمثال هذه الآية يقرأ فى كل ركعة آية منها امام أو بكرهما معها شاء ويقدر للطالب أن يصلى بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة الى مائتين الى خمسمائة الى ألف ركعة ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا على أهلها فاباله يبطل ولايتنعم بخدمة الله تعالى (قال سهل ابن عبدالله التسترى) لايكمل شغل

قولى أستغفر الله وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فاعلم انه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها فى كتاب الاذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقى الاستغفار معنا فان ذهب هلكنا فنقول الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فاما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الاخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وان لم تنته الى أواخرها ولذلك قال سهل لابد للعبد فى كل حال من مولاه فاحسن أحواله أن يرجع اليه فى كل شئ فان عصى قال يارب استر على فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب على فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة واذا عمل قال يارب تقبل منى وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فالاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة اقباله على مولاه بان يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله فقال انما يكون حبيبا اذا كان فيه جميع ما ذكر فى قوله تعالى التائبون العابدون الآية وقال الحبيب هو الذى لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصود ان للتوبة ثمرتين احداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لاصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغى أن تظن ان وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها ان قول الله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره صدق وانه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير الى أن يثقل فترفع كفة السيئات فاياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر فى كل ساعة الا على خيط واحد وتقول أى غناء يحصل بخيط وما وقع ذلك فى الثياب ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وان أجسام العالم مع اتساع أقطارها اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصانا بالاضافة الى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى ان لسانى فى بعض الاحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل فقال اشكر الله اذ استعمل جارحة من جوارحك فى الخير وعوده بالذكر ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى فمن تعود لسانه الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه الى ما تعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه الى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة اذا حدث بظهور مبادى الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله واذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى فى احدى الكلمتين ويسلم فى

قلب عبد بالله الكريم وله فى الدنيا حاجة فاذا ارتفعت الشمس وتنصف الوقت من صلاة الصبح الى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصلى الضحى فهذا الوقت أفضل الاوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الضحى اذا رمضت الفصال وهو أن ينام الفصيل فى ظل أمه عند حر الشمس وقيل الضحى اذا ضحيت الاقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه عاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك ان كان هناك حق يقضى مما ندب اليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه والا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهرا أو باطنا وقلبا وقالبا والا فباطنا وترتيب ذلك انه يصلى ما دام منشرحا ونفسه

الاخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ان الله لايضيع أجر المحسنين ومعانى قوله تعالى وان تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجرا عظيما فانظر كيف ضاعفها اذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول هذا تضعيف فى الدنيا الادنى الطاعات وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون فاياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات فان هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل اليهم انهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر فاى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق فى هذه المكيدة الى ثلاثة أقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات * أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا فلاجرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف الى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه * وأما الظالم المغرور فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فاسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل وافق شن طبقه وافقه فاعتنقه * وأما المقتصد فلم يقدر على ارغامه باشراك القلب فى العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة الى القلب ولكن اهتدى الى كماله بالاضافة الى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى ان يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لا أنكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة الى الكاتب لا بالاضافة الى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر الله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج الى استغفارين لا الى استغفار واحد فهكذا ينبغى أن تفهم ذم مايذم وحمد مايحمد والا جهلت معنى ماقال القائل الصادق حسنات الابرار سيئات المقربين فان هذه أمور تثبت بالاضافة فلا ينبغى أن تؤخذ من غير اضافة بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى ولذلك قال جعفر الصادق ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث رضاه فى طاعته فلا تحقروا منها شيأ فلعل رضاه فيه وغضبه فى معاصيه فلا تحقروا منها شيأ فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته فى عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولى الله تعالى و زاد وخبأ اجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه

(الركن الرابع فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار)

اعلم أن الناس قسمان * شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجب ربك من شاب ليست له صبوة وهذا عزيز نادر * والقسم الثانى هو الذى لايخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه فاعلم ان شفاء التوبة لايحصل الا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء اذ لامعنى للدواء الا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب و رفعه وابطاله ولا يبطل الشئ الا بضده ولا سبب للاصرار الا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة الا العلم ولا يضاد الشهوة الا الصبر على قطع الاسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى وأولئك هم الغافلون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون فلا دواء اذا للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما فيقمع الاسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الاصرار فاذا لهذا الدواء أصلان أحدهما العلم والآخر الصبر ولابد من بيانهما فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لابد من علم مخصوص فاعلم ان العلوم بجملتها أدوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع فى علاج الامراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون أقرب الى الفهم فنقول يحتاج المريض الى التصديق بامور

محبة فان سئم ينزل من الصلاة الى التلاوة فان مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة فان سئم التلاوة أيضا يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة فان سئم الذكر يدع ذكر اللسان و يلازم بقلبه المراقبة والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى اليه فما دام هذا العلم ملازما لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين الذكر وأفضله فان عجز عن ذلك أيضا وتملكته الوساوس وتزاحم فى باطنه حديث النفس فلينم ففى النوم السلامة والا فكثرة حديث النفس تقسى القلب ككثرة الكلام لانه كلام من غير لسان فيحترز من ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر مامضى ورأى وسمع

﴿الاول﴾ أن يصدق على الجملة بان للمرض والصحة أسبابا يتوصل اليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الاسباب وهذا هو الايمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج و يحق عليه الهلاك وهذا و زانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الايمان بأصل الشرائع وهذا لابد من حصوله اما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان ﴿الثاني﴾ أنه لابد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان ايمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الايمان و و زانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بان كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف ﴿الثالث﴾ أنه لابد أن يصغى الى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والاسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء و و زانه من الدين الاصغاء الى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى الى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج ﴿الرابع﴾ أن يصغى الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شئ ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وانما حاجته في الحال مرهقة الى العلم بانها ذنوب ثم الى العلم بآفاتها وقدر ضررها ثم الى العلم بكيفية التوصل الى الصبر عنها ثم الى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فالعاصي ان علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وان كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر الى أن يسئل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس الى نفسه فانهم ورثة الانبياء والانبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء و يطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون الا جهالا فلابد من تبليغ الدعوة اليهم في الاصل والفرع والدنيا دار المرضى اذ ليس في بطن الارض الا ميت ولا على ظهرها الا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الابدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم الى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال و يكف شره عن نفسه وعن سائر الناس وانما صار مرض القلوب أكثر من مرض الابدان لثلاث علل احداها أن المريض به لا يدري أنه مريض *والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال *والثالثة وهو الداء العضال فقد الطبيب فان الاطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا الى اغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لان الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الاطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الاطباء بل اشتغل الاطباء بفنون الاغواء فليتهم ان لم ينصحوا لم يغشوا وان لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم اذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم الا ما يرغب العوام و يستميل قلوبهم ولا يتوصلون الى

كشف غص آخر في باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر و يمكن للطالب المجد أن يصلى من صلاة الضحى الى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزأ من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى و بعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات حسن (قال سفيان) كان يعجبهم اذا فرغوا أن يناموا طلبا للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يعين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح و يصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس اذا استراحت عادت جديدة فبعد الانتباه من نوم النهار تجد في الباطن نشاطا آخر وشغفا آخر كما كان في أول النهار فيكون للصادق في النهار نهاران يغتنمهما

ذلك الا بالارجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لان ذلك الذ في الاسماع وأخف على الطباع فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دوا آن ولكن لشخصين متضادي العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه مالا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة اسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود الى الاعتدال وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التي سبقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب فاما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والاغبياء فاذا فساد الاطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلا فان قلت فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير الى الانواع النافعة في حل عقد الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع الاول أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الاخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ويقول الآخر ياليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر ياليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا وفي بعض الروايات ليتهم تجالسوا فتذاكروا ما علموا ويقول الآخر ياليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا وقال بعض السلف اذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبها عليه وان لم يستغفر كتبها وقال بعض السلف ما من عبد يعصي الا استأذن مكانه من الارض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا فيقول الله تعالى للارض والسماء كفا عن عبدي وأمهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب الي فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فابدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها وفي حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع وقال الحسن ان بين العبد وبين الله حدا من المعاصي معلوما اذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها للخير والاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها ان كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ما خلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (النوع الثاني) حكايات الانبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة حتى روي انه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيا التاج والاكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الاكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش اهبطا من جواري فانه لا يجاورني من عصاني قال فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لاجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما وقيل لان المرأة سألته أن يكون يحكم لابيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لابيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فاذا قال أطعموني فاني سليمان بن داود شج وطرد وضرب وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه الى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الاربعين أيام العقوبة قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر اليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذركم الآن ان هذا أمر كان من السماء ولا بد منه

بخدمة الله تعالى والدؤب في العمل وينبغي أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكرا أو مسبحا أو تاليا قال الله تعالى وأقم الصلاة طرفي النهار وقال فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل غروبها صلاة العصر ومن آناء الليل فسبح أراد العشاء الاخيرة وأطراف النهار أراد الظهر والمغرب لان الظهر صلاة في آخر الطرف الاول من النهار وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب فصار الظهر آخر الطرف الاول والمغرب آخر الطرف الآخر فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الاول وقد عاد

وروى في الاسرائيليات ان رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فارسل عبده ليحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيا في بني اسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتركي المعاصي لاجل الله تعالى وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر الى قميصه نظرة وكان جديدا فكأنه أعجبه قال فوضعته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك قالت انما نطيعك اذا أطعت الله وروى أن الله تعالى أوحى الى يعقوب عليه السلام أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف قال لا قال لقولك لاخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له وتدري لم رددته عليك قال لا قال لانك رجوتني وقلت عسى الله أن يأتيني بهم جميعا وبما قلت اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك اذكرني عند ربك قال الله تعالى فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والاخبار ورود الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثما ولان عذاب الآخرة أشد وأكبر فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعي التوبة (النوع الثالث) أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الامر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى انه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال ابن مسعود اني لاحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه ونقصانا في المال انما اللعنة أن لا تخرج من ذنب الا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لان اللعنة هي الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون * وحكى عن بعض العارفين انه كان يمشي في وسط الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض في الذنوب خوضا وهو اشارة الى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار الى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم اني لاعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي وقال بعض الصوفية بالشام نظرت الى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر اليه فمر بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحدا صلاة جماعة الا بذنب يذنبه وفي الخبر ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أعمالكم وفي الخبر يقول الله تعالى ان أدنى ما أصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي ان أحرمه لذيذ مناجاتي وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائما ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت الى الارض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد الا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد وكان قد وجه الى فاشخصني من الرقة فلما أتيته قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك بزقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أني دعوت الله لك وتبت اليه عنك للقيت الله بذلك

بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ويصلى في أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول أوقاتها ويحتاج أن يراعي لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الاذان وقد توسط هذه الصلاة ثم يستمد لصلاة الظهر فان وجد في باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع اليه ولا يشرع في صلاة الظهر الا بعد أن يجد الباطن عائدا الى حاله من الصفاء والذائقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الانس في الصلاة ويتكدرون بيسير من الاسترسال في المباح ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر وقد

اللون قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة واعلم انه لايذنب العبد ذنبا الا ويسود وجه قلبه فان كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر وان كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك و يستوجب النار والاخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب مابعده صفته فان ابتلى بشئ كان عقوبة له و يحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وان أصابته نعمة كانت استدراجا له و يحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته و يوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه و زيادة فى درجاته (النوع الرابع) ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وكل ذلك ممالا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولا بالنبض والسحنة و وجود الحركات على العلل الباطنة و يشتغل بعلاجها فليستدل بقرائن الاحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد أوصنى يارسول الله ولاتكثر على قال لاتغضب وقال له آخر أوصنى يارسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما فى أيدى الناس فان ذلك هو الغنى واياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه وقال رجل لمحمد بن واسع أوصنى فقال أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة قال وكيف لى بذلك قال الزم الزهد فى الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الاول مخايل الغضب فنهاه عنه وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الامل وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصنى فقال كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لابراهيم بن أدهم أوصنى فقال اياك والناس وعليك بالناس ولابد من الناس فان الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس و بقى النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا فى ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله الى عائشة رضى الله عنها أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولاتكثرى فكتبت اليه من عائشة الى معاوية سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله الى الناس والسلام عليك فانظر الى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت اليه مرة أخرى أما بعد فاتق الله فانك اذا اتقيت الله كفاك الناس واذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيأ والسلام فاذا على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة الى تفرس الصفات الخفية وتوسم الاحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان فان قلت فان كان الواعظ يتكلم فى جمع أوسأله من لايدرى باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة اليه اما على العموم واما على الاكثر فان فى علوم الشرع أغذية وأدوية فالاغذية للكافة والادوية لارباب العلل ومثاله ماروى ان رجلا قال لابى سعيد الخدرى أوصنى قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك فى أهل الارض وذكر لك فى أهل السماء وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان * وقال رجل للحسن أوصنى فقال أعز أمر الله يعزك الله وقال لقمان لابنه يابنى زاحم العلماء بركبتيك ولاتجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولاتصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولاتجالس السفيه ولاتخالط ذا الوجهين * وقال أيضا لابنه يابنى لاتضحك من غير عجب ولاتمش فى غير أرب ولاتسأل عما لايعنيك ولاتضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ماقدمت ومال غيرك ماتركت يابنى ان من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لايملك لسانه يندم وقال رجل لابى حازم أوصنى فقال كل

يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الاهل والولد مع كون ذلك عبادة ولكن حسنات الابرار سيآت المقربين فلا يدخل الصلاة الا بعد حل العقد واذهاب الكدر وحل العقد بصدق الانابة والاستغفار والتضرع الى الله تعالى ودواء مايحدث من الكدر بمجالسة الاهل والولد أن يكون فى مجالسته غير راكن اليهم كل الركون بل يسترق القلب فى ذلك نظرات الى الله تعالى فتكون تلك النظرات كفارة تلك المجالسة الا أن يكون قوى الحال لايحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على باطنه عقدة فهو كما يدخل فى الصلاة لايجدها ويجد باطنه وقلبه لانه حيث استروحت نفس هذا الى المجالسة كان استرواح نفسه منغمرا بروح قلبه لانه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة الى الخلق وعين قلبه مطالعة

ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه * وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران وقال رجل لمحمد ابن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف أوصني فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا الا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام الا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس الا فيما لا بد منه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى أما بعد فخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما في يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام * وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يسأله أن يعظه فكتب اليه أما بعد فان الهول الاعظم والامور المفظعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك اما بالنجاة واما بالعطب واعلم انه من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم فاذا زللت فارجع واذا ندمت فاقلع واذا جهلت فاسأل واذا غضبت فامسك * وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عدي بن أرطاة أما بعد فان الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم * وكتب أيضا الى بعض عماله أما بعد فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك واعلم انك لا تأتي الى الناس شيأ الا كان زائلا عنهم باقيا عليك واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الاغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها ولاجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستسرى الفساد وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله *(الاصل الثاني الصبر)* ووجه الحاجة اليه ان المريض انما يطول مرضه لتناوله ما يضره وانما يتناول ذلك اما لغفلته عن مضرته واما لشدة غلبة شهوته فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس وحاصله ان المريض اذا اشتدت ضراوته بالمأكول مضر فطريقه ان يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الالم الذي يناله في تركه فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد من الاسباب المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الاطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ولا يصبر الا عن خوف ولا يخاف الا عن علم ولا يعلم الا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد فالاول الامر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف الى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه واذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الانبياء الا شرح طرق

للحضرة الالهية فلا ينعقد على باطنه عقدة وصلاة الزوال التي ذكرناها تحل العقد ونهي الباطن لصلاة الظهر فيقرأ في صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة في النهار الطويل وفي القصير ما يتيسر من ذلك قال الله تعالى وعشيا وحين تظهرون وهذا هو الاظهار فان انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرض وقرأ الدعاء الذي بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به الى صلاة الفجر ثم اذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثا وثلاثين كما وصفناه ولو قدر على الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الادعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر

الهدى وانما الله الآخرة والاولى فان قلت فقد رجع الامر كله الى الايمان لان ترك الذنب لا يمكن الا بالصبر عنه والصبر لا يمكن الا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون الا بالعلم والعلم لا يحصل الا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الايمان فكان من أصر على الذنب لم يصر الا لانه غير مؤمن * فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان اذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور * أحدها ان العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالاضافة الى تأثرها بالحاضر * الثاني أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والالف والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال عز وجل بل تؤثرون الحياة الدنيا وقد عبر عن شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر اليها فانظر اليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها فحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد الا دخلها وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد الا دخلها فحفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر اليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد فاذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا الى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الايمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الالم المنتظر * الثالث انه مامن مذنب مؤمن الا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره الا أن طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان * الرابع انه مامن مؤمن موقن الا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو منها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل ايمانه وهو كونه شاكا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول مايضره في المرض فان كان المحذر ممن لا يعتقد فيه انه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر فان قلت فما علاج الاسباب الخمسة فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الاول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وان غدا للناظرين قريب وان الموت أقرب الى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب والمتأخر اذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه انه أبدا في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال اذ يركب البحار ويقاسي الاسفار لاجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج اليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وكان الماء البارد ألذ الاشياء عنده تركه مع ان الموت ألمه لحظة اذا لم يخف ما بعده ومفارقته للدنيا لا بد منها فكم نسبة وجوده في الدنيا الى عدمه أزلا وأبدا فلينظر كيف يبادر الى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي ان يكون قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له الاعوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول اذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد واذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار واذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدورتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لان المسوف يبني الامر على ماليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقي فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال الا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف اذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة

التي

شيأ لله تعالى ثم يحيي بين الظهر والعصر كما يحيي بين العشاءين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ومن دام سهره ينام نومة خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والعصر ولو أحيا بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وان أراد أن يحيي هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين * ويستاك قبل الزوال اذا كان صائما وان لم يكن صائما فأي وقت تغير فيه الفم وفي الحديث السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعند القيام الى الفرائض يستحب (قيل) ان الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا وقيل هو

التى أكدها الانسان بالعادة كالتى لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الايام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ومامثال المسوف الامثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع الا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود اليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته اذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة فان امكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده وترك ذخائر أمواله فى صحن داره وقدر على دفنها واخفائها فلم يفعل وقال انتظر من فضل الله تعالى ان يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ الى دارى أو اذا انتهى الى دارى مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكى فى الاسمار ان مثل ذلك وقع فانا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه فى غاية الحماقة والجهل اذ قد لا يمكن ولا يكون وأما الخامس وهو الشك فهذا كفر وعلاجه الاسباب التى تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن ان يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ماقاله الانبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم انه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة فان قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكانه لا وجود لمثل هذا فى العقلاء وان قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك فى البيت لحظة انه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تاكله أو تتركه وان كان ألذ الاطعمة فيقول أتركه لامحالة لانى أقول ان كذب فلا يفوتنى الا هذا الطعام والصبر عنه وان كان شديدا فهو قريب وان صدق فتفوتنى الحياة والموت بالاضافة الى ألم الصبر عن الطعام واضاعته شديد فيقال له ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الانبياء كلهم مع ماظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الاولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الالباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس فى العقلاء الا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا فى كيفيته فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وان كذبوا فلا يفوتك الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف ان كان عاقلا مع هذا الفكر اذ لا نسبة لمدة العمر الى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا مملوأة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيأ فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى

قال المنجم والطبيب كلاهما * لاتبعث الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر * أو صح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الامور وكان شاكا ان صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا والا فقد تخلصت وهلكت أى العاقل يسلك طريق الامن فى جميع الاحوال فان قلت هذه الامور جلية ولكنها ليست تنال الا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته وما علاج القلوب لردها الى الفكر لاسيما من آمن باصل الشرع وتفصيله فاعلم ان المانع من الفكر أمران أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة والثانى أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ومامن انسان الا وله فى كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخر الشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك وأما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت ومابعده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقعته فكيف تصبر على مقاساته اذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت ومابعده ومتألم به وأما الثانى وهو كون الفكر مفوتا اللذات الدنيا فهو أن يتحقق فوات

خير وان أراد أن يقرأ بين الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ فى الركعة الاولى ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (ثم) فى الثانية ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (ثم) ربنا لاتؤاخذنا الى آخر السورة (ثم) ربنا لاتزغ قلوبنا الآية (ثم) ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان الآية (ثم) ربنا آمنا بما أنزلت (ثم) أنت ولينا فاغفر لنا (ثم) فاطر السموات والارض أنت ولي (ثم) ربنا انك تعلم مانخفى وما نعلن الآية (ثم) وقل رب زدنى علما (ثم) لا اله الا أنت سبحانك (ثم) رب لاتذرنى فردا (ثم) وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين (ثم) ربنا هب لنا من أزواجنا

لذات الآخرة أشد وأعظم فانها الا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن المعاصي والاقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الانس به ولو لم يكن للطيع جزاء على عمله الا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الآخرة نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تتعود والخير عادة والشر لجاجة فاذا هذه الافكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الافكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب باسباب تتفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب اليه ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق اذ التوفيق هو التأليف بين الارادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روى في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني فقال علي رضي الله عنه بني على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الاماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف واذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلابد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد ان شاء الله تعالى

﴿ كتاب الصبر والشكر وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله أهل الحمد والثناء المتفرد برداء الكبرياء المتوحد بصفات المجد والعلاء المؤيد صفوة الاولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى أصحابه سادة الاصفياء وعلى آله قادة البررة الاتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء (أما بعد) فان الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر كما وردت به الآثار وشهدت له الاخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى اذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الايمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل الى الوصول الى القرب من الله تعالى الا بالايمان وكيف يتصور سلوك سبيل الايمان دون معرفة ما به الايمان ومن به الايمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الايمان وعن ادراك ما به الايمان فما أحوج كلا الشطرين الى الايضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر ان شاء الله تعالى

﴿ الشطر الاول ﴾ في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الايمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة الى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده ان شاء الله تعالى

﴿ بيان فضيلة الصبر ﴾

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فما من قربة الا وأجرها بتقدير وحساب الا الصبر ولاجل كون الصوم من الصبر وانه نصف الصبر قال الله تعالى الصوم لي وأنا أجزي به فأضافه الى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى واصبروا ان الله مع الصابرين وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى أولئك عليهم صلوات من

(ثم) رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (ثم) يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور (ثم) رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي الآية من سورة الاحقاف (ثم) ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين الآية (ثم) ربنا عليك توكلنا (ثم) ربنا اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا مهما يصلي فليقرأ بهذه الآيات وبالمحافظة على هذه الآيات في الصلاة مواطئا القلب واللسان يوشك أن يرقى الى مقام الاحسان ولو ردد فرد آية من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجيا لمولاه وداعيا وتاليا ومصليا والله الموفق للعمل

ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول (وأما الاخبار) فقد قال صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان على ماسيأتى وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم من أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولان تصبروا على ماأنتم عليه أحب الى من أن يوافينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ماعندكم ينفد وماعند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم الآية وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال الصبر والسماحة وقال أيضا الصبر كنز من كنوز الجنة وسئل مرة ما الايمان فقال الصبر وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة معناه معظم الحج عرفة وقال أيضا صلى الله عليه وسلم أفضل الاعمال ماأكرهت عليه النفوس وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق بأخلاقى وان من أخلاقى أنى أنا الصبور وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يارسول الله قال وماعلامة ايمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة وقال صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ماتكره خير كثير وقال المسيح عليه السلام انكم لاتدركون ماتحبون الا بصبركم على ماتكرهون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين والاخبار فى هذا لاتحصى ﴿وأما الآثار﴾ فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الاشعرى عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى واعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه بنى الايمان على أربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولاجسد لمن لارأس له ولا ايمان لمن لاصبر له وكان عمر رضى الله عنه يقول نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة مايحمل فوق العدلين على البعير وأشار به الى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وكان حبيب بن أبى حبيب اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب بكى وقال واعجباه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو المثنى وقال أبو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه الا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق

﴿بيان حقيقة الصبر ومعناه﴾

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين انما تنتظم من ثلاثة أمور معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هى الاصول وهى تورث الاحوال والاحوال تثمر الاعمال فالمعارف كالاشجار والاحوال كالاغصان والاعمال كالثمار وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين الى الله تعالى واسم الايمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه فى اختلاف اسم الايمان والاسلام فى كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لايتم الا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا الا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والانس والبهائم فان الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة أما فى البهائم فلنقصانها وأما فى الملائكة فلكمالها وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون الا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا وأما الملائكة عليهم السلام فانهم جردوا للشوق الى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج الى مصادمة مايصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف وأما الانسان فانه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذى هو محتاج اليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على

واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لايصح الا لعبد زكت نفسه بكمال التقوى والاستقصاء فى الزهد فى الدنيا وانتزع منه متابعة الهوى ومتى بقى على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لايدوم روحه فى العمل بل ينشط وقتا ويسأم وقتا ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شئ من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا واذا صح فى الزهد والتقوى فان ترك العمل بالجوارح لايفتر عن العمل بالقلب فمن رام دوام الروح واستحلاء الدؤب فى العمل فعليه بحسم مادة الهوى والهوى روح النفس لايزول ولكن تزول متابعته والنبى عليه السلام مااستعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته فقال أعوذ

الترتيب وليس له قوة الصبر ألبتة اذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما للتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي الاجند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي اليه الهداية والتعريف فالبهيمة لامعرفة لها ولاهداية الى مصلحة العواقب بل الى مقتضى شهواتها في الحال فقط فلذلك لاتطلب الا اللذيذ وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلاتطلبه ولاتعرفه فصار الانسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية مالم تكن له قدرة على ترك ماهو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لاقدرة له على دفعه فافتقر الى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى وذلك بحسب امداد الله تعالى عبده بالتأييد كما أن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لاينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق باتباع الشياطين فاذن ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات في الدنيا والآخرة فاذا قوي يقينه أعني المعرفة التي تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث الدين واذا قوي ثباته تمت الافعال على خلاف ماتتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيره اياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين واذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوي لم يخف عليك أن جانب اليمين الذي هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ينبغي أن يكون مسلما له فهو اذا صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء اليه فيكتب اعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء اليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات باثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولان الملائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبان فلاثباتهما الحسنات والسيئات وانما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لايطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ماتليق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لاتدركه الابصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت قيامته وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وفيها يقال كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلايكون وحده بل ربما يحاسب على ملا من الخلق وفيها يساق المتقون الى الجنة والمجرمون الى النار زمرا لا آحادا والهول الاول هو هول القيامة الصغرى ولجميع

بك من هوى متبع ولم يستعذ من وجود الشح فانه طبيعة النفس ولكن استعاذ من طاعته فقال وشح مطاع ودقائق متابعة الهوى تنبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر اليهم وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال في النوم والاكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع وهذا شغل من ليس له شغل الا في الدنيا * ثم يصلي العبد قبل العصر أربع ركعات فان أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر في تنوير الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ في الاربع قبل العصر اذا زلزلت والعاديات والقارعة وألهاكم ويصلي العصر ويجعل

أهوال القيامة الكبرى نظيرفي القيامة الصغرى مثل زلزلة الارض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة اذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وان لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الانسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه لانه انما يتضرر عند زلزلة جميع الارض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان واعلم انك أرضي مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فأما بدن غيرك فليس بحظك والارض التي أنت جالس عليها بالاضافة الى بدنك ظرف ومكان وانما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه والا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه اذ ليس يتزلزل به بدنك فحظك من زلزلة الارض كلها زلزلة بدنك فقط فهي أرضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وسمعك و بصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا الى جميع أجزائك فاذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الارض زلزالها فاذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فاذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا أبطل سمعك و بصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا فاذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجر من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فاذا التفت احدى ساقيك بالاخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا فاذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الارض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الاحوال والاهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر الى الكواكب والاعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لانها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه اذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك اذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص و بطلت السموات والارض ونسفت الجبال وتمت الاهوال واعلم أن هذه الصغرى وان طولنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشير أوصافها وهي بالنسبة الى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فان للانسان ولادتين احداهما الخروج من الصلب والترائب الى مستودع الارحام فهو في الرحم في قرار مكين الى قدر معلوم وله في سلوكه الى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها الى أن يخرج من مضيق الرحم الى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى الى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم الى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت الى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا الى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالاولى فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وما النشأة الثانية الا على قياس النشأة الاولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين واليه الاشارة بقوله تعالى وننشئكم فيما لا تعلمون فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء الى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالاعور الدجال فما أعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك المسكين و بين يديك هذه الاهوال فان كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الانبياء كفى بالموت واعظا أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم اللهم هون على محمد سكرات الموت أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون و يأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من

من قراءته في بعض الايام والسماء ذات البروج وسمعت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الدماميل و يقرأ بعد العصر ما ذكرناه من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك فاذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة و بقي وقت الاذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده في الدنيا و يسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوي عزائم المريدين فاذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الاذكار وان عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتروح بالتنقل في أنواع الاذكار وان كان له وجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه في أول النهار ولا يخرج

عندهم فهم معدومون كلا ان كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين وذلك لانا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴿وانرجع الى الغرض﴾ فان هذه تلويحات تشير الى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول قد ظهر ان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيأ على الصبيان والمجانين اذ قد ذكرنا أن الحسنة في الاقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل الى الاستفادة فلا يتصور منهما اقبال واعراض وهما لا يكتبان الا الاقبال والاعراض من القادر بن على الاقبال والاعراض ولعمري انه قد تظهر مبادي اشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح الى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الآخرة بل الى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق ان كان من الابرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الاخيار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار الى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم ﴿بيان كون الصبر نصف الايمان﴾ اعلم أن الايمان تارة يختص في اطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يخص بالاعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللاعمال أبواب ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى اطلاقين (أحدهما) أن يطلق على التصديقات والاعمال جميعا فيكون للايمان ركنان أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده الى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث الى آخره * الاعتبار الثاني أن يطلق على الاحوال المثمرة للاعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد الى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما وله بالاضافة الى ما يضره حال الصبر وبالاضافة الى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الايمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الاول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر لان كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الاعمال والاحوال ونسبتها الى الايمان والاصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الايمان فان اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة

﴿بيان الاسامي التي تتجدد للصبر بالاضافة الى ما عنه الصبر﴾

اعلم ان الصبر ضربان أحدهما ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو اما بالفعل كتعاطي الاعمال الشاقة اما من العبادات أو من غيرها واما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا اذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر

من النزول الاوهو على الوضوء وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازه المشايخ والصالحون ويقول كلما خرج من منزله بسم الله ما شاء الله حسبي الله لا قوة الا بالله اللهم اليك خرجت وأنت أخرجتني وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما تيسر له ولو تمرة أو لقمة فان القليل بحسن النية كثير وروى ان عائشة رضي الله عنها أعطت السائل عنبة واحدة وقالت ان فيها لمثاقيل ذر كثير * وجاء في الخبر كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته ويكون من ذكره من العصر الى المغرب مائة مرة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من قال ذلك كل يوم مائة

النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب ان كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمي عفة وان كان عن احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخد وشق الجيوب وغيرها وان كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وان كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن وان كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما ويضاده التذمر وان كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وان كان في اخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوما وان كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده الحرص وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال هو الصبر لانه أكثر أعماله وأعزها كما قال الحج عرفة وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى والصابرين في البأساء أي المصيبة والضراء أي الفقر وحين البأس أي المحاربة أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون فاذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعاني من الاسامي يظن أن هذه الاحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الاسامي مختلفة والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعاني أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الاسامي فانها وضعت دالة على المعاني فالمعاني هي الاصول والالفاظ هي التوابع ومن يطلب الاصول من التوابع لابد وأن يزل والى الفريقين الاشارة بقوله تعالى أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم فان الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه الا بمثل هذه الانعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

(بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف)

اعلم ان باعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة أحوال (أحدها) أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الاقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين واياهم ينادي المنادي يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية * الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله واليهم الاشارة بقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد ارشادهم فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالاماني وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وصاحب هذه الحالة اذا وعظ قال أنا مشتاق الى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست أطمع فيها أو لم يكن مشتاقا الى التوبة ولكن قال ان الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به الى توبتي وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل عقله الا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل الى قضاء شهوته فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه الى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لانه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن يستسخر وسلط ما حقه أن يتسلط عليه وانما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وانما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر بل هو كمن

مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك ومائتا مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله الكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ومائة مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ومائة مرة ماشاء الله لا قوة الا بالله ورأيت بعض الفقراء من المغرب بمكة وله سبحة فيها ألف

قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه الى أبغض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لان الهوى أبغض اله عبد في الارض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الارض * الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق اليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فانه اما أن يغلب جميع الشهوات أولا يغلب شيأ منها أو يغلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله تعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم أضل سبيلا اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ولذلك قيل

ولم أر في عيوب الناس عيبا * كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر الى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بادنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بادنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقى في مصارعته اعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد الا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات * أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين * وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين * وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذه الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا * واعلم ان الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم * فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن اظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغي أن يخيل اليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة

(بيان مظان الحاجة الى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الاحوال)

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين أحدهما هو الذي يوافق هواه والآخر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الاحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو اذا لا يستغني قط عن الصبر (النوع الاول) ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك الى البطر والطغيان فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها الا صديق وقال سهل الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وقال عز وجل ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال صلى الله عليه وسلم الولد مبخلة مجبنة محزنة ولما نظر عليه السلام

حبة في كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتي عشرة مرة بأنواع الذكر (ونقل) عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح سبحان الله العلي الديان سبحان الله شديد الاركان سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شان سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح في كل مكان (روي) ان بعض الابدال بات على شاطئ البحر فسمع في هدء الليل هذا التسبيح فقال من الذي أسمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت فقلت ما اسمك فقال مهليائيل فقلت

الى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة انى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسى أن أخذته ففى ذلك عبرة لاولى الابصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن اليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالانفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وانما كان الصبر على السراء أشد لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحجامة والفصد اذ تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه اذا حضرته الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء* (النوع الثانى)* ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو اما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى ازالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام (القسم الاول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان (الضرب الاول) الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لان النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس الا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله أنا ربكم الاعلى ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره اذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد الا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وان كان ممتنعا من اظهاره فان استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر الا عن اضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء فاذن العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع الى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال الاولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات وعند العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس وقد نبه عليه صلوات الله عليه اذ قال انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى وقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات* الحالة الثانية حالة العمل كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الادب الى آخر العمل الاخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور الى الفراغ وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا أى صبروا الى تمام العمل *الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ولا تبطلوا أعمالكم وكما قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والاذى فقد أبطل عمله والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو محتاج الى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى فالعدل هو الفرض والاحسان هو النفل وايتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج الى صبر (الضرب الثانى) المعاصى فما أحوج العبد الى الصبر عنها وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة فان العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت العادة الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعهما ثم ان كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وأنواع المزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التى يقصد بها الازراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفى علومهم وسيرهم

ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (وروى) أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فقال سألتنى عن شئ عظيم ما سألنى غيرك هو لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله عز وجل وأستغفر الله الاول الآخر الظاهر الباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال فاول خصلة ان يحرس من ابليس وجنوده الثانية ان يعطى قنطارا من الاجر الثالثة يرفع له درجة فى الجنة الرابعة يزوجه الله من الحور العين الخامسة اثنا عشر ملكا يستغفرون له السادسة يكون له من الاجر كمن حج واعتمر

ومناصبهم فان ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان احداهما نفي الغير والاخرى اثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه وهي ضد ما أمر به من العبودية ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الانس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من ان الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر على ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا الا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد والا فان لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه ﴿القسم الثاني﴾ مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه كما لو أوذي بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم ما كنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا فقال بعض الاعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فاخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر وقال تعالى ودع أذاهم وتوكل على الله وقال تعالى واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وقال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك الآية وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور أي تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقال صلى الله عليه وسلم صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك ورأيت في الانجيل قال عيسى بن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل ان السن بالسن والانف بالانف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن فحول اليه الخد الايسر ومن أخذ رداءك فاعطه ازارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الاذى فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لانه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا ﴿القسم الثالث﴾ مالا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الاعزة وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الاعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر قال ابن عباس رضي الله عنهما الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على اداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعمائة درجة وانما فضلت هذه الرتبة مع انها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لان كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم فاما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه الا الانبياء لانه بضاعة الصديقين فان ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا فهذا صبر مستنده حسن اليقين وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن انصب له ميزانا أو انشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها الا فعل الله به ذلك وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل اذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا

ويقول أيضا في هذا الوقت وفي أول النهار اللهم أنت خلقتني وأنت هديتني وأنت تطعمني وأنت تسقيني وأنت تميتني وأنت تحييني أنت ربي لا رب لي سواك ولا اله الا أنت وحدك لا شريك لك ويقول ماشاء الله لا قوة الا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء الا الله ويقول حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة ويقرأ المسبعات قبل الغروب ويديم التسبيح والاستغفار بحيث تغيب الشمس وهو في التسبيح والاستغفار ويقرأ عند الغروب أيضا والشمس والليل والمعوذتين ويستقبل الليل كما استقبل النهار قال الله تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو

من دمه فاذا ابرأته ابرأته ولاذنب له وان توفيته فالى رحمتى وقال داود عليه السلام يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الايمان فلا أنزعه عنه أبدا وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر الا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب * وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله قيل وكيف ذلك قال الراضى لايتمنى فوق منزلته وقيل حبس الشبلى رحمه الله فى المارستان فدخل عليه جماعة فقال من أنتم قالوا احباؤك جاؤك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لوكنتم احبائى لصبرتم على بلائى وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها فاصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ويقال ان امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أماتجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قدنال وحسن الصبر فيما قدفات وقال نبينا صلى الله عليه وسلم من اجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفى كمه صرة فافتقدها فاذا هى قد أخذت من كمه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج اليها منى وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء فقال جرنى قليلا الى العدو واجعل الماء فى الترس فانى صائم فان عشت الى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر فى المصائب وليس الامر الى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به أن لاتكون فى نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل فى الاختيار فاعلم أنه انما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة فى الشكوى واظهار الكآبة وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم وهذه الامور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميصاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له افطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبى فقلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ماكنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال مالهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ماصنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وان الله قد قبضه اليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما فى ليلتهما قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرؤا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتنى دخلت الجنة فاذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة وقد قيل الصبر الجميل هو أن لايعرف صاحب المصيبة من غيره ولايخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع اذ يكون من جميع الحاضرين لاجل الموت سواء ولان البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولايفارق الانسان الى الموت ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبى صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال ان هذه رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء بل ذلك أيضا لايخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لامحالة وقد تفيض عيناه اذا عظم ألمه وسيأتى ذلك فى كتاب الرضا ان شاء الله تعالى * وكتب ابن أبى نجيح يعزى بعض الخلفاء أن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له واعلم أن الماضى قبلك هو الباقى لك والباقى بعدك هو المأجور فيك واعلم ان أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذا مهما دفع الكراهة بالتفكر فى نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والاوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات ان وجوب الصبر عام فى جميع الاحوال والافعال فان الذى كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لايستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لايسكن وأكثر جولان

أراد شكورا فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغى أن يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر ولايتخللهما شئ كما لا يتخلل بين الليل والنهار شئ والذكر جميعه أعمال القلب والشكر أعمال الجوارح قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا والله الموفق والمعين

* الباب الحادى والخمسون فى آداب المريد مع الشيخ *

آداب المريد مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب وللقوم فى ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد قال الله تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم * روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى تميم فقال أبو

الخواطر انما يكون فى فائت لاتدارك له أو فى مستقبل لابد وان يحصل منه ماهو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد قلبه و بضاعته عمره فاذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون هذا ان كان فكره و وسواسه فى المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات اذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره أو من يتوهم أنه ينازعه و يخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه بل يقدر المخالفة من أخلص الناس فى حبه حتى فى أهله و ولده و يتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به فى مخالفته ولا يزال فى شغل دائم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لان الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لاتتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال خلقتنى من نار وخلقته من طين فاذا حيث لم يسجد الملعون لابينا آدم صلوات الله عليه و سلامه فلا ينبغى أن يطمع فى سجوده لاولاده ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده واذعانه وانقياده بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وانما وضع الجبهة على الارض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولو جعل وضع الجبهة على الارض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة فلا ينبغى أن يدهشك صدق الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس الى يوم الدين الا أن تصبح وهمومك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء فى القدح فانك ان أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت فى غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين يخلو عن جولان الشيطان والا فمن غفل عن الله تعالى ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين الا الشيطان ولذلك قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يبغض الشاب الفارغ وهذا لان الشاب اذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان و يبيض و يفرخ ثم تزدوج أفراخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لان طبعه من النار واذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع ألبتة بل تسرى شيأ فشيأ على الاتصال فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا تبقى النار اذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال اذا لم تكن شهوة فاذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهى صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو فقال هى نفسك ان لم تشغلها شغلتك فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه الا الموت نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

﴿ بيان دواء الصبر ومايستعان به عليه ﴾

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء و وعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا أو ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الاخلاط التى منها تركب الادوية لامراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض الى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة واذا اختلفت العلل اختلف العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق فى بعض الامثلة فنقول

بكر أمر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الاقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت الا خلافى وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتقدموا لاتتكلموا بين يدى كلامه وقال جابر كان ناس يضحون قبل رسول الله فنهوا عن تقديم الاضحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان قوم يقولون لو أنزل فى كذا وكذا فكره الله ذلك وقالت عائشة رضى الله عنها أى لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم وقال الكلبى لاتسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذى يأمركم به وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لايتصرف فى نفسه وماله الا بمراجعة الشيخ

اذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن
ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه اذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات و يصرفه ذلك
عن المواظبة على الذكر والفكر والاعمال الصالحة فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين
مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه الا تقوية من أردنا أن تكون
له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فاما باعث الشهوة فسبيل
تضعيفه ثلاثة أمور أحدها أن ننظر الى مادة قوتها وهي الاغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن
حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه
فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة للشهوة الثاني قطع أسبابه المهيجة له في الحال فانه انما يهيج بالنظر الى مظان
الشهوة اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر
على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظر سهم مسموم من سهام ابليس
وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه الا تغميض الاجفان أو الهرب من صوب رميه فانه انما يرمي هذا
السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس
الذي تشتهيه وذلك بالنكاح فان كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه وهذا
هو العلاج الانفع في حق الاكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الاعمال ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر
الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عليكم بالباه فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء فهذه ثلاثة
أسباب فالعلاج الاول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف
فتسقط قوته والثاني يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب
مشاهدتها والثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل اليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب
وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقين أحدهما اطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا
وذلك بأن يكثر فكره في الاخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الآثار
ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة اذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحياة وحصل
له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا من
باب المعارف وهو من الايمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوي قوي باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وان
ضعف ضعفه وانما قوة الايمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما أوتي الناس الصبر وعزيمة
اليقين والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرئ
عليها وتقوى منته في مصارعتها فان الاعتياد والممارسة للاعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الاعمال
ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة فقوة الممارسين للاعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين
والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لان قواهم لم تتأكد بالممارسة فالعلاج الاول يضاهي اطماع المصارع
بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند اغرائه اياهم بموسى حيث قال وانكم اذا
لمن المقربين والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى
يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على
الشهوة وان ضعفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا
يمكن استيفاؤه وانما أشدها كف الباطن عن حديث النفس وانما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قمع الشهوات
الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب الى جانب وهذا
لا علاج له ألبتة الا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الاهل والولد والمال والجاه والرفقاء والاصدقاء
ثم الاعتزال الى زاوية بعد احراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هما
واحدا وهو الله تعالى ثم اذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في

وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لا تقدموا لا تمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أبو الدرداء قال كنت أمشي أمام أبي بكر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشي امام من هو خير منك في الدنيا والآخرة وقيل نزلت في أقوام كانوا يحضرون مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا سئل الرسول عليه السلام عن شيء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى فنهوا عن ذلك وهكذا أدب المريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيأ بحضرته من كلام حسن الا اذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له في ذلك وشأن المريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق اليه فتطلعه الى الاستماع وما يرزق

ملكوت السموات والارض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى اذا استولى ذلك على
قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة
المترتبة فى كل لحظة من القراءة والاذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور فان الفكر
بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الاوراد الظاهرة ثم اذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الاوقات الا بعضها اذ
لا يخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وايذاء من انسان
وطغيان من مخالط اذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الانواع الشاغلة * وأما
النوع الثانى فهو ضرورى أشد ضرورة من الاول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش فان تهيئة
ذلك أيضا محوج الى شغل ان تولاه بنفسه وان تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق
كلها يسلم له أكثر الاوقات ان لم تهجم به ملمة أو واقعة وفى تلك الاوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف
فيه من أسرار الله تعالى فى ملكوت السموات والارض ما لا يقدر على عشر عشيره فى زمان طويل لو كان
مشغول القلب بالعلائق والانتهاء الى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير
ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى فى الاحوال والاعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب
الرزق فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من
جذبات الرحمن فانها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك
الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجذوب الى أسفل سافلين لا ينجذب الى أعلى عليين وكل مهموم
بالدنيا فهو منجذب اليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ان لربكم فى أيام دهركم نفحات
ألا فتعرضوا لها وذلك لان تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية اذ قال الله تعالى وفى السماء رزقكم
وما توعدون وهذا من أعلى أنواع الرزق والامور السماوية غائبة عنا فلا ندرى متى ييسر الله تعالى أسباب
الرزق فما علينا الا التفرغ للمحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الارض وينقيها
من الحشيش ويبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه الا بمطر ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر الا أنه يثق بفضل
الله تعالى ورحمته انه لا يخلى سنة عن مطر فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة
من النفحات فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الارادة والاخلاص
وعرضه لمهاب رياح الرحمة وكما يقوى انتظار الامطار فى أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك
النفحات فى الاوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما فى يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان
فان الهمم والانفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بها الامطار فى أوقات الاستسقاء
وهى لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات
الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل الاحوال والمكاشفات حاضرة معك فى قلبك وانما أنت
مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها فلا تحتاج الا الى أن تنكسر الشهوة ويرفع
الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب واظهار ماء الارض بحفر القنى أسهل وأقرب من استنزال الماء
اليها من مكان بعيد منخفض عنها ولكونه حاضرا فى القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف
الايمان تذكرا فقال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وقال تعالى وليتذكر أولوا الالباب وقال تعالى
ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر
وانما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا الى الآخرة
سهل على المؤمن وهجران الخلق فى حب الحق شديد والسير من النفس الى الله تعالى صعب شديد والصبر مع
الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب
الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون
أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهى الربوبية والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع
للقلب لما فيه من المناسبة لامور الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى قل الروح من أمر ربى وليس القلب

من طريق كلام الشيخ يحقق مقام ارادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلعه الى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة الى مقام اثبات شئ لنفسه وذلك جناية المريد وينبغى أن يكون تطلعه الى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج الى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد لان الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه الى الله ويستمطر ويستسقى لهم فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق مأخوذين الى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين الى ما يفتح به عليه لان الشيخ يعلم تطلع الطالب الى قوله واعتداده بقوله والقول كالبذر يقع فى الارض فاذا كان البذر فاسدا

مذموما

مذموما على حسده ذلك وانما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الامر اذ حسده على كونه من عالم الامر فأضله وأغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب الا البقاء لا فناء فيه وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالا لا نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الانسان عجولا راغبا في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر امكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره اذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فعبر عن المخذولين بقوله تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال تعالى ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وقال تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة الى الرسل وأوحوا اليهم ما تم على الخلق من اهلاك العدو واغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له ان سلم ولا دوام له أصلا فنادوا فيهم يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل فالتوراة والانجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وابراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل الا لدعوة الخلق الى الملك الدائم المخلد والمراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الآخرة أما ملك الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاء لا فناء فيه وعز لا ذل فيه وقرة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم الى ملك الدنيا لعلمه بان ملك الآخرة يفوت به اذ الدنيا والآخرة ضرتان ولعلمه بان الدنيا لا تسلم له أيضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلم وتم الاسباب ينقضي العمر حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصده عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان وهذا ملك بالاستحقاق اذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبد الفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه الى حيث يريد ويهوى فما أعظم اغترار الانسان اذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون الا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة قال كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي فهذا اذا هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق الى الملك في الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الامور بعد ان ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لا بد وأن يضيف اليه العمل وعمله في ثلاثة أمور * أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كما

لا ينبت وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها فالشيخ ينقي بذر الكلام عن شوب الهوى ويسلمه الى الله ويسأل الله المعونة والسداد ثم يقول فيكون كلامه بالحق من الحق للحق فالشيخ للمريدين أمين الالهام كما أن جبريل أمين الوحي فكما لا يخون جبريل في الوحي لا يخون الشيخ في الالهام وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى فالشيخ مقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا لا يتكلم بهوى النفس وهوى النفس في القول بشيئين أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه اليه ومع هذا من شأن الشيوخ والثاني ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب وذلك خيانة عند المحققين والشيخ فيما يجري على لسانه راقب النفس تشغله مطالعة نعم الحق في ذلك فاقد

يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور والحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الارض اذ قال تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها * الثاني أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة الا المضادة * الثالث أن يرعى في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة الى الطرف الاقصى من التبذل فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه الا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ثم اذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض الى أن يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيأ فشيأ الى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه والى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى واليه الاشارة بقوله عليه السلام لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه فاذا ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه الى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الاقسام التي فصلناها من قبل فان تفصيل الآحاد يطول ومن راعى التدريج ترقى به الصبر الى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيأ لا يصبر عنه وهذا لا يعرف الا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات فان الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الامر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب والى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين انه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد فقال الصبر في الله تعالى فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فقال فايش قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف وقد قيل في معنى قوله تعالى اصبروا وصابروا ورابطوا اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه

والصبر عنك فمذموم عواقبه * والصبر في سائر الاشياء محمود

وقيل أيضا الصبر يجمل في المواطن كلها * الا عليك فانه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

(الشطر الثاني) من الكتاب في الشكر وله ثلاثة أركان (الاول) في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثاني) في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) في بيان الافضل من الشكر والصبر

﴿ الركن الاول في نفس الشكر ﴾

﴿ بيان فضيلة الشكر ﴾

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ولذكر الله أكبر فقال تعالى فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون وقال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال تعالى وسنجزي الشاكرين وقال عز وجل اخبارا عن ابليس اللعين لاقعدن لهم صراطك المستقيم قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال تعالى وقليل من عبادي الشكور وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال الله تعالى لئن شكرتم لازيدنكم واستثنى في خمسة أشياء في الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء وقال فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وقال ويرزق من يشاء بغير حساب وقال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية اذ قال تعالى والله شكور حليم وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وقال وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (وأما الاخبار) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وروي عن عطاء أنه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبرينا

الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيكون الشيخ لما يجري به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين (وكان) الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الاصحاب بما يلقى اليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فاشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال اذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع الى منزله فرأى ليلته في المنام كان قائلا يقول له أليس الغواص يغوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في مخلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه الا اذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالمنام اشارة الشيخ في ذلك فاحسن أدب المريد مع الشيخ

باعجب مارأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأى شأنه لم يكن عجبا أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى أوقالت فى لحافى حتى مس جلدى جلده ثم قال يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى قالت قلت انى أحب قربك لكنى أوثر هواك فأذنت له فقام الى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ان فى خلق السموات والارض الآية وهذا يدل على ان البكاء ينبغى أن لاينقطع أبدا والى هذا السر يشير مار وى أنه مر بعض الانبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى وقودها الناس والحجارة فانا أبكى من خوفه فسأله أن يجيره من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكى الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أوأشد قسوة ولاتزول قسوته الا بالبكاء فى حال الخوف والشكر جميعا وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال وفى لفظ آخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء وقال صلى الله عليه وسلم الحمد رداء الرحمن وأوحى الله تعالى الى أيوب عليه السلام انى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى فى كلام طويل وأوحى الله تعالى اليه أيضا فى صفة الصابرين أن دارهم دار السلام اذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر الى أزيدهم ولما نزل فى الكنوز مانزل قال عمر رضى الله عنه أى المال نتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال وقال ابن مسعود الشكر نصف الايمان

﴿ بيان حد الشكر وحقيقته ﴾

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الاصل فيورث الحال والحال يورث العمل فاما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولابد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ماقيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه (فالاصل الاول) العلم وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لابد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل اليه النعمة من المنعم بقصد وارادة فهذه الامور لابد من معرفتها هذا فى حق غير الله تعالى فاما فى حق الله تعالى فلايتم الابان يعرف ان النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس اذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الاولى فى معارف الايمان التقديس ثم اذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لامقدس الا واحد وماعداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم ان كل مافى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة اذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا اله الا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وقال ليس شىء من الاذكار يضاعف مايضاعف الحمد لله ولاتظنن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها فى القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا اله الا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بازاء هذه المعارف التى هى من أبواب الايمان واليقين واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الافعال فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشىء فان رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك وايصاله اليه فهو اشراك به فى النعمة فلايرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلايكون موحدا فى حق الملك نعم لاينقص من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة اليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه وبالكاغد

السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما فيه من الصلاح قولا وفعلا (وقيل أيضا) فى قوله تعالى لاتقدموا بين يدى الله ورسوله لاتطلبوا منزلة وراء منزلته وهذا من محاسن الآداب وأعزها وينبغى للمريد أن لايحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الارادة وهذا يعز فى المريدين فارادته للشيخ تعطيه فوق مايتمنى لنفسه ويكون قائما بادب الارادة قال السرى رحمه الله حسن الادب ترجمان العقل وقال أبو عبد الله ابن خفيف قال لى رويم يابنى اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا * وقيل التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل

الذي كتبه عليه فانه لايفرح بالقلم والكاغد ولايشكرهما لانه لايثبت لهما مدخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الايصال وأنه لو رد الامر اليه ولم يكن من جهة الملك ارهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم اليه شيأ فاذا عرف ذلك كان نظره الى الخازن الموصل كنظره الى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من اضافة النعمة الى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا فى يد الكاتب وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها فان الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل شاءت أم أبت كالخازن المضطر الذى لايجد سبيلا الى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر اذ سلط الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعى وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة فى أن يعطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لايحصل الا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لايجد سبيلا الى تركه فهو اذا انما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو اذا انما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة الى نعمة أخرى هو يرجوها وانما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألقى فى قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا الى الايصال اليك فان عرفت الامور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته الهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال الله عز وجل علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا فاذا لاتشكر الا بأن تعرف أن الكل منه فان خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الاصل (الاصل الثانى) الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن انما يكون شكرا اذا كان حاويا شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول الملك الذى يريد الخروج الى سفر فانعم بفرس على انسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه أحدها أن يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فى فرحه مثل ذلك الفرح *الوجه الثانى أن يفرح به لا من حيث انه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لايفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك *الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه فيخرج فى خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لان لاينعم الملك بشىء من ماله على أحد الا بواسطته ثم انه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات فالاولى لايدخل فيها معنى الشكر أصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وانما الشكر التام فى الفرح الثالث وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر الى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا وأمارته أن لايفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما لم

مقام أدب فمن يلزم الادب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الادب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى كان ثابت بن قيس بن شماس فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت فكان اذا كلم انسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فانزل الله تعالى الآية تأديباله ولغيره (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا محمد بن المثنى قال ثنا مؤمل بن اسمعيل قال ثنا نافع بن عمر بن

يرد صاحب الفرس الفرس لانه جواد ومهملج بل من حيث انه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلى رحمه الله الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس من الالوان والاصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ فى حال الصحة الابذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة ويستحلى الاشياء المرة كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فاذا هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى فان لم تكن ابل فمعزى فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية أما الاولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها اليه ﴿الاصل الثالث﴾ العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته حتى ان شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الاذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الاعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير فاعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذى أردت منك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شئ الى عبد مملوك لا يقدر على شئ فالاحرى بالعبد ان لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف الى الشكوى أن تكون شكواه الى الله تعالى فهو المبلى والقادر على ازالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكوى الى غيره ذل واظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح قال الله تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فالشكر باللسان من جملة الشكر وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يا أمير المؤمنين لو كان الامر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلها الينا فضلك وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك وانما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف فهذه هى أصول معانى الشكر المحيطة بمجموع حقيقته فاما قول من قال ان الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر الى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب وقول من قال ان الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه نظر الى مجرد عمل اللسان وقول القائل ان الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة جامع لاكثر معانى الشكر لا يشذ منه الا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك فى الشكر طفيليا اشارة الى أن معنى المعرفة من معانى الشكر فقط وقول الجنيد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة اشارة الى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد فى حالتين لانهم لا يتكلمون الا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج اليه واعراضا عما لا يحتاج اليه فلا ينبغى أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وانه لو عرض عليهم جميع المعانى التى شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا الا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ فى أن اسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعانى تكون من توابعه

جميل الجمحى قال حدثنى حابس بن أبى مليكة قال حدثنى عبد الله بن الزبير أن الاقرع بن حابس قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر استعمله على قومه فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله فتكلما عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى علت أصواتهما فقال أبو بكر لعمر ما أردت الا خلافى وقال عمر ما أردت خلافك فانزل الله تعالى الآية فكان عمر بعد ذلك اذا تكلم عند النبى صلى الله عليه وسلم لا يسمع كلامه حتى يستفهم وقيل لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبى الا كأخ السرار فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام الا اذا بسطه الشيخ فرفع الصوت تنحية جلباب الوقار والوقار اذا سكن القلب عقل اللسان مايقول وقد يتازل

ولوازمه ولسنا نقصد فى هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شئ والله الموفق برحمته

﴿ بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى ﴾

لعلك يخطر ببالك ان الشكر انما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر فانا نشكر الملوك اما بالثناء ليزيد محلهم فى القلوب و يظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التى هى اعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم فى صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم الا بشئ من ذلك وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين أحدهما أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والاغراض مقدس عن الحاجة الى الخدمة والاعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والاطراء وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا سجدا فشكرنا اياه بما لاحظ له فيه يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام فى بيوتنا أو نسجد أو نركع اذلا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ولا حظ لله تعالى فى أفعالنا كلها * الوجه الثانى أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا اذ جوارحنا وقدرتنا وارادتنا وداعيتنا وسائر الامور التى هى أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للاول منا بل كان الثانى يحتاج الى شكر كما يحتاج الاول ثم لا يمكن شكر الشكر الا بنعمة أخرى فيؤدى الى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك فى الامرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل الى الجمع فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتنى وفى خبر آخر اذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن ادراك معنى ما أوحى اليهم فانى أعلم استحالة الشكر لله تعالى فاما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع الى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الاولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهى أعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها الى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وانه المشكور وانه المحب وانه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره وأن كل شئ هالك الا وجهه وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا لان الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد اذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود لغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت الى غيره لم يكن له وجود ألبتة وانما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم الا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذا ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فان نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره واليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قرأ انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب فقال واعجباه أعطى وأثنى اشارة الى أنه اذا أثنى على اعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد المهنى حيث قرئ بين يديه يحبهم ويحبونه فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لانه انما يحب نفسه أشار به الى أنه المحب وانه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها الا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف اذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع اذا أحب صنعته فقد أحب نفسه والوالد اذا أحب ولده من حيث انه ولده فقد أحب نفسه وكل ما فى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته فان أحبه فما أحب الا نفسه واذا لم يحب الا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير الا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى

وطول

باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ مالا يستطيع المريد أن يشبع النظر الى الشيخ وقد كنت أحم فيدخل على عمى وشيخى أبو النجيب السهروردى رحمه الله فيترشح جسدى عرقا وكنت أعنى العرق لتخف الحمى فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على ويكون فى قدومه بركة وشفاء وكنت ذات يوم فى البيت خاليا وهناك منديل وهبه لى الشيخ وكان يتعمم به فوقع قدمى على المنديل اتفاقا فتألم باطنى من ذلك وهالنى الوطء بالقدم على منديل الشيخ وانبعث من باطنى من الاحترام ما أرجو بركته (قال ابن عطاء) فى قوله تعالى لا ترفعوا أصواتكم زجر عن الادنى لئلا يتخطى أحد الى ما فوقه من ترك الحرمة وقال سهل فى ذلك لا تخاطبوه الا مستفهمين (وقال) أبو بكر بن طاهر

وطول ظله أربعة أذرع واعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين واليه الاشارة بقوله تعالى ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فاكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ثم بين ان ضحك العارفين عليهم غدا أعظم اذ قال تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة فقال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فهذا أحد النظرين * النظر الثانى نظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين لانهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وانما وجودهم من حيث أوجد والا من حيث وجد وافرق بين الموجود وبين الموجد وليس فى الوجود الا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان واذا كان كل من عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام * الفريق الثانى ليس بهم عمى ولكن بهم عور لانهم يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الاخرى ان تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فاثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى الى العمش أدرك تفاوتا بين الموجودين فاثبت عبدا وربا فبهذا القدر من اثبات التفاوت والبعض من الموجود الآخر دخل فى حد التوحيد ثم ان كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى فان بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان الى المحو فينمحى عن رؤيته ما سوى الله فلا يرى الا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصان وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هى الكحل الذى به يحصل أنوار الابصار والانبياء هم الكحالون وقد جاؤا داعين الى التوحيد المحض وترجمته قول لا اله الا الله ومعناه أن لا يرى الا الواحد الحق والواصلون الى كمال التوحيد هم الاقلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الاقصى المقابل لطرف التوحيد اذ عبدة الاوثان قالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الاكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الاحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

لكل الى شأو العلا حركات * ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له واسجد واقترب قال فى سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم أعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير الا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الافعال وترقى الى مصادر الافعال وهى الصفات فقال أعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات الى مشاهدة الذات فقال وأعوذ بك منك وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارا منه اليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه اذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم لا أحصى خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله أنت كما أثنيت على نفسك بيان أنه المثنى والمثنى عليه وان الكل منه بدا واليه يعود وأن كل شئ هالك الا وجهه فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى الا الله تعالى وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر الى ماذا انتهت نهايته اذ انتهى الى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة

لا تبدؤه بالخطاب ولا تجيبوه الا على حدود الحرمة ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أى لا تغلظوا له فى الخطاب ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضا ولكن فخموه واحترموه وقولوا له يا نبى الله يا رسول الله ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ واذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب ولما كلفت النفوس بمحبة الاولاد والازواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهى تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها فاذا امتلا القلب حرمة ووقارا يعلم اللسان العبارة (وروى) لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى فقال ما يبكيك يا ثابت قال هذه الآية أتخوف ان تكون نزلت فى أن

الى أخرى الاو يرى الاولى بعدا بالاضافة الى الثانية فكان يستغفر الله من الاولى و يرى ذلك نقصا فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أولها وان كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالاضافة الى آخرها فكان استغفاره لذلك ولما قالت عائشة رضى الله عنها أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا معناه أفلا أكون طالبا للمزيد فى المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم واذا تغلغلنا فى بحار المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع الى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول الانبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق الى كمال التوحيد الذى وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر فى ذلك المقام بالاضافة الى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ولا يعرف ذلك الا بمثال فأقول يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل الى عبد قد بعد منه مركوبا وملبوسا ونقدا لاجل زاده فى الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان احداهما أن يكون قصده من وصول العبد الى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية فى خدمته والثانية أن لا يكون للملك حظ فى العبد ولا حاجة به اليه بل حضوره لا يزيد فى ملكه لانه لا يقوى على القيام بخدمة تغنى فيه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو فى نفسه لا لينتفع الملك به فنزل العباد من الله تعالى فى المنزلة الثانية لا فى المنزلة الاولى فان الاولى محال على الله تعالى والثانية غير محال ثم اعلم ان العبد لا يكون شاكرا فى الحالة الاولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته ما لم يقم بخدمته التى أرادها الملك منه وأما فى الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا أو كافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه اليه مولاه فيما أحبه لاجله لا لاجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد فى بعده منه فهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد الا فى الطريق فقد شكر مولاه اذا استعمل نعمته فى محبته أى فيما أحبه لعبده لا لنفسه وان ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته أى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه وان جلس ولم يركب لا فى طلب القرب ولا فى طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته اذ أهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وانما سعادتهم فى القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى اذ قال لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا الآية فاذا نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لاجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها فى معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية وان عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق فى الدنيا انما خلق آلة للعبد ليتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله فى الاسباب التى استعملها فى الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها فى طريق البعد فهو كافر جار فى محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه وو وراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من افشائه وقد انحل بهذا الاشكال الاول وهو انه اذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر وبهذا أيضا ينحل الثانى فانا لم نعن بالشكر الا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك وثناؤه نعمة أخرى منه اليك فهو الذى

اعطى

تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون وأنا رفيع الصوت على النبى صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملى وأكون من أهل النار فمضى عاصم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى اذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى عاصم النبى وأخبره بخبره فقال اذهب فادعه فجاء عاصم الى المكان الذى رآه فيه فلم يجده فجاء الى أهله فوجده فى بيت الفرس فقال له ان رسول الله يدعوك فقال اكسر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أعطى وهو الذى أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى الى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجد له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجد ولكن بمعنى انك محل له وقد وجد بالقدرة الازلية فيك فوصفك بأنك شاكر اثبات شيئية لك وأنت شئ اذ جعلك خالق الاشياء شيأ وانما أنت لاشئ اذ كنت أنت ظانا لنفسك شيأ من ذاتك فاما باعتبار النظر الى الذى جعل الاشياء أشياء فأنت شئ اذ جعلك شيأ فان قطع النظر عن جعله كنت لاشئ تحقيقا والى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل له يا رسول الله ففيم العمل اذا كانت الاشياء قد فرغ منها من قبل فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وان كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله اعملوا وان كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الاعضاء وهى أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الاول شرط للثانى كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض اذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الارادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض أى هو شرط ومعنى كونه شرطا انه لا يستعد لقبول فعل الحياة الا جوهر ولا يستعد لقبول العلم الا ذو حياة ولا لقبول الارادة الا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى ان بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره وهذا اذا حقق ارتقى الى درجة التوحيد الذى ذكرناه فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا والا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان وما للبناشئ فكيف نذم وانما الكل الى الله تعالى فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور وذلك سبب للوصول الى جوار الله والله تعالى مسبب الاسباب ومرتبها فمن سبق له فى الازل السعادة يسر له هذه الاسباب حتى يقوده بسلسلتها الى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم واذا لم يعلم لم يخف واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا واذا لم يترك الركون الى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم أجمعين فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فما من أحد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والامن والغرور عليه فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ولا قاهر الا الله الواحد القهار ولا قادر الا الملك الجبار واذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الامر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الا ذلك اليوم فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فانه أصل أسباب الهلاك

﴿بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه﴾

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه اذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والاخبار الثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الاخير عسير وهو لاجل ذلك عزيز فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لا يطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو ادراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه اذ ما خلق شيأ فى العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون

ما يبكيك يا ثابت فقال أنا صبيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول الله أما ترضى أن تعيش سعيدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتى أبدا على رسول الله فأنزل الله تعالى ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قال أنس كنا ننظر الى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه درع فرآه

النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الامطار وذلك لانشقاق الارض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للانعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه اذ قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا الآية وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر اليها وأشار اليه قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الى عشرة الى ألف الى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم الى ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للابصار لا للبطش واليد للبطش لا للمشي والرجل للمشي لا للشم فأما الاعضاء الباطنة من الامعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والاعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها الا قدرا يسيرا بالاضافة الى ما في علم الله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فاذا كل من استعمل شيأ في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس اذ الابصار يتم بهما وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لان المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول الى الله تعالى ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر الا بدوام البدن ولا يبقى الا بالغذاء ولا يتم الغذاء الا بالارض والماء والهواء ولا يتم ذلك الا بخلق السماء والارض وخلق سائر الاعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لاجل البدن والبدن مطية النفس والراجع الى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق الآية فكل من استعمل شيأ في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق اليهما من حيث ان كل انسان محتاج الى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج اليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج الى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج الى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير اذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بثياب أو عبدا بخف أو دقيقا بحمار فهذه الاشياء لا تناسب فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا فافتقرت هذه الاعيان المتنافرة المتباعدة الى متوسط بينهما يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى اذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الاموال حتى تقدر الاموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث انهما مساويان بشيء واحد اذا متساويان وانما أمكن التعديل بالنقدين اذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الامر فاذا خلقهما الله تعالى لتتداولهما الايدي ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما الى سائر الاشياء

رجل من الصحابة بعد موته في المنام فقال له اعلم أن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعي فذهب بها وهو في ناحية من العسكر وعنده فرس يستن في طيله وقد وضع على درعي برمة فائت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي وائت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له ان علي دينا حتى يقضى عني وفلان من عبيدي عتيق فأخبر الرجل خالدا فوجد الدرع والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس رضي الله عنهما لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها الا هذه فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعتبر المريد الصادق ويعلم ان الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وان الذي يعتمده

لانهما عزيزان فى أنفسهما ولا غرض فى أعيانهما ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شىء لا كمن ملك ثوبا فانه لم يملك الا الثوب فلو احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب لان غرضه فى دابة مثلا فاحتيج الى شىء هو فى صورته كأنه ليس بشىء وهو فى معناه كأنه كل الاشياء والشىء انما تستوى نسبته الى المختلفات اذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة الى كل غرض وكالحرف لا معنى له فى نفسه وتظهر به المعانى فى غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذا من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لانه اذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة اذ لا غرض للآحاد فى أعيانهما فانهما حجران وانما خلقا لتتداولهما الايدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الاسطر الالهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط الهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن ادراكه فقال تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والاعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد وانما الاوانى لحفظ المائعات ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الالهية وقيل له من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لانهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما اذ لا غرض فى عينهما فاذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة اذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشترى به طعاما ودابة اذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به الى مقصوده فانهما وسيلتان الى الغير لا غرض فى أعيانهما وموقعهما فى الاموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون ان الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره وكموقع المرآة من الالوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد متقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصل الى الغير ظلم كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد الا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم (فان قلت) فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوسل اذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ففى المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به وهو تيسر التوسل به الى غيره وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث ان ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الارض وأخذه بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم الى وضع الدرهم على الارض وأخذه بعينه فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس اليه الا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه اذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردىء فلا ينتظم العقد وان طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء لان الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر اليهما فيما يقصد فى عينه وما لا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر الى مضافات دقيقة فى صفاته وانما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة فى أعيانها وحقها أن لا تقصد وأما اذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فانما لم يجز ذلك لانه لا يقدم على هذا الا مسامح قاصد للاحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر

مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم بواجب الادب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه وكما ان اللسان ترجمان القلب وتهذيب اللفظ لتأدب القلب فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ (قال أبو عثمان) الادب عند الاكابر وفى مجالسة السادات من الاولياء يبلغ بصاحبه الى الدرجات العلا والخير فى الاولى والعقبى ألا ترى الى قول الله تعالى ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم ومما علمهم الله تعالى قوله سبحانه ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون وكان هذا

والمعاوضة لاحد فيها ولا أجر فهو أيضا ظالم لانه اضاعة خصوص المسامحة واخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الاطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الايدي ويؤخر عنها الاكل الذي أريدت له فما خلق الله الطعام الا ليؤكل والحاجة الى الاطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها الى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة الا مستغن عنها اذ من معه طعام فلم لا يأكله ان كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا اليه فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب نعم بائع البر بالتمر معذور اذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج الى منع لان النفوس لا تسمح به الا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لا يرضى بها صاحب الجيد وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الاطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافيات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالاطعمة دون المكيلات اذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه اذ خصصه بالاقوات ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن ينضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالاحوال والاشخاص فمن المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولان أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وانما تختلف في وجوه التحديد كما يحد شرع عيسى بن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر لان قليله يدعو الى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الاصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا الا من قد عرف الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر الا أولو الالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء واذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه اما شكر واما كفر اذ لا يتصور أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تتناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين اذ خلق الله لك اليدين وجعل احداهما أقوى من الاخرى فاستحق الاقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر الا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليدين الى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف وبعضها خسيس كازالة النجاسة فاذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك اذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لانه خلق الجهات لتكون متسعك في حركاتك وقسم الجهات الى ما لم يشرفها والى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه الى نفسه استمالة لقلبك اليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار اذا عبدت ربك وكذلك انقسمت أفعالك الى ما هي شريفة كالطاعات والى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق فاذا رميت بصاقك الى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال

الحال من وفد بني تميم جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا يا محمد اخرج الينا فان مدحنا زين وذمنا شين قال فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم وهو يقول انما ذلكم الله الذي ذمه شين ومدحه زين في قصة طويلة وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم فغلبهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والانصار بالخطبة وفي هذا تأديب للمريد في الدخول على الشيخ والاقدام عليه وتركه الاستعجال وصبره الى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته * سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان اذا جاء اليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع الى خلوته واذا جاء أحد ممن ليس من زمرة

عبادتك وكذلك اذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل فللرجل فيه حظ والبداءة
في الحظوظ ينبغي أن تكون بالاشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل
وهذا عند العارفين كبيرة وان سماه الفقيه مكروها حتى ان بعضهم كان قد جمع أكرارا من الحنطة وكان
يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فاريد ان أكفره بالصدقة
نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الامر في هذه الامور لانه مسكين بلي باصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة
الانعام وهم منغمسون في ظلمات أطم وأعظم من ان تظهر أمثال هذه الظلمات بالاضافة اليها فقبيح أن يقال
الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره فقد تعدى من وجهين أحدهما الشرب والآخر الاخذ باليسار ومن باع
خمرا في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء
ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الادب في قضاء الحاجة من حيث انه لم
يجعل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض فالسيد قد
يعاقب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير
اذنه حكم ونكاية في نفسه فكل ما راعاه الانبياء والاولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه
هذه الضرورة والا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد الى
درجات القرب نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود
القرب الى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة
مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الاشجار وخلق اليد أما اليد فانها لم تخلق للعبث
بل للطاعة والاعمال المعينة على الطاعة وأما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق اليه الماء
وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه
ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل فان كان له غرض صحيح فله ذلك اذ الشجر
والحيوان جعلا فداء لاغراض الانسان فانهما جميعا فانيان هالكان فافناء الاخس في بقاء الاشرف مدة ما
أقرب الى العدل من تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى وسخر لكم ما في السموات وما في الارض
جميعا منه نعم اذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وان كان محتاجا لان كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد
الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظالما فصاحب
الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الارض وساق اليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره
فيرجح جانبه بذلك فان نبت ذلك في موات الارض لا بسعي آدمي اختص بمغرسه أو بغرسه فلابد من طلب
اختصاص آخر وهو السبق الى أخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء
عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض اذ لا ملك الا لملك الملوك الذي له ما في السموات والارض وكيف
يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره نعم الخلق عباد الله والارض مائدة الله وقد أذن
لهم في الاكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها
براجمه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لان اللقمة صارت ملكا له بالاخذ باليد فان اليد وصاحب
اليد أيضا مملوك ولكن اذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول
ضرب من الترجيح والاختصاص والاخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن
مزاحمته فهكذا ينبغي ان تفهم أمر الله في عباده ولذلك نقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه
وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله
وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم نعم لا يدخل
هذا في حد فتاوى الفقه لان مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة وأواخر
الاعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام
غير مهم وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو واباحتنا ذلك اياهم لا يدل على

الفقراء يخرج ويجالس معه فخطر لبعض الفقراء نوع انكار لتركه الخروج الى الفقير وخروجه لغير الفقير فانتهى ما خطر للفقير الى الشيخ فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبية فنكتفي معه بموافقة القلوب ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالادب مع الشيخ (قيل) لابي منصور المغربي كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لا صحبته فالصحبة مع الاخوان والاقران ومع المشايخ الخدمة وينبغي للمريد أنه كلما أشكل عليه شئ من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما

أن اللهو واللعب حق فكذلك اباحتنا للعوام حفظ الاموال والاقتصار فى الانفاق على قدر الزكاة لضرورة
ما جبلوا عليه من البخل ليدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن اليه اذ قال تعالى ان يسئلكموها فيحفكم تبخلوا
بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذى لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله الا بقدر زاد الراكب
فكل عباد الله ركاب لمطايا الابدان الى حضرة الملك الديان فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج
اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل
وسائر الاسباب التى بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى
فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا تفى الا بالقليل
وانما أوردناه هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وفرح ابليس لعنه الله
بقوله ولا تجد أكثرهم شاكرين فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمور آخر وراء
ذلك تنقضى الاعمار دون استقصاء مباديها فاما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا
يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير فان قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام الى أن لله تعالى حكمة فى كل شئ
وانه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالهم مانعا من
تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة الى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع
الاسباب من أن تنساق الى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الاشكال باق وهو أن
فعل العبد المنقسم الى ما يتمم الحكمة والى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى فأين العبد فى البين حتى يكون
شاكرا مرة وكافرا أخرى فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات
وقد رمزنا فيما سبق الى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من
علم منطق الطير ويجحدها من عجز عن الايضاح فى السير فضلا عن أن يجول فى جو الملكوت جولان
الطير فنقول ان لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى
وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن
لها فى العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم الى مبادى اشراقها
فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض فى نور الشمس ولكن
لضعف فى أبصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها الى أن يستعيروا من حضيض عالم
المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيأ ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب
استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم فى الوجود الى
أقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الاقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها
بمثل الضرورة التى سبقت عبارة المشيئة فهى توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات التى هى حروف
وأصوات للمتفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم
انقسمت الافعال الصادرة من القدرة الى ما ينساق الى المنتهى الذى هو غاية حكمتها والى ما يقف دون الغاية وكان
لكل واحد نسبة الى صفة المشيئة لرجوعها الى الاختصاصات التى بها تمت القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة
البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل انهما جميعا داخلان فى
وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى فى النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند
طالبى الفهم من الالفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه الى من سبقت له المشيئة
الازلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم
والى من سبقت لهم فى الازل أن يستعملهم لسياقة حكمته الى غايتها فى بعض الامور فكان لكل واحد من
الفريقين نسبة الى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين فى اتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير
للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه فى الازل فعل
وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال وظهر على

السلام كيف كان
الخضر يفعل أشياء
ينكرها موسى واذا
أخبره الخضر بسرها
يرجع موسى عن
انكاره فاينكره المريد
لقلة علمه بحقيقة
ما يوجد من الشيخ
فللشيخ فى كل شئ
عذر بلسان العلم
والحكمة (سأل)
بعض أصحاب الجنيد
مسألة من الجنيد
فاجابه الجنيد فعارضه
فى ذلك فقال الجنيد
فان لم تؤمنوا لى
فاعتزلون وقال بعض
المشايخ من لم يعظم
حرمة من تأدب به حرم
بركة ذلك الادب وقيل
من قال لاستاذه لا
لا يفلح أبدا (أخبرنا)
شيخنا ضياء الدين عبد
الوهاب بن على قال أنا
أبو الفتح الهروى قال
أنا أبو نصر الترياقى
قال أنا أبو محمد الجراحى
قال أنا أبو العباس
المحبوبى قال أنا أبو
عيسى الترمذى قال
حدثنا هناد عن أبى
معاوية عن الاعمش
عن أبى صالح عن أبى

من ارتضاه فى الازل فعل انساقت بسببه الحكمة الى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والاطراء زيادة فى الرضا والقبول والاقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله ان ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فاذا تم زينته قال يا جميل ما أجملك وأجل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى الا على نفسه وانما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الامور فى الازل وهكذا تتسلسل الاسباب والمسببات بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث بل عن ارادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل انه كلمح بالبصر أو هو أقرب ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بازاء الامر الواحد الكلى ولفظ القدر بازاء التفصيل المتمادى الى غير نهاية وقيل ان شيأ من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر نخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الامر والاحتواء على مجامعه فالجموا عما لم يطيقوا وخوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فالهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والارض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضئ ولو لم تمسسه نار فمسته نار فاشتعل نورا على نور فاشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فادركوا الامور كلها كما هى عليه فقيل لهم تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا واذا ذكر القدر فامسكوا فان للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الابصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لابصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا الى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وان كان لا يحيا به حياة المترددين فى كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شرابا طيبا عند طيب * كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الارض فضلة * وللارض من كاس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الامر وآخره ولا تفهمه الا اذا كنت أهلا له واذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج الى قائد يقودك والاعمى يمكن أن يقاد ولكن الى حد ما فاذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأرق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى واذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يمكن العبور الا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السير عليها الى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشى على الماء الى المشى على الارض والسباحة يمكن أن تتعلم فاما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لمشى على الهواء فهذه رموز واشارات الى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا الى افهام الخلق اذ عرف أنه ما خلق الجن والانس الا ليعبدون فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والامين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويبغض الآخر واسمه ابليس وهو اللعين المنظر الى يوم الدين ثم أحال الارشاد الى جبريل فقال تعالى قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده وأحال الاغواء على ابليس فقال تعالى ليضلهم عن سبيله والاغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبه الى العبد الذى غضب عليه والارشاد سياقه لهم الى الغاية فانظر كيف نسبه الى العبد الذى أحبه وعندك فى العادة له مثال فالملك اذا كان محتاجا الى من يسقيه الشراب والى من يحجمه وينظف فناءه منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف الا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل

هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتركونى ما تركتكم واذا حدثتكم فخذوا عنى فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم (قال الجنيد) رحمه الله رأيت مع أبى حفص النيسابورى انسانا كثير الصمت لا يتكلم فقلت لاصحابه من هذا فقيل لى هذا انسان يصحب أبا حفص ويخدمنا وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال أبو يزيد البسطامى صحبت أبا على السندى فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا (وقال أبو عثمان) صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى فلم أجعل بكائى له على كلامه ان أولى

الشراب الطيب الا الى أحسنهما وأ كملهما وأحبهما اليه ولا ينبغي أن تقول هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعلى فانك أخطأت اذ أضفت ذلك الى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب انما العدل فان عدله تارة يتم بأمور ولا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الافعال المعتدلة الا أنك لا ترى الا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه الى نفسك وانما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا الى لعب المشعبذ الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بانفسها وانما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد وأما العقلاء فانهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الامر اليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة الى العلماء ينظرون الى هذه الاشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها والعلماء يعلمون أنهم محركون الا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الاكثرون الا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف بأشخاص أهل الارض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الابصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا أيضا ملائكة السموات مصروفة الى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الامر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن فقيل وفي السماء رزقكم وما توعدون وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل اليهم من القدر والامر فقيل خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما وهذه أمور لا يعلم تأويلها الا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى يتنزل الامر بينهن فقال لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني وفي لفظ آخر لقلتم انه كافر ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه فلنرجع الى مقاصد الشكر فنقول اذا رجع حقيقة الشكر الى كون العبد مستعملا في اتمام حكمة الله تعالى فاشكر العباد أحبهم الى الله وأقربهم اليه وأقربهم الى الله الملائكة ولهم أيضا ترتيب وما منهم الا وله مقام معلوم وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام وانما علو درجتهم لانهم في أنفسهم كرام بررة وقد أصلح الله تعالى بهم الانبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الارض ويلي درجتهم درجة الانبياء فانهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته وأعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم اذ أكمل الله بهم الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لانهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولاجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الانبياء فانه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الانبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع * واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحقر وان كان ظالما فاسقا قال عمرو بن العاص رحمه الله امام غشوم خير من فتنة تدوم وقال النبي صلى الله عليه وسلم سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر فان أحسنوا فلهم الاجر وعليكم الشكر وان أساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر * وقال سهل من أنكر امامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل وسئل أي الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى ان شر الناس السلطان

ظهري اليه فانصرفت أمشي الى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت عنه واعتقدت أن أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه الا باذنه فلما رأى ذلك مني قربني وقبلني وصيرني من خواص أصحابه الى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة ان المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ الا لوقت الصلاة فان المريد من شأنه التبتل للخدمة وفي السجادة ايماء الى الاستراحة والتعزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ الا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال في السماع وتقيده واستغراقه في الشيخ بالنظر اليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الاصغاء الى السماع ومن الادب أن لا يكتم

فقال مهلا ان الله تعالى كل يوم نظرتين نظرة الى سلامة أموال المسلمين ونظرة الى سلامة أبدانهم فيطلع فى صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سمين قاصا يقصون

﴿ الركن الثانى من أركان الشكر ما عليه الشكر ﴾ وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فان احصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد والله الموفق للصواب

﴿ بيان حقيقة النعمة وأقسامها ﴾

اعلم ان كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الاخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة اما غلط وأما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشئ صدقا ولكن يكون اطلاقه على السعادة الاخروية أصدق فكل سبب يوصل الى سعادة الآخرة ويعين عليها اما بواسطة واحدة أو بوسائط فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لاجل أنه يفضى الى النعمة الحقيقية والاسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات (القسمة الاولى) ان الامور كلها بالاضافة الينا تنقسم الى ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق والى ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق والى ما ينفع فى الحال ويضر فى المآل كالتلذذ باتباع الشهوات والى ما يضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع فى الحال المضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع اذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة ان كان جاهلا واذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق اليه والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الالباب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه الا أنه شاف من الامراض والاسقام وجالب للصحة والسلامة فالصبى الجاهل اذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه اليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه فلذلك تمنع الام ولدها من الحجامة والاب يدعوه اليها فان الاب لكمال عقله يلمح العاقبة والام لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس اليها والى شفقتها ويقدر الاب عدوا له ولو عقل لعلم أن الام عدو باطنا فى صورة صديق لان منعها اياه من الحجامة يسوقه الى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو

﴿ قسمة ثانية ﴾ اعلم أن الاسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والاهل والولد والاقارب والجاه وسائر الاسباب ولكن تنقسم الى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الاسباب والى ما ضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع والى ما يكافئ ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال الصالح وان كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه الى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه ورب انسان يستضر بالقليل أيضا اذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه ﴿ قسمة ثالثة ﴾ اعلم ان الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره والى مؤثر لغيره والى مؤثر لذاته ولغيره * فالاول ما يؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر الى وجه الله تعالى وسعادة لقائه وبالجملة سعادة الاخرى التى لا انقضاء لها فانها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها * الثانى ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة الى اللذات سريعة الايصال اليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الاصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية الجهل والضلال الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين الى لقاء الله

عن الشيخ شيأ من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة واجابة ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه وما يستحى من كشفه يذكره ايماء وتعريضا فان المريد متى انطوى ضميره على شئ لا يكشف للشيخ تصريحا أو تعريضا يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول ومن الادب أن لا يدخل فى صحبة الشيخ الا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند المريد تطلع الى شيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ اليه فان المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمحبة والتآلف هو الواسطة بين المريد والشيخ وعلى قدر قوة المحبة تكون

تعالى أوليتوصل بها الى استيفاء لذات الدنيا وتقصد أيضا لذاتها فان الانسان وان استغنى عن الشئ الذى تراد سلامة الرجل لاجله فير يد أيضا سلامة الرجل من حيث انها سلامة فاذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ومايؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الاول فأما ما لايؤثر الا لغيره كالنقدين فلا يوصفان فى أنفسهما من حيث انهما جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل اليه الا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة ﴿ قسمة رابعة ﴾ اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال والنافع هو الذى يفيد فى المآل والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الاحوال والشرور أيضا تنقسم الى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد * فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة أما فى الخير فكالعلم والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما فى الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم وانما يحس الجاهل بألم جهله اذا شعر أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه ان ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وان اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لايزال فى عذاب دائم لامحالة * والضرب الثانى المقيد وهو الذى جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فانه بالاضافة الى بعض الاحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لايهتم بالعاقبة فيستريح فى الحال الى أن يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال فى البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها والنافع قسمان ضرورى كالايمان وحسن الخلق فى الايصال الى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل اذ لايقوم مقامهما ألبتة غيرهما والى مالا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا فى تسكين الصفراء فانه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه ﴿ قسمة خامسة ﴾ اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ واللذات بالاضافة الى الانسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشاركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة اذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج وانما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجودا وهى أشرفها أما قلتها فلان العلم لايستلذه الا عالم والحكمة لايستلذها الا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم وأما شرفها فلانها لازمة لاتزول أبدا لافى الدنيا ولا فى الآخرة ودائمة لاتمل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل والعلم والحكمة قط لايتصور أن تمل وتستثقل ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد اذا رضى بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد فهو مصاب فى عقله محروم لشقاوته وادباره وأقل أمر فيه ان العلم والعقل لايحتاج الى أعوان وحفظة بخلاف المال اذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لاتمتد اليه أيدى السراق بالاخذ ولا أيدى السلاطين بالعزل فيكون صاحبه فى روح الامن أبدا وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل فى كل حال أبدا والمال تارة يجذب الى الهلاك وتارة يجذب الى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن فى مواضع وان سماه خيرا فى مواضع وأما قصور أكثر الخلق عن ادراك لذة العلم فاما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق تبع الذوق واما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذى لايدرك حلاوة العسل ويراه مرا واما القصور فطنتهم اذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذى لايدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ الا اللبن وذلك لايدل على انها ليست لذيذة ولا استطابته للبن تدل على أنه ألذ الاشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة اما من لم يحى باطنه كالطفل وأما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات واما من مرض بسبب اتباع

الشهوات

سراية الحال لان الصحبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجنسية جالبة لمريد حال الشيخ أو بعض حاله (أخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال ثنا سليمان بن أحمد قال ثنا أنس بن أسلم قال ثنا عتبة بن رزين عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له أن لايخذله ولا يستأثر عليه فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الاسلام ومن الادب أن يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الامور وكلياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ لسير حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته (قال ابراهيم بن شيبان) كنا نصحب أبا عبد الله المغربى ونحن

الشهوات وقوله تعالى فى قلوبهم مرض اشارة الى مرض العقول وقوله عز وجل لينذر من كان حيا اشارة الى من لم يحى حياة باطنة وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الاحياء ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وان كانوا موتى بالابدان * الثانية لذة يشارك الانسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود فى الاسد والنمر وبعض الحيوانات * الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا وهى أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة وهو أشدها التصاقا بالمتغافلين فان جاوز ذلك ارتقى الى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها الا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها الا الصديقون فاما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الاحساس على الدوام وفى اختلاف الاحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى أحوال لا يقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود اليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب الى أربعة أقسام قلب لا يحب الا الله تعالى ولا يستريح الا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدرى ما لذة المعرفة وما معنى الانس بالله وانما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الانس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه فى بعض الاحوال الرجوع الى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية و يعتريه فى بعض الاحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أما الاول فان كان ممكنا فى الوجود فهو فى غاية البعد وأما الثانى فالدنيا طافحة به وأما الثالث والرابع فوجودان ولكن على غاية الندور و لا يتصور أن يكون ذلك الا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة وانما تكون كثرته فى الاعصار القريبة من أعصار الانبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة الى أن تقرب الساعة و يقضى الله أمرا كان مفعولا وانما وجب أن يكون هذا نادرا لانه مبادى ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق فى الملك والجمال الا نادرا وأكثر الناس من دونهم فكذا فى ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة والصورة فى المرآة وان كانت هى الثانية فى رتبة الوجود فانها أولى فى حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك وترى صورتك فى المرآة أولا فتعرف بها صورتك التى هى قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فانقلب التابع فى الوجود متبوعا فى حق المعرفة وانقلب المتأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من يسرله نظر الاعتبار فلا ينظر فى شئ من عالم الملك الا و يعبر به الى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال فاعتبروا يا أولى الابصار ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس فى عالم الملك والشهادة وسينفتح الى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الافئدة الا أن بينه و بين ادراك ألمها حجابا فاذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون الا فى الآخرة وعلم اليقين قد يكون فى الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فلذلك قال الله تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم أى فى الدنيا ثم لترونها عين اليقين أى فى الآخرة فاذا قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون الا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا * قسمة سادسة * حاوية لمجامع النعم اعلم أن النعم تنقسم الى ما هى غاية مطلوبة لذاتها والى ما هى مطلوبة لاجل الغاية أما الغاية فانها سعادة الآخرة و يرجع حاصلها الى أربعة أمور بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل فيه وغنى

شعبان و يسافر بنا فى البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان اذا جرى من أحدنا خطأ وتغير عليه حال الشيخ نتشفع اليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا الى ما كان ومن أدب المريد مع الشيخ أن لا يستقبل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع و بابه المفتوح الى الله أكبر فان كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ و يمضيها وما كان من عند الله لا يختلف وان كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ و يكتسب المريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالمريد له فى واقعته يخامره كمون ارادة فى النفس فيتشبث كمون الارادة بالواقعة مناما كان ذلك أو يقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن فى النفس واذا

لافقر بعده وهى النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعيش الاعيش الآخرة وقال ذلك مرة فى الشدة تسلية للنفس وذلك فى وقت حفر الخندق فى شدة الضر وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون الى سرور الدنيا وذلك عند احداق الناس به فى حجة الوداع وقال رجل اللهم انى أسألك تمام النعمة فقال النبى صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ماتمام النعمة قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة وأما الوسائل فتنقسم الى الاقرب الاخص كفضائل النفس والى مايليه فى القرب كفضائل البدن وهو الثانى والى مايليه فى القرب ويجاوز الى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن من المال والاهل والعشيرة والى مايجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهى اذا أربعة أنواع ﴿النوع الاول وهو الاخص﴾ الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها الى الايمان وحسن الخلق وينقسم الايمان الى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله والى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم الى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والاقدام حتى لايمتنع أصلا ولايقدم كيف شاء بل يكون اقدامه واحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم اذ قال تعالى أن لاتطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أوترك النكاح مع القدرة والامن من الآفات أوترك الاكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان وانما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان فاذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة الى الله تعالى أربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولايتم هذا فى غالب الامر الا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولاتتهيأ هذه الامور الاربعة الا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهى أربعة المال والاهل والجاه وكرم العشيرة ولاينتفع بشئ من هذه الاسباب الخارجة والبدنية الا بالنوع الرابع وهى الاسباب التى تجمع بينها وبين مايناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة هداية الله ورشده وتسديده وتأييده فمجموع هذه النعم ستة عشر اذ قسمناها الى أربعة وقسمنا كل واحدة من الاربعة الى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها الى البعض اما حاجة ضرورية أونافعة أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة الى الايمان وحسن الخلق اذ لاسبيل الى الوصول الى سعادة الآخرة ألبتة الا بهما فليس للانسان الا ماسعى وليس لاحد فى الآخرة الا ماتزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم وتهذيب الاخلاق الى صحة البدن ضرورة وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية الى النعم الخارجة مثل المال والعز والاهل فان ذلك لوعدم ربما تطرق الخلل الى بعض النعم الداخلة (فان قلت) فما وجه الحاجة لطريق الآخرة الى النعم الخارجة من المال والاهل والجاه والعشيرة فاعلم أن هذه الاسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع الى الهيجاء بغير سلاح وكبازى يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم نعم العون على تقوى الله المال وكيف لاومن عدم المال صار مستغرق الاوقات فى طلب الاقوات وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولاتندفع الا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وافاضة الخيرات وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعم فقال الغنى فانى رأيت الفقير لاعيش له قيل زدنا قال الامن فانى رأيت الخائف لاعيش له قيل زدنا قال العافية فانى رأيت المريض لاعيش له قيل زدنا قال الشباب فانى رأيت الهرم لاعيش له وكان ماذكرناه اشارة الى نعيم الدنيا ولكن من حيث انه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وأما الاهل والولد الصالح فلايخفى وجه الحاجة اليهما اذ قال صلى الله عليه وسلم نعم العون على الدين المرأة الصالحة وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث ولد صالح

ذكره للشيخ فما فى المريد من كمون ارادة النفس مفقود فى حق الشيخ فان كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وان كان ينزع واقعته الى كمون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة ابوائه الى جناب الحق وكمال معرفته ومن الادب مع الشيخ ان المريد اذا كان له كلام مع الشيخ فى شئ من أمر دينه أو أمر دنياه لايستعجل بالاقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ فكما أن للدعاء أوقاتا وآدابا وشروطا لانه مخاطبة الله تعالى فللقول مع الشيخ أيضا آداب وشروط لانه من معاملة الله تعالى ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لمايجب من الادب وقد نبه الحق

يدعو له الحديث وقد ذكرنا فوائد الاهل والولد فى كتاب النكاح * وأما الاقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الاعين والايدى فيتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية المهمة فى دينه مالو انفرد به لطال شغله وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو اذا نعمة * وأما العز والجاه فبه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وانما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان قال تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولا معنى للجاه الا ملك القلوب كما لا معنى للغنى الا ملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الاذى عنه فكما يحتاج الانسان الى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا الى من يدفع الشر به عن نفسه وعلى هذا القصد كان الانبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم أو الاستئثار والاستكثار فى الدنيا باتباعهم ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر الى الهرب والهجرة (فان قلت) كرم العشيرة وشرف الاهل هو من النعم أم لا (فأقول) نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام وقال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم الا كفاء وقال صلى الله عليه وسلم إياكم وخضراء الدمن فقيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب الى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أئمة العلماء والى الصالحين والابرار المتوسمين بالعلم والعمل (فان قلت) فما معنى الفضائل البدنية فأقول لا خفاء بشدة الحاجة الى الصحة والقوة والى طول العمر اذ لا يتم علم وعمل الا بهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى وانما يستحقر من جملته أمر الجمال فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ولعمرى الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضا أما فى الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما فى الآخرة فمن وجهين أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة أقرب وجاهه فى الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه اذ هو نوع قدرة اذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها والثانى أن الجمال فى الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عوّل أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان ما فى النفس وقيل ما فى الارض قبيح الا ووجهه أحسن ما فيه واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فاسقط اسمه من الديوان وقال الروح اذا أشرقت على الظاهر فصباحة أو على الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال صلى الله عليه وسلم اطلبوا الخير عند صباح الوجوه وقال عمر رضى الله تعالى عنه اذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم وقال الفقهاء اذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالامامة وقال تعالى ممتنا بذلك وزاده بسطة فى العلم والجسم ولسنا نعنى بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وانما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال فى اللحم وتناسب الاعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه (فان قلت) فقد أدخلت المال والجاه والنسب والاهل والولد فى حيز النعم وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا العلماء قال تعالى ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عز وجل انما أموالكم وأولادكم فتنة وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا * فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤوّلة والعمومات المخصصة كان

سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مخاطبته فقال يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة يعنى أمام مناجاتكم قال عبد الله بن عباس سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة فادبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الاغنياء يأتون النبى عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبى عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلانهم لم يجدوا شيأ وأما أهل الميسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله

الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى الى ادراك العلوم على ماهى عليه ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل الى جحدها الا أن فيها فتنا ومخاوف فمثال المال مثال الحية التى فيها ترياق نافع وسم ناقع فان أصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وان أصابها السوادى الغر فهى عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر واللآلئ فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه وان خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم العون على تقوى الله تعالى المال وكذلك مدح الجاه والعز اذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بان أظهره على الدين كله وحببه فى قلوب الخلق وهو المعنى بالجاه ولكن المنقول فى مدحهما قليل والمنقول فى ذم المال والجاه كثير وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه اذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ومعنى الجاه ملك القلوب وانما كثر هذا وقل ذاك لان الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص فى بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول الى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا فى أعيانهما مذمومين بالاضافة الى كل أحد لما تصور أن ينضاف الى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا أن ينضاف اليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبياء والعارفون معزمون فقد يضر الصبى مالا يضر المعزم نعم المعزم لوكان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لاجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية اذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض فى الترياق وله غرض فى حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه فى الترياق بغرضه فى حفظ الولد فاذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ولو أخذها لاخذها الصبى ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية اذا رآها ويشير على الصبى بالهرب ويقبح صورتها فى عينه ويعرفه ان فيها سما قاتلا لاينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق فان ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك الغواص اذا علم أنه لو غاص فى البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبى ساحل البحر والنهر فان كان لاينزجر الصبى بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبى ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الامة فى حجر الانبياء عليهم السلام كالصبيان الاغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم مثل الوالد لولده وقال صلى الله عليه وسلم انكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم وحظهم الاوفر فى حفظ أولادهم عن المهالك فانهم لم يبعثوا الا لذلك وليس لهم فى المال حظ الا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فان الانفاق فيه الترياق وفى الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا الى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الانفاق فلذلك قبحت الاموال والمعنى به تقبيح امساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون الى الدنيا ولذاتها فاما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل الى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل الا بقدر زاده فى السفر اذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله فأما اذا سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه السلام ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب معناه لانفسكم خاصة والا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد ويفرقها فى موضعه ولا يمسك منها حبة ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فى أن يخرج عن جميع مايملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف الحديث فاذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا تعدل بالسلامة شيأ فى حق هؤلاء وهم الخلق كلهم الا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه * فان قلت

عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله صلى الله عليه وسلم الا على بن أبى طالب فقدم دينارا فتصدق به وقال على فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ماترى فى الصدقة كم تكون دينارا قال على لايطيقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لزهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ومانبه الحق عليه بالامر بالصدقة وما فيه من حسن الادب وتقييد اللفظ والاحترام مانسخ والفائدة باقية (أخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم

فأما معنى النعم التوفيقية الراجعة الى الهداية والرشد والتأييد والتسديد فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الالحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال الى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة الى التوفيق ولذلك قيل

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لاحد الى طلب السعادة الا بها لان داعية الانسان قد تكون مائلة الى ما فيه صلاح آخرته ولكن اذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الارادة فلا فائدة في الارادة والقدرة والاسباب الا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء وقال صلى الله عليه وسلم ما من أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى أى بهدايته فقيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا * وللهداية ثلاث منازل الاولى معرفة طريق الخير والشر المشار اليه بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول وهى مبذولة ولا يمنع منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والاسباب التى تعمى القلوب وان كانت لا تعمى الابصار قال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ومن جملة المعميات الالف والعادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على أمة الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقوله تعالى أبشرا منا واحدا نتبعه فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهى التى يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهى ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهو المراد بقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها الى ما لا يهتدى اليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وامكان تعلم العلوم وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذى شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة اليه وان كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى قل ان هدى الله هو الهدى وهو المسمى حياة فى قوله تعالى أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس والمعنى بقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه * وأما الرشد فنعنى به العناية الالهية التى تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فالرشد عبارة عن هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها فالصبى اذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذى لا يدرى أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية الى وجوه الاعمال وهى نعمة عظيمة * وأما التسديد فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد فى صوب الصواب فى أسرع وقت فان الهداية بمجردها لا تكفى بل لا بد من هداية محركة للداعية وهى الرشد والرشد لا يكفى بل لا بد من تيسر الحركات بمساعدة الاعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية اليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الاعضاء فى صوب السداد وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الاسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل اذ أيدتك بروح القدس ويقرب منه العصمة وهى عبارة عن جود الهى يسبح فى الباطن يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس واياها عنى بقوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه فهذه هى مجامع النعم ولن تثبت الا بما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب والسمع الواعى والقلب البصير

قال ثنا سليمان بن أحمد قال ثنا مطلب بن شعيب قال ثنا عبد الله بن صالح قال ثنا ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبادة ابن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه فاحترام العلماء توفيق وهداية واهمال ذلك خذلان وعقوق

(الباب الثانى والخمسون فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الاصحاب والتلامذة)

أهم الآداب أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع فاذا رأى أن الله تعالى يبعث اليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصدق الارادة يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانا من الله تعالى والنفوس

المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على مايقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الاعداء ويستدعي كل واحد من هذه الاسباب الستة عشر أسبابا وتستدعي تلك الاسباب أسبابا الى أن تنتهي بالآخرة الى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الارباب ومسبب الاسباب واذا كانت تلك الاسباب طويلة لايحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها وبالله التوفيق

﴿ بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء ﴾

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الاسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الاكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الاسباب التي بها تتم نعمة الاكل فلا يخفى أن الاكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ولابد لها من قدرة على الحركة ولابد من ارادة للحركة ولابد من علم بالمراد وادراك له ولابد للاكل من مأكول ولابد للمأكول من أصل منه يحصل ولابد له من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الادراك ثم أسباب الارادات ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

﴿ الطرف الاول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الادراك ﴾

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لاتنمى ولاتغتذي فان النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء الى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الارض وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم تتشعب ولاتزال تستدق وتتشعب الى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر الا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه اذا أعوزه غذاء يساق اليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فان الطلب انما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال اليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر الى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الادراك فاولها حاسة اللمس وانما خلقت لك حتى اذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولايتصور حيوان الا ويكون له هذا الحس لانه ان لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه فان الاحساس بما يبعد منه احساس أتم لامحالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التي في الطين فانها اذا غرز فيها ابرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض اذ لايحس بالقطع الا أنك لو لم يخلق لك الا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لاتقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل مايمس بدنك فتحس به فتجتذبه الى نفسك فقط فافتقرت الى حس تدرك به مابعد عنك فخلق لك الشم الا أنك تدرك به الرائحة ولاتدري أنها جاءت من أي ناحية فتحتاج الى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك الا هذا فخلق لك البصر لتدرك به مابعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها الا أنه لو لم يخلق لك الا هذا لكنت ناقصا اذ لاتدرك بهذا ماوراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لاحجاب بينك وبينه وأما مابينك وبينه حجاب فلا تبصره وقد لاينكشف الحجاب الا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الاصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لانك لاتدرك بالبصر الا شيأ حاضرا وأما الغائب فلا يمكنك معرفته الا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت اليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ماكان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق اذ يصل الغذاء اليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجتذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لايكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك ادراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى اليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الامر عليك فانك اذا أكلت شيأ أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فاذا رأيته مرة

مجبولة على محبة اقبال الخلق والشهرة وفي الخمول السلامة فاذا بلغ الكتاب أجله وتمكن العبد من حاله وعلم بتعريف الله اياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريدين فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق والوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى اليه يراجع الله تعالى في معناه ويكثر اللجأ اليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المريد بالكلمة الا وقلبه ناظر الى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول * سمعت * شيخنا أبا النجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لاتكلم أحدا من الفقراء الا في أصفى أوقاتك وهذه وصية نافعة لان الكلمة تقع في سمع المريد الصادق كالحبة تقع في الارض وقد

أخرى فلاتعرف انه مر مضر مالم تذقه ثانيا ولولا الحس المشترك اذ العين تبصر الصفرة ولاتدرك المرارة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولايدرك الصفرة فلابد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى اذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر فتمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات اذ للشاة هذه الحواس كلها فلولم يكن لك الاهذا لكنت ناقصا فان البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلاتدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص اذاقيدت وقد تلقى نفسها في بئر ولاتدري أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البهيمة ماتستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت اذليس لها الاالاحساس بالحاضر فأماادراك العواقب فلا فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الاطعمة وتأليفها واعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الاكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في حقك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الاخبار الموكلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الالوان والاخرى بأخبار الاصوات والاخرى بأخبار الروائح والاخرى باخبار الطعوم والاخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الاخبار من أقطار المملكة ويسلمونها الى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها اذليس له الاأخذها وجمعها وحفظها فأمامعرفة حقائق مافيها فلاولكن اذاصادف القلب العاقل الذي هو الامير والملك سلم الانهاء اليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها باحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب مايلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود وهي الاعضاء مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في اتمام التدبيرات التي تعن له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الادراكات ولاتظنن أنااستوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الادراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الاغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أوصفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الاطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لايمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملته لاتزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز الى نعم الله تعالى بخلق الادراكات

﴿ الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات ﴾

اعلم انه لوخلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الاشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والادراك معطلا في حقه فاضطررت الى أن يكون لك ميل الى مايوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضي الذي يضطرك الى التناول حتى تتناول وتغتذي فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لولم تسكن اذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الاكل بها لا كالزرع فانه لايزال يجتذب الماء اذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج الى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض وتأليف الجنين من المني ودم الحيض وكيفية خلق الانثيين والعروق السالكة اليها

ذكرنا ان المحبة الفاسدة مهلكة وتضييع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فعند الكلام مع أهل الصدق والارادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما ان اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد فيكون ناظرا الى الله مصغيا اليه مستلقيا مايرد عليه مؤديا للامانة فيه ثم ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس فيه بنور الايمان وقوة العلم والمعرفة مايتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الابرار ومن المريدين من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين من المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ولكل من الابرار

من الفقار الذي هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر
الرحم الى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الاناث
وكيفية ادارتها في اطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها الى رأس ويد ورجل
وبطن وظهر وسائر الاعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدا خلقك كل العجب فضلا عما تراه
الآن ولكنا لسنا نريد أن نتعرض الا لنعم الله تعالى في الاكل وحده كي لا يطول الكلام فاذا شهوة الطعام أحد
ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك المهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع
كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولاخذ منك كل ما حصلته من الغذاء فان كل واحد يشتهي
ما في يديك فتحتاج الى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك
ثم هذا لا يكفيك اذ الشهوة والغضب لا يدعوان الا الى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا يكفي فيه هذه
الارادة فخلق الله تعالى لك ارادة أخرى مسخرة تحت اشارة العقل المعرف للعواقب كما خلق الشهوة والغضب
مسخرة تحت ادراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل اذ كان مجرد المعرفة بان هذه الشهوة
مثلا تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن
البهائم اكراما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سميناهذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه في كتاب الصبر
تفصيلا أوفى من هذا ﴿الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلة الحركة﴾ اعلم أن الحس لا يفيد
الا الادراك والارادة لا معنى لها الا الميل الى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب
والهرب فكم من مريض مشتاق الى شئ بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه ان يمشي اليه لفقد رجله أو لا يمكنه
ان يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون
حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الاعضاء التي تنظر الى ظاهرها
ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو
للدفع كالاسلحة للانسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه
ويبعد غذاؤه فيحتاج الى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ماله
رجلان ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الاعضاء التي بها يتم الاكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول
رؤيتك الطعام من بعد وحركتك اليه لا تكفي مالم تتمكن من ان تأخذه فافتقرت الى آلة باطشة فانعم الله
تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان الى الاشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات
فتمتد وتنثني اليك فلا تكون كخشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف
بخمسة أقسام هي الاصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الابهام في جانب ويدور على الاربعة الباقية ولو كانت
مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا ان بسطتها كانت لك مجرفة وان ضممتها كانت
لك مغرفة وان جمعتها كانت لك آلة للضرب وان نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفارا
وأسند اليها رؤس الاصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تحويها الاصابع فتأخذها
برؤس أظفارك ثم هب انك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا مالم يصل الى المعدة وهي في الباطن
فلا بد وان يكون من الظاهر دهليز اليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذا الى المعدة مع ما فيه من الحكم
الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام الى المعدة ثم ان وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه
فتحتاج الى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الاسنان وطبق الاضراس
من العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج الى الكسر وتارة الى القطع ثم يحتاج
الى طحن بعد ذلك فقسم الاسنان الى عريضة طواحين كالاضراس والى حادة قواطع كالرباعيات والى
ما يصلح للكسر كالانياب ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على
الفك الاعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر الا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك
لا يتم الطحن فجعل اللحي الاسفل متحركا حركة دورية واللحي الاعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب

صنع

والمقسر بين مباد ونهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص ومايصلح له والعجب أن الصحراوى يعلم الاراضي والغروس ويعلم كل غرس وأرضه وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها حتى المرأة تعلم قطنها ومايتأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ويعلم الشيخ حال المريد ومايصلح له وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس على قدر عقولهم ويأمر كل شخص بما يصلح له فمنهم من كان يأمره بالانفاق ومنهم من أمره بالامساك ومنهم من أمره بالكسب ومنهم من قرره على ترك الكسب كاصحاب الصفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس ومايصلح لكل واحد فاما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لانه مبعوث لاثبات

صنع الله تعالى فان كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الاسفل و يدور الاعلى الا هذا الرحى الذى صنعه الله
تعالى اذ يدور منه الاسفل على الاعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك
وضعت الطعام فى فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام الى ماتحت الاسنان أو كيف تستجرئ الاسنان الى نفسها أو
كيف يتصرف باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف فى جوانب الفم و يرد
الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام الى الرحى هذا مع مافيه من فائدة الذوق
وعجائب قوة النطق والحكم التى لسنا نطنب بذكرها ثم هب انك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر
على الابتلاع الا بأن ينزلق الى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب
منها و ينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الامر فانك ترى الطعام من بعد فيثور
الحنكان للخدمة و ينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام المطحون
المنعجن من يوصله الى المعدة وهو فى الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام
فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط
حتى ينقلب الطعام بضغطه فيهوى الى المعدة فى دهليز المرىء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة
مقطعة فلا يصلح لان يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وان يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه
فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الابواب فلا يزال لابثا فيها حتى
يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الاعضاء الباطنة اذ من جانبها الايمن الكبد ومن الايسر
الطحال ومن قدام الترائب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة اليها من تسخين هذه الاعضاء من الجوانب
حتى ينطبخ الطعام و يصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه
أجزائه و رقته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها و بين الكبد مجارى من العروق وجعل له فوهات
كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى الى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كانه دم وفيه عروق كثيرة
شعرية منتشرة فى أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها و ينتشر فى أجزائها حتى تستولى عليه قوة
الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر و يحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء
الاعضاء الا أن حرارة الكبد هى التى تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ
احداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو الخلط السوداوى والاخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ولو لم تفصل
عنها الفضلتان فسد مزاج الاعضاء فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا الى
الكبد داخلا فى تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية و يجذب الطحال العكر السوداوى فيبقى الدم صافيا
ليس فيه الا زيادة رقة و رطوبة لما فيه من المائية ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ولا خرج منها
متصاعدا الى الاعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا الى الكبد ومن
عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة
الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد اذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج
من العروق فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ثم ان
الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك فى البدن كله
من الفرق الى القدم ظاهرا و باطنا فيجرى الدم الصافى فيها و يصل الى سائر الاعضاء حتى تصير العروق المنقسمة
شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار فيصل منها الغذاء بالرشح الى سائر الاعضاء ولو
حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور
والحمرة وان حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الامراض السوداوية كالبهق والجذام
والماليخوليا وغيرها وان لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ثم انظر الى حكمة الفاطر الحكيم
كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أما المرارة فانها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر

الحجة وايضاح المحجة
يدعو على الاطلاق ولا
يخصص بالدعوة من
يتفرس فيه الهداية
دون غيره * ومن
أدب الشيخ أن يكون
له خلوة خاصة ووقت
خاص لا يسعه فيه
معاناة الخلق حتى
يفيض على جلوته
فائدة خلوته ولا تدعى
نفسه قوة ظنا منها أن
استدامة المخالطة مع
الخلق والكلام معهم
لا يضره ولا يأخذ منه
وانه غير محتاج الى
الخلوة فان رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع
كمال حاله كان له قيام
الليل وصلوات يصليها
و يدوم عليها وأوقات
يخلو فيها فطبع البشر
لا يستغنى عن السياسة
قل ذلك أو كثر لطف
ذلك أو كثف وكم من
مغرور قانع باليسير
من طيبة القلب اتخذ
ذلك رأس ماله واغتر
بطيبة قلبه واسترسل
فى الممازجة والمخالطة
وجعل نفسه مناخا
للبطالين بلقمة تؤكل

الى الامعاء ليحصل له فى نقل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث فى الامعاء لذع يحركها للدفع فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة احالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها فى كل يوم شيأ الى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقى مع الثفل وأما الكلية فانها تغتذى بما فى تلك المائية من دم وترسل الباقى الى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الاسباب التى أعدت للاكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد الى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الاعضاء الرئيسة الى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب الى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد الى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركب الاعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج اليه للاكل ولامور أخر سواه بل فى الآدمى آلاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولاشئ منها الاوفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع الى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لوسكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر الى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لاتعرف من نعمة الله سبحانه الا الاكل وهو أخسها ثم لاتعرف منها الا انك تجوع فتأكل والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهى فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فاذا لم تعرف أنت من نفسك الا مايعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذى رمزنا اليه على الايجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط فقس على الاجمال ما أهملناه من الجملة ماعرفناه حذرا من التطويل وجملة ماعرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة الى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر الا أن من علم شيأ من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الاعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقره القلب ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى الى جزء من أجزاء البدن الا ويحدث عند وصوله فى تلك الاجزاء مايحتاج اليه من قوة حس وادراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذى يدار فى أطراف البيت فلا يصل الى جزء الا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الاطباء الروح ومحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الاسود الذى فى باطن القلب له كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما أن السراج اذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لاتقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذى تشبث به هذا البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء فانه لايقبل الغذاء الذى يبقى به الروح كما لايقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما ان انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو باطفاء انسان لايكون الا بأسباب مقدرة فى علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذى أجل له فى أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج اذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح اذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح وهى أنوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر مايجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أيضا رمز وجيز الى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم انه لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد على أن قال قل الروح من أمر ربى فلم يصفه لهم على هذا الوجه فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لانطول بذكرها ونحن انما وصفنا من

جملتها

عنده وبرفق يوجد منه فيقصده من ليس قصده الدين ولابغيته سلوك طريق المتقين فافتتن وأفتن وبقى فى خطة القصور ووقع فى دائرة الفتور فلا يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدى الله بقلبه ان لم يكن بقالبه وقلبه فيكون له فى كل كلمة الى الله رجوع وفى كل حركة بين يدى الله خضوع وانما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسير من الموهبة وقلة تأدبهم بالشيوخ كان الجنيد رحمه الله يقول لاصحابه لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ماجلست عندكم فاذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو واذا رأى الفضل فى الجلوة يجالس مع الاصحاب فتكون

جملتها جسما لطيفا تسميه الاطباء روحا وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه فى الاعضاء وكيفية حصول
الاحساس والقوى فى الاعضاء به حتى اذا خدر بعض الاعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجرى هذا الروح فلا
يعالجون موضع الخدر بل منابت الاعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه
ينفذ فى شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب الى سائر الاعضاء وما يرتقى اليه معرفة الاطباء فأمره سهل
نازل وأما الروح التى هى الاصل وهى التى اذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا
رخصة فى وصفه الا بأن يقال هو أمر ربانى كما قال تعالى قل الروح من أمر ربى والامور الربانية لا تحتمل العقول
وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق وأما الاوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن ادراك
الاصوات وتتزلزل فى ذكر مبادى وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها فلا يدرك
بالعقل شئ من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية نسبته الى
العقل نسبة العقل الى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا فكما يدرك الصبى المحسوسات ولا يدرك
المعقولات لان ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها لان ذلك طور لم يبلغه
بعد وانه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلاحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك المشرب أعز
من أن يكون شريعة لكل وارد بل لا يطلع عليه الا واحد بعد واحد ولجناب الحق صدر وفى مقدمة الصدر مجال
وميدان رحب وعلى أول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الامر الربانى فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ
العتبة مشاهدة استحال أن يصل الميدان فكيف بالانتهاء الى ما وراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل من لم
يعرف نفسه لم يعرف ربه وأنى يصادف هذا فى خزانة الاطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل المعنى المسمى روحا
عند الطبيب بالاضافة الى هذا الامر الربانى كالكرة التى يحركها صولجان الملك بالاضافة الى الملك فمن عرف
الروح الطبى فظن انه أدرك الامر الربانى كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ولا
يشك فى أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أفحش منه جدا ولما كانت العقول التى بها يحصل التكليف وبها تدرك
مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الامر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث
عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى فى كتابه من حقيقة هذا الامر شيأ لكن ذكر نسبته
وفعله ولم يذكر ذاته أما نسبته ففى قوله تعالى من أمر ربى وأما فعله فقد ذكر فى قوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة
ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ولنرجع الآن الى الغرض فان المقصود
ذكر نعم الله تعالى فى الاكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى فى آلات الاكل (الطرف الرابع فى نعم الله تعالى فى
الاصول التى يحصل عنها الاطعمة وتصير صالحة لان يصلحها الآدمى بعد ذلك بصنعته) اعلم أن الاطعمة كثيرة
ولله تعالى فى خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى وذكر ذلك فى كل طعام مما يطول فان
الاطعمة اما أدوية واما فواكه واما أغذية فلنأخذ الاغذية فانها الاصل ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع
سائر الاغذية فنقول اذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا فما أحوجك الى أن تنمو الحبة فى
نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفى بتمام حاجتك فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق
فيك فان النبات انما يفارقك فى الحس والحركة ولا يخالفك فى الاغتذاء لانه يغتذى بالماء ويجتذب الى باطنه
بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء الى نفسه ولكن
نشير الى غذائه فنقول كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج الى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذى
بكل شئ بل تحتاج الى شئ مخصوص بدليل أنك لو تركتها فى البيت لم تزد لانه ليس يحيط بها الا الهواء ومجرد
الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها فى الماء لم تزد ولو تركتها فى أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمتزج
ماؤها بالارض فيصير طينا واليه الاشارة بقوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا
الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ثم لا يكفى الماء والتراب اذ لو تركت فى أرض ندية صلبة متراكمة
لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج الى تركها فى أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء اليها ثم الهواء لا يتحرك

خلوته فى حماية جلوته
وجلوته مزيد الخلوته
وفى هذا سر وذلك أن
الآدمى ذو تركيب
مختلف فيه تضاد وتغاير
على ما أسلفنا من كونه
مترددا بين السفلى
والعلوى ولما فيه من
التغاير له حظ من
الفتور عن الصبر على
صرف الحق ولهذا
كان لكل عامل فترة
والفترة قد تكون تارة
فى صورة العمل وتارة
فى عدم الروح فى العمل
وان لم تكن فى صورة
العمل ففى وقت الفترة
للمريدين والسالكين
تضييع واسترواح للنفس
وركون الى البطالة فمن
بلغ رتبة المشيخة انصرف
قسم فترته الى الخلق
فأفلح الخلق بقسم فترته
وما ضاع قسم فترته
كضياعه فى حق المريدين
فالمريد يعود من الفترة
بقوة الشدة وحدة
الطلب الى الاقبال على
الله والشيخ يكتسب
الفضيلة من نفع الخلق
بقسم فترته ويعود الى

اليها بنفسه فيحتاج الى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الارض حتى ينفذ فيها واليه الاشارة بقوله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح وانما اللقاح هافى ايقاع الازدواج بين الهواء والماء والارض ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان فى برد مفرط وشتاء شات فتحتاج الى حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائه الى هذه الاربعة فانظر الى ماذا يحتاج كل واحد اذ يحتاج الماء لينساق الى أرض الزراعة من البحار والعيون والانهار والسواقى فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الانهار ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع اليها فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه الى أقطار الارض وهى سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الاراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى ونعم الله فى الجبال والسحاب والبحار والامطار لا يمكن احصاؤها وأما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والارض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض فى وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد والحر عند الحاجة الى الحر فهذه احدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الاشجار فى ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى ان الشجرة الصغيرة تفسد اذا أظلتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التى يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ولا نطول فيما لا مطمع فى استقصائه بل نقول كل كوكب فى السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر باحصائها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا وقوله عز وجل وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وكما انه ليس فى أعضاء بدنك عضو الا لفائدة فليس فى أعضاء بدن العالم عضو الا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالاعضاء له وهى متعاونة تعاون أعضاء بدنك فى جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغى أن تظن أن الايمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه فى أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل المنهى عنه فى النجوم أمران أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر * والثانى تصديق المنجمين فى تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التى لا يشترك كافة الخلق فى دركها لانهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الانبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق الا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى فى الارض وفى النبات وفى الحيوان ليس قادحا فى الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين ولذلك اذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الانكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس واذا سألت عن تغير وجه الانسان فقال قرعتنى الشمس فى الطريق فاسود وجهى لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار الا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذا الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء وقرأ قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو

أوطان تخلو نه وخاص حاله بنفس مشرئبة أكثر من عود الفقير بعد ارادته من فترته فيعود من الخلق الى الخلوة منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الاغيار قادمة بجدة شغفها الى دار القرار * ومن وظيفة الشيخ حسن خلقه مع أهل الارادة والطلب والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للشايخ واستعماله التواضع (حكى) الرقى قال كنت بمصر وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جلوسا فدخل الزقاق فقام عند اسطوانة يركع فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه فلما فرغ جاء الينا وسلم علينا فقلنا نحن كنا أولى بهذا من الشيخ فقال ما عذب الله قلبى بهذا قط يعنى ما تقيدت

الذى مسح بها سبلته فلله تعالى فى ملكوت السموات والآفاق والانفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباله فكذلك الامر فى عجائب صنع الله تعالى فان العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده فان تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما اذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فانها خرق محركة لا متحركة ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار فاذا المقصود أن غذاء النبات لا يتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك الا بالافلاك التى هى مركوزة فيها ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك الى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات

﴿الطرف الخامس فى نعم الله تعالى فى الاسباب الموصلة للاطعمة اليك﴾ اعلم ان هذه الاطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد فى بعض الاماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع انهم لا يغنيهم فى غالب الامر شئ بل يجمعون فاما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الاخطار ويغرروا بالارواح فى ركوب البحر فيحملون الاطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب اليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى وانظر الى الابل كيف خلقت والى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة والى الحمار كيف جعل صبورا على التعب والى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا اليك الاطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج اليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج اليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك الى حد الحاجة وفوق الحاجة واحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك الى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للايجاز

﴿الطرف السادس فى اصلاح الاطعمة﴾ اعلم أن الذى ينبت فى الارض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك بل لا بد فى كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وابقاء البعض الى أمور أخر لا تحصى واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول فلنعين رغيفا واحدا ولننظر الى ما يحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للاكل من بعد القاء البذر فى الارض فاول ما يحتاج اليه الحراث ليزرع ويصلح الارض ثم الثور الذى يثير الارض والفدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدة ثم تنقية الارض من الحشيش ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الافعال التى ذكرناها وما لم نذكره وعدد الاشخاص القائمين بها وعدد الآلات التى يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر الى أعمال الصناع فى اصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر الى حاجة الحداد الى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والاحجار والمعادن وكيف جعل الارض قطعا متجاورات مختلفة فان فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لاكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدئ من الملك الذى يزجى السحاب لينزل الماء الى آخر الاعمال من جهة الملائكة حتى تنتهى النوبة الى عمل الانسان فاذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التى بها تتم مصلحة الخلق ثم تأمل كثرة أعمال الانسان فى تلك الآلات حتى ان الابرة التى هى آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذى يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة الا بعد أن تمر على يد الابرى خمسا وعشرين مرة ويتعاطى فى كل مرة منها عملا فلو لم يجمع الله تعالى

بأن أحترم وأقصد * ومن آداب الشيوخ النزول الى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم (قال بعضهم) اذا رأيت الفقير الفقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه فاذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك الى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم * ومن آداب الشيوخ التعطف على الاصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض ولا يترك حقوقهم اعتمادا على ارادتهم وصدقهم قال بعضهم لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة (وحكى) عن الحريرى قال وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لا يتعنى ثم أتيت منزلى فلما صليت الغداة التفت واذا بالجنيد خلفى فقلت يا سيدى انما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى الى ههنا فقال لى يا أبا محمد

البـلاد ولم يسخر العباد وافتقرت الى عمل المنجل الذى تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنـه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذى خلقه من نطفة قذرة لان يعمل هذه الاعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر الى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحـدهما على الآخر فيتناولان الشئ معا ويقطعانه بسرعـة ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضـله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا الى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم الى استخراج الحديد من الحجر والى تحصيل الآلات التى بها يعمل المقراض وعمر الواحـد منا عمر نوح وأوتى أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق فى اصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها فسبحان من ألحق ذوى الابصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثـلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذى هو أخس الاعمال أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الاذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء

﴿الطرف السابع فى اصلاح المصلحين﴾

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للاطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحـد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الانس والمحبة عليهم ولو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهـم ولـكن الله ألف بينهم فلاجل الالف وتعاوف الارواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبـلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول احصاؤه ثم هذه المحبة تزول باغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ففى جبلة الانسان الغيظ والحسد والمنافسة وذلك مما يؤدى الى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والاسباب وألقى رعبهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين الى طريق اصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الاسواق واضـطروا الخلق الى قانون العـدل وألزموهم التساعـد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحـد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الانبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العـدل بين الخلق وقوانين السياسة فى ضبطهم وكشفوا من أحكام الامامة والسلطنـة وأحكام الفقه ما اهتدوا به الى اصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم اليه من اصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الانبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض الى أن ينتهى الى الملك المقرب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحـداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الاطعمة والسـلطان يصلح الصناع والانبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السـلاطين والملائكة يصلحون الانبياء الى أن ينتهـى الى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب ولولا فضله وكرمه اذ قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا لما اهتدينا الى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله ايانا عن أن نطمح بعين الطمع الى الاحاطة بكنه نعمه لتشوفنا الى طلب الاحاطة والاستقصاء ولـكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى وان تعـدوا نعمة الله لا تحصوها فان تكلمنا فباذنه انبسطنا وان سكتنا فبقهره انقبضنا اذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى لانا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فالحمد لله الذى ميزنا عن الـكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار

هذا حقك وذاك فضلك * ومن آداب الشيوخ انهم اذا علموا من بعض المسترشـدين ضعفا فى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة ان يرفقوا به ويوقفوه على حد الرخصـة فى ذلك خير كثير ومادام العبد لا يتخطى حـريم الرخصة فهو حر ثم اذا ثبت وخالط الفـقراء وتدرب فى لزوم الرخصة تدرج بالرفـق الى أوطان العزيمـة (قال أبو سعيد بن الاعرابى) كان شاب يعـرف بابراهيم الصائغ وكان لابيـه نعمة فانقطع الى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى فربما كان يقع بيـد أبى أحمد شئ من الدراهم فكان يشـتـرى له الرقاق والشـواء والحـلواء ويؤثره عليـه ويقول هـذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره * ومن آداب الشـيوخ التنزه عن مال المريد وخدمتـه

﴿ الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام ﴾

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة باصلاح الانبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي اليهم ولا تظنن انهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات الملائكة الارضية والسماوية وحملة العرش فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع الى الاكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي الا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله الى عشرة الى مائة الى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف وذلك الغذاء يصير دما في آخر الامر ثم يصير لحما وعظما واذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بانفسها ولا تتغير بانفسها ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مخبوزا الا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما وعظما وعروقا وعصبا الا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما ان الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة فأقول لابد من ملك يجذب الغذاء الى جوار اللحم والعظم فان الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يرعى المقادير في الالصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته بل ينبغي أن يسوق الى الاجفان مع رقتها والى الحدقة مع صفائها والى الافخاذ مع غلظها والى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل والابطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق الى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به الى احدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة فرعاية هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة الى ملك من الملائكة ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الامور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الارضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب الى أكثر من مائة ملك تركنا تفصيل ذلك للايجاز والملائكة الارضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه الا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والارض مالك الملك ذو الجلال والاكرام والاخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والارض واجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به فان قلت فهلا فوضت هذه الافعال الى ملك واحد ولم افتقر الى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج الى من يطحن أولا ثم الى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ثم الى من يصب الماء عليه ثالثا ثم الى من يعجن رابعا ثم الى من يقطعه كرات مدورة خامسا ثم الى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ثم الى من يلصقها بالتنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ويستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كاعمال الانس ظاهرا فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم الا وهو واحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب ألبتة فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد واليه الاشارة بقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في ادراك الاصوات

والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه لانه جاء الله تعالى فيجعل نفعه وارشاده خالصا لوجه الله تعالى فما يسدي الشيخ للمريد من أفضل الصدقات (وقد ورد) ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في الناس وقد قال الله تعالى تنبيها على خلوص مالله وحراسته من الشوائب انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فلا ينبغي للشيخ ان يطلب على صدقته جزاء الا أن يظهر له في شئ من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه أو صلاح يتراءى للشيخ في حق المريد بذلك فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد مامونة الغائلة من جانب الشيخ قال الله تعالى يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج

ولا الشم يزاحمهما ولا هما ينازعان الشم ولبس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التى هى آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذى يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحدانى الصفة فلم يكن وحدانى الفعل ولذلك ترى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن فى طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لامجال للمعصية فى حقهم فلاجرم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ويسبحون الليل والنهار لايفترون والراكع منهم راكع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لا اختلاف فى أفعالهم ولافتور ولكل واحد مقام معلوم لايتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لامجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك فانك مهما جزمت الارادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف فى طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لامرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا باشارتك فهذا يشبهه من وجه لكن يخالفه من وجه اذ الجفن لاعلم له بما يصدر منه من الحركة فتحا واطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذا هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الارضية والسماوية وحاجتك اليهما فى غرض الاكل فقط دون ما عداهما من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لايمكن احصاؤها فكيف آحاد مايدخل تحت مجامع الطبقات فاذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال وذروا ظاهر الاثم وباطنه فترك باطن الاثم مما لايعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واضمار الشر للناس الى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الاثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والارض ومابينهما فان كل ماخلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والارض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وان انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن اذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الاعلى وارتفاع الجفن الاسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى فى سوادها انها تجمع ضوء العين اذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله فى ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب الى باطن العين ومتشبثا للاقذاء التى تتناثر فى الهواء وله فى كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها وله فى اشتباك الاهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر فيجمع الاجفان مقدار ما تتشابك الاهداب فينظر من وراء شباك الشعر فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم ان أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الاجفان حادة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء الى زوايا العين والاجفان والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار واذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره الى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب وأملنا أن نستأنف له كتابا مقصودا فيه ان أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى فلنرجع الى غرضنا فنقول من نظر الى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الاجفان ولا تقوم الاجفان الا بعين ولا العين الا برأس ولا الرأس الا بجميع البدن ولا البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا يقوم شئ من ذلك الا بالسموات ولا السموات الا بالملائكة فان الكل كالشئ الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فاذا قد كفر كل نعمة فى الوجود من منتهى الثريا الى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد الا ويلعنه ولذلك ورد فى الاخبار أن البقعة التى يجتمع فيها الناس اما أن تلعنهم اذا تفرقوا أو تستغفر لهم وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شئ حتى الحوت فى البحر وأن الملائكة يلعنون العصاة فى ألفاظ كثيرة لايمكن احصاؤها وكل

أضغانكم معنى يحفكم أى يجهدكم ويلح عليكم قال قتادة علم الله تعالى أن فى خروج المال اخراج الاضغان وهذا تأديب من الله الكريم والادب أدب الله * قال جعفر الخلدى جاء رجل الى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر فقال له الجنيد لاتخرج من مالك كله احبس منه مقدار مايكفيك وأخرج الفضل وتقوت بما حبست واجتهد فى طلب الحلال لاتخرج كل ماعندك فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك * وكان النبى عليه السلام اذا أراد أن يعمل عملا تثبت وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد انه اذا خرج من الشئ يكسبه من الحال مالايتطلع به الى المال فحينئذ يجوز له أن يفسح للمريد فى الخروج من المال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر وقبل

ذلك اشارة الى أن العاصي بتطريقة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملكوت وقد أهلك نفسه الا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه و يتجاوز عنه وأوحى الله تعالى الى أيوب عليه السلام يا أيوب ما من عبد لي من الآدميين الا ومعه ملكان فاذا شكرني على نعمائي قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريبا فكفى بالشاكرين علو رتبة عندي أني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعما كثيرة فاعلم أن في كل نفس ينبسط و ينقبض نعمتين اذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك و بانقباضه يجمع روح الهواء الى القلب ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء و برودته عنه وهلك بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فمليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور احصاء ذلك أم لا ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها قال الهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان أن لينت أصلها وان طمست رأسها وكذا ورد في الاثر أن من لم يعرف نعم الله الا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وجميع ماذكرناه يرجع الى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه في العالم على شئ ولا يلم خاطره بموجود الا و يتحقق أن لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع في غير مطمع

﴿ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر ﴾

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة الا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة الا بعد معرفتها ثم انهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في اتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمتنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان أما الغفلة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق و يسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ماذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما فان ابتلي واحد منهم بشئ من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها وهذا غاية الجهل اذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال والنعمة في جميع الاحوال أولى بان تشكر في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره الا أن تعمى عينه فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق و بذل لهم في جميع الاحوال فلم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما حتى اذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون الا المال الذي يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة و ينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكا بعضهم فقره الى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك انك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا فقال لا فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا وحكي ان بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الانعام وان لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سري عنه ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء و بيده كوز ماء يشربه فقال له عظني فقال لو لم تعط هذه الشربة الا ببذل جميع أموالك والا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لو لم تعط الا بملكك كله فهل كنت

منه جميع ماله (ومن آداب الشيخ) اذا رأى من بعض المريدين مكروها أو علم من حاله اعوجاجا أو أحس منه بدعوى أو رأى انه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الاصحاب و يشير الى المكروه الذي يعلم و يكشف عن وجه المذمة مجملا فتحصل بذلك الفائدة للكل فهذا أقرب الى المداراة وأكثر أثر التألف القلوب واذا رأى من المريد تقصيرا في خدمة ندب اليها يحمل تقصيره و يعفو عنه و يحرضه على الخدمة بالرفق واللين والى ذلك ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب ابن علي قال أنا أبو الفتح الكروخي قراءة عليه قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي

تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء فبهذا تبين ان نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الارض كلها واذا كانت الطباع مائلة الى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر اشارة وجيزة الى النعم الخاصة فنقول مامن عبد الا ولو أمعن النظر فى أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور فى العقل والخلق والعلم أما العاقل فما من عبد لله تعالى الا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد انه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وان من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه كما يفرح به المتصف به فاذا كان اعتقاده انه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لانه ان كان كذلك فالشكر واجب عليه وان لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به و يشكر عليه فان أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده و يبقى شكره لانه فى حقه كالباقى وأما الخلق فما من عبد الا و يرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها وانما يذمها من حيث يرى نفسه بريأ عنها فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى اذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء وأما العلم فما من أحد الا و يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ماهو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه فاظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد اما مطلقا واما فى بعض الامور فلننزل عن هذه الطبقة الى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول مامن عبد الا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو فى سائر محابه أمورا لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل ان جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وانسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه خصائص وان كان فيها عموم أيضا فان هذه الاحوال لو بدلت باضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا وذلك اما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدل له بما خص به الاكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره واذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه اما على الجملة واما فى أمر خاص فاذا لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه وان كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر الى عدد المغبوطين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالاضافة الى غيرهم فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر الى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر الى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه أليس اذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر اليها بان فى الفساق كثرة فينظر أبدا فى الدين الى من دونه لا الى من فوقه فلم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق فى الدين خيرا منه وحاله فى الدنيا خيرا من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من نظر فى الدنيا الى من هو دونه ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر فى الدنيا الى من هو فوقه وفى الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والايمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والامن وغير ذلك ولذلك قيل

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به * فى دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ورعا * ولينظرن الى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله وهذا اشارة الى نعمة العلم وقال عليه السلام ان القرآن هو الغنى الذى لا غنى بعده ولا فقر معه وقال عليه السلام من آتاه الله القرآن فظن ان أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال عليه السلام كفى باليقين غنى وقال بعض السلف يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة ان عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتى عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما فى يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال

قال ثنا قتيبة قال ثنا رشدين بن سعد عن أبى هلال الخولانى عن ابن عباس بن جليد الحجرى عن عبد الله بن عمر قال جاء رجل الى النبى عليه السلام فقال يارسول الله كم أعفو عن الخادم قال كل يوم سبعين مرة * وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس باحياء سنته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب (ومن جملة مهام الآداب) حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به و يمنحون من أنواع المنح فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ فى نفس المريد ما يجده فى خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شئ من خوارق العادات و يعرفه أن الوقوف مع شئ من هذا يشغل عن الله و يسد باب المزيد بل يعرفه ان هذه نعمة تشكر

اذا ما القوت يأتيك * كذا الصحة والامن وأصبحت أخا حزن * فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع انها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الايمان الذي به وصولهم الى النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الارض من المشرق الى المغرب من أموال واتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به الى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التلذذ بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وانها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت الى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان اذ ما خلقت لذات الدنيا الا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى اذا انخدعت وتقيدت بها ابت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغني حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم وكل ذلك باغتراره بلذة النظر اليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شبائك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن نقول ان المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فان المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم المعرض يفضي الى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي الى الالم في الآخرة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فاذا انما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا اليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدا الى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية اذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الامراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الامن ويحضر المقابر فيعلم ان أحب الاشياء الى الموتى أن يردوا الى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون اذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني اذ ضيعت بعض الاوقات في المباحات وأما العاصي فغبنه ظاهر فاذا شاهد المقابر وعلم ان أحب الاشياء اليهم ان يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر الى ما يشتهي أهل القبور العود لاجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل الامهال في كل نفس من الانفاس واذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر الى ما خلق العمر لاجله وهو التزود من الدنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر وقد كان الربيع ابن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحده ثم يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا ثم يقوم ويقول يا ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر ما عظمت

ومن ورائها نعم لا تحصى ويعرفه ان شأن المريد طلب المنعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظا عند نفسه وعند شيخه ولا يذيع سره فاذاعة الاسرار من ضيق الصدر وضيق الصدر الموجب لاذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال وسبب اذاعة السر ان للانسان قوتين آخذة ومعطية وكلتاهما تتشوف الى الفعل المختص بها ولولا أن الله تعالى وكل المعطية باظهار ما عندها ما ظهرت الاسرار فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها في مواضعها فيجعل حال الشيوخ عن اذاعة الاسرار لرزانة عقولهم وينبغي للمريد أن يحفظ سره من بثه ففي ذلك صحته وسلامته وتأييد الله سبحانه وتعالى يتدارك المريدين الصادقين في موردهم ومصدرهم

نعمة الله تعالى على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فهذا تمام هذا الركن

﴿ الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر ﴾

(بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شئ واحد)

لعلك تقول ما ذكرته في النعم اشارة الى ان لله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير الى ان البلاء لا وجود له أصلا فما معنى الصبر اذا وان كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون انا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعى الما والشكر يستدعى فرحا وهما يتضادان وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم ان البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لانهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم الى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما والى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم الى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى اما مدة واما أبدا وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي الى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة أما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لان الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف انه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الانسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بازالة الالم وانما الصبر على ألم ليس الى العبد ازالته فاذا يرجع الصبر في الدنيا الى ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية الا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالاضافة اليه فكذلك ما من بلاء الا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالاضافة الى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض وقال تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الاقسام الستة عشر من النعم سوى الايمان وحسن الخلق فانما يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون اضدادها اذا نعما في حقهم اذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الامور بلاء ويكون فقدها نعمة مثاله جهل الانسان بأجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه اذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه اذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر الى ايذائه واهانته ولو عرف ذلك وآذى كان اثمه لا محالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ومنها ابهام الله تعالى أمر القيامة وابهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وابهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لان هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا ان لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن الا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها فان لم تكن

نعمة

(الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر) المقتضي للصحبة وجود الجنسية وقد يدعو اليها أعم الاوصاف وقد يدعو اليها أخص الاوصاف فالدعاء بأعم الاوصاف كميل جنس البشر بعضهم الى بعض والدعاء بأخص الاوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم الى بعض ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم الى بعض وكميل أهل المعصية بعضهم الى بعض فاذا علم هذا الاصل وان الجاذب الى الصحبة وجود الجنسية بالاعم تارة وبالاخص أخرى فليتفقد الانسان نفسه عند الميل الى محبة شخص وينظر ما الذي يميل به الى محبته ويزن أحوال من يميل اليه بميزان الشرع فان رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له في مرآة

نعمة فى حقه كالالم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووسمه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار فى
النار فهو أيضا نعمة ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم لان مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله
تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة انما
يتضاعف اذا تفكروا فى آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم
اليها من حيث انها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر الى زينة السماء وهى أحسن من كل بستان لهم فى
الارض يجتهدون فى عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ماذكرناه
من أن الله تعالى لم يخلق شيأ الا وفيه حكمة ولا خلق شيأ الا وفيه نعمة اما على جميع عباده أو على بعضهم فاذا فى
خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا اما على المبتلى أو على غير المبتلى فاذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة
مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان اذلا
صبر الا على غم ولا شكر الا على فرح فاعلم أن الشئ الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون
الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور
ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها * أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها اذ
مقدورات الله تعالى لاتتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر اذلم تكن أعظم منها
فى الدنيا * الثانى أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتى
وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ
عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه اذ قال اللهم لاتجعل مصيبتى فى دينى وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى
عنه ما ابتليت ببلاء الا كان لله تعالى على فيه أربع نعم اذلم يكن فى دينى واذلم يكن أعظم منه واذلم أحرم الرضا به
واذ أرجو الثواب عليه وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل اليه يعلمه ويشكو اليه فقال
له اشكر الله فضربه فأرسل اليه يعلمه ويشكو اليه فقال اشكر الله فجئ بمجوسى فحبس عنده وكان مبطونا فقيد
وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى فأرسل اليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج الى أن
يقوم مرات وهو يحتاج أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب اليه بذلك فقال اشكر الله
فقال الى متى هذا وأى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذا
ما من انسان قد أصيب ببلاء الا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه لكان يرى انه
يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق
للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك احداهما فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ فى
شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ماهذه السجدة فقال كنت أنتظر
أن تصب على النار فالاقتصار على الرماد نعمة وقيل لبعضهم ألا تخرج الى الاستسقاء فقد احتبست الامطار فقال
أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر فان قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم
يصابوا بما أصبت به حتى الكفار فاعلم أن الكافر قد خبئ له ماهو أكثر وانما أمهل حتى يستكثر من الاثم ويطول
عليه العقاب كما قال تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وأما العاصى فمن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ورب
خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ولذلك
قال تعالى فى مثله وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم لعله قد أخرت عقوبته
الى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر وهو
أنه مامن عقوبة الا وكان يتصور أن تؤخر الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة
فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلى اذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية
فى الآخرة عن المعذبين ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
العبد اذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا * الرابع ان هذه المصيبة والبلية
كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب وكان لابد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو

أخيه جمال حسن
الحال وان رأى أفعاله
غير مسددة فيرجع الى
نفسه باللائمة والاتهام
فقد لاح له فى مرآة
أخيه سوء حاله فما الجدير
أن يفر منه كفراره من
الاسد فانهما اذا اصطحبا
ازدادا ظلمة واعوجاجا
ثم اذا علم من صاحبه
الذى مال اليه حسن
الحال وحكم لنفسه
بحسن الحال طالع ذلك
فى مرآة أخيه فليعلم
أن الميل بالوصف
الاعم مركوز فى جبلته
والميل بطريقه واقع
وله بحسبه أحكام
وللنفس بسببه سكون
وركون فيسلب الميل
بالوصف الاعم جدوى
الميل بالوصف الاخص
ويصير بين
المتصاحبين استرواحات
طبيعية وتلذذات
جبلية لا يفرق بينها
وبين خلوص الصحبة
لله الا العلماء الزاهدون
وقد يتفسد المريد
الصادق بأهل
الصلاح أكثر مما

من جميعها فهذه نعمة * الخامس أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة من وجهين أحدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبى فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والادب فكان يخسر جميع عمره فكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التى هى أعز الاشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان فى بعض الاحوال بل العقل الذى هو أعز الامور قد يكون سببا لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى فما من شئ من هذه الاسباب يوجد من العبد الا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فان حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا اذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبى بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه اذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالاولاد فقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال لا تتهم الله فى شئ قضاه عليك ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن ان قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وان قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له * الوجه الثانى ان رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب الى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن اليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد الا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن اليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب الا الواحد الحق فاذا فى البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضرورى وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة الى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا فانك تتألم وتفرح فتصبر على الالم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء فى الامور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم انه يخرج منها لا محالة فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لانه يورث الانس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بان ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة وحكى ان اعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال

اصبر نكن بك صابرين فانما * صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده * والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس ما عزانى أحد أحسن من تعزيته والاخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا وقال عليه السلام ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم آجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها الا فعل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من سلبت كريمتيه فجزاؤه الخلود فى دارى والنظر الى وجهى وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالى وسقم جسمى فقال صلى الله عليه وسلم لا خير فى عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره وقال رسول

يفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال اليهم بجنسية الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب والتخلف عن بلوغ الارب فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة ويأخذ من الصحبة أصفى الاقسام ويذر منها ما يسد فى وجهه المرام قال بعضهم هل رأيت شراقط الامن تعرف ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة كابراهيم بن أدهم وداود الطائى وفضيل ابن عياض وسليمان الخواص وحكى عنه أنه قيل له جاء ابراهيم بن أدهم أما تلقاه قال لان ألقى

الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك وعن خباب بن الارت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه فى ظل الكعبة فشكونا اليه فقلنا يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس محمرا لونه ثم قال ان من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له فى الارض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه وعن على كرم الله وجهه قال أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وان ضربه فمات فهو شهيد وقال عليه السلام من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى ألا حبذا المكروهات الثلاث الفقر والمرض والموت وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وان دعاه ثانيا فقال يا رب قال الله تعالى لبيك عبدى وسعديك لا تسألنى شيأ الا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وادخرت لك عندى ما هو أفضل منه فاذا كان يوم القيامة جىء بأهل الاعمال فوفوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية فى الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال شكا نبى من الانبياء عليهم السلام الى ربه فقال يا رب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترئ عليك وعلى معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى اليه ان العباد لى والبلاء لى وكل يسبح بحمدى فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته وروى انه لما نزل قوله تعالى من يعمل سوأ يجز به قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست يصيبك الاذى ألست تحزن فهذا مما تجزون به يعنى أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وعن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى اذا فرحوا بما أوتوا أى بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة وعن الحسن البصرى رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت اليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر فى وجهه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا وقال على كرم الله وجهه ألا أخبركم بأرجى آية فى القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير فالمصائب فى الدنيا بكسب الاوزار فاذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا وان عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما تجرع عبد قط جرعتين أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة أحب الى الله من قطرة دم أهريقت فى سبيل الله أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله وما خطا عبد خطوتين أحب الى الله تعالى من خطوة الى صلاة الفريضة وخطوة الى صلة الرحم وعن أبى الدرداء قال توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه فى زى الخصوم فقال أحدهما بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده فقال للآخر ما تقول فقال أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أما علمت أن لا بد للناس من الطريق قال فلم تحزن على ولدك أما علمت أن الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان الى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال يا بنى لان تكون فى ميزانى أحب الى من

سيما ضار بالأحب الى من ان ألقى ابراهيم بن أدهم قال لانى اذ رأيته أحسن له كلامى وأظهر نفسى باظهار أحسن أحوالها وفى ذلك الفتنة وهذا كلام عالم بنفسه واخلاقها وهذا واقع بين المتصاحبين الا من عصمه الله تعالى أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى اجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد ابن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى قال أنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق قال ثنا سليمان بن الاشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها

أن أكون في ميزانك فقال يا أبت لان يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه نعي اليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجر قد ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وعن ابن المبارك انه مات له ابن فعزاه مجوسي يعرفه فقال له ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه وقال بعض العلماء ان الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الارض وماله ذنب وقال الفضيل ان الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير وقال حاتم الاصم ان الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الاغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد بيوسف وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني اسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار الى رأس زكريا فأن منه أنة فأوحى الله تعالى اليه يا زكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لامحونك من ديوان النبوة فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين وقال أبو مسعود البلخي من أصيب بمصيبة فزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل وقال لقمان رحمه الله لابنه يا بني ان الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط وقال الاحنف بن قيس أصبحت يوما اشتكي ضرسي فقلت لعمي ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا فقال لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد وأوحى الله تعالى الى عزير عليه السلام اذا نزلت بك بلية فلا تشكني الى خلقي واشك الى كما لا أشكوك الى ملائكتي اذا صعدت مساويك وفضائحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة

﴿ بيان فضل النعمة على البلاء ﴾

لعلك تقول هذه الاخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء فأقول لا وجه لذلك لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكان يقول هو والانبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وغيرها وقال علي كرم الله وجهه اللهم اني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية وروى الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سلوا الله العافية فما أعطي أحد أفضل من العافية الا اليقين وأشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لا شر فيه العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر وقال مطرف بن عبد الله لان أعافى فأشكر أحب الى من أن ابتلى فاصبر وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه وعافيتك أحب الى وهذا أظهر من أن يحتاج فيه الى دليل واستشهاد وهذا لان البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما بالاضافة الى ما هو أكثر منه اما في الدنيا أو في الدين والآخر بالاضافة الى ما يرجى من الثواب فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فانه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر فان قلت فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لي في سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم انه حكي عن سمنون المحب رحمه الله انه بلي بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب وأما محبة الانسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك فمن شرب كاس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولو زايله سكره علم ان ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه كما حكي أن فاختة كان

شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن قال الله تعالى اخبارا عن خليله ابراهيم وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي استظهر بالعزلة على قومه (قيل) العزلة نوعان فريضة وفضيلة فالفريضة العزلة عن الشر وأهله والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلوة غير العزلة فالخلوة من الاغيار والعزلة من النفس وما تدعو اليه وما يشغل عن الله فالخلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة الا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام الى يومنا هذا وما سلم الامن جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصمت وواحد في العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليلزم الاصل ولا يخالط الا بقدر الحاجة واذا خالط

يراودها

يراودها زوجها فتمنعه فقال ما الذي يمنعك عني ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لاجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجري * فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومعناه اني أريد ما لا يريد لان من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذي لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام الا بتأويلين أحدهما أن يكون ذلك في بعض الاحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به الى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة الى الرضا والرضا وسيلة الى وصال المحبوب والوسيلة الى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال اذا أسلم درهما في درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال * الثاني أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث انه رضاه فقط ويكون له لذة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين الى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا فهؤلاء اذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب اليهم من العافية وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت وان ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المنان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين

﴿ بيان الافضل من الصبر والشكر ﴾

اعلم ان الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سيان وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة الى اظهار الحق أولى فنقول في بيان ذلك مقامان (المقام الاول) البيان على سبيل التساهل وهو ان ينظر الى ظاهر الامر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ اذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام اصلاحهم والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور والسمان وضروب الحلاوات بل باللبن اللطيف وعليها أن تؤخر عنه أطايب الاطعمة الى أن يصير محتملا لها بقوته ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر الى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر فان الشكر وان وردت أخبار كثيرة في فضله فاذا أضيف اليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وفي الخبر يؤتى بأشكر أهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الارض فيقال له أما ترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن لك الاجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين وقد قال الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وأما قوله الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر اذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان الحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل وكقوله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر كعابد الوثن وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان لا يدل على أن الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر فان كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وان كان بينهما تفاوت كما يقال الايمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الايمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفي خبر آخر يدخل سليمان بعد

لا يخالط الا بحجة واذا خالط يلازم الصمت فانه أصل والكلام عارض ولا يتكلم الا بحجة فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه الى مزيد علم والاخبار والآثار في التحذير عن المخالطة والصحبة كثيرة والكتب بها مشحونة وأجمع الاخبار في ذلك ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح باسناده السابق الى أبي سلمان قال حدثنا أحمد بن سلمان النجاد قال ثنا محمد بن يونس الكريمي قال ثنا محمد بن منصور الجشمي قال ثنا مسلم ابن سالم قال ثنا السري ابن يحيى عن الحسن عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه الا من فر بدينه من قرية الى قرية ومن شاهق الى شاهق ومن حجر الى حجر كالثعلب الذي يروغ قالوا ومتى

الانبياء بأربعين خريفا وفي الخبر أبواب الجنة كلها مصراعان الا باب الصبر فانه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء امامهم أيوب عليه السلام وكل ماورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لان الصبر حال الفقير والشكر حال الغني فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم

﴿ المقام الثاني ﴾ هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الامور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الابهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الاجمال فنقول قد ذكرنا ان هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك وهذه الثلاثة اذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر ان العلوم تراد للاحوال والاحوال تراد للاعمال والاعمال هي الافضل وأما أرباب البصائر فالامر عندهم بالعكس من ذلك فان الاعمال تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم فالافضل العلوم ثم الاحوال ثم الاعمال لان كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه وأما آحاد هذه الثلاثة فالاعمال قد تتساوى وقد تتفاوت اذا أضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد الاحوال اذا أضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة لانها تراد للمعاملة ففائدتها اصلاح العمل وانما فضل العالم بالمعاملة على العابد اذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالاضافة الى عمل خاص أفضل والا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول فائدة اصلاح العمل اصلاح حال القلب وفائدة اصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فارفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وانما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ماعداها من المعارف عبيد وخدم بالاضافة اليها فانها انما تراد لاجلها ولما كانت مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الافضاء الى معرفة الله تعالى فان بعض المعارف يفضي الى بعض اما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل وأما الاحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى اذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فاذا فضائل الاحوال بقدر تأثيرها في اصلاح القلب وتطهيره واعداده لان تحصل له علوم المكاشفة وكما ان تصقيل المرآة يحتاج الى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب الى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الاعمال فان تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الاحوال اليه وكل عمل اما أن يجلب اليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة الى زخارف الدنيا واما ان يجلب اليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الاول المعصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وان الحج أفضل من الصدقة وان قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه ان الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على امساكه فاخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام لان الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فاراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا المدبر اذلم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولاهو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه واشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله الى حال غيره وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن اذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه والشح المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزيله الا اخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه وتفصيل هذا بما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع اليه

ذلك يارسول الله قال اذا لم تنل المعيشة الا بمعاصي الله فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرتنا بالتزوج قال انه اذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فان لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده فان لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يورده موارد الهلكة * وقد رغب جمع من السلف في الصحبة والاخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الايمان حيث جعلهم اخوانا فقال سبحانه وتعالى واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال تعالى هو الذي أيدك بنصره

فاذا باعتبار هذه الاحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ اذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق الا أن الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتمعا فلينظر الى الاغلب فان كان العطش هو الاغلب فالماء أفضل وان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل فان تساويا فهما متساويان وكذا اذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب النينوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا نعم لو قيل لنا السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء فنقول عدم الصفراء لان السكنجبين مراد له وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة فاذا في بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه فالافضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل فان قلت فقد حث الشرع على الاعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا وقال تعالى ويأخذ الصدقات فكيف لا يكون الفعل والانفاق هو الافضل فاعلم أن الطبيب اذا أثنى على الدواء لم يدل على ان الدواء مراد لعينه أو على انه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ان كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهه ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال انه محفوظ ولا حاجة بي الى تكرار ودراسة لانه يظن ان ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فامر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي المسكين ان المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الامر فيقول ما بالي قد استخدمت لاجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به واعلم أنه لا نقصان لابي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الاباحة وقالوا ان الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأي معنى لقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ولو شاء الله اطعام المساكين لاطعمهم فلا حاجة بنا الى صرف أموالنا اليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه وقالوا أيضا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من اذا شاء أهلك بالصدق واذا شاء أسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لاجل المساكين والفقراء أو لاجل الله تعالى قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لاجل العبيد ولم يشعر بانه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وانما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره الى ما فيه سعادته فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذا المسكين الآخذ لك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك فالحجام خادم لك لا انت خادم للحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بان يكون له غرض في أن يصنع شيأ بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها والمقصود أن الاعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الاصلي الذي ينبغي أن يرجع اليه في معرفة فضائل الاعمال والاحوال والمعارف ولنرجع الآن الى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول في كل واحد منهما

و بالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم *وقد اختار الصحبة والاخوة في الله تعالى سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك وغيرهما وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض (قيل) أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالايمان ويقع بطريق الصحبة والاخوة التعاضد والتعاون وتتقوى جنود القلب وتستروح الارواح بالتشام وتتفق في التوجه الى الرفيق الاعلى ويصير مثالها في الشاهد كالاصوات اذا اجتمعت خرقت الاجرام واذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام

معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا الى معرفة واحدة اذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا ان اعتبر تافي البلاء والمصائب وقد بينا ان الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر لان الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لان الشكر يرجع الى صرف نعمة الله تعالى الى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع الى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبار ين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالاضافة الى باعث الهوى ويسمى شكرا بالاضافة الى باعث الدين اذ باعث الدين انما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة فقد صرفه الى مقصود الحكمة فهما عبارتان من معنى واحد فكيف يفضل الشئ على نفسه فاذا مجارى الصبر ثلاثة الطاعة والمعصية والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة اما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا واما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فصبر الاعمى عنهما بان لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بامرين أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل واحد من الامرين لا يخلو عن الصبر فان الاعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لانه لا يراها والبصير اذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين وان اتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا اذا استعان بالعينين على الطاعة فلابد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر الى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به الى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الانبياء فوق رتبة موسى عليهما السلام وغيره من الانبياء لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا لان كل واحد من هذه الاعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون الا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه اذا لم يؤت الاقدر الضرورة وهو محتاج الى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف الى الخيرات وأن لا تستعمل في المعصية فان أضيف الصبر الى الشكر الذي هو صرف الى الطاعة فالشكر أفضل لانه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه الى الفقراء وترك صرفه الى التنعم المباح وكان الحاصل يرجع الى أن شيئين أفضل من شئ واحد وان الجملة أعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل اذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين ابعاضها وأما اذا كان شكره بان لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف اياه الى المباحات لا من الغني الصارف ماله الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوة والغني اتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لابد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا الا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها فان الاعمال لا تراد الا لاحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والايمان فما دل على زيادة قوة في الايمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والاخبار انما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لان السابق الى افهام الناس من النعمة الاموال والغنى بها والسابق الى الافهام من الشكر أن يقول الانسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا ان يصرفها الى الطاعة فاذا الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة والى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله

* وورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن كثير بأخيه وقال الله تعالى مخبرا عن لا صديق له فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والحميم في الاصل الهميم الا انه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجهما اذ هما من حروف الحلق والهميم مأخوذ من الاهتمام أي يهتم بأمر أخيه فالاهتمام بهم الصديق حقيقة الصداقة وقال عمر اذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك وقد قال القائل

وإذا صفا لك من زمانك واحد
فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قال ياداود مالي أراك منتبذا وحدك قال الهي قليت الخلق من أجلك فأوحى الله اليه ياداود كن يقظانا مرتادا لنفسك اخوانا وكل خدن

حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم وانما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما فشرط الغني بصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير بصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما كان الذى آلم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها والامر على ماقاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الاخير الذى ذكرناه وهو لم يرد سواه ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده واتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابتني ورجع الى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التى ذكرناها علمت ان لكل واحد من القولين وجها في بعض الاحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغني الذى يرى نفسه مثل الفقير اذ لا يمسك لنفسه من المال الا قدر الضرورة والباقي يصرفه الى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد انه خازن للمحتاجين والمساكين وانما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف اليها ثم اذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر فان قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لان هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر فان كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الانفاق فاعلم ان الذى نراه ان من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وانما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فايلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج الى الضرب وان كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج الى الايلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج اليهما في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما في حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا وقد كان مؤلما له أولا ولكن لما كان الناس كلهم الا الاقلين في البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذى يؤلم صفته أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق فاذا اذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لارادة الاكثر فاطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق الى الافهام فاذا أردت التحقيق ففصل فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا اذ الصبر مع التألم والرضا يمكن فيما لا ألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن الا على محبوب مفرح وبه وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر اذ قال عليه السلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب اسرار الزكاة وقلة الاعتراض وحسن الادب بين يدى المنعم شكر وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر وما يندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن اجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر الا على سبيل ارادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الاخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الاسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال اني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لى وهي كذلك كانت تهواني فاتفق أنها زوجت مني فليلة زفافها قالت تعالى حتى نحيي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا الى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فنحن منذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يافلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر اليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وانسب صبر الفرقة الى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن

لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه فانه عدو يقسي قلبك ويباعدك مني وقد ورد في الخبر ان أحبكم الى الله الذين يألفون ويؤلفون فالمؤمن آلف مألوف وفي هذا دقيقة وهي انه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفا مألوفا فان هذه الاشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخلق الجبلي وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة ويقينا وأرزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس حظا في هذا الوصف الانبياء ثم الاولياء وأتم الجميع في هذا نبينا صلوات الله عليه وكل من كان من الانبياء اتم ألفة كان أكثر تبعا ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا وقال تناكحوا تكثروا فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة وقد نبه الله تعالى على هذا

هذا الشكر أفضل فاذا الوقوف على حقائق المفصلات الا بتفصيل كما سبق والله أعلم

﴿ كتاب الخوف والرجاء وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه المخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه الى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته الى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض للائمته والتهدف لسخطه ونقمته قود الاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف الى جنته والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته (أما بعد) فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء ثقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضاء الا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الاليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات الا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلابد اذا من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الاول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف (أما الشطر الاول) فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يجتلب به الرجاء

﴿ بيان حقيقة الرجاء ﴾

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت وأقام وانما يسمى حالا اذا كان عارضا سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم الى ثابتة كصفرة الذهب والى سريعة الزوال كصفرة الوجل والى ماهو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسم للحال من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم الى موجود في الحال والى موجود فيما مضى والى منتظر في الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرا وتذكرا وان كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال سمي وجدا وذوقا وادراكا وانما سمي وجدا لانها حالة تجدها من نفسك وان كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفا واشفاقا وان كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وان يكون له سبب فان كان انتظاره لاجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وان كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء وان لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لانه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا اذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لان ذلك مقطوع به نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقة الماء اليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالارض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد الا ما زرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه في

اوقاته

الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وانما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ومن كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حبب الى رسول الله الخلوة في أول أمره وكان يخلو في غار حراء ويتحنث الليالي ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفا مألوفا وقد غلط في هذا قوم ظنوا ان العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الانبياء ثم الامثل فالامثل ما أسلفناه في أول الباب ان في الانسان ميلا الى الجنس بالوصف الاعم فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية

أوقاته ثم نقى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء وان بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء وان بث البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ولا تمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لا رجاء فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الاخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور وقال صلى الله عليه وسلم الاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا* وذم الله تعالى صاحب البستان اذ دخل جنته وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا فاذا العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق اليها فحقيق بان يرجو من الله التوفيق للتوبة لان كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى الى التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الاسباب ولذلك قال تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لان غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فاما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية* قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصى وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الافراط

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت انها حالة أثمرها العلم بجرى اكثر الاسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الاسباب على حسب الامكان فان من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الارض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا الى وقت الحصاد وهذا لان الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الارض سبخة وأن الماء معوز وان البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الارض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لانه باعث واليأس مذموم وهو ضده لانه صارف عن العمل والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الاحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فان هذه الاحوال لا بد وان تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الاشخاص فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل ويدل على اثماره لهذه الاعمال حديث زيد الخيل اذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئت لاسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال

النفس عن الميل بالوصف الاعم لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع الى تألف الارواح فاذا وفوا التصفية حقها اشرأبت الارواح الى جنسها بالتألف الاصلى الاولى وأعادها الله تعالى الى الخلق ومخالطتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الارواح وطهرت صفة الجبلة من الالفة المكملة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الامور عند من يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على ان الذى اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذم العزلة على الاطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها فى وقتها والصحبة مرغوبا فيها فى وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته

فكيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله واذا قدرت على شئ منه سارعت اليه وأيقنت بثوابه واذا فاتني منه شئ حزنت عليه وحننت اليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أراد للاخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أى أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور

﴿ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه ﴾

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لان أقرب العباد الى الله تعالى أحبهم له والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت قال تعالى لا تقنطوا من رحمة الله فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لانك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك فقال أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك وقال سفيان من أذنب ذنبا فعلم ان الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لان الله عز وجل عير قوما فقال وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم وقال تعالى وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره فان لقنه الله حجته قال رب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرته لك وفي الخبر الصحيح أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيرا قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع افلاسه عن الطاعات وقال تعالى ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ولما قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون الى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال ان ربك يقول لك لم تقنط عبادي فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم وفي الخبر ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام أحبني وأحب من يحبني وحببني الى خلقي فقال يارب كيف أحببك الى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي واحساني وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون مني الا الجميل ورؤي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك فقلت أردت أن أحببك الى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤي يحيى بن أكثم بعد موته في النوم فقيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يا رب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عني فقلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام انك قلت أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء وكنت أظنك أن لا تعذبني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فالبست ومشى بين يدي الولدان الى الجنة فقلت يا لها من فرحة * وفي الخبر أن رجلا من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول الله تعالى يوم القيامة اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها وقال صلى الله عليه وسلم ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فائتني بعبدي قال فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان قال فيقول ردوه الى مكانه قال فيمشي ويلتفت الى وراءه فيقول الله عز وجل الى أي شئ تلتفت فيقول لقد رجوت أن لا تعيدني اليها بعد اذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

﴿ بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب ﴾

اعلم

بدا حتى يجعل الله له منه فرجا وكان بشر بن الحرث يقول اذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالانس بهيئة الله للصادقين رفقا من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا والانيس قد يكون مفيدا كالمشايخ وقد يكون مستفيدا كالمريدين فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس فان كان قاصرا يؤنسه الله بتعميم حاله به وان كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين وهذا الانس ليس فيه ميل بالوصف الاعم بل هو بالله ومن الله وفي الله (روى) عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لاهل الجنة كما

اعلم أن هذا الدواء يحتاج اليه أحد رجلين اما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة واما رجل غلب عليه الخوف فاسرف فى المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال الى طرفى الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج يردهما الى الاعتدال فاما العاصى المغرور والمتمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصى فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة فى حقه وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل المغرور لا يستعمل فى حقه الا أدوية الخوف والاسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا الى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل والقصد فى الصفات والاخلاق كلها وخير الامور أوسطها فاذا جاوز الوسط الى حد الطرفين عولج بما يرده الى الوسط لا بما يزيد فى ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة فى التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم الى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ الا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا الى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا قال على كرم الله وجهه انما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل فى حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لانهما جامعان لاسباب الشفاء فى حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الانبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الاخرق الذى يظن أن كل شئ من الادوية صالح لكل مريض كيفما كان* وحال الرجاء يغلب بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والاخبار والآثار * أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه فى أصناف النعم من كتاب الشكر حتى اذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا وعجائب حكمه التى راعاها فى فطرة الانسان حتى أعد له فى الدنيا كل ما هو ضرورى له فى دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج اليه كالاصابع والاظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم الى الهلاك المؤبد بل اذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة فى الدنيا حتى انه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وان أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا أو لا يحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم الا لان أسباب النعم أغلب لا محالة وانما الذى يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه الا فى حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا اذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسننها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل من رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدى عبده الى طريق الاحتياط فى حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه

* الفن الثانى استقراء الآيات والاخبار * فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالى أنه هو الغفور الرحيم وقال تعالى والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض وأخبر تعالى أن النار أعدها الاعدائه وانما خوف بها أولياءه فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده وقال تعالى واتقوا النار التى أعدت للكافرين وقال تعالى فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى وقال عز وجل وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم

تضىء الشمس لاهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر الى المتحابين فى الله عز وجل فاذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لاهل الجنة كما تضىء الشمس لاهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل وقال أبو ادريس الخولانى لمعاذ انى أحبك فى الله فقال له ابشر ثم ابشر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل من هؤلاء يا رسول الله قال هم المتحابون فى الله عز وجل (وروى) عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

و يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفي تفسير قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى * وأما الاخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار وفي لفظ آخر يأتي كل رجل من هذه الامة بيهودي أو نصراني الى جهنم فيقول هذا فدائي من النار فيلقى فيها وقال صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار وروى في تفسير قوله تعالى يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه أن الله تعالى أوحى الى نبيه عليه الصلاة والسلام اني أجعل حساب أمتك اليك قال لا يا رب أنت أرحم بهم مني فقال اذا لا نخزيك فيهم وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يا رب اجعل حسابهم الي لئلا يطلع على مساويهم غيري فأوحى الله تعالى اليه هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم الى غيري لئلا تنظر الى مساويهم أنت ولا غيرك وقال صلى الله عليه وسلم حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فاسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع وأما موتي فان أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل عليه السلام أتدري ما تفسير يا كريم العفو هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم اني أسألك تمام النعمة فقال هل تدري ما تمام النعمة قال لا قال دخول الجنة قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الاسلام لنا اذ قال تعالى وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وفي الخبر اذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته انظروا الى عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له وفي الخبر لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له لو استغفرني ورجاني وفي الخبر لو لقيني عبدي بقراب الارض ذنوبا لقيته بقراب الارض مغفرة وفي الحديث ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها سيئة وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فتلقى عنه السيئة وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال اذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابي وان تاب عنه قال محي عنه قال فان عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الاعرابي فان تاب قال محي من صحيفته قال الى متى قال الى أن يستغفر ويتوب الى الله عز وجل ان الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فان عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى الى سبعمائة ضعف واذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت خطيئة واحدة وورائها حسن عفو الله عز وجل وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ولا أصلي الا الخمس لا أزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع أين أنا اذا مت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معي اذا حفظت قلبك من اثنتين الغل والحسد ولسانك من اثنتين الغيبة والكذب وعينيك من اثنتين النظر الى ما حرم الله وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين وفي الحديث الطويل لانس أن الاعرابي قال يا رسول الله من يلي حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي فقال صلى الله عليه وسلم مم ضحكت يا أعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الاعرابي ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الاكرمين ثم قال فقه الاعرابي وفيه أيضا أن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى قال الاعرابي ومن أولياء الله تعالى قال

قال يقول الله عز وجل حقت محبتي للمتحابين في والمتزاورين في والمتباذلين في والمتصادقين في (أخبرنا) الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي اجازة قال أنا أحمد بن الحسين بن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المحاملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق ابراهيم ابن اسحق الحربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قال وما هو قال اصلاح ذات البين واياكم والبغضة فانها هي الحالقة وباسناد ابراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت أبا مسلم يقول سمعت أبا

المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قول الله عز وجل الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى
النور وفى بعض الاخبار المؤمن أفضل من الكعبة والمؤمن طيب طاهر والمؤمن أكرم على الله تعالى من
الملائكة وفى الخبر خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده الى الجنة وفى خبر آخر يقول الله
عز وجل انما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لاربح عليهم وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما خلق الله تعالى شيأ الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه وفى الخبر المشهور ان الله
تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق ان رحمتى تغلب غضبى وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه
صلى الله عليه وسلم قال من قال لا اله الا الله دخل الجنة ومن كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تمسه النار ومن لقى الله
لا يشرك به شيأ حرمت عليه النار ولا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان وفى خبر آخر لو علم الكافر سعة
رحمة الله ما أيس من جنته أحد ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ان زلزلة الساعة شئ عظيم قال
أتدرون أى يوم هذا هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال
من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة قال فابلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا
يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن
يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم فى الامم أين تاويل وثاريس ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم
لا يحصيها الا الله تعالى انما أنتم فى سائر الامم كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود وكالرقمة فى ذراع الدابة فانظر
كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء الى الله تعالى اذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما
خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال الى افراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم الى الاعتدال والقصد والآخر
لم يكن مناقضا للاول ولكن ذكر فى الاول ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا الى المعالجة بالرجاء
ذكر تمام الامر فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة
بعد ملاحظة العلل الباطنة وان لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه وفى الخبر لو لم تذنبوا لخلق الله
خلقا يذنبون فيغفر لهم وفى لفظ آخر لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم وفى
الخبر لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل وما هو قال العجب وقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى
بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وفى الخبر ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت
على قلب أحد حتى ان ابليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه وفى الخبر ان لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده
تسعا وتسعين رحمة وأظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة
على ولدها فاذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة الى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها
طباق السموات والارض قال فلا يهلك على الله يومئذ الا هالك وفى الخبر ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا
ينجيه من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته وقال عليه أفضل الصلاة والسلام
اعملوا وابشروا واعلموا ان أحدا لم ينجه عمله وقال صلى الله عليه وسلم انى اختبأت شفاعتى لاهل الكبائر من
أمتى أترونها للمطيعين المتقين بل هى للمتلوثين المخلطين وقال عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السمحة السهلة
وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى أحب أن يعلم أهل الكتابين ان فى ديننا سماحة ويدل على
معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين فى قولهم ولا تحمل علينا اصرا وقال تعالى ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى
كانت عليهم وروى محمد بن الحنفية عن على رضى الله تعالى عنهما أنه قال لما نزل قوله تعالى فاصفح الصفح
الجميل قال يا جبريل وما الصفح الجميل قال عليه السلام اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال يا جبريل فالله تعالى
أكرم من أن يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى اليهما ميكائيل عليه
السلام وقال ان ربكما يقرئكما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا مالا يشبه كرمى * والاخبار
الواردة فى أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى *(وأما الآثار)* فقد قال على كرم الله وجهه من أذنب ذنبا
فستره الله عليه فى الدنيا فالله أكرم أن يكشف ستره فى الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى
أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة وقال الثورى ما أحب أن يجعل حسابى الى أبوى لانى أعلم

هريرة يقول الخبر وفى
الخبر تحذير عن البغضة
وهو ان يجفوا المختلى
الناس مقتا لهم وسوء
ظن بهم وهذا خطأ
وانما يريد ان يخلو مقتا
لنفسه وعلما بما فى
نفسه من الآفات
وحذرا على نفسه من
نفسه وعلى الخلق أن
يعود عليهم من شره فمن
كانت خلوته بهذا
الوصف لا يدخل تحت
هذا الوعيد والاشارة
بالحالقة يعنى أن البغضة
حالقة للدين لانه نظر
الى المؤمنين والمسلمين
بعد المقت (وأخبرنا)
الشيخ أبو الفتح
باسناده الى ابراهيم
الحربى قال حدثنا
يعقوب بن ابراهيم قال
حدثنا أبو عاصم عن
ثور عن خالد بن معدان
قال ان الله تعالى ملكا
نصفه من نار ونصفه
من ثلج وان من دعائه
اللهم فكما ألفت بين
هذا الثلج وهذه النار
فلا الثلج يطفئ النار ولا
النار تذيب الثلج ألف

ان الله تعالى أرحم بي منهما وقال بعض السلف المؤمن اذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه وكتب محمد بن مصعب الى اسود بن سالم بخطه ان العبد اذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو يقول يارب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى اذا قال الرابعة يارب قال الله تعالى حتى متى تحجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي انه ليس له رب يغفر الذنوب غيري أشهدكم اني قد غفرت له وقال ابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه خلالي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت يارب اعصمني حتى لا أعصيك أبدا فهتف بي هاتف من البيت ياابراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون ذلك فاذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر وكان الحسن يقول لولم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب وقال الجنيد رحمه الله تعالى ان بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له الى كم تحدث الناس بالرخص فقال ياأبا يحيى اني لارجوأن ترى من عفو الله يوم القيامة ماتخرق له كساءك هذا من الفرح وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال اني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان واني رأيت الامر أيسر مما تظنون فلا تفتروا وان محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكانها كانت حصاة وقعت في طشت فحملناه ودفناه وفي الحديث أن رجلين من بني اسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره فكان يقول دعني وربي أبعثت على رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لايغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته وروي أيضا ان لصا كان يقطع الطريق في بني اسرائيل أربعين سنة فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني اسرائيل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر والى جنبه حواريه لونزلت فكنت معهما ثالثا قال فنزل فجعل يريد ان يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه مثلي لايمشي الى جنب هذا العابد قال وأحس الحواري به فقال في نفسه هذا يمشي الى جانبي فضم نفسه ومشى الى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه فاوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ماسلف من أعمالهما أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيآته بما ازدرى على نفسه فاخبرهما بذلك وضم اللص اليه في سياحته وجعله من حواريه وروي عن مسروق ان نبيا من الانبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب فلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى اليه تتألى على في عبادي اني قد غفرت له ويقرب من هذا ماروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فنزل عليه قوله تعالى ليس لك من الامر شيء الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للاسلام وروي في الاثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فاذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته على في عليين فيقول الله سبحانه انه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فاعطيت كل عبد سؤله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لان المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لانعامه واكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم سلوا الله الدرجات العلى فانما تسألون كريما وقال اذا سألتم الله فاعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الاعلى فان الله تعالى لايتعاظمه شيء وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها فقلنا ياأبا عبد الله كيف تجدك قال لا أدري ما أقول لكم الا انكم ستعاينون من عفو الله

بين قلوب عبادك الصالحين وكيف لاتتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لايسعه فيه شيء للطف حال الصالحين ووجدهم في ذلك المقام العزيز وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فهم مجتمعون وان كانوا متفرقين وصحبتهم لازمة وعزيمتهم في التواصل في الدنيا والآخرة جازمة * وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لوان رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض فيه ما نفعه ذلك (أخبرنا) رضي الدين أحمد بن اسمعيل بن يوسف اجازة ان لم يكن سماعا قال أنا أبو المظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال سمعت أباعبد الرحمن السلمي يقول سمعت عبد الله

مالم يكن لكم في حساب ثم مابرحنا حتى أغمضناه وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي اياك مع الاعمال لاني أعتمد في الاعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف وقيل ان مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال ان أسلمت أضفتك فمر المجوسي فأوحى الله تعالى اليه ياابراهيم لم تطعمه الابتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك فمر ابراهيم يسعى خلف المجوسي فرده وأضافه فقال له المجوسي ما السبب فيما بدالك فذكر له فقال له المجوسي أهكذا يعاملني ثم قال أعرض على الاسلام فأسلم ورأى الاستاذ أبوسهل الصعلوكي أباسهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الامر أهون مما توهمنا ورأى بعضهم أباسهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لاتوصف فقال له يا أستاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي وحكي ان أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه كان القيامة قد قامت واذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال فجاؤا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فاعاد السؤال كانه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت اما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت ان تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع الى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيأ من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيأ ويقول من دفع اليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع الغلام اليه الدراهم فقال منصور ما الذي تريد أن أدعولك فقال لي سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الاخرى فقال أن يخلف الله على دراهمي فدعا ثم قال الاخرى قال أن يتوب الله على سيدي فدعا ثم قال الاخرى فقال أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت فقص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت لنفسي العتق فقال له اذهب فأنت حر قال وايش الثاني قال ان يخلف الله على الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم وايش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال تبت الى الله تعالى قال وايش الرابع قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم وللمذكر قال هذا الواحد ليس الي فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كان قائلا يقول له أنت فعلت ما كان اليك أفترى أني لاأفعل ما الي قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا الى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت فقلت للمرأة من كان هذا الميت منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغر وأمره قلت وايش كان هذا قالت مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها الى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كانه أتاني آت كانه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني فقلت من أنت فقال المخنث الذي دفنتموني اليوم رحمني ربي باحتقار الناس اياي وقال ابراهيم الاطروش كناقعودا ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة اذمر أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعروف أماتراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال الهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة فقال القوم انما سألناك أن تدعو عليهم فقال اذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم وكان بعض السلف يقول في دعائه يارب وأي أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما أحلمك وعزتك انك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كانك يار بنا لاتغضب فهذه هي الاسباب التي بها يجلب روح الرجاء الى قلوب الخائفين والآيسين فاما الحمقى المغرورون فلاينبغي أن يسمعوا شيأ من ذلك بل يسمعون ماسنورده في أسباب الخوف فان أكثر الناس لايصلح الاعلى الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لايستقيم الابالسوط والعصا واظهار الخشونة في الكلام وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا

(الشطر الثاني من الكتاب في الخوف) وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الافضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الانبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ونسأل الله حسن التوفيق

ابن المعلم يقول سمعت أبابكر التلمساني يقول اصحبوا مع الله فان لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم الى صحبة الله (وأخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب اجازة قال أنا عمر بن أحمد الصفار النيسابوري اجازة قال أنا أبو بكر أحمد ابن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبانصر الاصفهاني يقول سمعت أباجعفر الحداد يقول سمعت علي بن سهل يقول الانس بالله تعالى ان تستوحش من الخلق الامن أهل ولاية الله فان الانس بأهل ولاية الله هو الانس بالله (وقد نبه القائل) نظما على حقيقة جامعة لمعاني الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله
وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من قعود المرء وحده

بيان حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها والى هذا أشار الواسطي حيث قال الخوف حجاب بين الله وبين العبد وقال أيضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف وبالجملة فالمحب اذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصانا في الشهود ودوام الشهود غاية المقامات ولكنا الآن انما نتكلم في أوائل المقامات فنقول حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي الى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والافلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الاسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فان الماء يخاف لانه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق وكذا النار على الاحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وانه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أنا أخوفكم لله وكذلك قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ثم اذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضي الى الموت أو يصعد الى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك قيل ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيأ هرب منه ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذي النون متى يكون العبد خائفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف أن فيه سما فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالانفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري انه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الاعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فان زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى اذ التقوى أن يترك ما يريبه الى ما لا يريبه

(الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصحبة والاخوة في الله تعالى) قال الله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وقال تعالى وتواصوا بالحق وتواصوا بالمرحمة وقال في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو اخوة فادبه في أول ذلك ان يسلم نفسه وصاحبه الى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصحبة فانه يفتح على نفسه بذلك اما بابا من أبواب الجنة واما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقيل ان أحد الاخوين في الله تعالى يقال له

وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فاذا انضم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف الى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة فاذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والاقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فانه أعم لانه كف عن كل محظور وأعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا وراءه اسم الصديق والمقرب وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الاخص من الاعم فاذا ذكرت الكل كانك تقول الانسان اما عربي واما عجمي والعربي اما قرشي أو غيره والقرشي اما هاشمي أو غيره والهاشمي اما علوي أو غيره والعلوي اما حسني أو حسيني فاذا ذكرت انه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع وان وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه فكذلك اذا قلت صديق فقد قلت انه تقي وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن ان كثرة هذه الاسامي تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الالفاظ ولم يتبع الالفاظ المعاني فهذه اشارة الى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالاعمال الصادرة منه كفا واقداما

﴿بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف﴾

اعلم ان الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والاصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله افراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فاما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مبرحا فلا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم الا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فانهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك مما قد عز وجوده الآن ولذلك قال الفضيل بن عياض اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت وأشار به الى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا وأما المفرط فانه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضا لانه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشأه الجهل والعجز أما الجهل فانه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لان المخوف هو الذي يتردد فيه وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الآدمي وانما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال في ذاته وانما يصير محمودا بالاضافة الى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لانه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج الى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج الى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها وانما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي الى القنوط أو أحد هذه الامور فكل ما يراد لامر فالمحمود منه ما يفضي الى المراد المقصود منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر

أدخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول اني كنت أعمل لي وله فيعطى جميع ما يسأل لاخيه ويرفع أخوه الى درجته وان فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا فهو باب من أبواب النار قال الله تعالى ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا وان كانت الآية وردت في قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصحبة والاخوة اتفاقا من غير نية في ذلك وتثبت في أول الامر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار وقد قال عبد الله بن عباس

والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه الاسباب فهو مذموم فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموما فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة اليه فضيلة فأما بالاضافة الى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة بل للسالك الى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالاضافة الى أمور وان كان بعض أقسامها فضيلة بالاضافة الى أمور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة الى ما دونها الا بالاضافة الى درجة المتقين والصديقين فاذن الخوف ان لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وان أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل الا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أثمر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما يحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا الى ازالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه ان قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل

﴿ بيان أقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه ﴾

اعلم ان الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه والمكروه اما أن يكون مكروها في ذاته كالنار واما أن يكون مكروها لانه يفضي الى المكروه كما تكره المعاصي لادائها الى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها الى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى الى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء أو خوف ما لا يدري انه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الازل فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي الى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا الى بقية الاقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الامر فيه مخطر وأعلى الاقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة الى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة اليه ولم يصل التوقيع اليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وانه عماذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وانه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات الى السبب فهو أعلى من الالتفات الى ما هو فرع فكذلك الالتفات الى القضاء الازلي الذي جرى بتوقيعه

رضي الله عنه سماه في كلام له وهل يفسد الناس الا الناس فالفساد بالصحبة متوقع والصلاح متوقع وما هذا سبيله كيف لا يحذر في أوله ويحكم الامر فيه بكثرة اللجأ الى الله تعالى وصدق الاختيار وسؤال البركة والخيرة في ذلك وتقديم صلاة الاستخارة ثم ان اختيار الصحبة والاخوة عمل وكل عمل يحتاج الى النية والى حسن الخاتمة وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخبر الطويل سبعة يظلهم الله تعالى فذكر منهم اثنان تحابا في الله فعاشا على ذلك وماتا عليه اشارة الى أن الاخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الاول (قيل) ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين في الله متحابين فيه فانه يجهد نفسه ويحث

القلم أعلى من الالتفات الى مايظهر في الابد واليه اشارة النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه
اليمنى ثم قال هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لايزاد فيهم ولاينقص ثم قبض كفه اليسرى
وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لايزاد فيهم ولاينقص وليعملن أهل السعادة
بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن أهل
الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد
من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله والاعمال بالخواتيم وهذا كانقسام الخائفين الى من يخاف معصيته
وجنايته والى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لامحالة فهذا أعلى رتبة
ولذلك يبقى خوفه وان كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرضة الغرور والامن ان واظب على الطاعات
فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى
وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأن يخاف من غير جناية بل العاصي لو عرف الله حق
المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسرله سبيلها ومهدله أسبابها فان
تيسير أسباب المعصية ابعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها ان يسخر للمعصية ويجري عليه
أسبابها ولاسبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه
بالمعصية شاء أم أبى وكذا المطيع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل
وجوده ويضع أباجهل في أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله
فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه ارادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة
يصير الفعل ضروريا والذي عصى عصى لانه سلط عليه ارادة قوية جازمة وآتاه الاسباب والقدرة فكان الفعل
بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعري ماالذي أوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعات عليه
وماالذي أوجب اهانة الآخر وابعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد واذا كانت
الحوالة ترجع الى القضاء الازلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بمايشاء ويحكم مايريد حزم عند كل
عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لايجوز افشاؤه ولايمكن تفهيم الخوف منه في صفاته جل جلاله الا بمثال
لولا اذن الشرع لم يستجرئ على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام ياداود
خفني كما تخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وان كان لايقفك على سببه فان الوقوف على
سببه وقوف على سر القدر ولايكشف ذلك الا لاهله والحاصل أن السبع يخاف لالجناية سبقت اليه منك بل
لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولانه يفعل مايفعل ولايبالي فان قتلك لم يرق قلبه ولم يتألم بقتلك وان خلاك
لم يخلك شفقة عليك وابقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت اليك حيا كنت أو ميتا بل اهلاك
ألف مثلك واهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة اذلايقدح ذلك في عالم سبعيته وماهو موصوف به من قدرته
وسطوته ولله المثل الاعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة
الظاهرة انه صادق في قوله هؤلاء الى الجنة ولا أبالي وهؤلاء الى النار ولا أبالي ويكفيك من موجبات الهيبة
والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة ﴿الطبقة الثانية من الخائفين﴾ أن يتمثل في أنفسهم ماهو المكروه
وذلك مثل سكرات الموت وشدته أوسؤال منكر ونكير أوعذاب القبر أوهول المطلع أوهيبة الموقف بين يدي الله
تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير أوالخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور
عليه أوالخوف من النار وأغلالها وأهوالها أوالخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان
الدرجات أوالخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الاسباب مكروهة في نفسها فهي لامحالة مخوفة وتختلف
أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وماقبل ذلك
خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال
ولا بألم البعد والفراق واذا ذكر له أن العارف لايخاف النار وانما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب

قبيله على افساد ما
بينهما (وكان) الفضيل
يقول اذا وقعت الغيبة
ارتفعت الاخوة والاخوة
في الله تعالى مواجهة
قال الله تعالى اخوانا
على سرر متقابلين
ومتى أضمر أحدهما
للآخر سوأ أوكره
منه شيأ ولم ينبهه عليه
حتى يزيله أويتسبب
الى ازالته منه فاواجهه
بل استدبره (قال
الجنيد) رحمه الله ما
تواخى اثنان في الله
واستوحش أحدهما
من صاحبه الالعلة في
أحدهما فالمؤاخاة في
الله أصفى من الماء
الزلال وما كان لله فالله
مطالب بالصفاء فيه
وكل ماصفادام والاصل
في دوام صفائه عدم
المخالفة قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
لاتمار أخاك ولاتمازحه
ولاتعده موعدا فتخلفه
(قال أبوسعيد الخراز)
صحبت الصوفية خمسين
سنة ماوقع بيني وبينهم
خلاف فقيل له وكيف

منه فى نفسه و ربما أنكر لذة النظر الى وجه الله الكريم لولا منع الشرع اياه من انكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد والافباطنه لايصدق به لانه لايعرف الالذة البطن والفرج والعين بالنظر الى الالوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فاما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاله ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فالى هذه الاقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

﴿ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه ﴾

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والاخبار * أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشئ بقدر غنائه فى الافضاء الى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة اذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد الافى لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر انه لا وصول الى سعادة لقاء الله فى الآخرة الا بتحصيل محبته والانس به فى الدنيا ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ولا يحصل الانس الا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر الا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشئ كما تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الاعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب الى الله زلفى * وأما بطريق الاقتباس من الآيات والاخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وصفهم بالعلم لخشيتهم وقال عز وجل رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه وكل مادل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لان الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء فى خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق الاعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الاعلى وذلك لانهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء ومرافقة الرفيق الاعلى للانبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول أسألك الرفيق الاعلى فاذن ان نظر الى مثمره فهو العلم وان نظر الى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد فى فضائلهما حتى ان العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة الى نفسه فقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وانما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم ولذلك أوصى الله تعالى الاولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وقال عز وجل وخافون ان كنتم مؤمنين فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه فى الايمان فلذلك لا يتصور ان ينفك مؤمن عن خوف وان ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة التقوى اذا جمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاذاهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول يا أيها الناس انى قد أنصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فانصتوا الى اليوم انما هى أعمالكم ترد عليكم أيها الناس انى قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا فوضعتم نسبى ورفعتم نسبكم قلت ان أكرمكم عند الله أتقاكم وأبيتم الا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى أين المتقون فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب وقال عليه الصلاة والسلام رأس الحكمة مخافة الله وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود ان أردت أن تلقانى فاكثر من الخوف بعدى وقال الفضيل من خاف الله دله الخوف على كل خير وقال الشبلى رحمه الله ما خفت الله يوما الا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة

ذلك قال لانى كنت معهم على نفسى (أخبرنا) شيخنا أبو النجيب السهروردى اجازة قال أنا عمر بن أحمد الصفار قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت عبد الله الدارانى قال سمعت أبا عمر والدمشقى الرازى يقول سمعت أبا عبد الله ابن الجلاء يقول وقد سأله رجل على أى شرط أصحب الخلق فقال ان لم تبرهم فلا تؤذهم وان لم تسرهم فلا تسؤهم (وبهذا الاسناد) قال أبو عبد الله لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة فان الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا لم يضيعها الامن لم يراع حقوق الله عليه ومن حقوق الصحبة انه اذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه الا بخير (قيل) كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها

ما رأيته قط وقال يحيى بن معاذ ما من مؤمن يعمل سيئة الا و يلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فانه لا يبقى أحد الا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه الا الورعين فاني أستحي منهم وأجلهم ان أوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فان خلت عن الخوف لم تسم بهذه الاسامي وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال سيذكر من يخشى وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فان أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة واذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء وقال صلى الله عليه وسلم أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظرا وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه وقال ذو النون أيضا ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضرير يقول علامة السعادة خوف الشقاوة لان الخوف زمام بين الله تعالى و بين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال أشدهم خوفا اليوم وقال سهل رحمه الله لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال وقيل للحسن يا أبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله انك ان تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلبا الا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق و يزني قال لا بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه والتشديدات الواردة في الامن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لان مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الامن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الامن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ماورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لانهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلابد وأن يخاف فوته فان كان لا يخاف فوته فهو اذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت الى الآخر في الحال لغفلته عنه وهذا لان من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة اذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه نعم أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا أي لا تخافون وكثيرا ماورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما اذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ماورد في فضل البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى يبكون ويزيدهم خشوعا وقال عز وجل أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيأ من حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلى الله عليه وسلم اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها وقال صلى الله عليه وسلم لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع وقال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقالت عائشة رضي الله عنها

ما يكره فكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول لا ينبغي للرجل ان يقول في أهله الا خيرا ففارقها وطلقها فاستخبر عن ذلك فقال امرأة بعدت عني وليست مني في شيء كيف أذكرها وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى انه سبحانه يظهر الجميل و يستر القبيح واذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع فهل يبغضه أولا اختلف القول في ذلك كان أبو ذر يقول اذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته وقال غيره لا يبغض الاخ بعد الصحبة ولكن يبغض عمله قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون ولم يقل اني بريء منكم (وقيل) كان شاب يلازم مجالس أبي الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر

قالت يارسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى وقال صلى الله عليه وسلم ما من قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم اهريقت في سبيل الله سبحانه وقال صلى الله عليه وسلم اللهم ارزقني عينين هطالتين ٢ تشفيان بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والاضراس جمرا وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لاظل الا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك وكان محمد بن المنكدر رحمه الله اذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول بلغني أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما تغرغرت عين بمائها الا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة فان سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الامة وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الاحبار رضي الله عنه والذي نفسي بيده لان أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحب الي من أن أتصدق بجبل من ذهب وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لان أدمع دمعة من خشية الله أحب الي من أن أتصدق بألف دينار وروي عن حنظلة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت الى أهلي فدنت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي قد نافقت حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت أنادي نافق حنظلة فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال كلا لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا لم ينافق حنظلة فقلت يارسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت الى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم ياحنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فراشكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة فاذا كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الامن فهو دلالة على فضل الخوف لان جملة ذلك متعلقة به اما تعلق السبب أو تعلق المسبب

﴿ بيان أن الافضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما ﴾

اعلم أن الاخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر اليهما فيعتريه شك في أن الافضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهي قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فان اجتمعا نظر الى الاغلب فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وان كان العطش أغلب فالماء أفضل وان استويا فهما متساويان وهذا لان كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه والخوف والرجاء دواآن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب داء الامن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل وان كان الاغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين اذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة الى الخبز أكثر فهو أفضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لان المعاصي والاغترار على الخلق أغلب وان نظر الى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لانه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام وأما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الاصلح لا لفظ الافضل فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لاجل غلبة المعاصي فأما التقي الذي ترك ظاهر الاثم وباطنه

وخفيه

وانتهى الى أبي الدرداء ما كان منه فقيل له لو أبعدته وهجرته فقال سبحان الله لا يترك الصاحب بشئ كان منه (قيل) الصداقة لحمة كلحمة النسب (وقيل) لحكيم مرة أيما أحب اليك أخوك أو صديقك فقال انما أحب أخي اذا كان صديقي وهذا الخلاف في المفارقة ظاهرا وباطنا وأما الملازمة باطنا اذا وقعت المباينة ظاهرا فتختلف باختلاف الاشخاص ولا يطلق القول فيه اطلاقا من غير تفصيل فمن الناس من كان تغيره رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة فيجب بغضه وموافقة الحق فيه ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت

٢ قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اهـ

وخفيه وجليه فالاصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن
عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابني خف الله خوفا ترى انك لو أتيته بحسنات أهل الارض لم يتقبلها منك
وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الارض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل
النار كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس الا رجلا
واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء
ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه فأما العاصي اذا ظن
أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره فان قلت مثل عمر رضي الله عنه
لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء وان قوته ينبغي أن
تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على
تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغي أن
تكون أحوال المتقين فاعلم أن من يأخذ المعارف من الالفاظ والامثلة يكثر زلله وذلك وان أوردناه مثالا فليس
يضاهي ما نحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة اذ علم بالتجربة صحة الارض ونقاؤها
وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه
وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها وهي في بلاد ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا
الزارع وان أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه والبذر في مسألتنا هو الايمان وشروط
صحته دقيقة والارض القلب وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الاخلاق فيه غامضة
والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب اليها في مستقبل الزمان وان سلم في الحال وذلك مما
لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله والصواعق هي أهوال
سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيامة
الى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الامور فان كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على
رجائه لا محالة كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وان كان قوي القلب ثابت الجاش تام المعرفة
استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل
حذيفة رضي الله عنه انه هل يعرف به من آثار النفاق شيأ اذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم
المنافقين فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وان اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين
يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه واخفاء عيبه عنه وان وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة
وقد قال صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر وفي رواية
الا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح انما هو
بقدر خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن أقصى غايات المؤمن أن
يعتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ولذلك جمع الله تعالى
بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال عز وجل ويدعوننا رغبا ورهبا وأين
مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الاصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم الى
اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا الى الانهماك في
المعاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف انما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج
القلب عن الركون الى الدنيا ويدعوه الى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي
لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف
غرق في بحار الافكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة
الاذكار وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ومن عبده

يرجى عوده فلا ينبغي
ان يبغض ولكن
يبغض عمله في الحالة
الحاضرة ويلحظ بعين
الود منتظر الفرج
والعود الى أوطان
الصلاح فقد ورد أن النبي
عليه الصلاة والسلام
لما شتم القوم الرجل
الذي أتى بفاحشة قال
مه وزجرهم بقوله
ولا تكونوا عونا
للشيطان على أخيكم
(وقال) ابراهيم النخعي
لا تقطع أخاك ولا تهجره
عند الذنب بذنبه فانه
يركبه اليوم ويتركه غدا
(وفي الخبر) اتقوا زلة
العالم ولا تقطعوه
وانتظروا فيئته
(وروى) أن عمر رضي
الله عنه سأل عن أخ له
كان آخاه فخرج الى
الشام فسأل عنه بعض
من قدم عليه فقال
ما فعل أخي فقال له ذاك
أخو الشيطان قال له
مه قال انه قارف
الكبائر حتى وقع في الخمر
فقال اذا أردت الخروج
فآذني قال فكتب اليه
حم تنزيل الكتاب من

بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا لابد من الجمع بين هذه الامور وغلبة الخوف هو الاصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالاصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ويحبب اليه ربه الذى اليه رجاؤه ولا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا الا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى فان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والاعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة فان المصير اليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الاهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والاصحاب فهذا رجل محابه كلها فى الدنيا فالدنيا جنته اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين مايشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه وبين مايشتهيه فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا اذا سجنه لان السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح الى محابه فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا اليها من الانكال والسلاسل والاغلال وضروب الخزى والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع فى اجابة هذا الدعاء الا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل اليه الا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالاولى أن ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم اذ قال اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب مايقربنى الى حبك واجعل حبك أحب الى من الماء البارد والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لانه أجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لانه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه وقال تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة قال لابنه يابنى حدثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لى الاخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى الى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام أن حببنى الى عبادى فقال بماذا قال بان تذكر لهم آلائى ونعمائى فاذا غاية السعادة ان يموت محبا لله تعالى وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الدارانى فى المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له انه مات البارحة

﴿ بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف ﴾

اعلم ان ماذكرناه فى دواء الصبر وشرحناه فى كتاب الصبر والشكر هو كاف فى هذا الغرض لان الصبر لا يمكن الا بعد حصول الخوف والرجاء لان أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدى دوام الذكر الى الانس ودوام الفكر الى كمال المعرفة ويؤدى كمال المعرفة والانس الى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين وليس بعد أصل

الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر فتاب ورجع وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال يارسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال ياعبد الله اذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان كان مريضا عدته وان كان مشغولا أعنته وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما اما اختلف رجل الى مجلسى ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلمت ماكافأته فى الدنيا وكان يقول سعيد بن العاص لجليسى على ثلاث اذا دنا رحبت به واذا حدث أقبلت عليه واذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو

اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق الا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة الا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذا فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد الخوف بكلام جلي فنقول الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر ومثاله أن الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد الى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن اذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي الى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب فخوف الاب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته وأما خوف الابن فايمان بمجرد التقليد لانه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف الا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه واذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ويحذركم الله نفسه وقوله عز وجل اتقوا الله حق تقاته وأما الاول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الايمان وانما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الاعلى فأن يكون الله هو المخوف أعني أن يخاف البعد والحجاب عنه ويرجو القرب منه * قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لابيه وذلك لا يستند الى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب حتى ان الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر اليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لابيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب الا اذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذا من ارتقى الى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا في مخالبه لا يحتاج الى علاج لجلب الخوف الى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام خفني كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري الا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه فلا يحتاج الى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف انه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد ابليس من غير جريمة سالفة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي وان خطر ببالك أنه لا يعاقب الا على معصية ولا يثيب الا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة فان كان أبعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل الى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الازل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم اذ قال احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومني على ان عملت عملا كتبه الله علي قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فمن عرف

احسان فان ما كان معلولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلته الى علة يحكم بدوام خلته ومن شرط الحب في الله ايثار الاخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فقوله تعالى لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا أي لا يحسدون اخوانهم على ما لهم وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انتزاع الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا والثاني الايثار بالمقدور (وفي الخبر) عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام المرء على دين خليله ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه (وكان) يقول أبو معاوية الاسود اخواني كلهم

السبب فى هذا الامر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع فى قبضة القدرة وقوع الصبى الضعيف فى مخالب السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم لكن اذا أضيف الى من لا يعرفه سمى اتفاقا وان أضيف الى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا والواقع فى مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لان السبع مسخر ان سلط عليه الجوع افترس وان سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع بل اذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لان المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وان الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الازلى الى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخر والاسبابها شاؤا وأم أبوا وخلق النار وخلق لها أهلا سخر والاسبابها شاؤا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه فى ملتطم أمواج القدر الا غلبه الخوف بالضرورة فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع الى مقام الاستبصار فسبيله ان يعالج نفسه بسماع الاخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لانهم الانبياء والاولياء والعلماء وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والاغبياء أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الاولين والآخرين وكان أشد الناس خوفا حتى روى أنه كان يصلى على طفل فى رواية أنه سمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار وفى رواية ثانية أنه سمع قائلا يقول هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك أنه كذلك والله انى رسول الله وما أدرى ما يصنع بى ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الاولين لما قالت أم سلمة هنيأ لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكى أحدا بعد عثمان وقال محمد بن خولة الحنفية والله لا أزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه وروى فى حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره وفى حديث آخر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله تعالى فقال المريض هى أمى يارسول الله فقال وما يدريك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتنى هود وأخواتها سورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الابعاد كقوله تعالى ألا بعدا لعاد قوم هود ألا بعدا لثمود ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا اذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفى سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة اما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا واما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى واذا الجحيم سعرت واذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت وفى عم يتساءلون يوم ينظر المرء ما قدمت يداه الآية وقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا والقرآن من أوله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه الا قوله تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى لكان كافيا اذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها وأشد منه قوله تعالى فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وقوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم وقوله تعالى سنفرغ لكم أيه الثقلان وقوله عز وجل أفأمنوا مكر الله الآية وقوله وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا الآيتين وقوله تعالى وان منكم الا

واردها

خير منى قيل وكيف ذلك قال كلهم يرى لى الفضل عليه ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى ولبعضهم نظما تذلل لمن ان تذللت له يرى ذاك الفضل لا للبله وجانب صداقة من لم يزل على الاصدقاء يرى الفضل له

(الباب الخامس والخمسون فى آداب الصحبة والاخوة)

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة فقال حفظ حرمات المشايخ وحسن العشرة مع الاخوان والنصيحة للاصاغر وترك صحبة من ليس فى طبقتهم وملازمة الايثار ومجانبة الادخار والمعاونة فى امر الدين والدنيا فن أدبهم التغافل عن زلل الاخوان والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكتم عيب صاحبه واطلاعه على عيب يعلم منه قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رحم الله امرأ

واردها الآية وقوله اعملوا ماشئتم الآية وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه الآية وقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره الآيتين وقوله تعالى وقدمنا الى ماعملوا من عمل الآية وكذلك قوله تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الانبياء مع ماأفاض عليهم من النعم لانهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله اليهما مالم تبكيان وقد أمنتكما فقالا ومن يأمن مكرك وكانهما اذ علما أن الله هو علام الغيوب وانه لاوقوف لهما على غاية الامور لم يأمنا ان يكون قوله قد امنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى ان سكن خوفهما ظهر انهما قد أمنا من المكر وماوفيا بقولهما كما أن ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعاوى العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما اليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فاخبر الله تعالى عنه فقال وابراهيم الذي وفى أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لاتخافا انني معكما أسمع وأرى ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة اذلم يأمن مكر الله والتبس الامر عليه حتى جدد عليه الامن وقيل له لاتخف انك أنت الاعلى ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الارض أحد يعبدك فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لانه لايصدر الا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض مايصدر عنها بالمكر وما لاحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الامور عظم خوفه لامحالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك وقال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم الآية فوض الامر الى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بأنه ليس له من الامر شيء وان الامور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين اذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لايبالي بك ان أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لايحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والامراض ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ثم يخبر عنه ويقول ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين وقال تعالى وتمت كلمة ربك لاملان جهنم الآية فكيف لايخاف ماحق من القول في الازل ولا يطمع في تداركه ولو كان الامر أنفا لكانت الاطماع تمتد الى حيلة فيه ولكن ليس الا التسليم فيه واستقراء خفي السابقة من جلي الاسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكانه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة اذ كل ميسر لما خلق له وان كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان نيران الخوف اشتعالا ولا يمكنها من الانطفاء وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وان القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها وقد قال مقلب القلوب عز وجل ان عذاب ربهم غير مأمون فاجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الامن ولولا ان الله لطف بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فاسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه اذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب قال بعض العارفين لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لاني لاأدري ماظهر له من التقلب

أهدى الى عيوبي وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه قال جعفر بن برقان قال لي ميمون بن مهران قل لي في وجهي ماأكره فان الرجل لاينصح أخاه حتى يقول له في وجهه مايكرهه فان الصادق يحب من يصدقه والكاذب لايحب الناصح قال الله تعالى ولكن لاتحبون الناصحين والنصيحة ماكانت في السر * ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الاخوان واحتمال الاذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب الى الطريق بين الصفا والمروة فقال له العباس قلعت ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده فقال اذا لايرده الى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم

وقال بعضهم لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الاسلام لانى لا أدرى ما يعرض لقلبى بين باب الحجرة و باب الدار وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على ايمانه أن يسلبه عند الموت الا سلبه وكان سهل يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى اذ قال وقلوبهم وجلة ولما احتضر سفيان جعل يبكى و يجزع فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك فقال أو على ذنوبى أبكى لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض اخوانه فقال اذا حضرتنى الوفاة فاقعد عند رأسى فان رأيتنى مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد وقل هذا عرس المنفلت وان مت على غير التوحيد فاعلم الناس بذلك حتى لا يغتر وابشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة قال و بم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه وكان سهل يقول المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر وكان أبو يزيد يقول اذا توجهت الى المسجد كان فى وسطى زنارا أخاف أن يذهب بى الى البيعة و بيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنار فهذا لى فى كل يوم خمس مرات وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال يا معشر الحواريين أنتم تخافون المعاصى ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر و روى فى أخبار الانبياء أن نبيا شكا الى الله تعالى الجوع والقمل والعرى سنين وكان لباسه الصوف فاوحى الله تعالى اليه عبدى أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا فاخذ التراب فوضعه على رأسه وقال بلى قد رضيت يا رب فاعصمنى من الكفر فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة ايمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب الى مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الايمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الايمان فيكون مسلما منافقا وله علامات كثيرة قال صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صلى وصام و زعم أنه مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر وفى لفظ آخر واذا عاهد غدر وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شىء منه الا صديق اذ قال الحسن ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ومن الذى يخلو عن هذه المعانى بل صارت هذه الامور مألوفة بين الناس معتادة ونسى كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا انى لاسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون انكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقال بعضهم علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتى مثله وان تحب على شىء من الجور وان تبغض على شىء من الحق وقيل من النفاق انه اذا مدح بشىء ليس فيه أعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر رحمه الله انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم فيما يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و روى أنه سمع رجلا يذم الحجاج و يقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أ كنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد من ذلك ما روى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون فى شىء من شأنه فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق وكان يقول انه يأتى على القلب ساعة يمتلئ بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة و يأتى عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للايمان فيه مغرز ابرة فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة وأن سببه أمور تتقدمه

غير عاتق عمر فاقامه على عاتقه و رده الى موضعه ومن أدبهم ان لا يرون لنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيبان كالانصحب من يقول نعلى (أخبرنا) بذلك رضى الدين عن أبى المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال سمعت أباحاتم الصوفى قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد ابن القلانسى دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فاكرمونى و بجلونى فقلت يوما لبعضهم أين ازارى فسقطت من أعينهم (وكان) ابراهيم بن أدهم اذا صحبه انسان شارطه على ثلاثة أشياء ان تكون الخدمة والاذان له وان تكون يده فى جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه أنا لا أقدر على هذا فقال أعجبنى صدقك (وكان) ابراهيم

منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وان ظن انه قد خلا عنه فهو النفاق اذ قيل من أمن النفاق فهو منافق وقال بعضهم لبعض العارفين اني أخاف على نفسي النفاق فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه و بين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار والله المستعان

✽ بيان معنى سوء الخاتمة ✽

فان قلت ان أكثر هؤلاء يرجع خوفهم الى سوء الخاتمة فما معنى سوء الخاتمة فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين احداهما أعظم من الاخرى فأما الرتبة العظيمة الهائلة فان يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله اما الشك واما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه و بين الله تعالى أبدا وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك في قلبه و يستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه الى الدنيا وصارفا وجهه اليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب اذ نار الله الموقدة لا تأخذ الا المحجوب عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه الى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهبي فهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالامر مخطر لان المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه اذ لا تصرف في القلوب الا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع الى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة الا أن أصل الايمان وحب الله تعالى اذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالاعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت فان كان ايمانه في القوة الى حد مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب وان كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ولو لم يكن الا مثقال حبة فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين فان قلت فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار اليه عقيب موته فما باله يؤخر الى يوم القيامة و يمهل طول هذه المدة فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الايمان بل الصحيح عند ذوي الابصار ما صحت به الاخبار وهو أن القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وانه قد يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت به الاخبار فلا تفارقه روحه الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقي بسوء الخاتمة وانما تختلف أصناف العذاب باختلاف الاوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر والتعذيب بعده ثم المناقشة في الحساب والافتضاح على ملا من الاشهاد في القيامة ثم بعد ذلك خطر الصراط وهول الزبانية الى آخر ما وردت به الاخبار فلا يزال الشقي مترددا في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الاحوال معذب الا أن يتغمده الله برحمته ولا تظنن أن محل الايمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح و يبددها الى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد اليها الروح التي هي محل الايمان وقد كانت من وقت الموت الى الاعادة اما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش ان كانت سعيدة واما على حالة تضاد هذه الحال ان كانت والعياذ بالله شقية فان قلت فما السبب الذي يفضي الى سوء الخاتمة فاعلم ان أسباب هذه الامور لا يمكن احصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة الى مجامعها أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الاعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وان كانت أعماله صالحة ولست أعني مذهبا فأقول انه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه اما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول و به يغتر واما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده

ابن أدهم ينظر البساتين و يعمل في الحصاد و ينفق على أصحابه (وكان) من أخلاق السلف ان كل من احتاج الى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة قال الله تعالى وأمرهم شورى بينهم أي مشاع هم فيه سواء ومن أدبهم انهم اذا استثقلوا صاحبا يتهمون أنفسهم و يتسببون في ازالة ذلك من بواطنهم لان انطواء الضمير على مثل ذلك للصاحب وليجة في الصحبة * قال أبو بكر الكتاني صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلا فوهبت له شيئا بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزل فخلوت به يوما وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقلت له لا بد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني قال الرقي قصدت من الشام الى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية * ومن أدبهم تقديم من يعرفون

جهلا اذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادي سكراته منه فقد ينكشف به بعض الامور فهما بطل عنده ما كان
اعتقده وقد كان قاطعا به متيقناله عند نفسه لم يظن بنفسه انه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لا لتهاونه فيه الى رأيه
الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله و رسوله وسائر
اعتقاداته الصحيحة و بين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية
اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت و يعود الى أصل الايمان فقد ختم
له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى و بدا لهم من الله مالم يكونوا
يحتسبون و بقوله عز وجل قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعا وكما أنه قد ينكشف في النوم ماسيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب
فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الامور اذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر
الى الملكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الامور على ماهي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا
للكشف و يكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيأ
على خلاف ماهو به اما تقليدا واما نظرا بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا
الخطر بل لا ينجي منه الا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر
ايمانا مجملا راسخا كالاعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام
استقلالا ولا صغوا الى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل
الجنة البله ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الامور وأمروا الخلق
أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا و بكل ماجاء من الظواهر مع اعتقاد نفي التشبيه
ومنعوهم عن الخوض في التأويل لان الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤدة ومسالكه وعرة
والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب
الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقي اليها في مبدأ النشأة
آلفة و به متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من
المعلمين في أول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر
صارفة فاذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في
طباعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد
منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين اليهم وتأكد ذلك بطول الالف فيهم فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم
فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد
استرخي العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم
واستيقان وانه صفو الايمان ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ولتعلمن نبأه بعد حين
و ينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا ان كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله
مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الامواج برميه موج الى موج فربما يتفق أن يلقيه الى الساحل وذلك
بعيد والهلاك عليه أغلب وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم اما مع الادلة التي حرروها
في تعصبهم أو دون الادلة فانه ان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وان كان واثقا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله
الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين الا اذا جاوز حدود المعقول الى نور المكاشفة الذي هو
مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الاحمر وأنى يتيسر وانما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام

فضله والتوسعة له في المجلس والايثار بالموضع روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى واذا قيل انشزوا فانشزوا الآية (وحكي) ان علي ابن بندار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فتماشيا فقال له أبو عبد الله تقدم فقال بأي عذر فقال بأنك لقيت الجنيد وما لقيته ومن أدبهم ترك محبة من همه شيء من فضول الدنيا قال الله تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ومن أدبهم بذل الانصاف للاخوان وترك مطالبة الانصاف قال أبو عثمان الحيري حق الصحبة أن توسع على

أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة * وأما السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعني حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده وأمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فإذا اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره الآية فإذا كل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا في لقائه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام (وأما الخاتمة الثانية) التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا سببان أحدهما كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة وحتى إن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب

أخيك من مالك ولا تطمع في ماله وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف وتكون تبعا له ولا تطمع أن يكون تبعا لك وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك * ومن أدبهم في الصحبة لين الجانب وترك ظهور النفس للصولة قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قحة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز * ومن أدبهم أن لا يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى أن يكون كذا فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضا * ومن أدبهم في الصحبة حذر المفارقة والحرص على الملازمة (قيل) صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا وإن كان فوقنا أيضا فلا تصحبه لأنك صحبتنا أولا فقال الرجل زال عن قلبي نية

سوء خاتمته وان كان أصل الايمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما أن ما يخطر في اليقظة انما يخطر بسبب خاص نعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشئ الى ما يناسبه اما بالمشابهة واما بالمضادة واما بالمقارنة بان يكون قد ورد على الحس منه أما بالمشابهة فبان ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبان ينظر الى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبان ينظر الى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الخاطر من شئ الى شئ ولا يدري وجه مناسبته له وانما يكون ذلك بواسطة و واسطتين مثل ان ينتقل من شئ الى شئ ثان ومنه الى شئ ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والاول مناسبة ولكن يكون بينه و بين الثاني مناسبة و بين الثاني والاول مناسبة فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الخياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئ الى رأسه كانه يأخذ ابرته ليخيط بها ويبل أصبعه التي لها عادة بالكشتبان و يأخذ الازار من فوقه و يقدره و يشبره كانه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده الى المقراض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له الا المجاهدة طول العمر في فطامة نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار و يكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على ما عاش عليه و يحشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال انه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال الفه له قبل الموت وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهرة تتلألأ نورا فلا يكون العبد على حال الا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فاذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فاذا رجع سوء الخاتمة الى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وان كان لطول الالف فيه تأثير فبهذا اعظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لانه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام الا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وان كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وان كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه وان لا يكون في قلبه انكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناما لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فهجرني شهرا ولم يكلمني وقال لولا انه كان في باطنك تجويز المطالبة وانكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال اذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الامن من سوء الخاتمة بان ترى ان الاشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجى جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وان يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الانبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الاسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا ان أعمال العمر كلها ضائعة ان لم تسلم في النفس الاخير الذي عليه خروج الروح وان سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدا ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول اني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ولكن أعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف اذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوما يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زمانا فالآن نبكي على الاسلام و بالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت

المفارقة * ومن أدبهم التعطف على الاصاغر (قيل) كان ابراهيم ابن أدهم يعمل في الحصاد و يطعم الاصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الايام في العمل فقالوا ليلة تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا بسرعة فافطروا وناموا فرجع ابراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام فعمد الى شئ من الدقيق فعجنه فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعا محاسنه على التراب فقالوا له في ذلك فقال قلت لعلكم لم تجدوا فطورا فنمتم فقالوا انظروا باي شئ عاملناه و باي شئ يعاملنا * ومن أدبهم ان لا يقولوا عند الدعاء الى أين ولم وباي سبب قال بعض العلماء اذا قال الرجل للصاحب قم بنا فقال الى أين فلا

عليه الرياح العاصفة واضطربت الامواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر وانما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب ولا يتسع فواق الناقة لاعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأني أدخلت الجنة فرأيت ثلثمائة نبي فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها أما الموت فجأة فلانه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله الا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة وأما الشهادة فلانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب اذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت الا حبا لله وطلبا لمرضاته وبائعا دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به اذ قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فان من هذا حاله وان قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الاخبار واذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك فان ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف اليه فكرك وخواطرك واياك أن تسوف وتقول ساستعد لها اذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من أنفاسك خاتمتك اذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة واياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك اذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا ما دمت في يقظتك وأما اذا نمت فاياك ان تنام الا على طهارة الظاهر والباطن وان يغلبك النوم الا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الاثر واعلم قطعا انه لا يغلب عند النوم على قلبك الا ما كان قبل النوم غالبا عليه وأنه لا يغلب في النوم الا ما كان غالبا قبل النوم ولا ينبعث عن نومك الا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد الا على ما غلب في يقظته ولا يستيقظ الا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء الا على ما عاش عليه ولا يحشر الا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا ان الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ان لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك واياك أن تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف اذا لم تفعل والناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام في البطن واخراجه فهما ضروريتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك واعلم انه ان كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك واذا لم يكن قصدك من الطعام الا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور ربما لك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الاطعمة بل يقنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤنة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على

تصحيحه * وقال آخر من قال لاخيه أعطني من مالك فقال كم تريد ما قام بحق الاخاء وقد قال الشاعر
لا يسألون أخاهم حين يندبهم
للنائبات على ما قال برهانا * ومن أدبهم أن لا يتكلفوا للاخوان قيل لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعا من الاطعمة فانكر ذلك أبو حفص وقال صير أصحابي مثل المخانيث يقدم لهم الالوان والفتوة عند نارك التكلف واحضار ما حضر فان بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف وبترك التكلف يستوي مقامه وذهابه ومن أدبهم في الصحبة المداراة وترك المداهنة وتشبه المداراة بالمداهنة والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ما تكره والمداهنة

الشبهات وأمكنك أن لا تأكل الا من حله فان الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل مادفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ماتدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ماحصل مقصود اللباس ان لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يملأ بطنه الا التراب وكذلك المسكن ان اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والارض مستقرا فان غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف اليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم ان تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الابصار ومن السقف سوى كونه دافعا للامطار فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات أمورك ان اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك وان جاوزت حد الضرورة الى أودية الاماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج الى النصيحة منك واعلم ان متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فاذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفتك فجأة في غير وقت ارادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت اليه بضعف خوفك ذلم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق ان عقل الانبياء والاولياء والعلماء وعلمهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعلمك ومكانتك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا الى الارض ولا غرو ان كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون

﴿بيان أحوال الانبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف﴾

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغيرا الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق وقال تعالى وخر موسى صعقا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالابطح فصعق وروى أنه عليه السلام كان اذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل وقال صلى الله عليه وسلم ماجاءني جبريل قط الا وهو يرعد فرقا من الجبار وقيل لما ظهر على ابليس ماظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله اليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء فقالا يارب ما نأمن من مكرك فقال الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكري وعن محمد بن المنكدر قال لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل مالي لا أرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار ويقال ان لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضي الله عنهما خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الانصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل فقلت يا رسول الله لا أشتهيه فقال لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لاعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم قال فوالله مابرحنا ولا قمنا حتى نزلت وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله ألا واني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد * وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم اذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودي ياداود أجائع أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم

ماقصدت به شيأ من الهوى من طلب حظ أو اقامة جاه * ومن أدبهم في الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط نقل عن الشافعي رحمه الله انه قال الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط * ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لاصحابه كيف تصنعون اذا رأيتم أخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونغطيه فقال بل تكشفون عورته قالوا سبحان الله من يفعل هذا فقال أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها * ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم بأمر الله تعالى في دفع المكاره عنهم (حكى) أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فاظهر عليه أخاه

أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لايبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره الا رآها فابكته قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فاذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه ويروى عنه عليه السلام انه مارفع رأسه الى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته الهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الارض برحبها واذا ذكرت رحمتك ارتدت الي روحي سبحانك الهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني فبؤسا للقانطين من رحمتك * وقال الفضيل بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت اليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم انما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني الا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال الهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين وروي انه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أما ترحم بكائي فأوحى الله تعالى اليه ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال الهي وسيدي كيف أنسى ذنبي وكنت اذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلني الطير على رأسي وأنست الوحوش الى محرابي الهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى اليه ياداود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ياداود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكا الى الوحدة فزوجته حواء أمتي وأسكنته جنتي عصاني فطردته عن جواري عريانا ذليلا ياداود اسمع مني والحق أقول أطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك وان عدت الينا على ما كان منك قبلناك * وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان اذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لايأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فاذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر الى البرية فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وماحولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الاوكار وتأتي العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو اسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فاذا رأى سليمان كثرة الموتى قال ياأبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني اسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فبينا هو كذلك اذ ناداه بعض عباد بني اسرائيل ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشيا عليه فاذا نظر سليمان الى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يامن قتله ذكر النار يامن قتله خوف الله ثم اذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول ياإله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجي ربه فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول ياأبتاه تقو بهذا على ماتريد فيأكل من ذلك القرص ماشاء الله ثم يخرج الى بني اسرائيل فيكون بينهم * وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع الا في عشرة آلاف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى اذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت * وقال ابن عمر رضي الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان

فقال اني ابتليت بهوى فان شئت أن لاتعقد على محبتي لله فافعل فقال ما كنت لاحل عقدا خائك لاجل خطيئتك وعقد بينه وبين الله عقدا ان لايأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه وطوى أربعين يوما كلما يسأله عن هواه يقول مازال فبعد الاربعين أخبره ان الهوى قد زال فأكل وشرب * ومن أدبهم أن لايحوجوا صاحبهم الى المداراة ولا يلجؤه الى الاعتذار ولا يتكلفوا للصاحب مايشق عليه بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثر بن مراد الصاحب على مراد أنفسهم * قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شر الاصدقاء من أحوجك الى مداراة وألجأك الى اعتذار وتكلفت له (وقال) جعفر الصادق أثقل اخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه وأخفهم على قلبي من أكون

حج فنظر الى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر الى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم الى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع الى أبويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا نلعب فقال انى لم أخلق للعب قال فأتى أبويه فسألهما ان يدرعاه الشعر ففعلا فرجع الى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الارض وغيران الشعاب فخرج أبواه فى طلبه فادركاه على بحيرة الاردن وقد أنقع رجليه فى الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكانى منك فسأله أبواه ان يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبر فرده أبواه الى بيت المقدس فكان اذا قام يصلى بكى حتى يبكى معه الشجر والمدر ويبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بنى لو أذنت لى ان اتخذ لك شيأ توارى به أضراسك عن الناظرين فاذن لها فعمدت الى قطعتى لبود فالصقتهما على خديه فكان اذا قام يصلى بكى فاذا ستنقعت دموعه فى القطعتين أتت اليه أمه فعصرتهما فاذا رأى دموعه تسيل على ذراعى أمه قال اللهم هذه دموعى وهذه أمى وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوما يا بنى انما سألت ربى أن يهبك لى لتقر عيناى بك فقال يحيى يا أبت ان جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها الا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بنى فابك * وقال المسيح عليه السلام معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم ان أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل * وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه اذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول يا جبريل انى اذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى فهذه أحوال الانبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿ بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين فى شدة الخوف ﴾

روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق بشرا وقال أبو ذر رضى الله عنه وددت لو أنى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة وقال عثمان رضى الله عنه وددت أنى اذا مت لم أبعث وقالت عائشة رضى الله عنها وددت أنى كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضى الله عنه كان يسقط من الخوف اذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما وأخذ يوما تبنة من الارض فقال يا ليتنى كنت هذه التبنة يا ليتنى لم أك شيأ مذكورا يا ليتنى كنت نسيا منسيا يا ليتنى لم تلدنى أمى وكان فى وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون ولما قرأ عمر رضى الله عنه اذا الشمس كورت وانتهى الى قوله تعالى واذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه ومر يوما بدار انسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع نزل عن حماره واستند الى حائط ومكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيأ يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فاذا أصبحوا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وقال عمران بن حصين وددت أن أكون رمادا تنسفنى الرياح فى يوم عاصف وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فيأكلون لحمى ويحسون مرقى وكان على بن الحسين رضى الله عنه اذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم وقال موسى بن مسعود كنا اذا جلسنا الى الثورى كان النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر

معه كما أكون وحدى فآداب الصحبة وحقوق الاخوة كثيرة والحكايات فى ذلك يطول نقلها وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيأ كثيرا فقد أودع كتابه كل شئ حسن من ذلك * وحاصل الجميع ان العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه لا لنفسه واذا صاحب شخصا تكون صحبته اياه لله تعالى واذا صحبه لله تعالى يجتهد له فى كل شئ يزيده عند الله زلفى وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويعرفه محاسن الاخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه فى ذلك كله ولا يفوته شئ مما يحتاج اليه فيما يرجع الى حقوق الحق وفيما يرجع الى حقوق الخلق فكل تقصير

القارئ يوما هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه فلما أفاق قال وعزتك لاعصيتك جهدي أبدا فأعني بتوفيقك على طاعتك وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيأ من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياما حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين أعد على القول أيها القارئ فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة وقرئ عند يحيى البكاء ولو ترى اذ وقفوا على ربهم فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة وقال مالك بن دينار بينما أنا أطوف بالبيت اذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة باستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة الا النار وتبكي فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول ثكلت مالكا أمه وروي أن الفضيل رؤي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى اذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه الى السماء وقال واسوأتاه منك وان غفرت ثم انقلب مع الناس وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف قرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا موقفنا ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يافتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري الى الجنة تصير أم الى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكا وكان حماد بن عبد ربه اذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأننت فيقول تلك جلسة الآمن وأنا غير آمن اذ عصيت الله تعالى وقال عمر بن عبد العزيز انما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كي لا يموتوا من خشية الله تعالى وقال مالك بن دينار لقد هممت اذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي الى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق الى سيده وقال حاتم الاصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي ولا تغتر بكثرة العبادة فان ابليس بعد طول تعبده لقي ما لقي ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الاعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه وقال السري اني لانظر الى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهي وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي ان الله ينظر الي نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال اني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها يابني اني أعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع في ليلك ونهارك فقال يا أماه ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع علي وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال وعزتي وجلالي لا غفرت لك وقال الفضيل اني لا أغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة انما أغبط من لم يخلق وروي ان فتى من الانصار دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال صلى الله عليه وسلم جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده وروي عن ابن أبي ميسرة انه كان اذا أوى الى فراشه يقول ياليت أمي لم تلدني فقالت له أمه ياميسرة ان الله تعالى قد أحسن اليك هداك الى الاسلام قال أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا انا صادرون عنها وقيل لفرقد السنجي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني اسرائيل فقال بلغني انه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا انما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيأ فقال ان خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال انه ما رفع رأسه الى السماء ولا ضحك أربعين سنة وانه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليل مخافة أن يكون قد مسخ وكان اذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال هذا من أجلي يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور

يوجد من خبث النفس وعدم تزكيتها وبقاء صفاتها عليه فان صحبت ظلمت بالافراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع الى الحق والخلق والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير ويكون كبئر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به واذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع منها ماء الحياء وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى

﴿الباب السادس والخمسون في معرفة الانسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك﴾

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال أنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينبي قال أنا كريمة المروزية

العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم والصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الاوتار يصبحون كان جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين فبيناهم يمشون اذ مر أحدهم بمكان نخر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاؤا بماء فمسحوا وجهه فافاق وسألوه عن أمره فقال اني ذكرت اني كنت عصيت الله في ذلك المكان وقال صالح المرى قرأت على رجل من المتعبدين يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فصعق ثم أفاق فقال زدني ياصالح فاني أجد غما فقرأت كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فخر ميتا وروى ان زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ فاذا نقر في الناقور خر مغشيا عليه فحمل ميتا * ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظني يايزيد فقال ياأمير المؤمنين اعلم انك لست أول خليفة يموت فبكى ثم قال زدني قال ياأمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب الاميت فبكى ثم قال زدني يايزيد فقال ياأمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل فخر مغشيا عليه وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لايقدرون عليه ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول ياابناه ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلي فقلت يارب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤي الفضيل يوما وهو يمشي فقيل له الى أين قال لاأدري وكان يمشي والها من الخوف وقال ذر بن عمر لابيه عمر بن ذر ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد فاذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يابني ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة وحكى ان قوما وقفوا بعابد وهو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله قال قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا وما هي قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فاعتقني وقال صالح المرى قدم علينا ابن السماك مرة فقال أرني شيأ من بعض عجائب عبادكم فذهبت به الى رجل في بعض الاحياء في خص له فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه اذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا الى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا ان لم تشغلونا عن ربنا فقرأت ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فادرته على ستة أنفس كل يخرج من عنده ويتركه مغشيا عليه ثم أتيت به الى السابع فاستأذنا فاذا امرأة من داخل الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال الا ان للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه شاخصا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لاتنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فاذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتا متحيرا لايؤدي فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الاسود يرى انه من الابدال وكان قد حلف انه لايضحك أبدا ولاينام مضطجعا ولايأكل سمنا أبدا فما رؤي ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله وقال الحجاج لسعيد بن

قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهني قال أخبرنا أبو عبد الله الفربري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا عمر ابن حفص قال ثنا أبي قال ثنا الاعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى اليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة وان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه

جبير بلغني انك لم تضحك قط فقال كيف أضحك و جهنم قد سعرت والاغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أباسعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة على أي حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالي أشد من حالهم * ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت الى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين اني والله رأيت عجبا قال وماذاك قال رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جيء بالصراط فوضع على متنها فقال هيه قالت فجيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه الايسير حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى الايسير حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جيء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه الايسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خر مغشيا عليه فقامت اليه فجعلت تنادي في أذنه يا أمير المؤمنين اني رأيتك والله قد نجوت اني رأيتك والله قد نجوت قال وهي تنادي وهو يصيح و يفحص برجليه ويحكى ان أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه فاذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ان المؤمن لايسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش فيضطجع و يتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى ثم يثب فيدرجه و يستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طيرذكر جهنم نوم الخائفين * وقال الحسن البصري رحمه الله يخرج من النار رجل بعد ألف عام ياليتني كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة وروى انه ماضحك أربعين سنة قال وكنت اذا رأيته قاعدا كانه أسير قد قدم لتضرب عنقه واذا تكلم كانه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فاذا سكت كان النار تسعر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال مايؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في على بعض مايكره فمقتني فقال اذهب فلاغفرت لك فانا أعمل في غير معتمل * وعن ابن السماك قال وعظت يوما في مجلس فقام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لانسمع غيرها قلت وماهي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود بين اما الجنة أو في النار ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فاخبرت انه مريض يعاد فاتيته أعوده فقلت يا أخي ما الذي أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود بين اما الجنة أو في النار قال ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت يا أخي مافعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة قلت بماذا قال بالكلمة فهذه مخاوف الانبياء والاولياء والعلماء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة والافلس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا فنسأل الله تعالى أن يتداركنا بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا ان كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب انا اذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا وان أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجتهد في طلب أرزاقنا ولانثق بضمان الله لنا ولانجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا اذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بالسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي اليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول وأن ليس للانسان الا ماسعى ولايغرنكم بالله الغرور ويا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم ثم كل ذلك لاينبهنا ولايخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها و يجبرنا فنسأل الله تعالى ان يتوب علينا بل نسأله ان يشوق الى التوبة سرائر قلوبنا وان لايجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولايعمل و يسمع ولايقبل اذا سمعنا الوعظ بكينا واذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا فنسأل الله تعالى ان يمن علينا

الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين أي حريز لاستقرارها فيه الى بلوغ أمدها ثم قال بعد ذكر تقلبانه ثم أنشأناه خلقا آخر قيل هذا الانشاء نفخ الروح فيه واعلم ان الكلام في الروح صعب المرام والامساك عن ذلك سبيل ذوي الاحلام وقد عظم الله تعالى شان الروح واسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال وما أوتيتم من العلم الاقليلا وقد أخبر الله تعالى في كلامه عن اكرامه بني آدم فقال ولقد كرمنا بني آدم وروى انه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال وعزتي وجلالي لاأجعل ذرية

بالتوفيق والرشد بمنه وفضله ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وان أفيض على القلب الغافل فلا يغني * ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد انه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقا دمعه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالني منظره فقلت أيها الراهب أوصني بوصية احفظها عنك فقال يا أخي بماذا أوصيك ان استطعت ان تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف ان يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة ليله وان أمن المغترون وفي الحزن نهاره وان فرح البطالون ثم ولى وتركني فقال لو زدتني شيأ عسى ينفعني فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد صدق فان القلب الصافي يحركه أدنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن انه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا باصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك ان غفلت عنها لحظة الا انك محجوب العين عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وانما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشف لك صورها فان أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل والا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام

﴿ كتاب الفقر والزهد وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمد لله الذي تسبح له الرمال وتسجد له الظلال وتندكدك من هيبته الجبال خلق الانسان من الطين اللازب والصلصال وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادي اشراقه كل حسن وجمال واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ثم لا تجتزئ منهم بالخلف في مواعيد الوصال بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والاغلال وتبليهم بأنواع البلايا والانكال فلما انكشف للعارفين منها قبائح الاسرار والافعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالاموال وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة ذي الجلال واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الانبياء وعلى آله خير آل (أما بعد) فان الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فحبها رأس الخطايا والسيئات وبغضها أم الطاعات وأس القربات وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات فلا مطمع في النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها اما ان تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر

(الشطر الاول من الكتاب في الفقر) وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

من خلقت بيدي لكن قلت له كن فكان فجمع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى اياهم على الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي الخ قال ابن عباس قالت اليهود للنبي عليه السلام أخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وانما الروح من أمر الله ولم يكن نزل اليه فيه شيء فلم يجبهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاخبار عن الروح وماهيته باذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والاشارة اليه لا جرم لما تقاضت الانفس الانسانية المتطلعة الى الفضول المتشوفة الى المعقول المتحركة بوضعها

﴿ بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه ﴾

اعلم ان الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه أما فقد ما لا حاجة اليه فلا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغني المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود الا واحدا فليس في الوجود الا غني واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد وجودهم بالدوام والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى والله الغني وأنتم الفقراء هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والا فقر العبد بالاضافة الى أصناف حاجاته لا ينحصر لان حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل اليه بالمال وهو الذي نريد الآن بيانه فقط فنقول كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة الى المال الذي فقده اذا كان ذلك المفقود محتاجا اليه في حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز الى ذكر أحكامها ﴿الحالة الاولى﴾ وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد ﴿الثانية﴾ أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا ﴿الثالثة﴾ أن يكون وجود المال أحب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل ان أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وان افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة ﴿الرابعة﴾ أن يكون تركه الطلب لعجزه والا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص ﴿الخامسة﴾ أن يكون ما فقده من المال مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب اما ضعيفة واما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار ان انضم اليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الاحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده فان وجده لم يفرح به ولم يتأذ وان فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها اذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو ذكرتيني لفعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره اذ هو يرى الاموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني لانه غني عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله عن العباد وهو يفرح به فهو فقير الى بقاء المال في يده وانما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه فهو اذا فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضا فانه ليس يتأذى به ليحتاج الى اخراجه وليس يفرح به ليحتاج الى بقائه وليس فاقدا له ليحتاج الى الدخول في يده فغناه الى العموم أميل فهو الى الغني الذي هو وصف الله تعالى أقرب وانما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى الغني اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء وأما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا وعدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حر والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج الى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لانها بين أصبعين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا واعلم أن الزهد درجة هي كمال الابرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا اذ حسنات

الى كل ما أمرت بالسكون فيه والمنسورة بحرصها الى كل تحقيق وكل تمويه وأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتنوعت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولو لازمت النفوس حدها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى فأما أقاويل من ليس متمسكا بالشرائع فننزه الكتاب عن ذكرها لانها أقوال أبرزتها العقول التي ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الانبياء فهم كما قال الله تعالى كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن

الابرار سيئات المقربين وهذا لان الكاره للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى اذلا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب اليك من حبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والارض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه الا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بل كل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب والى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت اليه فكما أن النظر الى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر الى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب الى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها الا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب اذ يرجى له أن ينتهي حاله الى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود فالكمال له مرتقب لان بغض الدنيا مطية توصل الى الله تعالى فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما سيان بالاضافة الى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة الى المستدبر اذ يرجى له الوصول اليها وليس محمودا بالاضافة الى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر الى الاشتغال بالدابة في الوصول اليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا عائق عن الله تعالى ولا وصول اليه الا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فاذا قد ظهر أن الزهد في الدنيا ان أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وان أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة الى درجة الراضي والقانع والحريص ونقصان بالاضافة الى درجة المستغني بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك الا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج اليه كما أن الماء محتاج اليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فهكذا ينبغي أن يكون المال لان الخبز والماء واحد في الحاجة وانما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر واذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل ان شاء الله تعالى قال أحمد بن أبي الحواري قلت لابي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب الى البيت نخذ الركوة التي أهديتها لي فان العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زهده في الدنيا ما عليه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات اليها سببه الضعف والنقصان فان قلت فما بال الانبياء والاولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار فأقول كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فنفروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه في الانهار والآبار والبراري للمحتاجين اليه لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد جلبت خزائن الارض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها اذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فاما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه ان يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه الى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لان كلهم ضعفاء الا الانبياء والاولياء واما ان ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر

بيننا وبينك حجاب فلما حجبوا عن الانبياء لم يسمعوا وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا وأصروا على الجهالات وحجبوا بالمعقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين فلم ننقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه وأما المتمسكون بالشرائع الذين تكلموا في الروح فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الاولى الامساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه السلام * وقد قال الجنيد الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ولكن نجعل للصادقين محلا لاقوالهم وأفعالهم ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك

الفرار والنفار تنزلا الى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك اذ لو اقتدوا به في الاخذ لهلكوا كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه انه لو أخذها أخذها أولاده اذا رأوه فيهلكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الانبياء والاولياء والعلماء فقد عرفت اذا أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص وأما المضطر فيتصور في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الاحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغني فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل ان سمي فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا الى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها فانه أحق باسم العبد من الغافلين وان كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر الى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين واذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من الفقر وقوله عليه السلام كاد الفقر أن يكون كفرا لا يناقض قوله أحيني مسكينا وأمتني مسكينا اذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار الى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الارض والسماء

بيان فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم الآية وقال تعالى للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر (وأما الاخبار) في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه أي الناس خير فقالوا موسر من المال يعطي حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله قال فقير يعطي جهده وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال وفي الخبر المشهور يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام وفي حديث آخر بأربعين خريفا أي أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغني الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء في درجاتهم وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد اذ هذه نسبة الاربعين الى خمسمائة ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم الا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره ان يعرف علة تلك النسبة الا بتخمين فاما بالتحقيق فلا اذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الامور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها تتم له الافعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بارادتنا وباختيارنا وهي القدرة وان كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى والثالث أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الاعمى حتى يدرك بها المبصرات والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب اما في اليقظة أو في المنام اذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء ويعلم انقسام كل واحد منها الى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها الى أربعين والى خمسين والى ستين ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها الى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزأ واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن الا بظن وتخمين فلا ندري تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى عليه وسلم أم لا وانما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لا يرشدنا الى معرفة علة التقدير

بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة حيث حرم تفسيره وجوز تأويله اذ لا يسع القول في التفسير الا النقل وأما التأويل فتمتد العقول اليه بالباع الطويل وهو ذكر ما يحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك واذا كان الامر كذلك فالقول فيه وجه ومحمل قال أبو عبد الله النباجي الروح جسم يلطف عن الحس ويكبر عن اللمس ولا يعبر عنه بأكثر من موجود وهو وان منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه وقال ابن عطاء خلق الله الارواح قبل الاجساد لقوله تعالى ولقد خلقناكم يعني الارواح ثم صورناكم يعني الاجساد وقال بعضهم الروح لطيف قائم في كثيف كالبصر جوهر لطيف قائم في كثيف وفي هذا القول نظر وقال بعضهم الروح

فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فمالم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة الى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس فى قوة البشر غير الانبياء الوقوف على ذلك الابتوع من التخمين ولا وثوق به والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى أمثال هذه الامور فان الضعيف الايمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك * ولنرجع الى نقل الاخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا خير هذه الامة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها وقال صلى الله عليه وسلم ان لى حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى الفقر والجهاد وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك أينما كنت فاطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فايقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد منى انى قد تركت الدنيا لاهلها فقال له فنم اذا يا حبيبى ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة فقال يا رب عبدك هذا فى الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى اليه يا موسى أما علمت أنى اذا نظرت الى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها وعن أبى رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلنى الى رجل من يهود خيبر وقال قل له يقول لك محمد أسلفنى أو بعنى دقيقا الى هلال رجب قال فأتيته فقال لا والله الا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله انى لامين فى أهل السماء أمين فى أهل الارض ولو باعنى أو أسلفنى لاديت اليه اذهب بدرعى هذا اليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس وقال صلى الله عليه وسلم من أصبح منكم معافى فى جسمه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وقال كعب الاحبار قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وقال عطاء الخراسانى مر نبى من الانبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شئ ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يا رب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الاغنياء والنساء وفى لفظ آخر فقلت أين الاغنياء فقيل حبسهم الجد وفى حديث آخر فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن فقيل شغلهن الاحمران الذهب والزعفران وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر وفى الخبر آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفى حديث آخر رأيته دخل الجنة زحفا وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا وفى الخبر اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وقال موسى عليه السلام يا رب من احباؤك من خلقك حتى أحبهم لاجلك فقال كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ويمكن ان يراد به الشديد الضر وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه انى لاحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الاسامى اليه صلوات الله عليه أن يقال له يا مسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون اليك ولا نجىء ونجىء اليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وأبى

عبارة والقائم بالاشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا الا أن يحمل على معنى الاحياء فقد قال بعضهم الاحياء صفة المحيى كالتخليق صفة الخالق وقال قل الروح من أمر ربى وأمره كلامه وكلامه ليس بمخلوق أى صار الحى حيا بقوله كن حيا وعلى هذا لا يكون الروح معنى فى الجسد فمن الاقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح ومن الاقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه ثم ان الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال قوم هو جبرائيل ونقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ولكل وجه منه سبعون ألف لسان ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات

هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم الى ذلك وذلك لانهم شكوا اليه التأذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الاغنياء منهم الاقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لايجمعهم واياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم يعنى الفقراء تريد زينة الحيوة الدنيا يعنى الاغنياء ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا يعنى الاغنياء وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر الآية واستأذن ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى عبس وتولى أن جاءه الاعمى ومايدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى يعنى ابن أم مكتوم أما من استغنى فأنت له تصدى يعنى هذا الشريف وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى اليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا فيقول وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة أخرج ياعبدى الى هذه الصفوف فمن أطعمك فى أو كساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة وقال عليه السلام أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادى فان لهم دولة قالوا يارسول الله ومادولتهم قال اذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أوسقاكم شربة أوكساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به الى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت فى أعلاها فاذا فقراء أمتى وأولادهم ونظرت فى أسفلها فاذا فيه من الاغنياء والنساء قليل فقلت يارب ماشأنهم قال أما النساء فأضر بهن الاحمران الذهب والحرير وأما الاغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابى فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى فقلت ماخلفك عنى قال يارسول الله والله ماوصلت اليك حتى لقيت المشيبات وظننت انى لاأراك فقلت ولم قال كنت أحاسب بمالى فانظر الى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة وهو من الاغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من قال بالمال هكذا وهكذا ومع هذا فقد استضر بالغنى الى هذا الحد ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيأ فقال لو قسم نور هذا على أهل الارض لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يارسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لابره وقال عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال ياعمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يارسول الله قال أنا ومن معى قالت ومن معك يارسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذى بعثك بالحق نبيا ماعلى الاعباءة قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى فألقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدى بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على مابى انى لست أقدر على طعام آكله فقد أضربى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لاتجزعى يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث وانى لاكرم على الله منك ولو سألت ربى لاطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها ابشرى فوالله انك لسيدة نساء أهل الجنة فقالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك انكن فى بيوت من قصب لاأذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة وروى عن على كرم الله وجهه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاة الاحكام والشوكة

كلها ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة الى يوم القيامة وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ان الروح خلق من خلق الله صورهم على صورة بنى آدم ومانزل من السماء ملك الا ومعه واحد من الروح وقال أبو صالح والروح كهيئة الانسان وليسوا بناس وقال مجاهد الروح على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورؤس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش ولو شاء ان يبلع السموات والارضين السبع فى لقمة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة الآدميين يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه فى صف واحد وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور

من الاعداء (وأما الآثار) فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه ذو الدرهمين أشد حبسا أو قال أشد حسابا من ذي الدرهم وأرسل عمر رضي الله عنه الى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويبكي الى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج وقال أبو هريرة ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد ان يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير الى مجلس الثوري رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتك وكان الاغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء واعراضه عن الاغنياء وقال المؤمل ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا وقال ابن عباس ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر وقال لقمان عليه السلام لابنه لا تحقرن أحدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وفي الاخبار عن الكتب السالفة ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه عليهم السلام احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب عليك الدنيا صبا ولقد كانت عائشة رضي الله تعالى عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد بوجهها اليها معاوية وابن عامر وغيرهما وان درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتيني لفعلت وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه وجاء رجل الى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل فقال له ابراهيم أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل ذلك أبدا رضي الله عنه

﴿ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدي الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا فالاول القانع وهذا الراضي ويكاد يشعر هذا بمفهومه ان الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتي تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه انكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أحب العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال ما من أحد غني ولا فقير الا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا وأوحى الله تعالى الى اسمعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال صلى الله عليه وسلم لا أحد أفضل من الفقير اذا كان راضيا وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيامة أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون فهذا في القانع والراضي وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب ان شاء الله تعالى (وأما الآثار) في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه ان الطمع فقر واليأس غنى وانه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ما من يوم الا وملك ينادي من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من

أحرق أهل السموات من نوره فهذه الاقاويل لا تكون الا نقلا وسماعا بالفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك واذا كان الروح المسؤل عنه شيأ من هذا المنقول فهو غير الروح الذي في الجسد فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسري من الله الى أماكن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بايجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لانه لو خرج من كن كان عليه الذل قيل فمن أي شئ خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الاشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه فهي معتقة من ذل كن (وسئل) أبو سعيد الخراز عن الروح مخلوقة هي قال نعم ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية حيث قالت بلى والروح

كثر يطغيك وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه مامن أحد الاوفى عقله نقص وذلك انه اذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك ويح ابن آدم ماينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان ابراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان فبيناهو يشرف من قصر له ذات يوم اذ نظر الى رجل فى فناء القصر وفى يده رغيف يأكله فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه اذا قام فجئنى به فلما قام جاء به اليه فقال ابراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم فقال ابراهيم فى نفسه فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له ياعبد الله أرضيت من الدنيا بهذا فقال ألا أدلك على من رضى بشر من هذا قال بلى قال من رضى بالدنيا عوضا عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج الى أحد وقال الحسن رحمه الله لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ثم قرأ وفى السماء رزقكم وماتوعدون فورب السماء والارض انه لحق الآية وكان أبوذر رضى الله عنه يوما جالسا فى الناس فأتته امرأته فقالت له أتجلس بين هؤلاء والله مافى البيت هفة ولا سفة فقال ياهذه ان بين أيدينا عقبة كؤدا لاينجو منها الا كل مخف فرجعت وهى راضية وقال ذوالنون رحمه الله أقرب الناس الى الكفر ذوفاقة لاصبر له وقيل لبعض الحكماء مامالك فقال التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس ويروى ان الله عز وجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة ياابن آدم لوكانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن اليك وقد قيل فى القناعة اضرع الى الله لاتضرع الى الناس * واقنع بيأس فان العز فى الياس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم * ان الغنى من استغنى عن الناس

وقد قيل فى هذا المعنى أيضا

ياجامعا مانعا والدهر يرمقه * مقدرا أى باب منه يغلقه * مفكرا كيف تأتيه منيته
أغاديا أم بها يسرى فتطرقه * جمعت مالا فقل لى هل جمعت له * ياجامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه * ماالمال مالك الايوم تنفقه * أرفه ببال فتى يغدو على ثقة
ان الذى قسم الارزاق يرزقه * فالعرض منه مصون مايدنسه * والوجه منه جديد ليس يخلقه
ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يبق فى ظلها هما يؤرقه

﴿ بيان فضيلة الفقر على الغنى ﴾

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا فذهب الجنيد والخواص والاكثرون الى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال ان الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته اياه فى هذا فأصابته محنة وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الاعمال والاحوال وان ذلك لايمكن الا بتفصيل فأما الفقر والغنى اذا أخذا مطلقا لم يسترب من قرأ الاخبار والآثار فى تفضيل الفقر ولابد فيه من تفصيل فنقول انما يتصور الشك فى مقامين أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أو راض بالاضافة الى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على امساك المال والثانى فقير حريص مع غنى حريص اذ لايخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك وان الغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص أما الاول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير لانهما تساويا فى ضعف الحرص على المال والغنى متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه فأما الغنى المتمتع بالمال وان كان فى مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ماروى فى الخبر ان الفقراء شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات فى التسبيح وذكر لهم انهم ينالون بها فوق ماناله الاغنياء فتعلم الاغنياء ذلك فكانوا يقولونه فعاد الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقد استشهد ابن عطاء أيضا لما

هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة وبالروح ثبت العقل وبالروح قامت الحجة ولولم يكن الروح كان العقل معطلا لاحجة عليه ولاله وقيل انها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر وأنورها وبها تتراءى المغيبات وبها يكون الكشف لاهل الحقائق واذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الادب ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار وقابض ونازع وقيل الدنيا والآخرة عند الارواح سواء وقيل الارواح أقسام أرواح تجول فى البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ماتتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش وأرواح طيارة الى الجنان والى حيث شاءت على اقدارها من السعى الى الله أيام الحياة وروى سعيد بن المسيب عن

سئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لانه وصف الحق أما دليله الاول ففيه نظر لان الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى وان فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال بعث الفقراء رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى رسول الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله ان الاغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء أما خصلة واحدة فان فى الجنة غرفا ينظر اليها أهل الجنة كما ينظر أهل الارض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبى فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام والثالثة اذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع اليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على ان قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله ان الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غنى بالاسباب والاعراض فانقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا ان التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على ان الفقر أفضل لان صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته وقال سهل حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها لانهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها اذ كما يناقض قول من فضل الغنى بانه صفة الحق بالتكبر فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لانه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فانه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لاحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه فى كتاب الصبر وهو ان ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى ولا الفقر مطلوب لعينه لكن لان فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصد فى الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ولا يكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشاغل على التحقيق حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله فى القلب والمحب للشئ مشغول به سواء كان فى فراقه أو فى وصاله وربما يكون شغله فى الفراق أكثر وربما يكون شغله فى الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا ان فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال فى حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده اذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان أخذت الامر باعتبار الاكبر فالفقير عن الخطر أبعد اذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضى الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم الا الشاذ الفذ الذى لا يوجد فى الاعصار الكثيرة الا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام لا تنظروا الى أموال أهل الدنيا فان بريق أموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقليب الاموال يمص حلاوة الايمان وفى الخبر ان لكل أمة عجلا وعجل هذه الامة الدينار والدرهم وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر انما يتصور للانبياء عليهم السلام والاولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة اذ كان النبى صلى الله

سلمان قال أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الارض حيث شاءت بين السماء والارض حتى يردها الى جسدها وقيل اذا ورد على الارواح ميت من الاحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الاحياء حتى اذا عرض على الاموات ما يعاقب به الاحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر الى الله ظاهرا عنه فانه لا أحد أحب اليه العذر من الله تعالى وقد ورد فى الخبر عن النبى تعرض الاعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الانبياء والآباء والامهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضا واشراقا فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفى خبر آخر ان أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى فان

عليه وسلم يقول للدنيا اليك عنى اذ كانت تتمثل له بزينتها وكان على كرم الله وجهه يقول يا صفراء غرى غيرى
ويا بيضاء غرى غيرى وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادى الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو
الغنى المطلق اذ قال عليه الصلاة والسلام ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذا كان ذلك بعيدا
فاذا الاصلح لكافة الخلق فقد المال وان تصدقوا به وصرفوه الى الخيرات لانهم لا ينفكون فى القدرة على المال
عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة فى بذلها وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم وبقدر
ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش
من الله ومن حبه ومهما انقطعت أسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب اذا تجافى عما
سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لا محالة الى الله اذ لا يتصور قلب فارغ وليس فى الوجود الا الله تعالى
وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على أحدهما بقدر تجافيه
عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالمتردد
بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين
حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغى أن يكون مطمح نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وانسه بها فاذا
فضل الفقير والغنى بحسب قلبهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما الا ان هذا مزلة قدم وموضع
غرور فان الغنى ربما يظن انه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لا يشعر به وانما يشعر به
اذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه أو اذا سرق منه فان وجد لقلبه اليه التفاتا فليعلم انه كان مغرورا فكم من رجل
باع سرية له ظنه انه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التى كانت مستكنة
فيه فتحقق إذا أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا فى الفؤاد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل
الاغنياء الا الانبياء والاولياء واذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بان الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل
لان علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان حركات
اللسان ليست مرادة لاعيانها بل ليتأكد بها الانس بالمذكور ولا يكون تأثيرها فى اثارة الانس فى قلب فارغ
من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا مثل من
يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى تنفس فقير
دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيأ يشتهيه
فصبر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله
أدع الله لى فقد أضر بى العيال فقال اذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لى فى ذلك الوقت فان
دعاءك أفضل من دعائى وكان يقول مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد
الجوهر فى جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه
اللهم انى أسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف واذا كان مثل الصديق رضى الله عنه
فى كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن
أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن
نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة اذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضى الله عنه ما أحب أن لى حانوتا على باب المسجد ولا تخطئنى فيه صلاة
وذكر وأربح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال
سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الاغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب
وخفة الحساب واختار الاغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف
الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن اذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بان يستوى عنده
كلاهما فاما اذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا الى بقائه فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى لان الله تعالى غنى بذاته لا بما

كان حسنا استبشروا
وان كان غير ذلك قالوا
اللهم لا تمتهم حتى
تهديهم كما هديتنا وهذه
الاخبار والاقوال
تدل على انها أعيان
فى الجسد وليست
بمعان واعراض
(سئل) الواسطى لاى
علة كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم احلم
الخلق قال لانه خلق
روحه أولا فوقع له
صحبة التمكين
والاستقرار الا تراه
يقول كنت نبيا وآدم
بين الروح والجسد
أى لم يكن روحا
ولا جسدا وقال بعضهم
الروح خلق من نور
العزة وابليس من نار
العزة ولهذا قال خلقتنى
من نار وخلقته من
طين ولم يدر أن النور
خير من النار فقال
بعضهم قرن الله تعالى
العلم بالروح فهى
للطافتها تنمو بالعلم
كما ينمو البدن بالغذاء
وهذا فى علم الله لان علم
الخلق قليل لا يبلغ ذلك
والمختار عند أكثر
متكلمى الاسلام ان

يتصور زواله والمال يتصور زواله بان يسرق وما ذكر من الرد عليه بان الله ليس غنيا بالاعراض والاسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال وما ذكر من ان صفات الحق لاتليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شئ للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق باخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول ان سالك الطريق الى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الاسماء التسعة والتسعون أوصافا له أن يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والايذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وانما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شئ وانه يعلم أنه كذلك والعبد مأمور بأنه يطلب أعلى المراتب ان قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والمطيع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب الى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة في حقه الا أنه لا سبيل له الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر اذ ربما يختم للكافر بالايمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشئ على ماهو به كان العلم كمالا في حقه لانه من صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الاشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه اذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الامور التي لاضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله تعالى فلاجرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الانبياء والاولياء والعلماء فاذا استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع الى حال الغني الشاكر * (المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص الى حال الغني الحريص) * ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فاي حالتيه أفضل فنقول ننظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل لان الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر الا قدرة مدخولة بشغل والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال كاد الفقر أن يكون كفرا أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح لانهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا في أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن الى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه ومهما استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا الى الدنيا فحاله أشد لا محالة اذ يلتفت قلبه الى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا وقد قال صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على ان فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك اذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وان كان حريصا عليها فاذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح لكافة الخلق الا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له اذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه الا اذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل فالاصلح له أن يموت جوعا

الانسانية والحيوانية عرضان خلقا في الانسان والموت بعدمهما وان الروح هي الحياة بعينها صار البدن بوجودها حيا وبالاعادة اليه في القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمي الاسلام الى انه جسم لطيف مشتبك بالاجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الاخضر وهو اختيار أبي المعالي الجويني وكثير منهم مال الى انه عرض الا أنه ردهم عن ذلك الاخبار الدالة على أنه جسم لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد في البرزخ حيث وصف باوصاف دل على أنه جسم لان العرض لا يوصف باوصاف اذ الوصف معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى واختار بعضهم أنه عرض (سئل) ابن عباس رضي الله عنهما قيل أين تذهب الارواح عند مفارقة الابدان فقال أين يذهب ضوء المصباح

ولايجد مايضطر اليه أيضا فهذا تفصيل القول فى الغنى والفقر و يبقى النظر فى فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه وفى غنى دونه فى الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره فهذا فى محل النظر والاظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده والعلم عند الله تعالى فيه

﴿ بيان آداب الفقير فى فقره ﴾

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغى أن يراعيها فأما أدب باطنه فان لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى انه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث انه فعله وان كان كارها للفقر كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام بل ربما يتقلد منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا وأرفع من هذا أن لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وأرفع منه أن يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى وأثقا به فى قدر ضرورته انه يأتيه لامحالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه ان لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر اذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه و يطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ومن علاماته اذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه و يعصى ربه بترك طاعته و يكثر الشكاية و يتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل الذى لا يتسخط و يرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته اذ قيل ما أعطى عبد شيأ من الدنيا الا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث شغل وهم وطول حساب *وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره و يستر انه يستره ففى الحديث ان الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال سفيان أفضل الاعمال التجمل عند المحنة وقال بعضهم ستر الفقر من كنوز البر وأما فى أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغنى لاجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها ان لا يخالط الاغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لان ذلك من مبادى الطمع قال الثورى رحمه الله اذا خالط الفقير الاغنياء فاعلم انه مراء واذا خالط السلطان فاعلم أنه لص وقال بعض العارفين اذا خالط الفقير الاغنياء انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن اليهم ضل و ينبغى أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء وطمعا فى العطاء وأما أدبه فى أفعاله فان لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف وينبغى أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة و يخرج الباقى وفى الادخار ثلاث درجات احداها أن لا يدخر الا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين والثانية ان يدخر لاربعين يوما فان مازاد عليه داخل فى طول الامل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة المتقين والثالثة ان يدخر لسنته وهى أقصى المراتب وهى رتبة الصالحين ومن زاد فى الادخار على هذا فهو واقع فى غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف فى طمأنينة قلبه فى قوت سنته وغنى الخصوص فى أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الاقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل و بعضهن قوت أربعين يوما و بعضهن يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة

﴿ بيان آداب الفقير فى قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال ﴾

ينبغى أن يلاحظ الفقير فيما جاءه به ثلاثة أمور نفس المال وغرض المعطى وغرضه فى الاخذ أما نفس المال فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه وقد ذكرنا فى كتاب الحلال والحرام

عند فناء الادهان قيل له فأين تذهب الجسوم اذا بليت قال فأين يذهب لحمها اذا مرضت وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة و ينسب الى الاسلام الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف وقال بعضهم انها اذا فارقت البدن يحل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات لان تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن وهى عند الموت شاعرة بالموت و بعد الموت متخيلة بنفسها مقبورة وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة وتحس بالثواب والعقاب فى القبر وقال بعضهم أسلم المقالات أن يقال الروح شئ مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن مادام متصلا به وانه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد

درجات الشبهة ومايجب اجتنابه ومايستحب وأما غرض المعطى فلايخلو اما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة اما على التجرد واما ممزوجا ببقية الاغراض أما الاول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ينبغى أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالاولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال لقد هممت أن لا أتهب الا من قرشى أو ثقفى أو انصارى أو دوسى وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت الى فتح الموصلى صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل اليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد فى قبول العطاء وقد كان الحسن يقبل من أصحابه وكان ابراهيم التيمى يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها وكان بعضهم اذا أعطاه صديقه شيأ يقول اتركه عندك وانظر ان كنت بعد قبوله فى قلبك أفضل منى قبل القبول فأخبرنى حتى آخذه والا فلا وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته فان علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين وقال بشر ماسألت أحدا قط شيأ الا سريا السقطى لانه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشئ من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على مايحب وجاء خراسانى الى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال أفرقه على الفقراء فقال ما أريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه فى الخل والبقل بل فى الحلاوات والطيبات فقبل ذلك منه فقال الخراسانى ما أجد فى بغداد أمن على منك فقال الجنيد ولا ينبغى أن يقبل الا من مثلك * الثانى أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا لمعصية فى السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالتصدق عليه فهو حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه انه عالم أو علوى ولم يكن فان أخذه حرام محض لاشبهة فيه * الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله اذ يكون معينا له على غرضه الفاسد وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى ويقول لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة فقال انما أرد صلتهم اشفاقا عليهم ونصحا لهم لانهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم * وأما غرضه فى الاخذ فينبغى أن ينظر أهو محتاج اليه فيما لابد له منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالافضل له الاخذ قال النبى صلى الله عليه وسلم ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ اذا كان محتاجا وقال صلى الله عليه وسلم من أتاه شئ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه وفى لفظ آخر فلا يرده وقال بعض العلماء من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سرى السقطى يوصل الى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيأ فرده مرة فقال له السرى يا أحمد احذر آفة الرد فانها أشد من آفة الاخذ فقال له أحمد أعد على ماقلت فأعاده فقال أحمد مارددت عليك الا لان عندى قوت شهر فاحبسه لى عندك فاذا كان بعد شهر فانفذه الى وقد قال بعض العلماء يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول فى شبهة أو غيره فأما اذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلو اما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما فى طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لاخذه وامساكه ان كان طالبا طريق الآخرة فان ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو فى سبيل الشيطان أو داع اليه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم له مقامان أحدهما أن يأخذ فى العلانية ويرد فى السر أو يأخذ فى العلانية

كما ان الجسد بمفارقته يذوق الموت فان الكيفية والماهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر فى شعاع الشمس ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أى هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم انه جسم لطيف كما ذكرناه واختار قوم انه قديم لانه أمر والامر كلام والكلام قديم فما أحسن الامساك عن القول فيما هذا سبيله وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه يدل على أنه يميل الى أن الارواح أعيان فى الجسد وكذا النفوس لانه يذكر ان الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور فى القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك وتتحرك للشر ومن حركتها تظهر ظلمة فى القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالاغواء

ويفرق فى السر وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه الا من اطمأنت نفسه بالرياضة والثانى ان يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه الى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل الى من هو أحوج منه فيفعل كليهما فى السر أو كليهما فى العلانية وقد ذكرنا هل الافضل اظهار الاخذ أو اخفاؤه فى كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطى رحمهما الله فانما كان لاستغنائه عنه اذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه ان يشتغل بأخذه وصرفه الى غيره فان فى ذلك آفات واخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات اذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندى دراهم أعددتها للانفاق فى سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفى أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت فى نفسى لا أجد لدراهمى موضعا أحسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال أربعة ثمن مئزرين ودرهم أنفقه ثلاثا فلا حاجة بى الى الباقى فرده قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس فى نفسى منه شئ فالتفت الى فأخذ بيدى فاطافنى معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الارض يتخشخش تحت أقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدى الخلق لان هذه أثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود من هذا ان الزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وقد قال صلى الله عليه وسلم لا حق لابن آدم الا فى ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فاذا انت فى أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه ان لم تعص الله متعرض للحساب وان عصيت الله فانت متعرض للعقاب ومن الاختيار أيضا ان تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا الى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك فالاولى الامتناع عنها فان النفس اذا رخص لها فى نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد فان أخذته وصرفته الى محتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون وأما اذا كان حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء وبادر به الى الصرف اليهم ولا تدخره فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو فى قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك * وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة الى التوسع فى المال والتنعم فى المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاه وان مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على اقراضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله قيل معناه ليبع أحد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم ان لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضاعتهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الاقوياء والاسخياء والاغنياء فقيل من هؤلاء فقال أما الاقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الاسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الاغنياء فهم أهل الانقطاع الى الله تعالى فاذا مهما وجدت هذه الشروط فيه وفى المال وفى المعطى فليأخذه وينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى لان المعطى واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر اليه بما سلط عليه من الدواعى والارادات والاعتقادات * وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لاصحابه ان هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا الا شابا منهم كان دونهم فى الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى كلهم وقال موسى عليه السلام يا رب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى اسرائيل يغدينى هذا يوما

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير الى الروح (أقول) ما عندى فى ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به اذ ميلى فى ذلك الى السكوت والامساك فاقول والله أعلم الروح الانسانى العلوى السماوى من عالم الامر والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث من القلب أعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل المودعة فى الجانب الايسر من الجسد وينتشر فى تجاويف العروق الضوارب وهذا الروح لسائر الحيوانات ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذى قوامه باجراء سنة الله بالغذاء غالبا ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الاخلاط ولورود

و يعشيني هذه الليلة فاوحى الله تعالى اليه هكذا أصنع بأوليائي اجرى أرزاقهم على أيدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم فلا ينبغي أن يرى المعطى الامن حيث انه مسخر مأجور من الله تعالى نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه

﴿ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه ﴾

اعلم انه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة اذ قال صلى الله عليه وسلم للسائل حق ولو جاء على فرس وفى الحديث ردوا السائل ولو بظلف محرق ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز اعانة المتعدى على عدوانه والاعطاء اعانة فالكاشف للغطاء فيه ان السؤال حرام فى الاصل وانما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما قلنا ان الاصل فيه التحريم لانه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة * الاول اظهار الشكوى من الله تعالى اذ السؤال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل الا لضرورة كما تحل الميتة * الثانى أن فيه اذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه فاما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم الا لضرورة وفى السؤال ذل للسائل بالاضافة الى المسؤل * الثالث انه لا ينفك عن ايذاء المسؤل غالبا لانه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وان منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع اذ يرى نفسه فى صورة البخلاء ففى البذل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب فى الايذاء والايذاء حرام الا بضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة انما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم وفى لفظ آخر كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه وهذه الالفاظ صريحة فى التحريم والتشديد وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيأ وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله وقال من لم يسألنا فهو أحب الينا وقال صلى الله عليه وسلم استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوأة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولا أن سؤاله كان حراما ما ضربه ولا أخذ مخلاته ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره القصور فى الفقه فاين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أفترى انه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن اقدم عليه غضبا فى معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبى الله وهيهات فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من أعطاه شيأ فانما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل فى ملكه باخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى أصحابه اذ لا يعرف أصحابه باعيانهم فبقى مالا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح ويتنزل أخذ السائل مع اظهار الحاجة كاذبا كاخذ العلوى بقوله انى علوى وهو كاذب فانه لا يملك ما يأخذه وكاخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه وقد ذكرنا فى مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد الى مالكه فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه فى مواضع ولا تستدل بغفلتك عن

الروح الانسانى العلوى على هذا الروح بجنس الروح الحيوانى وباين أرواح الحيوانات واكتسب صفة أخرى فصار نفسا محلا للنطق والالهام قال الله تعالى ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها فتسوية ها بورود الروح الانسانى عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الامر كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه قال الله تعالى وجعل منها زوجها ليسكن اليها فسكن آدم الى حواء وسكن الروح الانسانى العلوى الى الروح

هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم ان الشئ اما أن يكون مضطرا اليه أو محتاجا اليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه فهذه أربعة أحوال أما المضطر اليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسؤل بكونه مباحا والمسؤل منه بكونه راضيا فى الباطن وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيأ وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى الى حد الضرورة وكذلك من يسأل لاجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الاباحة لانها أيضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للاولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال وقال ليس تحت جبتى قميص والبرد يؤذينى أذى أطيقه ولكن يشق على فاذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله ان شاء الله تعالى وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس وكمن يسأل لاجل الادم وهو واجد للخبز وكمن يسأل الكراء لفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ونحوه ان كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وان لم يكن وكان فيه شئ من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وايذاء المسؤل فهو حرام لان مثل هذه الحاجة لا تصلح لان تباح بها هذه المحذورات وان لم يكن فيها شئ من ذلك فهو مباح مع الكراهة فان قلت فكيف يمكن اخلاء السؤال عن هذه المحذورات فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى وأما الذل فبان يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك فى عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لا محالة وأما الايذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة وان كان فى القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا ايذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ويكون الاحب اليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة وأما اذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى ان لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا الى التغافل ان أراد فاذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وانه غير متأذ به وينبغى أن يسأل من لا يستحيى منه لو رده أو تغافل عنه فان الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى فان قلت فاذا أخذ مع العلم بان باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الامة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة اذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن أشد نكاية فى قلوب العقلاء ولا يجوز أن يقال هو فى الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم انما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فان هذه ضرورة القضاة فى فصل الخصومات اذ لا يمكن ردهم الى البواطن وقرائن الاحوال فاضطروا الى الحكم بظاهر القول باللسان مع انه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت اليه وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالالسنة عند سائر الحكام فلا تنظر فى مثل هذا الا الى قلبك وان أفتوك وأفتوك فان المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة ومفتى القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فاذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده الى صاحبه فان كان يستحيى من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته فان لم يقبل هديته فعليه ان يرد ذلك الى

الحيوانى وصيره نفسا وتكون من اسكون الروح الى النفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية فالمضغة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الامر وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الامر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب فمن القلوب قلب متطلع الى الاب الذى هو الروح العلوى ميال اليه وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه

وورثته فان تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الايذاء فان قلت فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل الى الخلاص منه فربما يظن السائل انه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا فاقول لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من أحد شيأ أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا الا من السري رحمة الله عليهما وقال لاني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب وانما عظم النكير في السؤال وتأكد الامر بالتعفف لهذا لان الاذى انما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة فكان الامتناع طريق الورعين ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته في الاطلاع على قرائن الاحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ الا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والاقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فان ذلك لا يكون الا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا الا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الانبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في انهم ما سألوا الا من علموا أنه يرغب في اعطائهم والثاني السؤال من الاصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان لان أرباب القلوب علموا ان المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم انهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فاذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار اخوانهم على ما يريدونه والا فكانوا يستغنون عن السؤال وحد اباحة السؤال أن تعلم أن المسؤل بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير الا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بالحياء واثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الاحوال فالاخذ في الحالة الاولى حلال طلق وفي الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه وادراك ذلك بقرائن الاحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فان قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وقد أوتي جوامع الكلم لان من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فيأكل من أيدي الناس وان أعطي بغير سؤال فانما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وان أعطي بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء اذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة فاذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت ان جميع ما يأكله أو أكثره سحت وان الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو موروثك فاذا بعيد أن يجتمع الورع مع الاكل من أيدي الناس فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وان يغنينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير

﴿ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ﴾

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم من سأل عن ظهر غنى فانما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر صريح في التحريم ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير وليس الينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف وقد ورد في الحديث استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة وفي حديث آخر من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الحافا وورد في لفظ آخر أربعون درهما ومهما اختلفت التقديرات وصحت الاخبار فينبغي ان يقطع بورودها على أحوال مختلفة فان الحق في نفسه لا يكون الا واحدا والتقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك الا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حق لابن آدم الا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يواري به عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الاجناس والمقادير والاوقات فأما الاجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في

فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها والقلب المنكوس ميال الى الام التي هي النفس الامارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميله اليهما وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والعقل جوهر الروح العلوي ولسانه والدال عليه وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البار والزوج للزوجة الصالحة وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الامارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة فمنكوس من وجه ومنجذب الى تدبيرهما من وجه اذ

معناها

معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر اذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات و يلحق بنفسه عياله و ولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقيص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا اثاث البيت جميعا ولا ينبغي ان يطلب رقة الثياب وكون الاواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه مالم يكن في غاية البعد عن العادة وأما الطعام فقدره في اليوم مد وهو ماقدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والادم على الدوام فضله وقطعه بالكلية اضرار ففي طلبه في بعض الاحوال رخصة وأما المسكن فاقله ما يجزئ من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة الى الاوقات فما يحتاج اليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات احداها ما يحتاج اليه في غد والثانية ما يحتاج اليه في أربعين يوما أو خمسين يوما والثالثة ما يحتاج اليه في السنة ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله ان كان له عيال السنة فسؤاله حرام فان ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فان خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة اذا اقتصد أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وان كان يحتاج اليه قبل السنة فان كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لانه مستغن في الحال وربما لا يعيش الى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وان كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال لان أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف ان يبقى مضطرا عاجزا عما يعينه فان كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان ما لاجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج الى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه و بين الله تعالى فيستفتي فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك الا من ضعف اليقين والاصغاء الى تخويف الشيطان وقد قال تعالى فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وان كان مما يحتاج اليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الامل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الخصلة من أمهات المهلكات نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

﴿ بيان أحوال السائلين ﴾

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة فقير لا يسأل وان أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسأل وان أعطى أخذ فهذا مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذا قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى انه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة قال شقيق البلخي لابراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم ان أعطوا شكروا وان منعوا صبروا وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له ابراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال الفقراء عندنا ان منعوا شكروا وان أعطوا آثروا فقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذا درجات أرباب الاحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه اذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها الى قلاعها ومن أسفل سافلين الى أعلى عليين وقد خلق الانسان في أحسن تقويم ثم رد الى أسفل سافلين ثم أمر أن يترقى الى أعلى عليين ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الاحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم

لابد له منهما وقول القائلين واختلافهم في محل العقل فمن قائل ان محله الدماغ ومن قائل ان محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه الى البار تارة والى العاق أخرى وللقلب والدماغ نسبة الى البار والعاق فاذا رؤى في تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ واذا رؤى في تدبير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوي يهم بالارتفاع الى مولاه شوقا وحنوا وتنزها عن الاكوان ومن الاكوان القلب والنفس فاذا ارتقى الروح يحنو القلب اليه حنو الولد الحنين البار الى الوالد وتحن النفس الى القلب الذي هو الولد حنين الوالدة الحنينة الى ولدها واذا حنت النفس ارتفعت من الارض وانزوت عروقها

ولكن بالاضافة الى حالهم فان مثل هذه الاعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا اسحق النورى رحمه الله يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النورى لم يسأل الناس الا ليعطيهم وانما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به الى قوله صلى الله عليه وسلم يد المعطى هى العليا فقال بعضهم يد المعطى هى يد الآخذ للمال لانه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال احملها اليه فقلت فى نفسى انما يوزن الشئ ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم واستحييت ان أسأله فذهبت بالصرة الى النورى فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردها عليه وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيأ وأخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبى فسألته فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا للثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال أخذ ماله ورد ما لنا الله المستعان فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الاسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه الهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن أنكره بعد ان طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فانكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعلة فى باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وان كان فى الجهل دون الاول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين اما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل الى عين اليقين واما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وان لم يكن واصلا الى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة واتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب

﴿ الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد ﴾ وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والمسكن والاثاث وضروب المعيشة وبيان علامة الزهد

﴿ بيان حقيقة الزهد ﴾

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لان أبواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع الى عقد وقول وعمل وكان القول لظهوره أقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال الباطن والا فليس القول مرادا لعينه وان لم يكن صادرا عن حال سمى اسلاما ولم يسم ايمانا والعلم هو السبب فى الحال يجرى مجرى المثمر والعمل يجرى فى الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل * أما الحال فنعنى بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ الى ما هو خير منه فكل من عدل عن شئ الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وانما عدل الى غيره لرغبته فى غيره فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحبا فاذا يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه ان يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمى زاهدا اذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا وانما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لان التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع الا والمشترى عنده خير من المبيع فيكون حاله بالاضافة الى المبيع زهدا فيه وبالاضافة الى العوض عنه رغبة فيه وحبا ولذلك قال الله تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

الضاربة فى العالم السفلى وانطوى هواها وانحسمت مادته وزهدت فى الدنيا وتجافت عن دار الغرور وانابت الى دار الخلود وقد تخلد النفس التى هى الام الى الارض بوضعها الجبلى لتكونها من الروح الحيوانى المجنس ومستندها فى ركونها الى الطبائع التى هى أركان العالم السفلى قال الله تعالى ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فاذا سكنت النفس التى هى الام الى الارض انجذب اليها القلب المنكوس انجذاب الولد المائل الى الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم وتنجذب الروح الى الولد الذى هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد الى ولده فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفى هذين الانجذابين يظهر حكم

ووصف

ووصف اخوة يوسف بالزهد فيه اذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم وكان ذلك عندهم أحب اليهم من يوسف فباعوه طمعا فى العوض فاذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا كما خصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل خاصة وان كان هو للميل فى وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور الا بالعدول الى شئ هو أحب منه والافترك المحبوب بغير الاحب محال والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب الا الله تعالى فهو الزاهد المطلق والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصور والانهار والفواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الاول والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع فى الاكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته فى الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك فى المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وان كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا الى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا الى الله تعالى وهى الدرجة العليا وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فان ترك مالا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففيماذا زهدت * وأما العلم الذى هو مثمر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة الى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى أى لذاتها خير فى أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلى فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان الى الانقراض والآخرة كالجوهر الذى لا فناء له فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة حتى ان من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به فليس يحتاج من العلم فى الزهد الا الى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه واما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه وكونه مقهورا فى يد الشيطان واما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم الى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه الا الحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل والى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه قال رجل فى دعائه اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك وهذا لان الله تعالى يراها حقيرة كما هى وكل مخلوق فهو بالاضافة الى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة فى حق نفسه بالاضافة الى ماهو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وان رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الارض مثلا لانه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ماسواه فيرى الكل فى درجة واحدة بالاضافة الى جلاله ويراه متفاوتا بالاضافة الى غيره والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالاضافة الى نفسه لا الى غيره * وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لانه بيع ومعاملة واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع واخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف

السعادة والشقاوة ذلك تقدير العزيز العليم (وقد ورد) فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان أين موضع العقل منك قال القلب لانه قالب الروح والروح قالب الحياة (وقال) أبو سعيد القرشى الروح روحان روح الحياة وروح الممات فاذا اجتمعا عقل الجسم وروح الممات هى التى اذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا وروح الحياة ما به مجارى الانفاس وقوة الاكل والشرب وغيرهما (وقال) بعضهم الروح نسيم طيب يكون به الحياة والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات ويقال فلان حار الرأس وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس واشارة المشايخ بماهية النفس الى ما يظهر من آثارها من الافعال المذمومة والاخلاق

على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات والا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين فى الاخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به فان الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد فمن سلم حاضرا فى غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سلم اليه الغائب حين فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد ومادام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى أخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وان كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا وعزموا على ابعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على اخراجه بل عند التسليم والبيع فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لان مالا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك أن الدنيا وان لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغى أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصى عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها واذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فاياك أن تثق بوعدها فى المباحات والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة فاذا وفت بما وعدت مع انتفاء الصوارف والاعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبة الرجوع الى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها الا عند الترك بالاضافة الى ما ترك فقط وذلك عند القدرة قال ابن أبى ليلى لابن شبرمة ألا ترى الى ابن الحائك هذا لا نفتى فى مسألة الا رد علينا يعنى أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدرى أهو ابن الحائك أم ماهو ولكن اعلم أن الدنيا غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليل منهم قال ابن مسعود رحمه الله قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعنى من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لامدخل لشىء منه فى العبادات وانما الزهد أن تترك الدنيا العلمك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الآخرة فاما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا اذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهى ألذ وأهنى من المال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا فى العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا فى الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما فى حفظ المال من المشقة والعناء والحاجة الى التذلل للسلاطين والاغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ويكون مشركا فى حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا فى ثواب الله فى الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا فى أشربة الجنة وترك التمتع بالسرارى والنسوان طمعا فى الحور العين وترك التفرج فى البساتين طمعا فى بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا فى زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا فى فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا فآثر فى جميع ذلك ماوعد به فى الجنة على ماتيسر له فى الدنيا عفوا صفوا لعلمه بأن ما فى الآخرة خير وأبقى وان ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها فى الآخرة أصلا

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى فخرج على قومه فى زينته الى قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن فنسب

الزهد

المذمومة وهى التى تعالج بحسن الرياضة ازالتها وتبديلها والافعال الرديئة تزال والاخلاق الرديئة تبدل (أخبرنا) الشيخ العالم رضى الدين أحمد ابن اسمعيل القزوينى قال أنا اجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى قال أنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى قال أنا أبو اسحق أحمد بن محمد بن ابراهيم قال أنا الحسين ابن محمد بن عبد الله السفيانى قال حدثنا محمد بن الحسن اليقطينى قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد ابن يزيد عن سعيد ابن أبى هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية قد أفلح من زكاها وقف ثم قال اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت

الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا جاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا قيل معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بانه من أحسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب وقال تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وقال تعالى الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة فوصف الكفار بذلك فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا

(وأما الاخبار) فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات اذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه وعن بعض الصحابة أنه قال قلنا يا رسول الله أي الناس خير قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قلنا يا رسول الله فمن على أثره قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه والا ارتحلا ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة ايمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالايمان فانظر كيف بدأ في اظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام وقيل له ما هذا الشرح قال ان النور اذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قالوا انا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة اذا نزلت بالاعداء فقال عليه الصلاة والسلام ان كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فجعل الزهد تكملة لايمانهم وقال جابر رضي الله عنه خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من جاء بلا اله الا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام اليه علي كرم الله وجهه فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها صفه لنا فسره لنا فقال حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها وقوم يقولون قول الانبياء ويعملون عمل الجبابرة فمن جاء بلا اله الا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة وفي الخبر السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك وقال أيضا السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة وروى عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها

خير من زكاها (وقيل) النفس لطيفة مودعة في القالب منها الاخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الاخلاق والصفات المحمودة كما أن العين محل الرؤية والاذن محل السمع والانف محل الشم والفم محل الذوق وهكذا النفس محل الاوصاف المذمومة والروح محل الاوصاف المحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيش والثاني الشره وطيشها من جهلها وشرهها من حرصها وشبهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها وشبهت في حرصها بالفراش الذي يلقي نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه فمن الطيش توجد

لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما الى دار السلام وروى انه صلى الله عليه وسلم مر فى أصحابه بعشار من النوق حفل وهى الحوامل وكانت من أحب أموالهم اليهم وأنفسها عندهم لانها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ولعظمها فى قلوبهم قال الله تعالى واذا العشار عطلت قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يارسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر اليها فقال قد نهانى الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به الآية وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت يارسول الله الا تستطعم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع فقال ياعائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شئت من الارض ولكنى اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ياعائشة ان الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة ان الله لم يرض لاولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض لى الا أن يكلفنى ما كلفهم فقال فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل والله مالى بد من طاعته وانى والله لاصبرن كما صبروا وجهدى ولا قوة الا بالله وروى عن عمر رضى الله عنه أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب اذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال عمر ياحفصة ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة الا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية الا جاعوا غدوة وناشدتك الله هل تعلمين أن النبى صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم اليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الارض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به الى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها الى الصلاة وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساءين ازارا ورداء وبعثت اليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج الى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه الى عنقه فصلى كذلك فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج وفى بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لى صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك بى طريق غير طريقهما وانى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان الانبياء قبلى يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس الا العباءة وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب اليهم من العطاء اليكم وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى فى بطنه من الهزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز فى الآخرة وفى حديث عمر رضى الله عنه انه قال لما نزل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله قال صلى الله عليه وسلم تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأى شئ ندخر فقال صلى الله عليه وسلم ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته وفى حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث هما لا يفارق قلبه أبدا وفقرا لا يستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشئ أحب اليه من كثرته وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يانبى الله لو أمرتنا أن نبنى بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله

عليه

العجلة وقلة الصبر والصبر جوهر العقل والطيش صفة النفس وهواها وروحها لا يغلبه الا الصبر اذ العقل يقمع الهوى ومن الشره يظهر الطمع والحرص وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود فحرص على أكل الشجرة وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها لانها مخلوقة من تراب ولها بحسبه وصف وقيل وصف الضعف فى الآدمى من التراب ووصف البخل فيه من الطين ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون ووصف الجهل فيه من الصلصال وقيل قوله كالفخار فهذا الوصف فيه شئ من الشيطنة لدخول النار فى الفخار فمن ذلك الخداع والحيل والحسد فمن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قدرة له عليها الا بالاستعانة ببارئها

عليه وسلم ان ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يا رب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم يا جبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا اسرافيل عليه السلام قد نزل اليك حين سمع كلامك فأتاه اسرافيل فقال ان الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بمفاتيح الارض وأمرنى أن أعرض عليك ان أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت وان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فأومأ اليه جبريل أن تواضع لله فقال نبيا عبدا ثلاثا وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه وقال صلى الله عليه وسلم لرجل ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس وقال صلوات الله عليه من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام أربع لا يدركن الا بتعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشىء وايراد جميع الاخبار الواردة فى مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فان الانبياء ما بعثوا الا لصرف الناس عن الدنيا الى الآخرة واليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية والله المستعان (وأما الآثار) فقد جاء فى الاثر لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم وفى لفظ آخر ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال تابعنا الاعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زهد فى الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا أزهد فى الدنيا منكم وقال عمر رضى الله عنه الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا ان الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتهى أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه ان للجنة ثمانية أبواب فاذا صار أهل الجنة اليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين فى الدنيا العاشقين للجنة وقال يوسف بن اسباط رحمه الله انى لأشتهى من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله وروى أن بعض الخلفاء أرسل الى الفقهاء بجوائز فقبلوها وأرسل الى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال أتدرون ما مثلى ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لاجل أن ينتفعوا بجلدها وكذلك أنتم أردتم ذبحى على كبر سنى موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا * وقال عبيد بن عمير كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام وقالت امرأة أبى حازم لابى حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدى الله تعالى ثم الجنة أو النار وقيل للحسن لم لا تغسل ثيابك قال الامر أعجل من ذلك وقال ابراهيم بن أدهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فأنت حريص واذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب واذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل وقال ابن مسعود رضى الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب الى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف الينا وكأنه التفت الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان الله يحمى عبده

وفاطرها فلا يتحقق العبد بالانسانية الا بعد أن يدبر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل وهو رعاية طرف الافراط والتفريط ثم بذلك تتقوى انسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والاخلاق المذمومة وكمال انسانيته ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ثم تنكشف له الاخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك فيرى أن شرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف بالطمأنينة قال يا أيتها النفس المطمئنة وسماها لوامة فقال لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة وسماها أمارة فقال ان النفس لامارة بالسوء وهى نفس واحدة ولها صفات متغايرة فاذا امتلأ القلب سكينة

المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه فاذا فهم هذا علم ان النعمة في المنع المؤدي الى الصحة أكبر منها في الاعطاء المؤدي الى السقم وكان الثوري يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء وقال سهل لا يخلص العمل للمتعبد حتى لا يفزع من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل وقال الحسن البصري أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شيء منها أدبر ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الارض شيأ ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فاذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا اذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها واذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه

﴿ بيان درجات الزهد وأقسامه بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه ﴾

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث * الدرجة الاولى وهي السفلى منها ان يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ وقلبه اليها مائل ونفسه اليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا والى الاستراحة بها في قليل أو كثير * الدرجة الثانية الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره اياها بالاضافة الى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لاجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وان كان يحتاج الى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت اليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن في نفسه أنه ترك شيأ له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان * الدرجة الثالثة وهي العليا أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده اذ لا يرى أنه ترك شيأ اذ عرف أن الدنيا لاشيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيأ والدنيا بالاضافة الى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالاضافة الى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات الى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لابي موسى عبد الرحيم في أي شيء تتكلم قال في الزهد قال في أي شيء قال في الدنيا فنفض يده وقال ظننت أنه يتكلم في شيء الدنيا لاشيء ايش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى اليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره في جميع مملكته أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها الى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ان أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنتهي الى النتن والقذر ثم يحتاج بعد ذلك الى اخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وان عمر مائة سنة بالاضافة الى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا اذ لا نسبة للمتناهي الا مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها الى نعيم الابد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية فاي نسبة لها الى نعيم الابد فاذا لا يلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه ولا يلتفت الى ما زهد فيه الا لانه يراه شيأ معتدا به ولا يراه شيأ معتدا به الا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات اذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة في الصبر وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته الى زهده * وأما انقسام الزهد بالاضافة الى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات * الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب

القبر

خلع على النفس خلع الطمأنينة لان السكينة مزيد الايمان وفيها ارتقاء القلب الى مقام الروح لما منح من حظ اليقين وعند توجه القلب الى محل الروح تتوجه النفس الى محل القلب وفي ذلك طمأنينتها واذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة الى مقار الطمأنينة فهي لوامة لانها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها الى محلها التي كانت فيه أمارة بالسوء واذا أقامت في محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة فهي على ظلمتها أمارة بالسوء فالنفس والروح يتطاردان فتارة يملك القلب دواعي الروح وتارة يملكه دواعي النفس وأما السر فقد أشار القوم اليه ووجدت في كلام القوم أن منهم من جعله

القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدى العبد من الاهوال كما وردت به الاخبار اذ فيها ان
الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء فهذا هو زهد الخائفين
وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فان الخلاص من الالم يحصل بمجرد العدم * الدرجة الثانية أن يزهد رغبة فى ثواب
الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فان هؤلاء ما تركوا الدنيا
قناعة بالعدم والخلاص من الالم بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له * الدرجة الثالثة وهى العليا
أن لا يكون له رغبة الا فى الله وفى لقائه فلا يلتفت قلبه الى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا الى اللذات ليقصد نيلها
والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذى أصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد الحقيقى الذى
لا يطلب غير الله تعالى لان من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلبه
وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لانه لا يحب الله تعالى خاصة الا من عرفه وكما
ان من عرف الدينار والدرهم وعلم انه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب الا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف
لذة النظر الى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر الى نقش
القصور وخضرة الاشجار غير ممكن فلا يحب الا لذة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر الى وجه
الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة الى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك
الدنيا والاستيلاء على أطراف الارض ورقاب الخلق بالاضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به
والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبى الطالب للعب بالعصفور التارك للذة
الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك لا لان اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك
على كافة الخلق * وأما انقسامه بالاضافة الى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الاقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على
مائة قول فلا نشتغل بنقل الاقاويل ولكن نشير الى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن
الاحاطة بالكل فنقول المرغوب عنه بالزهد له اجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الاقسام
وبعضها أجمل للجمل * أما الاجمال فى الدرجة الاولى فهو كل ما سوى الله فينبغى أن يزهد فيه حتى يزهد فى نفسه
أيضا والاجمال فى الدرجة الثانية أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من
الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها وفى الدرجة الثالثة أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما
اذ اليهما يرجع جميع حظوظ النفس وفى الدرجة الرابعة أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه اذ
الاموال وان كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وان كثرت أسبابه فيرجع الى العلم والقدرة
وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب اذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال
ملك الاعيان والقدرة عليها فان جاوزت هذا التفصيل الى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد
عن الحصر وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ثم رده فى آية
أخرى الى خمسة فقال عز وجل اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال
والاولاد ثم رده تعالى فى موضع آخر الى اثنين فقال تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو ثم رد الكل الى واحد فى
موضع آخر فقال ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى
الدنيا فينبغى أن يكون الزهد فيه واذا فهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف
البعض وانما يفارقه فى الشرح مرة والاجمال أخرى فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس
كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا فقصر أمله لا محالة لانه انما يريد البقاء ليتمتع ويريد
التمتع الدائم بارادة البقاء فان من أراد شيأ أراد دوامه ولا معنى لحب الحياة الا حب دوام ما هو موجود أو ممكن فى
هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل
قريب فقال تعالى قل متاع الدنيا قليل أى لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف

بعد القلب وقبل الروح
ومنهم من جعله بعد
الروح وأعلى منها
وألطف وقالوا السر محل
المشاهدة والروح محل
المحبة والقلب محل
المعرفة والسر الذى
وقعت اشارة القوم
اليه غير مذكور فى
كتاب الله وانما
المذكور فى كلام الله
الروح والنفس
وتنوع صفاتها
والقلب والفؤاد
والعقل وحيث لم نجد
فى كلام الله تعالى ذكر
السر بالمعنى المشار اليه
ورأينا الاختلاف فى
القول فيه وأشار قوم
الى انه دون الروح
وقوم الى انه ألطف من
الروح فنقول والله أعلم
الذى سموه سرا ليس
هو بشئ بنفسه مستقل
له وجود وذات كالروح
والنفس وانما لما
صفت النفس وتركت
انطلق الروح من وثاق
ظلمة النفس فأخذ فى
العروج الى أوطان
القرب وانتزح القلب

حال المنافقين أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة و يبادرون اليه مبادرة الظمآن الى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الايمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم فايثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الابد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه واذا فهمت هذا علمت أن ماذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به الا الى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحمه الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وهذا اشارة الى الزهد في الجاه خاصة وقال قاسم الجوعي الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد وهذا اشارة الى الزهد في شهوة واحدة ولعمري هي أغلب الشهوات على الاكثر وهي المهيجة لاكثر الشهوات وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا اشارة الى المال خاصة وقال الثوري الزهد هو قصر الامل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها وقال أويس اذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا في الزهد وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للمضمون وهو اشارة الى الرزق وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول والزهد انما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا ان أريد به الرأي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه اشارة الى بعض أسباب الجاه خاصة أو الى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طولوها حتى ينقضي عمر الانسان في الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده وقال الحسن الزاهد الذي اذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني فذهب الى أن الزهد هو التواضع وهذا اشارة الى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الاذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الامور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد الا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصر والاقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والاحوال تختلف فلا جرم الاقوال المخبرة عنها تختلف وأما الحق في نفسه فلا يكون الا واحدا ولا يتصور أن يختلف وانما الجامع من هذه الاقاويل الكامل في نفسه وان لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني اذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شئ يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن الى الدنيا فجعل جميع ذلك ضد الزهد وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال انما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة فهذا بيان انقسام الزهد باضافة الى أصناف المزهود فيه فأما بالاضافة الى أحكامه فينقسم الى فرض ونفل وسلامة كما قاله ابراهيم بن أدهم فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع

في

عند ذلك عن مستقره متطلعا الى الروح فاكتسب وصفا زائدا على وصفه فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرا ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه الى الروح اكتسب الروح وصفا زائدا في عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرا والذي زعموا انه ألطف من الروح روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه والذي سموه قبل الروح سرا هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه وفي مثل هذا الترقي من الروح والقلب تترقى النفس الى محل القلب وتنخلع من وصفها فتصير نفسا مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل اذ صار القلب يريد ما يريد مولاه متبرئا عن الحول والقوة والارادة والاختيار وعندها

في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد اذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى وأما بالاضافة الى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه اذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات لا سيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه الا سماسرة العلماء بل الاموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تتناهى فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام اذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك قال وما الذي تجدد قال توسدك الحجر أي تنعمت برفع رأسك عن الارض في النوم فرمى الحجر وقال خذه مع ما تركته لك وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فأوحى الله تعالى اليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد الى ما كان عليه وقال أحمد رحمه الله الزهد زهد أويس بلغ من العرى أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط انسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما أقمتني أنت انما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط فاذا درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحظور وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن فان قلت مهما كان الصحيح هو ان الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا الى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ولا يتصور ذلك الا مع البقاء ولا بقاء الا بضرورات النفس فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل الى الشيء الا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك الى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالاكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد وان قلت فلا بد وأن أتلذذ بالاكل عند الجوع فاعلم أن ذلك لا يضرك اذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله الى زوال ألم العطش ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد ولا يكون القلب منصرفا اليه فالانسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الاسحار وصوت الاطيار ولكن اذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الاسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الانس بالله بقدر وقوع الانس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له حب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وان كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لانفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

﴿ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ﴾

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم الى فضول والى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا اذ غالب الناس انما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالاكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فان ذلك لا ينحصر وانما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضا يتطرق اليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة أمور المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب لاغراض وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة (الاول المطعم) ولا بد للانسان من قوت

ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا عن ارادته واختياراته وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة والبصيرة للروح بمثابة القلب والعقل بمثابة اللسان وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال له اقعد فقعد ثم قال له انطق فنطق ثم قال له اصمت فصمت فقال وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي وسلطاني وجبروتي ما خلقت خلقا أحب الي منك ولا أكرم علي منك بك أعرف وبك أحمد وبك أطاع وبك آخذ وبك أعطي واياك أعاتب ولك الثواب وعليك العقاب وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر * وقال عليه السلام لا يعجبكم

حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فلابد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فاما طوله فبالاضافة الى جملة العمر فان من يملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه و وقت تناوله اما طوله فلا يقصر الا بقصر الامل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا * الدرجة الثانية أن يدخر لشهر أو أربعين يوما * الدرجة الثالثة أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لاكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لان من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الامل جدا فلا يتم منه الزهد الا اذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من أيدي الناس كداود الطائي فانه ورث عشرين دينارا فامسكها وأنفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد الا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالاضافة الى المقدار وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في اطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالاضافة الى الجنس فاقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلاه خبز البر غير منخول فاذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الادم فاقله الملح أو البقل والخل وأوسطه الزيت أو يسير من الادهان أي دهن كان وأعلاه اللحم أي لحم كان وذلك في الاسبوع مرة أو مرتين فان صار دائما أو أكثر من مرتين في الاسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالاضافة الى الوقت فاقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ويأكل ليلة ولا يشرب وأعلاه أن ينتهي الى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكر ناطرائق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات ولينظر الى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الادم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما أوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالاسودين التمر والماء وهذا ترك اللحم والمرقة والادم وقال الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم انه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير وقال الفضيل ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول يابني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الانبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوب بعسل فوضع القدح من يده وقال أما اني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى وأتى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع ادامه والحكمة كلامه والتراب فرشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه ان شاء الله تعالى (المهم الثاني الملبس) وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت فاذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار أما الجنس فاقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ وأما من حيث الوقت فاقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوما حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وان كان يتسارع الجفاف اليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج الى

سلام ورجل حتى تعلموا ما عقده عقله وسألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت قلت يارسول الله باي شئ يتفاضل الناس قال بالعقل في الدنيا والآخرة قالت قلت أليس يجزي الناس باعمالهم قال ياعائشة وهل يعمل بطاعة الله الا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يجزون وقال عليه السلام ان الرجل لينطلق الى المسجد فيصلي وصلاته لا تعدل جناح بعوضة وان الرجل ليأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل جبل أحد اذا كان أحسنهما عقلا قيل وكيف يكون أحسنهما عقلا قال أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على أسباب الخير وان كان دونه في العمل والتطوع (وقال) عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى قسم العقل بين

طول الامل وهو مضاد للزهد الا اذا كان المطلوب خشونته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك
فينبغى أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه الى أحوال الانبياء والصحابة كيف
تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يحب المتبذل الذى لا يبالى ما لبس
وقال عمرو بن الاسود العنسى لا ألبس مشهورا أبدا ولا أنام بليل على دثار أبدا ولا أركب على مأثور أبدا ولا
أملا جوفى من طعام أبدا فقال عمر من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى عمرو بن
الاسود وفى الخبر ما من عبد لبس ثوب شهرة الا أعرض الله عنه حتى ينزعه وان كان عنده حبيبا واشترى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم وكانت قيمة ثوبيه عشرة وكان ازاره أربعة أذرع ونصفا واشترى
سراويل بثلاثة دراهم وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لانهما ثوبان من جنس
واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أوسحوليين من هذه الغلاظ وفى الخبر كان قميص رسول الله صلى الله
الله عليه وسلم كأنه قميص زيات ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته
مائتا درهم فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يارسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهداه اليه
المقوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزعه وأرسل به الى رجل من المشركين وصله به ثم حرم لبس
الحرير والديباج وكأنه انما لبسه أولا تأكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال
وكما قال لعائشة فى شأن بريرة اشترطى لاهلها الولاء فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه وكما أباح المتعة ثلاثا
ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خميصة لها علم فلما سلم قال شغلنى النظر
الى هذه اذهبوا بها الى أبى جهم وائتونى بانبجانيته يعنى كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شراك
نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فانى نظرت
اليه فى الصلاة ولبس خاتما من ذهب ونظر اليه على المنبر نظرة فرمى به فقال شغلنى هذا عنكم نظرة اليه ونظرة
اليكم وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال أعجبنى حسنهما
فتواضعت لربى خشية أن يمقتنى ثم خرج بهما فدفعهما الى أول مسكين رآه وعن سنان بن سعد قال حيكت
لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال انظروا ما أحسنها
وما ألينها قال فقام اليه اعرابى فقال يارسول الله هبها لى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سئل شيأ لم يبخل به
قال فدفعها اليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهى فى الحاكة وعن جابر قال دخل
رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله تعالى عنها وهى تطحن بالرحا وعليها كساء من وبر الابل فلما
نظر اليها بكى وقال يافاطمة تجرعى مرارة الدنيا لنعيم الابد فأنزل عليه ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال صلى الله
عليه وسلم ان من خيار أمتى فيما أنبأنى الملأ الاعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويبكون سرا
من خوف عذابه مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم فى
الارض وأفئدتهم عند العرش فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الملابس وقد أوصى أمته عامة
باتباعه اذ قال من أحبنى فليستن بسنتى وقال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ
وقال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها
خاصة وقال ان أردت اللحوق بى فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه وعد على قميص عمر رضى
الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم واشترى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو فى
الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذى كسانى هذا من رياشه وقال الثورى وغيره البس من الثياب
ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول ان الفقير ليمر بى وأنا أصلى فادعه يجوز ويمر بى
واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا ادعه يجوز وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم
وأربعة دوانق وقال ابن شبرمة خير ثيابى ما خدمنى وشرها ما خدمته وقال بعض السلف البس من الثياب

عباده أشتاتا فان
الرجلين يستوى
علمهما وبرهما
وصومهما وصلاتهما
ولكنهما يتفاوتان فى
العقل كالذرة فى جنب
أحد (وروى) عن
وهب بن منبه أنه قال
انى أجد فى سبعين
كتابا أن جميع ما أعطى
الناس من بدء الدنيا
الى انقطاعها من
العقل فى جنب عقل
رسول الله صلى الله
عليه وسلم كهيئة رملة
وقعت من بين جميع
رمال الدنيا واختلف
الناس فى ماهية
العقل والكلام فى
ذلك يكثر ولا نؤثر نقل
الاقاويل وليس ذلك
من غرضنا فقال قوم
العقل من العلوم فان
الخالى من جميع
العلوم لا يوصف بالعقل
وليس العقل جميع
العلوم فان الخالى عن
معظم العلوم لا يوصف
بالعقل وقالوا ليس
من العلوم النظرية
فان من شرط ابتداء
النظر تقدم كمال العقل
فهو اذا من العلوم

مايخالطك بالسوقة ولا تلبس منها مايشهرك فينظر اليك وقال أبو سليمان الداراني الثياب ثلاثة ثوب لله وهو مايستر العورة وثوب للنفس وهو مايطلب لينه وثوب للناس وهو مايطلب جوهره وحسنه وقال بعضهم من رق ثوبه رق دينه وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين الى الثلاثين درهما وكان الخواص لايلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه وقال بعض السلف أول النسك الزى وفي الخبر البذاذة من الايمان وفي الخبر من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخره له من عبقري الجنة في تخات الياقوت وأوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه قل لاوليائي لايلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كماهم أعدائي ونظر رافع بن خديج الى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا الى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة الى أبي ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب ابن عامر فشكاه الى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه ان الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغني ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب الى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال ان لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين وروى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له أنت الامير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا أن نحتفي احيانا وقال على لعمر رضى الله عنهما ان أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا واياكم وزى العجم كسرى وقيصر وقال على كرم الله وجهه من تزيا بزى قوم فهو منهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام وقال صلى الله عليه وسلم أزرة المؤمن الى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايلبس الشعر من أمتي الا مراء أو أحمق وقال الاوزاعي لباس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة ما دعاك الى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلمك ولا تجيبني فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي أو فقرا فأشكو ربي وقال أبو سليمان لما اتخذ الله ابراهيم خليلا أوحى اليه أن وار عورتك من الارض وكان لايتخذ من كل شيء الا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لايأتي عليه حال الا وعورته مستورة وقيل لسلمان الفارسي رضى الله عنه مالك لاتلبس الجيد من الثياب فقال وماللعبد والثوب الحسن فاذا عتق فله والله ثياب لاتبلى أبدا ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله انه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل اذا قام يصلي وقال الحسن لفرقد السنجي تحسب ان لك فضلا على الناس بكسائك بلغني ان أكثر أصحاب النار أصحاب الاكسية نفاقا وقال يحيى بن معين رأيت أبا معاوية الاسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها فقلت انك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويبكي ﴿المهم الثالث المسكن﴾ وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات ❊ أعلاها أن لايطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو مايشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية اما بشراء أو اجارة فان كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالاضافة الى الاوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا والزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض

الضرورية وليس هو جميعها فان صاحب الحواس المختلة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية وقال بعضهم العقل ليس من أقسام العلوم لانه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لايتصف بكونه عاقلا ونحن نرى العاقل في كثير من أوقاته ذاهلا وقالوا هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم (ونقل عن الحرث) بن أسد المحاسبي وهو من أجل المشايخ أنه قال العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه في أول ذكر العقل انه لسان الروح لان الروح من أمر الله وهي المتحملة للامانة التي أبت السموات والارض أن يحملنها ومنها يفيض نور العقل وفي نور العقل تتشكل العلوم فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب

من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والاذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شئ ظهر من طول الامل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد يعنى بالتدريز كف درو زالثياب فانها كانت تشل شلا والتشييد هو البنيان بالجص والآجر وانما كان يبنون بالسعف والجريد وقد جاء فى الخبر يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم علية كان قد علا بها ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال لمن هذه قالوا الفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير وقال الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله فى الماء والطين وقال عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ما هذا قلنا خص لنا قد وهى فقال أرى الامر أعجل من ذلك واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محيريز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبى صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة وفى الخبر كل نفقة للعبد يؤجر عليها الا ما أنفقه فى الماء والطين وفى قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا أنه الرياسة والتطاول فى البنيان وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما أكن من حر وبرد وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله اتسع فى السماء أى فى الجنة ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشام الى صرح قد بنى بجص وآجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون فى هذه الامة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون فأوقد لى يا هامان على الطين يعنى به الآجر ويقال ان فرعون هو أول من بنى له بالجص والآجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا فى بعض الامصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من رهص ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده فى احكام البنيان وكان منهم من اذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهى عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة قال الحسن كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى الى السقف وقال عمرو بن دينار اذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك الى أين يا أفسق الفاسقين وقد نهى سفيان عن النظر الى بناء مشيد وقال لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر اليه معين عليه وقال الفضيل انى لا أعجب ممن بنى وترك ولكنى أعجب ممن نظر اليه ولم يعتبر وقال ابن مسعود رضى الله عنه يأتى قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين يصلون الى قبلتكم ويموتون على غير دينكم (المهم الرابع أثاث البيت) وللزهد فيه أيضا درجات أعلاها حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى اذ كان لا يصحبه الا مشط وكوز فرأى انسانا يمشط لحيته بأصابعه فرمى بالمشط ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه انما يراد لمقصود فاذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف فى كل ما يكفى فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف اذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح فى نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف وأعلاها أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس فان زاد فى العدد أو فى نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن الى طلب الفضول ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقد قالت عائشة

وهو بصفته منكوس متطلع الى النفس تارة ومنتصب مستقيم تارة فمن كان العقل فيه منكوسا الى النفس فرقه فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب واهتدى الى المكون ثم عرف الكون بالمكون مستوفيا أقسام المعرفة بالمكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكلما أحب الله اقباله فى أمر دله على اقباله عليه وما كرهه الله فى أمر دله على الادبار عنه ولا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن البغى (قال) بعضهم العقل على ضربين ضرب يبصر به أمر دنياه

رضي الله عنها كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا أبا ذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الاثاث فقال ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا فقال انه لابد لك من متاع ما دمت ههنا فقال ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له ما معك من الدنيا فقال معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي أحمل فيه طعامي ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال عمر صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال بأبي أنت قد أحسنت ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسل به الى آل فلان وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضي الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده * وقال الحسن أدركت سبعين من الاخيار ما لاحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا أراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه (المهم الخامس المنكح) وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته واليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حبب الى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله اذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤم والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الاحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وان لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب اليهن والانس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد فان علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فان الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات واللذة التي تلحق الانسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره اذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الاكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لان في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا ما عناه سهل لا محالة ولاجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن أنى يتصور ذلك لغير الانبياء والاولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان فينبغي أن يترك الاصل ان كان يشغله وان لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن

وضرب ببصره به أمر آخرته (وذكر) أن العقل الاول من نور الروح والعقل الثاني من نور الهداية فالعقل الاول موجود في عامة ولد آدم والعقل الثاني موجود في الموحدين مفقود من المشركين (وقيل) انما سمي العقل عقلا لان الجهل ظلمة فاذا غلب النور ببصره في تلك الظلمة زالت الظلمة فابصر فصار عقالا للجهل (وقيل) عقل الايمان مسكنه في القلب ومتعلقه في الصدر بين عيني الفؤاد والذي ذكرناه من كون العقل لسان الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه اذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الاشياء في مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع لان انتصابه واعتداله هداه الى الاستضاءة بنور الشرع لكون الشرع

أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة وقال الجنيد رحمه الله أحب للمريد المبتدي أن لا يشغل قلبه بثلاث والا تغير حاله التكسب وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لانه أجمع لهمه فاذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الاكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا (المهم السادس ما يكون وسيلة الى هذه الخمسة وهو المال والجاه) أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به الى الاستعانة في الاغراض والاعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر الى من يخدمه افتقر الى جاه لا محالة في قلب خادمه لانه ان لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به الى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وانما يحتاج الى المحل في القلوب اما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم فاما النفع فيغني عنه المال فان من يخدم بأجرة يخدم وان لم يكن عنده للمستأجر قدر وانما يحتاج الى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضر فيحتاج لاجله الى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما اذا انضم اليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الاذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين فاما التوهمات والتقديرات التي تحوج الى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة اذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الاحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه فاذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع الى الكثير وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره *وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بعضهم اذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك الى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا وان كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فامسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط ان يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا انه خرج من حد الزهاد نعني به ان ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله والا فاسم الزهد لا يفارقه بالاضافة الى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله الى الزهد بل يدعوهم اليه فان أجابوا والا تركهم وفعل بنفسه ما شاء معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لان ذلك من الزينة لا من الحاجة فاذا ما يضطر الانسان اليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة فما يقرب من الزيادة وان لم يكن سما قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وان لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله وما بينهما مشتبه أمره فمن احتاط فانما يحتاط لنفسه ومن تساهل فانما يتساهل على نفسه ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه الى ما لا يريبه ورد نفسه الى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب الى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لانه شرط الدين والشرط من جملة المشروط ويدل عليه ما روي ان ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرضه شيأ فلم يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى اليه لو سألت خليلك لاعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيأ فأوحى الله تعالى اليه ليس الحاجة من الدنيا فاذا قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الاغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه وغاية سعادته

وردعلى لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الالهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة فالبصيرة تحيط بالعلوم التي يستوعبها العقل والتي يضيق عنها نطاق العقل لانها تستمد من كلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها والعقل ترجمان تؤدي البصيرة اليه من ذلك شطرا كما تؤدي القلب الى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من جد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظي بعلوم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر

به أن يسلم لو رثته فيأ كلونه و ربما يكونون أعداءله وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها
ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لايزال ينسج على نفسه حبا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا
فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فانما يحكم على قلبه بسلاسل
تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والاهل والولد وشماتة الاعداء ومراآة الاصدقاء
وسائر حظوظ الدنيا فلو خطر له انه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل
وأغلال لايقدر على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا فى هلاكها الى ان
يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها فهى
تجاذبه الى الدنيا ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت ان
يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين والذى ينشر بالمنشار انما
ينزل المؤلم ببدنه ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا
به لابطريق السراية اليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل مايراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين
وجوار رب العالمين فبالنزول الى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم اذ النار
غير مسلطة الا على محجوب قال الله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فرتب
العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف اذا أضيفت العلاوة اليه فنسأل الله
تعالى ان يقرر فى اسماعنا مانفث فى روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحبب من أحببت فانك
مفارقه وفى معنى ماذكرناه من المثال قول الشاعر

كدود كدود القز ينسج دائما * ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لاولياء الله تعالى ان العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه اهلاك دود القز نفسه رفضوا
الدنيا بالكلية حتى قال الحسن رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم وفى لفظ
آخر كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا خياركم قالوا مالهؤلاء من خلاق
ولو رأوا اشراركم قالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف
أن يفسد على قلبى فمن كان له قلب فهو لامحالة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله
عنهم اذ قال تعالى ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وقال عز وجل ولا تطع من
أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقال تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة
الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احملنى معك
فى سياحتك فقال أخرج مالك والحقنى فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغنى الجنة أو قال
بشدة وقال بعضهم مامن يوم ذر شارقه الا وأربعة أملاك ينادون فى الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالمشرق
وملكان بالمغرب يقول أحدهما بالمشرق ياباغى الخير هلم ياباغى الشر اقصر ويقول الآخر اللهم أعط منفقا خلفا
واعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وابنوا للخراب ويقول الآخر كلوا وتمتعوا
لطول الحساب

* بيان علامة الزهد *

اعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد
فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم الى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لاباب له وانما مسرة أحدهم
معرفة الناس حاله ونظرهم اليه ومدحهم له فذلك لايدل على الزهد دلالة قاطعة بل لابد من الزهد فى المال والجاه
جميعا حتى يكمل الزهد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الاصواف الفاخرة
والثياب الرفيعة كما قال الخواص فى وصف المدعين اذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون
بذلك على الناس ليهدى اليهم مثل لباسهم لئلا ينظر اليهم بالعين التى ينظر بها الى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما
تعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وانهم على السنة وان الاشياء داخلة اليهم وهم خارجون منها وانما

والمعقول دون
الجامدين على مجرد
المعقول دون البصائر
وقد قال بعضهم ان
العقل عقلان عقل
للهداية مسكنه فى القلب
وذلك للمؤمنين الموقنين
ومتعمله فى الصدر
بين عينى الفؤاد والعقل
الآخر مسكنه فى
الدماغ ومتعمله فى
الصدر بين عينى
الفؤاد فالاول يدبر
أمر الآخرة والثانى
يدبر أمر الدنيا والذى
ذكرناه انه عقل واحد
اذا تأيد بالبصيرة دبر
الامرين واذا تفرد دبر
أمرا واحدا وهو أوضح
وأبين وقد ذكرنا فى
أول الباب من تدبيره
للنفس المطمئنة
والامارة مايتنبه الانسان
به على كونه عقلا
واحدا مؤيدا بالبصيرة
تارة ومنفردا بوصفه
تارة والله الملهم للصواب

* الباب السابع
والخمسون فى معرفة
الخواطر وتفصيلها
وتمييزها *

(أخبرنا) شيخنا أبو

يأخذون بصلة غيرهم هذا اذا طولبوا بالحقائق وألجؤا الى المضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون الى الدنيا متبعون للهوى فهذا كله كلام الخواص رحمه الله فاذا معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزاهد مشكل و ينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات ﴿العلامة الاولى﴾ أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال و يفرح بفقده ﴿العلامة الثانية﴾ أن يستوي عنده ذامه ومادحه فالاول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه ﴿العلامة الثالثة﴾ أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة اذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة اما محبة الدنيا واما محبة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء اذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان وكل من انس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ولذلك قيل لبعضهم الى ماذا أفضى بهم الزهد فقال الى الانس بالله فاما الانس بالدنيا و بالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة اذا تعلق الايمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما واذا بطن الايمان في سويداء القلب و باشره أبغض الدنيا فلم ينظر اليها ولم يعمل لها ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام اللهم اني أسألك ايمانا يباشر قلبي وقال أبو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين ومقامه الاول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم ولا يستدل بامساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا قال ابن أبي الحوارى قلت لابي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فانفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فان الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس ولا يتم الزهد الا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيأ مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وان قل فان أمثالنا لا يستجرئ على الطمع في غاياته وان كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه واذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال فاذا علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لغلبة الانس بالله و يتفرع عن هذه العلامات علامات أخر لا محالة مثل ان يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها وقيل علامته ان يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد السخاء بالموجود وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من الملك وقال أيضا الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف وقال أبو سليمان الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله علامة الزهد قصر الامل وقال سري لا يطيب عيش الزاهد اذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف اذا اشتغل بنفسه وقال النصراباذي الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة وقال أيضا الزاهد يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين فقال اذا صرت من رياضتك لنفسك في السر الى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك فاما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضا الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها و ينتف شعرها و يخرق ثوبها والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت اليها وقال السري مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد الا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطقه وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه واذا كان الزهد لا يتم الا بالتوكل فلنشرع في بيانه ان شاء الله تعالى

النجيب السهروردى قال أخبرنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال أنا هناد قال أنا أبو الاحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فاما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء وانما يتطلع الى معرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف الى ذلك تشوف العطشان الى

﴿كتاب التوحيد والتوكل وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب احياء علوم الدين﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله مدبر الملك والملكوت المنفرد بالعزة والجبروت الرافع للسماء بغير عماد المقدر فيها أرزاق العباد الذى صرف أعين ذوى القلوب والالباب عن ملاحظة الوسائط والاسباب الى مسبب الاسباب ورفع هممهم عن الالتفات الى ماعداه والاعتماد على مدبر سواه فلم يعبدوا الااياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الاله وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لايبتغى عندهم الرزق وأنه مامن ذرة الاالى الله خلقها ومامن دابة الاعلى الله رزقها فلما تحققوا أنه رزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قامع الاباطيل الهادى الى سواء السبيل وعلى آله وسلم تسليما كثيرا ﴿أما بعد﴾ فان التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الاسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع والاعتماد على الاسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ولايقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء الاسماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فابصروا وتحققوا ثم نطقوا بالاعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الاول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى

﴿بيان فضيلة التوكل﴾

﴿أما من الآيات﴾ فقد قال تعالى وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقال عز وجل وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال سبحانه وتعالى ان الله يحب المتوكلين وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فان المحبوب لايعذب ولايبعد ولايحجب وقال تعالى أليس الله بكاف عبده فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب لهذه الآية فانه سؤال فى معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا وقال عز وجل ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم أى عزيز لايذل من استجار به ولايضيع من لاذ بجنابه والتجأ الى ذمامه وحماه وحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وقال عز وجل ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لايفقهون وقال عز وجل يدبر الامر مامن شفيع الا من بعد اذنه وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الاغيار والتوكل على الواحد القهار ﴿وأما الاخبار﴾ فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود رأيت الامم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملؤا السهل والجبل فاعجبتنى كثرتهم وهيأتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يارسول الله قال الذين لايكتوون ولايتطيرون ولايسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وقال صلى الله عليه وسلم لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقال صلى الله عليه وسلم من انقطع الى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها وقال صلى الله عليه وسلم من سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول

الماء لمابه علم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه وفساده ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين وأكثر التشوف الى ذلك للقربين ومن أخذ به فى طريقهم ومن أخذ فى طريق الابرار قد يتشوف الى ذلك بعض التشوف لان التشوف اليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ من الله الكريم ومن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لايتطلع الى معرفة اللمتين ولايهتم بتمييز الخواطر (ومن الخواطر) ماهى رسل الله تعالى الى العبد كما قال بعضهم لى قلب ان عصيته عصيت الله وهذا حال عبد استقام قلبه واستقامة القلب اطمأنينة النفس وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان لان النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب واذا

بهذا أمرني ربي عزوجل قال عزوجل وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها الآية وقال صلى الله عليه وسلم لم يتوكل من استرقى واكتوى وروى انه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى الى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما اليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل اذقال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى وابراهيم الذى وفى وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود مامن عبد يعتصم بى دون خلقي فتكيده السموات والارض الاجعلت له مخرجا ﴿وأما الآثار﴾ فقد قال سعيد بن جبير لدغتني عقرب فأقسمت علي أمي لتسترقين فناولت الراقي يدى التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى وتوكل على الحي الذي لايموت الى آخرها فقال ماينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ الى أحد غير الله تعالى وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولاتنال من الدنيا الاماقد كتب الله لك وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد وقال ابراهيم بن أدهم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني وقال هرم بن حيان لاويس القرني أين تأمرني أن أكون فأومأ الى الشام قال هرم كيف المعيشة قال أويس أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت الى كل خير سبيلا نسأل الله تعالى حسن الادب

﴿ بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل ﴾

اعلم أن التوكل من أبواب الايمان وجميع أبواب الايمان لاتنتظم الابعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الاصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل * فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الاصل وهو المسمى ايمانا في أصل اللسان اذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم واذا قوى سمى يقينا ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن انما نحتاج منها الى ماننبي عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك لااله الاالله وحده لاشريك له والايمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك له الملك والايمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك وله الحمد فمن قال لااله الاالله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير تم له الايمان الذى هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فاما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولايتم علم المعاملة الابها فاذا لانتعرض الاللقدر الذى يتعلق بالمعاملة والافالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له فنقول للتوحيد أربع مراتب وهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الاولى من التوحيد هى أن يقول الانسان بلسانه لااله الا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لايرى في الوجود الاواحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لانه من حيث لايرى الاواحدا فلايرى نفسه أيضا واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان والثاني موحد بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة ان توفى عليه ولم تضعف بالمعاصي عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا احكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلما وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث انه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لاتنحل عقدته والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد الافاعلا واحدا اذا انكشف له

تكدر طمع الشيطان وقرب منه لان صفاء القلب محفوف بالتذكر والرعاية والتذكر نور يتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار (وقد ورد) في الخبران الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فاذاذكر الله تعالى تولى وخنس واذاغفل التقم قلبه فحدثه ومناه وقال الله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهوله قرين وقال الله تعالى ان الذين اتقوا اذامسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون فبالتقوى وجود خالص الذكر وبها ينفتح بابه ولا يزال العبد يتقي حتى يحمى الجوارح من المكاره ثم يحميها من الفضول ومالايعنيه فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ثم تنتقل تقواه الى باطنه ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول حتى يتقي حديث النفس (قال

الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد فالأول كالقشرة العليا من الجوز والثاني كالقشرة السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر المذاق وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر وإن اتخذ حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام وبقوله عز وجل أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه وكما أن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق فإن قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخر سواه كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثال الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال فيماذا أنت فقال أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال فإن قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه وليس التوكل أيضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الأول وهو النفاق فواضح وأما الثاني وهو

الاعتقاد

سهل بن عبد الله) أسوأ المعاصي حديث النفس ويرى الأصفياء إلى ما تحدث به النفس ذنبا فيتقيه وينقد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر انقداد الكواكب في كبد السماء ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر فإذا صار كذلك بعد الشيطان ومثل هذا العبد يندر في حقه الخواطر الشيطانية ولماته ويكون له خواطر النفس ويحتاج إلى أن يتقيها أو يميزها بالعلم لأن منها خواطر لا يضر امضاؤها كمطالبات النفس بحاجاتها وحاجاتها تنقسم إلى الحقوق والحظوظ ويتعين التمييز عند ذلك واتهام النفس بمطالبات الحظوظ قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أي فتثبتوا (وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة حيث بعثه رسول

الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه وأما الثالث فهو الذي ينبني عليه التوكل اذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل الا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر الى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه واذا انكشف لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض واذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر وانما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق الى قلبك شائبة الشرك بسببين أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات والثاني الالتفات الى الجمادات أما الالتفات الى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الغيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الامور ولذلك قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهي الى المحرك الاول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالتفات العبد في النجاة الى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وانما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت اليه ولم يشكر الا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والارض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو كاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والارض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات الى اختيار الحيوانات في الافعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وان شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك ان شاء حز رقبتك وان شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا نعم ان كنت لا ترى القلم لانه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له وعند هذا زل أقدام الاكثرين الا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها الى اليد والاصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والارض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والارض بقدرته التي بها نطق كل شئ حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الاصوات فان الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وانما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي فان قلت فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها

الله صلى الله عليه وسلم الى بني المصطلق فكذب عليهم ونسبهم الى الكفر والعصيان حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم ثم بعث خالدا اليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عقبة فأنزل الله تعالى الآية في ذلك فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التثبت في الامور (قال سهل) في هذه الآية الفاسق الكذاب والكذب صفة النفس لانها تملي أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها فتعين التثبت عند خاطرها أو القائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الادب أن تقف عند الجهل وآخر الادب أن تقف عند الشبهة ومن الادب عند الاشتباه أن تزال الخاطر بمحرك

وانها كيف نطقت و بماذا نطقت وكيف سبحت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والارض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر الآية ثم انها تتناجى بأسرار الملك والملكوت وافشاء السر لؤم بل صدور الاحرار قبور الاسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوجى بخفاياه فنادى بسره على ملا من الخلق ولو جاز افشاء كل سر لما قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون ولما نهى عن افشاء سر القدر ولما قال اذا ذكر النجوم فامسكوا واذا ذكر القدر فامسكوا واذا ذكر أصحابى فامسكوا ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الاسرار فاذا عن حكايات مناجات ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان أحدهما استحالة افشاء السر والثانى خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكنا فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها الى الحروف والاصوات وان لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتنى فى هذه المقالة فانى ما سودت وجهى بنفسى ولكن سل الحبر فانه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره و وطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الحبر عن ذلك فقال ما أنصفتنى فانى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى علىّ القلم بطمعه الفاسد واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى وفرق جمعى و بددنى كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا علىّ فقال صدقت ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه واخراج الحبر من أوطانه فقال سل اليد والاصابع فانى كنت قصبا نابتا على شط الانهار متنزها بين خضرة الاشجار فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ومزقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى وفصلت بين أنابيبى ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الحبر ومرارته وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك فتنح عنى وسل من قهرنى فقال صدقت ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا الا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه وانما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التى ترددنى وتجول بى فى نواحى الارض أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شئ منها مكانه ولا يتحرك بنفسه اذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر أما ترى أيدى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم فانا أيضا من حيث أنا لا معاملة بينى وبين القلم فسل القدرة عن شأنى فانى مركب أزعجنى من ركبنى فقال صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومى ومعاتبتى فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفى عليك أمرى وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدومة لانى ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءنى موكل أزعجنى وأرهقنى الى ما تراه منى فكانت لى قوة على مساعدته ولم تكن لى قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله اذا أزعجنى من غمرة النوم وأرهقنى الى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأيى فقال صدقت ثم سأل الارادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها الى التحريك وأرهقتها اليه ارهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الارادة لا تعجل علىّ فلعل لنا عذرا وأنت تلوم فانى ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انبعثت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد علىّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالاشخاص للقدرة فاشخصتها باضطرار فانى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكنى أدرى انى فى دعة وسكون ما لم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته الزاما بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى ما دام هو فى التردد مع نفسه

النفس وخالقها وباريها وفاطرها واظهار الفقر والفاقة اليه والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فانه اذا أتى بهذا الادب يعان ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان للحق أمضاه وان كان للحظ نفاه وهذا التوقف اذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار الى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسعه فى صحته الا الوقوف على الحق دون الحظ وان أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة عالم بالاذن فيمضى خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمر يحسن

والتحير

والتحير في حكمه فاناسا كنه لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك فاني كما قال القائل

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا اياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني فسل القلم عني لان الخط لا يكون الا بالقلم فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت به في معرفة هذا الامر منه على غيره ولكني كنت أطيب نفسا بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك اني خط ونقش وانما خطني قلم فلست أفهمه فاني لا أعلم قلما الا من القصب ولا لوحا الا من الحديد أو الخشب ولا خطا الا بالحبر ولا سراجا الا من النار واني لاسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيأ أسمع جعجعة ولا أرى طحنا فقال له القلم ان صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك في الطريق التي توجهت اليها كثيرة فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه فما هذا بعشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وان كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد فالق سمعك وأنت شهيد واعلم ان العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورائي فاذا جاوزتني انتهيت الى منازله وفيه المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا أدري كيف تسلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لان عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وانما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الارض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الارض وثباتها وكل من يمشي على الارض يمشي في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته الى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى الى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع فان كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك الا الماء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى على الهواء لما قيل له انه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي فان ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم اذ أنزل عليه اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلما الا كذلك فقال العلم لقد أبعدت النجعة أما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الايدي ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور الهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدي ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك الا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن

به ذلك ويليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بحاله محكم لعلم الحال وعلم القياس لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لانه أمر خاص لعبد خاص واذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الاربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان الا نادرا لضيق مكانه من النفس لان الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والاخلاد الى الارض ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان الا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من اذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر بصير قلبه سماويا يترقى

الاجسام وصفاتها وتزهت كلامه عن معاني الحروف والاصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه
فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته الصورة الظاهرة المدركة بالبصر
فكن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة وان فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك
بالبصائر لا بالابصار فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق فانك بالوادي المقدس طوى واستمع بسر قلبك
لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى اني أنا ربك فلما
سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وانه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه
على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم
بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على
النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الالهي فاذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ما هو من خشب ولا قصب ولا له
رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولا رأس له
فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عني خيرا اذ الآن ظهر لي صدق انبائه عن أوصاف القلم
فاني أراه قلما لا كالاقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامي عندك ومرادتي لك وأنا عازم على أن
أسافر الى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر اليه وقال له ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم
ما تنبعث به الارادات الى أشخاص القدر وصرفها الى المقدورات فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة
وسمعت من جواب القلم اذ سألته فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابي مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه
قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته
وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهي وقلم الآدمي في معنى التسخير وانما الفرق في
ظاهر الصورة فقال فمن يمين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى والسموات مطويات بيمينه قال نعم قال
والاقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذي يرددها فسافر السالك من عنده الى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه
ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه
والجملة فيه أنه يمين لا كالايمان ويد لا كالايدي وأصبع لا كالاصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر
القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي
الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها في نفسها وانما محركها القدرة لا محالة فسافر السالك الى عالم القدرة ورأى فيه من
العجائب ما استحقر عندها ما قبلها وسألها عن تحريك اليمين فقالت انما أنا صفة فاسأل القادر اذ العمدة على
الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي
من وراء حجاب سرادقات الحضرة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب في
غشيته فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت اليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار فلا
أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالي الا أن أسألك وأتضرع
اليك وأبتهل بين يديك فأقول اشرح لي صدري لاعرفك واحلل عقدة من لساني لاثني عليك فنودي من وراء
الحجاب اياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الانبياء بل ارجع اليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه وما
قاله لك فقله فانه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فقال
الهي ان لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودي اياك أن تتخطى رقاب
الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان أصحاب سيد الانبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما
سمعته يقول العجز عن درك الادراك ادراك فيكفيك نصيبا من حضرتنا ان تعرف انك محروم عن حضرتنا
عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم
والارادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذري فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل
دهشة فما كان انكاري عليكم الا عن قصور وجهل والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المنفرد
بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما أنتم الا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون

ويعرج بباطنه ومعناه
وحقيقته في طبقات
السموات وكلما ترقى
تضاءل النفس
المطمئنة وتبعد عنه
خواطرها حتى يجاوز
السموات بعروج
باطنه كما كان ذلك
لرسول الله صلى الله
عليه وسلم بظاهره
وقالبه فاذا استكمل
العروج تنقطع عنه
خواطر النفس لتستره
بأنوار القرب وبعد
النفس عنه وعند ذلك
تنقطع عنه خواطر
الحق أيضا لان الخاطر
رسول والرسالة الى
من بعد وهذا قريب
وهذا الذي وصفناه
نازل ينزل به ولا يدوم
بل يعود في هبوطه الى
منازل مطالبات
النفس وخواطره
فتعود اليه خواطر
الحق وخواطر الملك
وذلك أن الخواطر
تستدعي وجودا وما
أشرنا اليه حال
الفناء ولا خاطر فيه
وخاطر الحق أنسب
لمكان القرب وخاطر

في قبضته وهو الاول والآخر والظاهر والباطن فاذا ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف
يكون هو الاول والآخر وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالاول ليس بآخر والظاهر
ليس بباطن فقال هو الاول بالاضافة الى الموجودات اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر
بالاضافة الى سير السائرين اليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون
ذلك آخر السفر فهو آخر في المشاهدة أول في الوجود وهو باطن بالاضافة الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين
لادراكه بالحواس الخمس ظاهر بالاضافة الى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في
عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل أعني من انكشف له أن الفاعل واحد فان
قلت فقد انتهى هذا التوحيد الى أنه يبتني على الايمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه فأقول
أما الجاحد فلا علاج له الا أن يقال له انكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا
العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والارادة والعلم لانها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم
الشهادة بالحواس الخمس فان قال وأنا منهم فاني لا أهتدي الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيأ سواه
فيقال انكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق
به فلعلنا نراه في المنام فان قال وأنا من جملتهم فاني شاك أيضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع
علاجه فيترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الاطباء هذا حكم الجاحد وأما الذي لا يجحد ولكن
لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا الى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في الاصل
وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الازالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة فاذا استوى بصره
أرشد الى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه
أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد
كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد الى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضا توحيدا اذ يعلم كل أحد
أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حد عقله اله العالم واحد والمدبر واحد اذ لو كان
فيهما آلهة الا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا
الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الانبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ولذلك نزل القرآن بلسان
العرب على حد عادتهم في المحاورة فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل
وأصلا فيه فأقول نعم فان الاعتقاد اذا قوي عمل عمل الكشف في اثارة الاحوال الا أنه في الغالب يضعف ويتسارع
اليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه الى متكلم يحرسه بكلامه أو الى ان يتعلم هو الكلام ليحرس
به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف
عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وان كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى انسانا في وقت
الاسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه انسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين
والمعتقدين الا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير
السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الامر
فلم يكترثوا بقول فرعون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف بل قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي
فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا فان البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامري
لما كان ايمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان فلما نظروا الى عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا
قوله هذا الهكم واله موسى ونسوا انه لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر الى
ثعبان يكفر لا محالة اذا نظر الى عجل لان كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير وأما
عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا فان قلت ماذكرته من التوحيد ظاهر
مهما ثبت أن الوسائط والاسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر الا في حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء ويسكن

النفس بعد عنه لبعد
النفس وخاطر الملك
تخلف عنه كتخلف
جبريل في ليلة المعراج
عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم حيث قال
لو دنوت أنملة لاحترقت
* قال محمد بن علي
الترمذي المحدث
والمكلم اذا تحققا في
درجتهما لم يخافا من
حديث النفس (فكما)
ان النبوة محفوظة من
القاء الشيطان كذلك
محل المكالمة والمحادثة
محفوظ من القاء النفس
وفتنتها ومحروس
بالحق والسكينة لان
السكينة حجاب المكلم
والمحدث مع نفسه
(وسمعت) الشيخ أبا
محمد بن عبد الله البصري
بالبصرة يقول الخواطر
أربعة خاطر من
النفس وخاطر من
الحق وخاطر من
الشيطان وخاطر من
الملك فاما الذي من
النفس فيحس به من
أرض القلب والذي

ان شاء فكيف يكون مسخرا فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء ان أراد أن يشاء ولا يشاء ان لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة
القدم وموقع الغلط ولكن علم أنه يفعل ما يشاء اذا شاء ان يشاء أم لم يشأ فليست المشيئة اليه اذ لو كانت اليه لافتقرت
الى مشيئة أخرى وتسلسل الى غير نهاية واذا لم تكن اليه المشيئة فهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة الى
مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة
ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس
للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة
فهو مضطر فى الجميع فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون
مجبورا مختارا فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه فى عين الاختيار مجبور فهو اذا مجبور على الاختيار فكيف
يفهم هذا من لا يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا فان هذا
الكتاب لم نقصد به الا علم المعاملة ولكنى أقول لفظ الفعل فى الانسان يطلق على ثلاثة أوجه اذ يقال الانسان
يكتب بالاصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء اذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق فى الماء
والتنفس والكتابة وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك فى أمور فاعرب
لك عنها بثلاث عبارات فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمى تنفسه فعلا اراديا ونسمى
كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى لانه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء
انخرق الهواء لا محالة فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا والتنفس فى معناه فان نسبة حركة الحنجرة الى ارادة
التنفس كنسبة انخراق الماء الى ثقل البدن فهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه وكذلك
الارادة ليست اليه ولذلك لو قصد عين الانسان بابرة طبق الاجفان اضطرارا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر
مع أن تغميض الاجفان اضطرارا فعل ارادى ولكنه اذا تمثل صورة الابرة فى مشاهدته بالادراك حدثت
الارادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والارادة
فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة
والنطق وهو الذى يقال فيه ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا ان الامر اليه وهذا
للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه أن الارادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشئ موافق لك والاشياء تنقسم
الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل فيه فالذى
تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بابرة أو بدنك بسيف فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك
وموافق فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الاجفان بالدفع وحركة اليد بدفع
السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الاشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرى
انه موافق أم لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك فاذا حصل بالفكر والروية العلم
بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف
والسنان فاذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير أى هو انبعاث
الى ما ظهر للعقل انه خير وهو عين تلك الارادة ولم ينتظر فى انبعاثها الى ما انتظرت تلك الارادة وهو ظهور
خيرية الفعل فى حقه الا أن الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر الى
الروية فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهى التى انبعثت باشارة العقل فيما له فى ادراكه توقف وعن هذا
قيل ان العقل يحتاج اليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبعث الارادة الا بحكم الحس
والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الانسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لا لعدم القدرة فى اليد
ولا لعدم السكين ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الارادة لانها تنبعث بحكم العقل أو الحس
بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الاعضاء أن يقتل نفسه الا اذا كان فى عقوبة
مؤلمة لا تطاق فان العقل هنا يتوقف فى الحكم ويتردد لانه تردد بين شر الشرين فان ترجح له بعد الروية

من الحق من فوق القلب
والذى من الملك عن
يمين القلب والذى من
الشيطان عن يسار
القلب والذى ذكره
انما يصح لعبد أذاب
نفسه بالتقوى والزهد
وتصفى وجوده واستقام
ظاهره وباطنه فيكون
قلبه كالمرآة المجلوة
لا يأنس الشيطان من
ناحية الا ويبصره فاذا
اسود القلب وعلاه
الرين لا يبصر الشيطان
(روى) عن أبى هريرة
رضى الله عنه عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
ان العبد اذا أذنب
نكت فى قلبه نكتة
سوداء فان هو نزع
واستغفر وتاب صقل
وان عاد زيد فيه حتى
تعلو قلبه قال الله تعالى
كلا بل ران على قلوبهم
ما كانوا يكسبون سمعت
بعض العارفين يقول
كلاما دقيقا كوشف به
فقال الحديث فى باطن
الانسان والخيال الذى
تراءى لباطنه وتخيل بين
القلب وصفاء الذكر هو

أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وان حكم بأن القتل أقل شرا وكان حكمه جزما لاميل فيه ولا صارف منه انبعثت الارادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فانه يرمي بنفسه من السطح مثلا وان كان مهلكا ولا يبالي ولا يمكنه ان لا يرمي نفسه فان كان يتبع بضرب خفيف فان انتهى الى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث له داعية ألبتة لان داعية الارادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فانما هو محل ومجرى لهذه الامور فاما أن يكون منه فكلا ولا فاذا معنى كونه مجبورا ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فاذا هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لانه لما كان فنا ثالثا وائتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لا يفهم من الاختيار ارادة بعد تحير وتردد فان ذلك في حقه محال وجميع الالفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى الا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه فان قلت فهل تقول ان العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وان كل متأخر حدث من المتقدم فان قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وان أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بان بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الازلية وهو الاصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه الا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم الا بعد حياة ولا حياة الا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر الا بالحق واللزوم وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا والى هذا أشار قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق فكل ما بين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون الا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخر الا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة الا لفقد شرط الحياة ولا تتأخر عنها الارادة بعد العلم الا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدبير وتفهيم ذلك عسير ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادي الحق من الافهام الضعيفة وذلك بأن تقدر انسانا محدثا قد انغمس في الماء الى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وان كان الماء هو الرافع وهو ملاق له فقدر القدرة الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل ان الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لانه حدث عقيبه اذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه فاذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء

من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسألته عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس منازعات ومحادثات تألفا وتوددا وكلما انطلقت النفس في شيء بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر فاذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاتبة للنفس وذكر النفس شيأ شيأ من فعلها وقولها كالائم للنفس والمعاتب لها على ذلك فاذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحه فمعرفته من أهم شأن العبد لان الافعال من الخواطر تنشأ حتى ذهب بعض العلماء الى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم هو علم الخواطر قال لانها أول الفعل

ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فكذلك ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الازلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد الا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا اله الا الله وما أخف مؤنته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل الا الله تعالى ومعنى الشرع اثبات الافعال للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وان كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم فأقول نعم ذلك غير مفهوم اذا كان للفاعل معنى واحد وان كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الامير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الامير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الارادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والامير قاتلا لان القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمى فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولاجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الافعال في القرآن مرة الى الملائكة ومرة الى العباد ونسبها بعينها مرة أخرى الى نفسه فقال تعالى في الموت قل يتوفاكم ملك الموت ثم قال عز وجل الله يتوفى الانفس حين موتها وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أضاف الينا ثم قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقال عز وجل فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ثم قال تعالى فنفخنا فيها من روحنا وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى فاذا قرأناه فاتبع قرآنه قيل في التفسير معناه اذا قرأه عليك جبريل وقال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فأضاف القتل اليهم والتعذيب الى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وقال تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وهو جمع بين النفي والاثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا اذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا اذ هما معنيان مختلفان وقال الله تعالى الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ثم قال الرحمن علم القرآن وقال علمه البيان وقال ان علينا بيانه وقال أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الارحام انه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوي أم معوج فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك وفي لفظ آخر ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة وقد قال بعض السلف ان الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الارواح في الاجساد وانه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم أما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم الا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الادلة والآيات في الارض والسموات ثم قال أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد وقال شهد الله أنه لا اله الا هو فبين انه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر الى الموجودات وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد وقد وصف الله تعالى نفسه بانه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة الى ملكين ففي الخبر أن ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى اليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي فاذا الفعل يستعمل

و بفسادها فساد الفعل وهذا العمري لا يتوجه لان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة مايعرفون به ذلك ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر فمنها ماهو بذر السعادة ومنها ماهو بذر الشقاوة (وسبب) اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لاخامس لها اما ضعف اليقين أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس فمن عصم عن هذه الاربعة يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ومن ابتلى بها لا يعلمها ولا يطلبها وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الاربعة دون البعض

على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعانى اذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذى ناوله التمرة خذها لو لم تأتها لاتتك أضاف الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لا تأتى على الوجه الذى يأتى الانسان اليها وكذلك لما قال التائب أتوب الى الله تعالى ولا أتوب الى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لاهله فكل من أضاف الكل الى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة ومن أضافه الى غيره فهو المتجوز والمستعير فى كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن انه تحقيق وتوهم أن نسبته الى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل الى الامير فانه مجاز بالاضافة الى نسبته الى الجلاد فلما انكشف الحق لاهله عرفوا أن الامر بالعكس وقالوا ان الفاعل قد وضعته أيها اللغوى للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أى تجوز به عما وضعه اللغوى له ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد * ألا كل شئ ما خلا الله باطل * أى كل ما لا قوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذا لا حق بالحقيقة الا الحى القيوم الذى ليس كمثله شئ فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان فان قلت فقد ظهر الآن أن الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا اليه فى كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز اليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا الا بالايمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الاسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتى الا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب الى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان أيضا باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يسترىب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الامور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا ان ينقص منها جناح بعوضة ولا ان يرفع منها ذرة ولا ان يخفض منها ذرة ولا ان يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وكما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى وليس فى الامكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الالهية بل كل فقر وضر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالاضافة الى شخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تنعم الاصحاء بالصحة ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكما أن فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الانس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد اذا تأكلت ابقاء على الروح عدل لانه

وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس ومعرفتها صعبة المنال لا تكاد تتيسر الا بعد الاستقصاء فى الزهد والتقوى (واتفق) المشايخ على ان من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الالهام والوسوسة * وقال أبو على الدقاق من كان قوته معلوما لا يفرق بين الالهام والوسوسة وهذا لا يصح على الاطلاق الا بتقييد وذلك ان من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد باذن يسبق اليه فى الاخذ منه والتقوت به ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر انما ذلك يقال فى حق من دخل فى معلوم باختياره منه وايثار لانه ينحجب لموضع اختياره والذى أشرنا اليه منسلخ من ارادته فلا يحجبه المعلوم وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان

فداء كامل بناقص فكذلك الامر فى التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لاجور فيه وحق لالعب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب فى السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا ان ذلك غامض لا يعقله الا العالمون و وراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الا كثرون ومنع من افشاء سره المكاشفون والحاصل ان الخير والشر مقضى به وقد كان ماقضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل ولنرجع الى علم المعاملة ان شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل (الشطر الثانى من الكتاب) فى أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ماقاله الشيوخ فى حد التوكل وبيان التوكل فى الكسب للمنفرد والمعيل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل فى دفع المضار وبيان التوكل فى ازالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته

﴿ بيان حال التوكل ﴾

قد ذكرنا ان مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم * فاما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وانما العلم أصله والعمل ثمرته وقد أكثر الخائضون فى بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة فى النقل والاكثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره الى فلان أى فوضه اليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكول اليه وكيلا ويسمى المفوض اليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت اليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثلا فنقول من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله الا اذا اعتقد فيه أربعة أمور منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شئ أصلا وأما القدرة والقوة فليستجرئ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحى ولا يجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهى أيضا من القدرة الا انها قدرة فى اللسان على الافصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار اليه فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل مايقدر عليه فى حقه من المجهود فان قدرته لا تغنى دون العناية به اذا كان لا يهمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا فى هذه الاربعة أو فى واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه فى هذه الاربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه الى وكيله بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع مايحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر الى أن ينتهى الى اليقين الذى لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لاجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الاربعة قطعية وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الاخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقواهم بيانا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل فى هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فان ثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه

وقالوا ان النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل الى مرادها والشيطان اذا دعا الى زلة ولم يجب يوسوس باخرى اذ لا غرض له فى تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ فى الخاطرين اذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيد الخاطر الاول لانه اذا بقى رجع صاحبه الى التأمل وهذا شرط العلم وقال ابن عطاء الثانى أقوى لانه ازداد قوة بالاول (وقال) أبو عبد الله بن خفيف هما سواء لانهما من الحق فلا مزية لاحدهما على الآخر قالوا الواردات أعم من الخواطر لان الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط (وقيل) بنور التوحيد يقبل

وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسه وحوله وقوته فانه لاحول ولا قوة الا بالله كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فان الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فان كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين اما ضعف اليقين باحدى هذه الخصال الاربعة واما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له عن غير نقصان فى اليقين فان من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وان كان متيقنا بكونه ميتا وانه جماد فى الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بانه لا يحشره الآن ولا يحييه وان كان قادرا عليه كما انها مطردة بان لا يقلب القلم الذى فى يده حية ولا يقلب السنور أسدا وان كان قادرا عليه ومع انه لا يشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش أو الميت معه فى البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الانسان عن شئ منه وان قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع اغلاق الباب واحكامه فاذا لا يتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون فى القلب شئ واليقين شئ آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لابراهيم عليه السلام أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى فالتمس أن يكون مشاهدا احياء الميت بعينه ليثبت فى خياله فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمرها الى أن تبلغ فى الآخرة الى درجة النفس المطمئنة وذلك لا يكون فى البداية أصلا وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب فان اليهودى مطمئن القلب الى تهوده وكذا النصرانى ولا يقين لهم أصلا وانما يتبعون الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين الا أنهم معرضون عنه فاذا الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معهما فهى أحد الاسباب التى تضاد حال التوكل كما أن ضعف اليقين بالخصال الاربعة أحد الاسباب واذا اجتمعت هذه الاسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب فى التوراة ملعون من ثقته انسان مثله وقد قال صلى الله عليه وسلم من استعز بالعبيد أذله الله تعالى واذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التى سميت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات ﴿ الدرجة الاولى ﴾ ما ذكرناه وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل ﴿ الثانية ﴾ وهى أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى أحد سواها ولا يعتمد الا اياها فاذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها وان نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق الى لسانه يا أماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فانها مفزعه فانه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع ادراك بالتمييز الذى له ويظن انه طبع من حيث ان الصبى لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على احضاره مفصلا فى ذهنه ولكن كل ذلك وراء الادراك فمن كان باله الى الله عز وجل ونظره اليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبى بأمه فيكون متوكلا حقا فان الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل وقد فنى فى توكله عن توكله اذ ليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل الى المتوكل عليه فقط فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه وأما الاول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لان له التفاتا الى توكله وشعورا به وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده والى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الامانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو اشارة الى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه الا من بلغ أوسطه ﴿ الثالثة ﴾ وهى أعلاها أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لا يفارقه الا فى انه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذى قوى يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وان كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ويفارق الصبى فان الصبى يفزع الى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل هو مثل صبى علم أنه وان لم يزعق بأمه فالام تطلبه وأنه وان لم يتعلق بذيل أمه فالام تحمله وان لم يسأل اللبن فالام تفاتحه وتسقيه وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته

الخاطر من الله تعالى وبنور المعرفة يقبل من الملك وبنور الايمان ينهى النفس وبنور الاسلام يرد على العدو *ومن قصر عن درك حقائق الزهد وتطلع الى تمييز الخواطر يزن الخاطر أولا بميزان الشرع فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يمضيه وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه فان استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذ أقربهما الى مخالفة هوى النفس فان النفس قد يكون لها هوى كامن فى أحدهما والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون الى الدون وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن انه بنهوض القلب وقد يكون من القلب نفاق بسكونه الى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ما سكن قلبى الى نفسى ساعة فيظهر من سكون

وانه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل فكم من نعمة ابتدأ هاقبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والمقام الثانى لايقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وانما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط فان قلت فهذه الاحوال هل يتصور وجودها فاعلم ان ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثانى والثالث أعزها والاول أقرب الى الامكان ثم اذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه بل يكاد لايكون المقام الثالث فى دوامه الا كصفرة الوجل فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم الى جميع الاطراف طبع وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة الى الباطن حتى تنمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لايدوم وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الاسباب الظاهرة لايدوم وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والاول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلايبعد أن يدوم ولايبعد أن يزول فان قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالاسباب فى هذه الاحوال فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأسامادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثانى ينفى كل تدبير الا من حيث الفزع الى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل فى التعلق بأمه فقط والمقام الاول لاينفى أصل التدبير والاختيار ولكن ينفى بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لايترك التدبير الذى أشار اليه وكيله به أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح اشارته فاما الذى يعرفه باشارته بأن يقول لست أتكلم الا فى حضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ولايكون هذا مناقضا لتوكله عليه اذ ليس هو فزعا منه الى حول نفسه وقوته فى اظهار الحجة ولا الى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له اذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له فى قوله لما حضر بقوله وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو ان يعلم من عادته أنه لايحاج الخصم الا من السجل فتمام توكله ان كان متوكلا عليه أن يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه اليه عند مخاصمته فاذا لايستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى احضار السجل ولو ترك شيأ من ذلك كان نقصا فى توكله فكيف يكون فعله نقصا فيه نعم بعد أن حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظرا الى محاجته فقد ينتهى الى المقام الثانى والثالث فى حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لايفزع الى حوله وقوته اذلم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه الى حوله وقوته فى الحضور واحضار السجل باشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق الا الطمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجرى واذا تأملت هذا اندفع عنك كل اشكال فى التوكل وفهمت انه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لايجوز أيضا مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتى تفصيله فى الاعمال فاذا فزع المتوكل الى حوله وقوته فى الحضور والاحضار لايناقض التوكل لانه يعلم انه لولا الوكيل لكان حضوره واحضاره باطلا وتعبا محضا بلاجدوى فاذا لايصير مفيدا من حيث انه حوله وقوته بل من حيث أن الوكيل جعله معتمدا لمحاجته وعرفه ذلك باشارته وسنته فاذا لاحول ولاقوة الا بالوكيل الا أن هذه الكلمة لايكمل معناها فى حق الوكيل لانه ليس خالقا حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيدين فى أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وانما يصدق ذلك فى حق الوكيل الحق وهو الله تعالى اذ هو خالق الحول والقوة كما سبق فى التوحيد وهو الذى جعلهما مفيدين اذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذا لاحول ولاقوة الا بالله حقا وصدقا فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذى وردت به الاخبار فيمن يقول لاحول ولاقوة الا بالله وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها وهيهات فانما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التى ذكرناها فى التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها الى كلمة لااله الا الله وثوابها كنسبة معنى احداهما الى الاخرى اذ فى هذه الكلمة اضافة شيئين الى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة وأما كلمة لااله الا الله فهو نسبة الكل اليه فانظر الى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لااله الا الله بالاضافة الى

القلب الى النفس خواطر تشتبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلايدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه الا العلماء الراسخون وأكثر ماتدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم وينبغى أن يعلم العبد قطعا انه مهما بقى عليه أثر من الهوى وان دق وقل يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر ثم قد يغلط فى تمييز الخواطر من هو قليل العلم ولا يؤاخذ بذلك مالم يكن عليه من الشرع مطالبة وقد لايسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء فى التمييز ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت (وذكر) بعض العلماء

هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشر بن ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قيدوا بالقشر بن وما طرقوا الى اللبين والى اللبين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قال لا اله الا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والاخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة الى الايمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها الى مجرد الايمان في بعض المواضع والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا يقال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس وانما الصدق والاخلاص وراءهما ولا ينصب سر برالملك الا لغر بين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وان كانت لا تنتهي الى الملك أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسر برالملك فقال على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ولما انتهى الى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل والفواكه والاشجار والحور العين وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالماء والاشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالزوان والسفاد أعلى وألذ وأشرف وأجدر بان تكون عند ذوي الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من اذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى أن شبه كل شئ منجذب اليه وان النفس التي نزوعها الى صنعة الاساكفة أكثر من نزوعها الى صنعة الكتابة فهو بالاساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه الى نيل اللذات البهائم أكثر من نزوعها الى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم أولئك كالانعام بل هم أضل وانما كانوا أضل لان الانعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة فتركها الطلب للعجز وأما الانسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة الى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال واذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع الى المقصود فقد بينا معنى قول لا اله الا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة الا بالله وأن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل فان قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة الا بالله الا نسبة شيئين الى الله فلو قال قائل السماء والارض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه فأقول لا لان الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر الى عظم السماء والارض وصغر الحول والقوة ان جاز وصفهما بالصغر تجوزا فليست الامور بعظم الاشخاص بل كل عامي يفهم أن الارض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعي أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهي مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون اذ أثبتوا الانفسهم أمرا وهو شرك في التوحيد واثبات خالق سوى الله تعالى فمن حاوز هذه العقبة بتوفيق الله اياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قوله لا حول ولا قوة الا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد الا عقبتان احداهما النظر الى السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات والثانية النظر الى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فاذا رجع حال التوكل الى التبري من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل ان شاء الله تعالى

أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح وان النفس اذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تنكث في القلب همة سوء فينظر الشيطان الى القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة (وذكر) أن حركة النفس تكون اماهوى وهو عاجل حظ النفس أوأمنية وهي عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أوسكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة الا باحد ثلاثة بجهل أوغفلة أوطلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه فانها ترد بخلاف مأمور أوعلى وفق منهي ومنها ما يكون نفيها فضيلة اذ وردت بمباحات (وذكر) أن الروح اذا تحركت انقدح من جوهرها نور رساطع يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية باحد معان ثلاثة اما بفرض أمر به

﴿ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل ﴾

ليتبين أن شيأ منها لا يخرج عما ذكرناه ولكن كل واحد يشير الى بعض الاحوال فقد قال أبو موسى الديلي قلت لابي يزيد ما التوكل فقال ما تقول أنت قلت ان أصحابنا يقولون لو أن السباع والافاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهم ما خرجت من جملة التوكل فاذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام

الثالث وماذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان مافعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالاضافة الى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم وراءه سر القدر وأبو يزيد قلما يتكلم الا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطا فى المقام الاول من التوكل فقد احترز أبو بكر رضى الله عنه فى الغار اذ سد منافذ الحيات الا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال انما فعل ذلك شفقة فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا فى حق نفسه وانما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لامر يرجع الى نفسه والنظر فى هذا مجال ولكن سيأتى بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فان حركة السر من الحيات هو الخوف وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات اذ لا حول للحيات ولا قوة لها الا بالله فان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير وسئل ذو النون المصرى عن التوكل فقال خلع الارباب وقطع الاسباب فخلع الارباب اشارة الى علم التوحيد وقطع الاسباب اشارة الى الاعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وان كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال القاء النفس فى العبودية واخراجها من الربوبية وهذا اشارة الى التبرى من الحول والقوة فقط وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال ان كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك فى عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا اشارة الى مجرد الايمان بسعة القدرة وان فى المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الاسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى فى كل حال فقال السائل زدنى فقال ترك كل سبب يوصل الى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالاول عام للمقامات الثلاث والثانى اشارة الى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل ابراهيم صلى الله عليه وسلم اذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما اليك فلا اذ كان سؤاله سببا يفضى الى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى ان أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتولى لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره وهو حال عزيز فى نفسه ودوامه ان وجد أبعد منه وأعز وقال أبو سعيد الخراز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير الى المقام الثانى فسكونه بلا اضطراب اشارة الى سكون القلب الى الوكيل وثقته به واضطراب بلا سكون اشارة الى فزعه اليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه الى أمه وسكون قلبه الى تمام شفقتها وقال أبو على الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن الى وعده والمسلم يكتفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا اشارة الى تفاوت درجات نظره بالاضافة الى المنظور اليه فان العلم هو الاصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شئ من ذلك وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكرناه فلا نطول بها فان الكشف أنفع من الرواية والنقل فهذا ما يتعلق بحال التوكل والله الموفق برحمته ولطفه

﴿ بيان أعمال المتوكلين ﴾

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الاعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام فى الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف الغطاء عنه ونقول انما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه الى مقاصده وسعى العبد باختياره اما أن يكون لاجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لازالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الاربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع ﴿الفن الاول﴾ فى جلب النافع فنقول فيه الاسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن اليه ﴿الدرجة الاولى﴾ المقطوع به وذلك مثل الاسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن

أو بفضل ندب اليه واما بمباح يعود صلاحه اليه (وهذا) الكلام يدل على أن حركتى الروح والنفس هما الموجبتان للمتين (وعندى والله أعلم) أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس فحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهى من شؤم لمة الشيطان فاذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبتل حكيم وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين ويمحى أثر احداهما بالاخرى والمتفطن المتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته باب أنس ويبقى أبدا متفقدا حاله مطالعا آثار اللمتين (وذكر) خاطر خامس

الطعام

الطعام اذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول أنا متوكل وشرط
التوكل ترك السعي ومد اليد اليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه باطباق أعالي الحنك على أسافله
فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك ان انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز أو يخلق
في الخبز حركة اليك أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع
الارض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام
فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن احصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم أما
العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والاسنان وقوة الحركة وانه الذي يطعمك ويسقيك وأما الحال
فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما
تجف في الحال وتفلج وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك
وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق
بينك وبين طعامك واذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج الا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول
فاذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فانه متوكل * الدرجة الثانية الاسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن
المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الامصار والقوافل ويسافر في
البوادي التي لا يطرقها الناس الا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل
استصحاب الزاد في البوادي سنة الاولين ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى
لا على الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان
قلت فهذا سعي في الهلاك والقاء النفس في التهلكة فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين أحدهما
أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر
عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوت
بالحشيش وما يتفق من الاشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الامر في البوادي في كل
أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي الى محلة أو قرية أو الى حشيش يجتزي به فيحيا به مجاهدا نفسه
والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين والدليل عليه أن الخواص
كان لا تفارقه الابرة والمقراض والحبل والركوة ويقول هذا لا يقدح في التوكل وسببه انه علم أن البوادي
لا يكون الماء فيها على وجه الارض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا
يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش والماء يحتاج اليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه
في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وان صبر عن الطعام وكذلك يكون له
ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا
يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الاربعة أيضا يلتحق بالدرجة
الثانية لانه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لانه يحتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه انسان ثوبا أو يجد على رأس
البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا الى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الاول
ولهذا نقول لو انحاز الى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو
آثم به ساع في هلاك نفسه كما روي أن زاهدا من الزهاد فارق الامصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لا اسأل
أحدا شيأ حتى يأتيني ربي برزقي فقعد سبعا فكاد يموت ولم يأته رزق فقال يا رب ان أحييتني فأتني برزقي الذي
قسمت لي والا فاقبضني اليك فأوحى الله جل ذكره اليه وعزتي لا رزقتك حتى تدخل الامصار وتقعد بين الناس
فدخل المصر وقعد فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله
تعالى اليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب الي من أن
ارزقه بيد قدرتي فاذا التباعد عن الاسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله
تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الاسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من

وهو خاطر العقل متوسط
بين الخواطر الاربعة
يكون مع النفس والعدو
لوجود التمييز واثبات
الحجة على العبد ليدخل
العبد في الشيء بوجود
عقل اذ لو فقد العقل
سقط العقاب والعتاب
وقد يكون مع الملك
والروح ليوقع الفعل
مختارا ويستوجب به
الثواب (وذكر)
خاطر سادس وهو خاطر
اليقين وهو روح
الايمان ومزيد العلم
ولا يبعد أن يقال
الخاطر السادس وهو
خاطر اليقين حاصله
راجع الى ما يرد من خاطر
الحق وخاطر العقل
أصله تارة من خاطر
الملك وتارة من خاطر
النفس وليس من العقل
خاطر على الاستقلال لان
العقل كالذكر الغريزة
يتهيأ بها ادراك العلوم
ويتهيأ بها الانجذاب
الى دواعي النفس تارة
والى دواعي الملك تارة
والى دواعي الروح تارة

قيل ولكن الاسباب تنقسم الى ظاهرة والى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالاسباب الخفية عن الاسباب الظاهرة مع سكون النفس الى مسبب السبب لا الى السبب فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب فاعلم أن ذلك ليس بحرام لان صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن الى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لاحد اليه ففعله ذلك حرام وان فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما الا أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وان كان مشغول القلب بالله غير مستشرف الى الناس ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لادركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ولقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما اختلف الناس فى كل شئ الا فى الرزق والاجل فانهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت الا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال وقال عيسى عليه السلام أنظر والى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق وقال أبو يعقوب السوسى المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون وقال بعضهم العبيد كلهم فى رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال و بعضهم بتعب وانتظار كالتجار و بعضهم بامتهان كالصناع و بعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة * الدرجة الثالثة ملابسة الاسباب التى يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب و وجوهه وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذى فيه الناس كلهم أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فاما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الاسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الاسباب التى نسبتها الى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكى بالاضافة الى ازالة الضار فان النبى صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الامصار ولا يأخذون من أحد شيأ بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الاسباب وامثال هذه الاسباب التى يوثق بها فى المسببات مما يكثر فلا يمكن احصاؤها وقال سهل فى التوكل انه ترك التدبير وقال ان الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وانما حجابهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الاسباب البعيدة بالفكر فهى التى تحتاج الى التدبير دون الاسباب الجلية فاذا قد ظهر أن الاسباب منقسمة الى ما يخرج التعلق بها عن التوكل والى ما لا يخرج وأن الذى يخرج ينقسم الى مقطوع به والى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الاسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون فى ملابسة هذه الاسباب على ثلاثة مقامات (الاول) مقام الخواص ونظرائه وهو الذى يدور فى البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شئ من ذلك فان الذى يحمل الزاد قد يفقد زاده أو يضل بعيره و يموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده (المقام الثانى) أن يقعد فى بيته أو فى مسجد ولكنه فى القرى والامصار وهذا أضعف من الاول ولكنه أيضا متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الاسباب الخفية ولكنه بالقعود فى الامصار متعرض لاسباب الرزق فان ذلك من الاسباب الجالبة الا أن ذلك لا يبطل توكله اذا كان نظره الى الذى يسخر له سكان البلد لايصال رزقه اليه لا الى سكان البلد اذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه و يضيعوه لولا فضل

والى دواعى الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة و رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللتين وهاتان الاثنتان هما الاصل والخاطران الآخران فرع عليهما لان لمة الملك اذا حركت الروح واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة الى حظائر القرب فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق واذا تحقق بالقرب يتحقق بالغناء تثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما ذكرناه قبل لموضع قربه فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ولمة الشيطان اذا حركت النفس هوت بجبلتها الى مركزها من الغريزة والطبع فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان فأصلها المتان وينتجان أخريين وخاطر اليقين

الله تعالى بتعر يفهم وبحريك دواعيهم ﴿المقام الثالث﴾ أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعى لايخرجه أيضا عن مقامات التوكل اذا لم يكن طمأنينة نفسه الى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فان ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة بل يكون نظره الى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالاضافة الى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره الى القلم بل الى قلب الملك انه بماذا يتحرك والى ماذا يميل وبم يحكم ثم ان كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أوليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته والدليل على ان الكسب لاينافى حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذ الاثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة فقال لاتشغلونى عن عيالى فانى ان أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات الى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الاسباب وبشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب اليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه أحب اليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل الا مع الزهد فى الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ولا أستريح منه الى قيراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لايتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول أستحى ان أتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى واعلم أن الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فان لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل الا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وان لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل اليهم فهذا أقوى فى توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا الا بشروط كثيرة كما سبق فان قلت فما الافضل أن يقعد فى بيته أو يخرج ويكتسب فاعلم أنه ان كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر واخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لاتستشرف نفسه الى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل اليه شيأ بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وان كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف الى الناس فالكسب أولى لان استشراف القلب الى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون يأخذون ماتستشرف اليه نفوسهم كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيأ فضلا عما كان استأجره عليه فرده فلما ولى قال له أحمد الحقه وأعطه فانه يقبل فلحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ وكان الخواص رحمه الله اذا نظر الى عبد فى العطاء أوخاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيأ وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه فى أسفاره رأيت الخضر ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة أن تسكن نفسى اليه فيكون نقصا فى توكلى فاذا المكتسب اذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن لايقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا فان قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية فأقول علامته أنه ان سرقت بضاعته أوخسرت تجارته أوتعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه فى السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن الى شئ لم يضطرب لفقده ومن اضطرب لفقد شئ فقد سكن اليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لان البادى كاتبه قال بلغنى انك استعنت على رزقك بالمغازل أرأيت ان أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من فوقع ذلك فى قلبه فأخرج آلة المغازل

والعقل مندرج فيهما والله أعلم

﴿الباب الثامن والخمسون فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما﴾

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت اشارات الشيوخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما فتراءى للبعض الشئ حالا وتراءى للبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولابد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سمى حالا لتحوله والمقام مقاما لثبوته واستقراره (وقد) يكون الشئ بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول

من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لاجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن اليها وهو يعلم أن التكسب بغير بضاعة لا يمكن فأقول بأن يعلم ان الذين رزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وان الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وان يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به الا ما فيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وغايته أن يموت جوعا فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر ان العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى اليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه من سبقني من دهاني وما هي الا رحمة رحمه الله بها ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الامور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لاحمد بن أبي الحواري لي من كل مقام نصيب الا من هذا التوكل المبارك فاني ما شممت منه رائحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولعله أراد ادراك أقصاه وما لم يكمل الايمان بأن لا فاعل الا الله ولا رازق سواه وان كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الامور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الاقوال والاعمال تنبني على أصولها من الايمان وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون الى الاسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الاسباب الخفية فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا فان الانسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع واذا انضم اليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الاسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الاسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام لو اكتسبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال ان كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن اماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك اذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق وقال امام المسجد لبعض المصلين من أين تأكل فقال يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك وينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الاسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق الى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في اهلاك أموال التجار والاغنياء وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم ابراهيم بن أدهم فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا الى مسجد خراب فنظر الى ابراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس فجئت به فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود اليه بكل حال والمشار اليه بكل معنى وكتب شعرا

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر * أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها * فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع الي الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة الى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقيني كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو

الحال بظهور صفات النفس الى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير في مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة (ثم) ينازله حال المراقبة فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال (ثم) يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد الى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبة قراره الا بنازل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره الا بنازل حال المشاهدة فاذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار

فى المسجد الفلانى فدفع الى صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا نصرانى فجئت الى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم * وقال أبو يعقوب الاقطع البصرى جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثتنى نفسى بالخروج فخرجت الى الوادى لعلى أجد شيأ يسكن ضعفى فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها فوجدت فى قلبى منها وحشة وكان قائلا يقول لى جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت فاذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدى ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتنى بها قال اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فنذرت ان خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى الى أصحابك هدية منى اليكم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير اليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى * وقال ممشاد الدينورى كان على دين فاشتغل قلبى بسببه فرأيت فى النوم كان قائلا يقول يابخيل أخذت علينا هذا المقدار من الدين خذ عليك الاخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما وحكى عن بنان الحمال قال كنت فى طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد فجاءتنى امرأة وقالت لى يابنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل فوجدت خلخالا فى الطريق فقلت فى نفسى أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطينى شيأ فأرده عليه فاذا أنا بتلك المرأة فقالت لى أنت تاجر تقول عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيأ ثم رمت لى شيأ من الدراهم وقالت أنفقها فاكتفيت بها الى قريب من مكة وحكى أن بنانا احتاج الى جارية تخدمه فانبسط الى اخوانه فجمعوا له ثمنها وقال هو ذا يجيء النفير فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا انها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال انها ليست للبيع فألحوا عليه فقال انها لبنان الحمال أهدتها اليه امرأة من سمرقند فحملت الى بنان وذكرت له القصة وقيل كان فى الزمان الاول رجل فى سفر ومعه قرص فقال ان أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال ان أكله فارزقه وان لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه الى أن مات ولم يأكله وبقى القرص عنده وقال أبو سعيد الخراز دخلت البادية بغير زاد فاصابتنى فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بان وصلت ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة الا أن أحمل اليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها الى صدرى فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا ياأهل المرحلة ان لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاءنى جماعة فاخرجونى وحملونى الى القرية وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فاذا هو بقائل يقول ياهذا هاجرت الى عمر أو الى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له انى قد اشتقت اليك فما الذى شغلك عنى فقال انى قرأت القرآن فاغنانى عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله فما الذى وجدت فيه فقال وجدت فيه وفى السماء رزقكم وما توعدون فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الارض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس اليه وقال أبو حمزة الخراسانى حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشى فى الطريق اذ وقعت فى بئر فنازعتنى نفسى أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فاتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر فهممت ان أصيح فقلت فى نفسى الى من أصيح هو أقرب منهما وسكنت فبينا أنا بعد ساعة اذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكانه يقول تعلق بى فى همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجنى فاذا هو سبع فمر وهتف بى هاتف ياأبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وأنا أقول

نهانى حيائى منك أن أكشف الهوى * وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى * الى غائبى واللطف يدرك باللطف

ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال الى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص الى البقاء والترقى من عين اليقين الى حق اليقين وحق اليقين نازل يحرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة (وقد) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبى (قال) سهل بن عبد الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين ومنه تنبعث الاشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل

تراءيت لي بالغيب حتى كأنما * تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة * فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب حتفه * وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوي الايمان به وانضم اليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوي الايمان بأنه ان لم يسق اليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه تم التوكل بهذه الاحوال والمشاهدات والا فلا يتم أصلا

﴿ بيان توكل المعيل ﴾

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد لان المنفرد لا يصح توكله الا بأمرين أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس والآخر أبواب من الايمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت ان لم يأته رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وان كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سيق اليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وان هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وانه كذا قضي وقدر له فبهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه ان اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الايمان فاذا لا يمكنه في حقهم الا التوكل المكتسب وهو المقام الثالث كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه اذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام وقد يفضي الى هلاكهم ويكون مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فانه ان ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضيعها الا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فان كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل ولذلك روي أن أبا تراب النخشبي نظر الى صوفي مد يده الى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف الزم السوق أي لا تصوف الا مع التوكل ولا يصح التوكل الا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري اذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فالزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذا بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله وانما يفارقهم في شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الاسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت ان تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والامصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الاذى اذ لا يمكن الاستمرار عليه الا بالصبر والتوكل في الامصار أقرب الى الاسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الاسباب الا أن الناس عدلوا الى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف ايمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الاذى في الدنيا لاجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم باساءة الظن وطول الامل ومن نظر في ملكوت السموات والارض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وان ترك الاضطراب فان العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما ان كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالام حتى تنتهي اليه فضلات غذاء الام بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الام لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى اليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج الى المضغ ولانه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فادر له اللبن اللطيف في ثدي الام عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الام فاذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لاجل المضغ فاذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة فجبنه بعد البلوغ جهل محض لانه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت فانه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته نعم كان المشفق عليه شخصا

أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرقت شغاف القلب ووصلت الى سويدائه وهي حق اليقين هي أسنى العطايا وأعز الاحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب اذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا فالمشاهدة هي الاول والاصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع ولما كان الاصل في الاحوال هذه الحالة وهي أشرف الاحوال وهي محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا لانها غير مقدورة للعبد بكسبه فأطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والاحوال مواهب وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب

واحدا وهى الام أو الاب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه و يسقيه فى اليوم مرة أو مرتين وكان اطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرقة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى ان كل واحد منهم اذا أحس بمحتاج تألم قلبه و رق عليه وانبعثت له داعية الى ازالة حاجته فقد كان المشفق عليه واحدا والا ٓن المشفق عليه ألف و زيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لانهم رأوه فى كفالة الام والاب وهو مشفق خاص فلما رأوه محتاجا ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه و يكفلونه فما رؤى الى الآن فى سنى الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التى خلقها فى قلوب عباده فلماذا ينبغى أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل فى الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الا ٓن ألف نعم كانت شفقة الام أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وان ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الا ٓحاد بكثرة المشفقين و بترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق * و يرزق فى غشاوته الجنين

فان قلت الناس يكفلون اليتيم لانهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون اليه و يقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه فأقول ان كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل فى حقه فان التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطال والتوكل وان كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه فى ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه فى قلوب الناس حتى يحملون اليه فوق كفايته وانما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب الى جبل من بين الناس وما رؤى الى الآن عالم أو عابد استغرق الاوقات بالله تعالى وهو فى الامصار فمات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز و جل له ومن اشتغل بالله عز و جل ألقى الله حبه فى قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الام لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لاهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر الى مدبر الاسباب لا الى الاسباب نعم مادبره تدبيرا يصل الى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا فى بعض الاحوال لكن دبره تدبيرا يصل الى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل الا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الاغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الا ٓخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وانما يحصل نادرا وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فلذلك لا يطمئن الى اضطرابه بل الى مدبر الملك والملكوت تدبير الايجاز عبده من عباده رزقه وان سكن الا نادرا ندورا عظيما ينصو رمثله فى حق المضطرب فاذا انكشفت هذه الامور وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس أثمر ما قاله الحسن البصرى رحمه الله اذ قال وددت ان أهل البصرة فى عيالى وان حبة بدينار وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والارض رصاصا واهتممت برزقى لظننت أنى مشرك فاذا فهمت هذه الامور فهمت أن التوكل مقام مفهوم فى نفسه و يمكن الوصول اليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وامكانه أنكره عن جهل فاياك أن تجمع بين الافلاسين الافلاس عن وجود المقام ذوقا والافلاس عن الايمان به علما فاذا عليك بالقناعة بالنذر القليل والرضا بالقوت فانه يأتيك لا محالة وان فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث اليك رزقك على يدى من لا تحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث

اذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب فالاحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد ولكن فى المقامات ظهر الكسب و بطنت المواهب وفى الاحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالاحوال مواهب علوية سماوية والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه سلونى عن طرق السموات فانى أعرف بها من طرق الارض اشارة الى المقامات والاحوال فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق السموات ومتنزل البركات وهذه الاحوال لا يتحقق بها الا ذو قلب سماوى (قال بعضهم) الحال هو الذكر الخفى وهذا اشارة الى شئ مما

لا يحتسب الآية الا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الاطعمة فـاضمن الا الرزق الذى تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن الى ضمانه فان الذى أحاط به تدبير الله من الاسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى اليها وذلك لان ظهوره على الارض وسببه فى السماء قال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وأسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون قالوا نطلب الرزق فقال ان علمتم أى موضع هو فاطلبوه قالوا فنسأل الله قال ان علمتم أنه ينساكم فذكروه فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننتظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة وقال أحمد بن عيسى الخراز كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى نفسى أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتنى أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى ويقول

ويزعم أنه منا قريب * وأنا لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الاقتار جهدا * كأنا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى ايمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل فان أسوأ أحواله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتى من ليس مطمئنا فاذا تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذى ضمن رزق القانعين بهذه الاسباب التى دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الارزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك وحسابك ولا تكن فى توكلك منتظر اللاسباب بل لمسبب الاسباب كما لا تكون منتظر القلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه أصل حركة القلم والمحرك الاول واحد فلا ينبغى أن يكون النظر الا اليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد أو يقعد فى الامصار وهو خامل وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا اقنع فى اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وان لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل يأتيه أضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق اليه أقوى من دخول الامصار فى حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لان شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وان كانوا معه الا اذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الاخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى لانه تفرغ لله عز وجل واعانة للمعطى على نيل الثواب ومن نظر الى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الاسباب ولذلك سأل بعض الاكاسرة حكيما عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه اذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالاسباب الظاهرة لهم قال الشاعر

ولو كانت الارزاق تجرى على الحجا * هلكن اذا من جهلهن البهائم

﴿ بيان أحوال المتوكلين فى التعلق بالاسباب بضرب مثال ﴾

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون الى الطعام فاخرج اليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى اذا خرجوا اليكم بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا اليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به الى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فانى اختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت فى مكانه

ذكرناه (وسمعت المشايخ بالعراق) يقولون الحال ما من الله فكل ما كان من طريق الاكتساب والاعمال يقولون هذا ما من العبد فاذا لاح للمريد شئ من المواهب والمواجيد قالوا هذا ما من الله وسموه حالا اشارة منهم الى أن الحال موهبة (وقال) بعض مشايخ خراسان الاحوال مواريث الاعمال (وقال بعضهم) الاحوال كالبروق فان بقى فحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الاطلاق وانما يكون ذلك فى بعض الاحوال فانها تطرق ثم تستلبها النفس فأما على الاطلاق فلا والاحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء (وذهب) بعضهم الى أن الاحوال لا تكون الا اذا دامت فاما اذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادر وهى مقدمات الاحوال وليست بأحوال

ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ومن أخطأه غلماني فما أوصلوا اليه شيأ فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قائلا ليته أوصل الى رغيفا فانى غدا أستوزره وأفوض ملكى اليه فانقسم السؤال الى أربعة أقسام قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا الى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم الى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا الى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة اليهم فى الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة وقسم قالوا انا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطؤنا ولكن نأخذ اذا أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا ان اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد وان أخطؤنا فاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فانفعهم ذلك اذ اتبعهم الغلمان فى كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة فى زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا فى جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر وسكت الثالث الى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان وهو الحياة فى الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل اذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك الى ميعاد القيامة لان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والمتعلق بالغلمان هو المعتدى فى الاسباب والغلمان المسخرون هم الاسباب والجالس فى ظهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون فى الامصار فى الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون فى الزوايا هم السائحون فى البوادى على هيئة التوكل والاسباب تتبعهم والرزق يأتيهم الا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق الى هذه الاقسام الاربعة ولعل من كل مائة تعلق بالاسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية فى الامصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح فى البوادى ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك فى الاعصار السالفة وأما الآن فالتارك للاسباب لا ينتهى الى واحد من عشرة آلاف (الفن الثانى فى التعرض لاسباب الادخار) فمن حصل له مال بارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الاسباب فله فى الادخار ثلاثة أحوال الاولى أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكل ان كان جائعا ويلبس ان كان عاريا أو يشترى مسكنا مختصرا ان كان محتاجا ويفرق الباقى فى الحال ولا يأخذه ولا يدخره الا بالقدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفى بموجب التوكل تحقيقا وهى الدرجة العليا * الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات الا ثلاثة الفارة والنملة وابن آدم * الحالة الثالثة أن يدخر لاربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل الى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص الى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الاربعين وقال أبو طالب المكى لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الاربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار نعم يجوز أن يظن ظان ان أصل الادخار يناقض التوكل فاما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعالى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير فى مثل هذا بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم الا بقصر الامل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو فى نفس فان ذلك كالممتنع وجوده أما الناس فتفاوتون فى طول الامل وقصره وأقل درجات الامل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهما درجات لا حصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب الى المقصود ممن يؤمل سنة وتقييده بأربعين لاجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار رخص الامل فيه

(واختلف المشايخ) فى أن العبد هل يجوز له أن ينتقل الى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل احكام حكم مقامه (قال بعضهم) لا ينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه وقال بعضهم لا يكمل المقام الذى هو فيه الا بعد ترقيه الى مقام فوقه فينظر من مقامه العالى الى ما دونه من المقام فيحكم أمر مقامه والاولى أن يقال والله أعلم الشخص فى مقامه يعطى حالا من مقامه الاعلى الذى سوف يرتقى اليه فيوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا نضاف الشئ الى العبد أنه يرتقى أولا يرتقى فان العبد بالاحوال يرتقى الى المقامات والاحوال مواهب ترقى الى المقامات التى يمتزج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه الا وقد

ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم الا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى فى تدريج الامور وكما قال عليه السلام ان الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا لان استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فاذا ما وراء السنة لا يدخر له الا بحكم ضعف القلب والركون الى ظاهر الاسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الاسباب فان أسباب الدخل فى الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادخر لاقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو بينهما فى الرتبة ولا يمنع من الادخار الا قصر الامل فالافضل أن لا يدخر أصلا وان ضعف قلبه فكلما اقل ادخاره كان فضله أكثر وقد روى فى الفقير الذى أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه واسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته فلما دفنه قال لاصحابه انه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية قلنا وما هى يا رسول الله فان كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان اذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه واذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث وليس الكوز والشفرة وما يحتاج اليه على الدوام فى معنى ذلك فان ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج اليه فى الصيف وهذا فى حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه الى أيدى الخلق بل لا يلتفت قلبه الا الى الوكيل الحق فان كان يستشعر فى نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه الا به فذلك له أولى لان المقصود اصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل والا فالدنيا فى عينها غير محذورة لا لوجودها ولا لعدمها ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل الى الله تعالى وارشدهم الى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخار وهذا كله حكم المنفرد فاما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لان الاسباب تتكرر عند تكرر السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس الى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الاسباب الظاهرة وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيأ لغد ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش اقلالا وقال صلى الله عليه وسلم اذا سئلت فلا تمنع واذا أعطيت فلا تخبأ اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمله بحيث كان اذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله اذ كان لا يثق بما ادخره ولكن عليه السلام ترك ذلك تعليما للاقوياء من أمته فان أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة الى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفى عياله ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف الى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم واذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلى أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن فقال صلى الله عليه وسلم فتشوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين فى داخل أزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه وهذا يحتمل وجهين لان حاله يحتمل حالين أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم وذلك اذا كان حاله اظهار الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس والثانى أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به

قرب ترقيه اليه فلا يزال العبد يرقى الى المقامات بزائد الاحوال فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والاحوال حتى التوبة ولا تعرف فضيلة الا فيها حال ومقام وفى الزهد حال ومقام وفى التوكل حال ومقام وفى الرضا حال ومقام قال أبو عثمان الحيرى منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته أشار الى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا (قال) بعضهم الزجر هيجان فى القلب لا يسكنه الا الانتباه من الغفلة فيرده الى اليقظة فاذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ وقال بعضهم الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصده والزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق العلم وزجر من طريق العقل وزجر

النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فان كل ما يخلفه
الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة اذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيأ الا نقص بقدره من الآخرة وأما بيان أن
الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روى عن بشر قال الحسين
المغازلي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل اسمر خفيف العارضين فقام اليه بشر قال
وما رأيته قام لاحد غيره قال ودفع الي كفا من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما
قال لي قط مثل ذلك قال فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقي من
الطعام شئ كثير فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف فعجبت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك
أنكرت فعله قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير اذن فقال ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فانما
أراد أن يعلمنا أن التوكل اذا صح لم يضر معه الادخار (الفن الثالث في مباشرة الاسباب الدافعة للضرر المعرض
للخوف) اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الاسباب الدافعة
رأسا أما في النفس فكالنوم في الارض المسبعة أو في مجاري السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل والسقف
المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة نعم تنقسم هذه الاسباب الى مقطوع
بها ومظنونة والى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها الى دفع الضرر نسبة الكي أو الرقية
فان الكي والرقية قد يقدم بهما على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة ورسول الله
صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين الا بترك الكي والرقية والطيرة ولم يصفهم بأنهم اذا خرجوا الى موضع
بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الاسباب نعم الاستظهار بأكل
الثوم مثلا عند الخروج الى السفر في الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في
الاسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة ولترك الاسباب الدافعة وان كانت
مقطوعة وجه اذا ناله الضرر من انسان فانه اذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال
والصبر قال الله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله
فليتوكل المتوكلون وقال عز وجل ودع أذاهم وتوكل على الله وقال سبحانه وتعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من
الرسل وقال تعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وهذا في أذى الناس وأما الصبر
على أذى الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شئ اذ لا فائدة فيه ولا يراد السعي
ولا يترك السعي لعينه بل لاعانته على الدين وترتب الاسباب ههنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول
بالاعادة وكذلك في الاسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن
يعقل البعير لان هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى اما قطعا واما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للاعرابي لما أن
أهمل البعير وقال توكلت على الله اعقلها وتوكل وقال تعالى خذوا حذركم وقال في كيفية صلاة الخوف وليأخذوا
أسلحتهم وقال سبحانه وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وقال تعالى لموسى عليه السلام فأسر
بعبادي ليلا والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الاعداء ونوع تسبب واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في
الغار اختفاء عن أعين الاعداء دفعا للضرر وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فانه
دافع قطعا ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن المظنون كالمقطوع وانما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل
تركه فان قلت فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الاسد يده على كتفه ولم يتحرك فأقول وقد حكى عن جماعة
أنهم ركبوا الاسد وسخروه فلا ينبغي أن يغرك ذلك المقام فانه وان كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق
التعلم من الغير بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته
اليها فان قلت وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت اليها فأقول الواصل لا يحتاج الى طلب العلامات ولكن من
العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في اهابك يسمى الغضب فلا يزال يعضك
ويعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث اذا هيج واشلي لم يستشل الا باشارتك وكان مسخرا لك فربما
ترتفع درجتك الى أن يسخر لك الاسد الذي هو ملك السباع وكلب دارك أولى بأن يكون مسخرا لك من كلب

من طريق الايمان فبنازل التائب حال الزجر وهي موهبة من الله تعالى تقوده الى التوبة ولا يزال بالعبد ظهور رهوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تريه لذة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبح له الاقبال عليها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزهد ويستقر زهده ويصير الزهد مقامه ولا تزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا ويصير ذلك مقامه

﴿ وههنا لطيفة ﴾

وذلك ان مقام الرضا والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ولا يحكم ببقاء حال الرضا مع وجود

البوادي وكلب اهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر فان قلت فاذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق فبأي اعتبار يكون متوكلا فاقول يكون متوكلا بالعلم والحال * فاما العلم فهو أن يعلم أن اللص ان اندفع لم يندفع بكفايته في اغلاق الباب بل لم يندفع الا بدفع الله تعالى اياه فكم من باب يغلق ولا ينفع وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب فلا تتكل على هذه الاسباب أصلا بل على مسبب الاسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فانه ان حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته * وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم ان سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فاني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة فتستردها ولا أدري انه رزقي أو سبقت مشيئتك في الازل بأنه رزق غيري وكيفما قضيت فانا راض به وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الاسباب فلا ثقة الا بك يا مسبب الاسباب فاذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح واغلاق الباب ثم اذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وان لم يجده بل وجده مسروقا فانظر الى قلبه فان وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما انه ما أخذ الله تعالى ذلك منه الا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه وان تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له انه ما كان صادقا في دعوى التوكل لان التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد الا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل نعم قد يصح له مقام الصبر ان اخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وان لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث انه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها فانها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ فاقول المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وانما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة لان سنة الله جارية بوصول الخبر الى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والامتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والابرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الامرين فان قلت فكيف يتصور أن لا يحزن اذا أخذ متاعه الذي هو محتاج اليه ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وان كان أمسكه لانه يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه فأقول انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذ كان يظن أن الخير له في أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الخير له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه اياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به اذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لانه في جميع الاحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها الى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن اذ به يخرج عن أن يكون فرحه بالاسباب من حيث انها أسباب بل من حيث انه يسرها مسبب الاسباب عناية وتلطفا وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فان قدم اليه الغذاء فرح وقال لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه الي وان أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن

داعية الطبع وذلك مثل كراهة يجدها الراضي بحكم الطبع ولكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم الطبع وظهور حكم الطبع في وجود الكراهة المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضا ولكن يفقد حال الرضا لان الحال المتجردت موهبة أخرقت داعية الطبع فيقال كيف يكون صاحب مقام في الرضا ولا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت نقول لان المقام لما كان مشوبا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع فحال الرضا أصلف ومقام الرضا أمكن ولا بد للمقامات من زائد الاحوال فلا مقام الا بعد سابقة حال ولا تفرد للمقامات دون سابقة الاحوال (وأما

الغذاء يضرني و يسوقني الى الموت لما حال بيني و بينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لا يدري أي الاسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غني يبتلى بواقعة لاجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا

﴿ بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم ﴾

للمتوكل آداب في متاع بيته اذا خرج عنه ﴿ الاول ﴾ أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق وكجمعه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط و يقول لولا الكلاب ما شددته أيضا ﴿ الثاني ﴾ أن لا يترك في البيت متاعا يحرض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو امساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى المغيرة الى مالك بن دينار ركوة قال خذها لا حاجة لي اليها قال لم قال يوسوس الي العدو أن اللص أخذها فكأنه احترز من أن يعصي السارق ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها ﴿ الثالث ﴾ أن ما يضطر الى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه و يقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وان كان فقيرا فهو عليه صدقة وان لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير احداهما أن يكون ماله مانعا له من المعصية فانه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوي دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم انصر أخاك ظالما أو مظلوما ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وعفوه عنه اعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه اذ ليس فيها ما يسلط السارق و يغير القضاء الازلي ولكن يتحقق بالزهد نيته فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لانه نواه وقصده وان لم يؤخذ حصل له الاجر أيضا كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها ان له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وان لم يولد له لانه ليس له من أمر الولد الا الوقاع فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس اليه فلو خلق لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينعدم فكذلك أمر السرقة ﴿ الرابع ﴾ انه اذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح ان أمكنه و يقول لولا ان الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم ان لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي اساءة الظن بالمسلمين وان كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه الى الآخرة فان أعيد عليه فالاولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وان قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لان الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند المتوكلين وقد روي أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ثم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ان ناقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال استغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال اني كنت قلت في سبيل الله وقال بعض الشيوخ رأيت بعض اخواني في النوم بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها قال وهو مع ذلك كئيب حزين فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم اني لا أزال حزينا الى يوم القيامة قلت ولم قال اني لما رأيت منازلي في الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ففرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له انما هي لمن أمضى السبيل فقلت وما امضاء السبيل فقيل لي كنت تقول للشيء انه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لامضيناه لك وحكي عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما الى جنب رجل معه هميانه فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان في هميانك فذكر له فحمله الى البيت و وزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه

الاحوال) فمنها ما يصير مقاما ومنها ما لا يصير مقاما والسر فيه ما ذكرناه ان الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن فلما كان في الاحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصارت الاحوال الى ما لا نهاية لها ولطاف سنى الاحوال ان يصير مقاما ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ولهذا قال بعضهم لو أعطيت روحانية عيسى ومكالمة موسى وخلة ابراهيم عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك لان مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الانبياء ولا تعطى الاولياء ولكن هذه اشارة من القائل الى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لان سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على

أصحابه انهم كانوا أخذوا الهميان مزحامه فجاءهو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذه حلالا طيبا فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فالحوا عليه فدعا بنائه وجعل يصره صررا و يبعث بها الى الفقراء حتى لم يبق منه شئ * فهكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده الى البيت بعد اخراجه فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات ﴿الخامس﴾ وهو أقل الدرجات أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالاخذ فان فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على مافات و بطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيما أصيب به ففي الخبر من دعا على ظالمه فقد انتصر وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه فجاءه قوم يعزونه فقال أما اني قد كنت رأيته وهو يحله قيل وما منعك أن تزجره قال كنت فيما هو أحب الى من ذلك يعني الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فاني قد جعلتها صدقة عليه وقيل لبعضهم في شئ قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عونا للشيطان عليه قيل أرأيت لو رد عليك قال لا آخذه ولا أنظر اليه لاني كنت قد أحللته له وقيل لآخر ادع الله على ظالمك فقال ماظلمني أحد ثم قال انما ظلم نفسه ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه فقال لا تغرق في شتمه فان الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه وفي الخبران العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه و يسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم (السادس) أن يغتم لاجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى و يشكر الله تعالى اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا في دنياه لا نقصا في دينه فقد شكا بعض الناس الى عالم انه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال ان لم يكن لك غم انه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي و يحزن فقال أعلى الدنانير تبكي فقال لا والله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع على من ظلمك فقال اني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين ﴿الفن الرابع في السعي في ازالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله﴾ اعلم أن الاسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم الى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع والى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الاسباب الظاهرة في الطب والى موهوم كالكي والرقية أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت وأما الموهوم فشرط التوكل تركه اذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكي ويليه الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال اليها غاية التعمق في ملاحظة الاسباب وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الاحوال وفي بعض الاشخاص فهي على درجة بين الدرجتين و يدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم مامن داء الاوله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام يعني الموت وقال عليه السلام تداووا عباد الله فان الله خلق الداء والدواء وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيأ فقال هي من قدر الله وفي الخبر المشهور مامررت بملا من الملائكة الا قالوا مر أمتك بالحجامة وفي الحديث أنه أمر بها وقال احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل باذن الله تعالى و بين أن اخراج الدم خلاص منه اذ لا فرق بين اخراج الدم المهلك من الاهاب و بين اخراج العقرب من تحت الثياب واخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل هو كصب الماء على النار لاطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا وفي خبر مقطوع من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي

عدم القناعة وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام كل يوم لم أزدد فيه علما فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم وفي دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم ماقصر عنه رأيي وضعف فيه عملي ولم تبلغه نيتي وامنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فانا أرغب اليك وأسألك اياه فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر والاحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها وتنفد اعداد الرمال دون اعدادها والله المنعم المعطي

﴿الباب التاسع والخمسون في الاشارات الى المقامات على الاختصار والايجاز﴾

أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو منصور ابن خيرون اجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن علي بن

وبالحية وقطع لسعد بن معاذ عرقا أى فصده وكوى سعد بن زرارة وقال لعلى رضى الله تعالى عنه وكان رمد العين لاتأكل من هذا يعنى الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك يعنى سلقا قد طبخ بدقيق شعير وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وأنت أرمد فقال انى آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى فى حديث من طريق أهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة قيل السنا المكى وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها وروى أنه كان اذا نزل اليه الوحى صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء وفى خبر انه كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا وما روى فى تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف فى ذلك كتاب وسمى طب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء فى الاسرائيليات ان موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت فقال لا أتداوى حتى يعافينى هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له ان دواء هذه العلة معروف مجرب وانا نتداوى به فنبرأ فقال لا أتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى اليه وعزتى وجلالى لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك فقال لهم داوونى بما ذكرتم فداووه فبرأ فأوجس فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى اليه أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الاشياء غيرى وروى فى خبر آخر ان نبيا من الانبياء عليهم السلام شكا علة يجدها فأوحى الله تعالى اليه كل البيض وشكا نبى آخر الضعف فأوحى الله تعالى اليه كل اللحم باللبن فان فيهما القوة قيل هو الضعف عن الجماع وقد روى أن قوما شكوا الى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى اليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فانه يحسن الولد ويفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع اذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنفساء الرطب فبهذا تبين ان مسبب الاسباب أجرى سنته بربط المسببات بالاسباب اظهارا للحكمة والادوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الاسباب فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لايفارقه الا فى أحد أمرين أحدهما ان معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلى واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق فى حقه بالاول والثانى ان الدواء يسهل والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر فى الباطن وأسباب فى المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض مايوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الاسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين والا فالمسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الاسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر الى مسبب الاسباب دون الطبيب والدواء فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم انه قال يارب ممن الداء والدواء فقال تعالى منى قال فما يصنع الاطباء قال يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادى حتى يأتى شفائى أو قضائى فاذا معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال كما سبق فى فنون الاعمال الدافعة للضر والجالبة للنفع فاما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه فان قلت فالكى أيضا من الاسباب الظاهرة النفع فأقول ليس كذلك اذ الاسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبردات للمحرور وأما الكى فلو كان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يعتاد الكى فى أكثر البلاد وانما ذلك عادة بعض الاتراك والاعراب فهذا من الاسباب الموهومة كالرقى الا انه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستغناء عنه فانه مامن وجع يعالج بالكى الا وله دواء يغنى عنه ليس فيه احراق فالاحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف الفصد والحجامة فان سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى ان عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الامير حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما اكتويت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما

محمد الجوهرى اجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله بن المبارك قال أنا الهيثم بن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائنى قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله انى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فانى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة (وروى) أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر فانى لاستغفر الله وأتوب اليه فى كل يوم مائة مرة (وروى) أبو بردة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وقال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا

أفلحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأناب الى الله تعالى فرد الله تعالى عليه ما كان يجده من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر الى الملائكة التى كان أكرمنى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد ان كان أخبره بفقدها فاذا الكى ومايجرى مجراه هو الذى لا يليق بالمتوكل لانه يحتاج فى استنباطه الى تدبير ثم هو مذموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الاسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم

﴿ بيان ان ترك التداوى قد يحمد فى بعض الاحوال ويدل على قوة التوكل وان ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

اعلم ان الذين تداووا من السلف لا ينحصرون ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الاكابر فربما يظن ان ذلك نقصان لانه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لا يكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه انه قيل له لو دعونا لك طبيبا فقال الطبيب قد نظر الى وقال انى فعال لما أريد وقيل لابى الدرداء فى مرضه ما تشتكى قال ذنوبى قيل فما تشتهى قال مغفرة ربى قالوا ألا ندعو لك طبيبا قال الطبيب أمرضنى وقيل لابى ذر وقد رمدت عيناه لو داويتهما قال انى عنهما مشغول فقيل له لو سألت الله تعالى أن يعافيك فقال أسأله فيما هو أهم على منهما وكان الربيع بن خيثم أصابه فالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى ولم تغن الرقى شيأ وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا اذا سأله وقيل لسهل متى يصح للعبد التوكل قال اذا دخل عليه الضرر فى جسمه والنقص فى ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحاله وينظر الى قيام الله تعالى عليه فاذا منهم من ترك التداوى ورآه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم الا بحصر الصوارف عن التداوى فنقول ان لترك التداوى أسبابا (السبب الاول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بانه انتهى أجله وان الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب فانه كان من المكاشفين فانه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث انما هن أختاك وانما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فعلم أنه كان قد كوشف بانها حامل بأنثى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله والا فلا يظن به انكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به ﴿ السبب الثانى ﴾ أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله وعليه يدل كلام أبى ذر اذ قال انى عنهما مشغول وكلام أبى الدرداء اذ قال انما أشتكى ذنوبى فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذى يحمل الى ملك من الملوك ليقتل اذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك انكارا لكون الاكل نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما القوت فقال هو ذكر الحى القيوم فقيل انما سألناك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألناك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخرا اذا دخل عليه علة فرده الى صانعه أما رأيت الصنعة اذا عيبت ردوها الى صانعها حتى يصلحها ﴿ السبب الثالث ﴾ ان تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة الى علته موهوم النفع جار مجرى الكى والرقية فيتركه المتوكل واليه يشير قول الربيع بن خيثم اذ قال ذكرت عادا وثمود وفيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى أى ان الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك فى نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ولا شك فى ان الطبيب المجرب أشد اعتقادا فى الادوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لانه يبقى الدواء عنده شيأ موهوما لا أصل له وذلك صحيح فى بعض الادوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح فى البعض ولكن غير الطبيب

أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وقال الله عز وجل ان الله يحب التوابين وقال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا * التوبة أصل كل مقام وقوام كل مقام ومفتاح كل حال وهى أول المقامات وهى بمثابة الارض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وانى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والاحوال وثمراتها فرأيتها مجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الايمان وعقوده وشروطه فصارت مع الايمان أربعة ثم رأيتها فى افادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الاربع التى جعلها الله تعالى باجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الاربع يلج ملكوت السموات ويكاشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات

قد ينظر الى الكل نظرا واحدا فيرى التداوي تعمقا في الاسباب كالكي والرقى فيتركه توكلا (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليجرب نفسه في القدرة على الصبر فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل يبتلى العبد على قدر ايمانه فان كان صلب الايمان شدد عليه البلاء وان كان في ايمانه ضعف خفف عنه البلاء وفي الخبر ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز لا يريد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا وفي حديث من طريق أهل البيت ان الله تعالى اذا أحب عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضي اصطفاه وقال صلى الله عليه وسلم تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون وقال ابن مسعود رضي الله عنه تجد المؤمن أصح شيء قلبا وأمرضه جسما وتجد المنافق أصح شيء جسما وأمرضه قلبا فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسي العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم ان الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه وانما يمنع المرض جوارحه وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففي الخبر ان الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله فانه في وثاقي ان أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وان توفيته توفيته الى رحمتي وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس فقيل معناه ما دخل عليه من الامراض والمصائب واليه الاشارة بقوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وكان سهل يقول ترك التداوي وان ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوي لاجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوي الناس منها وكان اذا رأى العبد يصلي من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الامراض فيتداوى للقيام الى الصلاة والنهوض الى الطاعات يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوة والصلاة قائما وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل في شيء من الدواء فانما هو سعة من الله تعالى لاهل الضعف ومن لم يدخل في شيء منه فهو أفضل لانه ان أخذ شيأ من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بان ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب الا اذا كان ألمه غالبا مدهشا وقال سهل رحمه الله علل الاجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة (السبب الخامس) أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض اذا طال تكفيرا فيترك التداوي خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الارض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة وفي الخبر حمى يوم كفارة سنة فقيل لانها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الانصار فكانت الحمى لا تزايلهم ولما قال صلى الله عليه وسلم من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة قال فلقد كان من الانصار من يتمنى العمى وقال عيسى عليه السلام لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه وروي ان موسى عليه السلام نظر الى عبد عظيم البلاء فقال يا رب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه أي أكفر ذنوبه وأزيد في درجاته (السبب السادس) أن يستشعر العبد في نفسه مبادي البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوي خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان أو طول الامل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو الى المعاصي وأقلها أن تدعو الى التنعم في المباحات وهو تضييع الاوقات واهمال للربح العظيم في

الله تعالى المنزلات ويحظى بجميع الاحوال والمقامات فكلها من هذه الاربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت فاحد الثلاث بعد الايمان التوبة النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الاعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور ثم يستعان على اتمام هذه الاربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي قلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام والاعتزال عن الناس واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الاربع بها تستقر المقامات وتستقيم الاحوال وبها صار الابدال أبدالا بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه ونبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج في صحة هذه ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها

مخالفة النفس وملازمة الطاعات واذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالامراض والمصائب ولذلك قيل لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة وقد روى أن الله تعالى يقول الفقر سجني والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي فاذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي فقد قال بعض العارفين لانسان كيف كنت بعدي قال في عافية قال ان كنت لم تعص الله عز وجل فانت في عافية وان كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية ما عوفي من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد ماهذا الذي أظهروه قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد وقال تعالى من بعد ما أراكم ما تحبون قيل العوافي ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وكذلك اذا استغنى بالعافية وقال بعضهم انما قال فرعون أنا ربكم الاعلى لطول العافية لانه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية وقال صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر هاذم اللذات وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف وقال تعالى أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون قيل يفتنون بامراض يختبرون بها ويقال ان العبد اذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت يا غافل جاءك مني رسول بعد رسول فلم تجب وقد كان السلف لذلك يستوحشون اذا خرج عام لم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقال لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب ببلية حتى روى ان عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وان النبي صلى الله عليه وسلم عرض عليه امرأة فحكى من وصفها حتى هم ان يتزوجها فقيل وانها ما مرضت قط فقال لا حاجة لي فيها وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم اليك عني من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا وهذا لانه وردفى الخبر الحمى حظ كل مؤمن من النار وفي حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة وفي لفظ آخر الذي يذكر ذنوبه فتحزنه ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها ذ أو الانفسهم مزيدا فيها الا من حيث رأوا التداوي نقصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

﴿بيان الرد على من قال ترك التداوي أفضل بكل حال﴾

فلو قال قائل انما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره والا فهو حال الضعفاء ودرجة الاقوياء توجب التوكل بترك الدواء فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم فان قيل ان ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه اذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الاسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ويدل على ان ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا الى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بايدينا الى التهلكة وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فرجعوا الى عمر فسألوه عن رأيه فقال نرجع ولا ندخل على الوباء فقال له المخالفون في رأيه أنفر من قدر الله تعالى قال عمر نعم نفر من قدر الله الى قدر الله ثم ضرب لهم مثلا فقال أرأيتم لو كان لاحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان احداهما مخصبة والاخرى مجدبة أليس ان رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وان رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك فقال عندي فيه يا أمير المؤمنين شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه

وسلم

أولها بعد الايمان التوبة وهي في مبدأ صحتها تفتقر الى أحوال واذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ولا بد في ابتدائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال لانه موهبة من الله تعالى على ما تقرر ان الاحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها قال رجل لبشر الحافي مالي أراك مهموما قال لاني ضال ومطلوب ضللت الطريق والمقصد وأنا مطلوب به ولو تبينت كيف الطريق الى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص الآن أزجر فأنزجر وقال الاصمعي رأيت اعرابيا بالبصرة يشتكي عينيه وهما يسيل منهما الماء فقلت له ألا تمسح عينيك فقال لا ان الطبيب زجرني ولا خير فيمن لا ينزجر فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد

وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه واذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى اذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس فاذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات ان كان أمثال هذا من شروط التوكل فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوي الفرار من المضر والهواء هو المضر فلم لم يرخص فيه فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار على المضر غير منهي عنه اذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على المقصود ولكن الذي ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث انه يلاقي ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه اذا كان فيه عفونة ووصل الى الرئة والقلب وباطن الاحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر الا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الاثر الذي استحكم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ولكن صار منهيا عنه لانه انضاف اليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للاصحاء في الخروج لما بقي في البلد الا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيا في اهلاكهم تحقيقا وخلاصهم منتظر كما أن خلاص الاصحاء منتظر فلو أقاموا لم تكن الاقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع في اهلاك الباقين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى اليه سائر أعضائه فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة اليهم نعم لو لم يبق بالبلد الا مطعونون وافتقروا الى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لاجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لانه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين وبهذا اشبه الفرار من الطاعون في بعض الاخبار بالفرار من الزحف لان فيه كسر القلوب بقية المسلمين وسعيا في اهلاكهم فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر الى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وانما شرف العلم وفضيلته لاجل ذلك فان قلت ففي ترك التداوي فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوي لينال الفضل فنقول فيه فضل بالاضافة الى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج الى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة أو احتاج الى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الادوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقى أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي وكان التداوي يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع فالى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوي وكل ذلك كمالات بالاضافة الى بعض الخلق ونقصان بالاضافة الى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها اذ كان حاله يقتضي أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الاسباب وفقدها فانه لم يكن له نظر في الاحوال الا الى مسبب الاسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الاسباب كما أن الرغبة في المال نقص والرغبة عن المال كراهية له وان كانت كمالا فهي أيضا نقص بالاضافة الى من يستوي عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من امساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الارض فأبى أن يقبلها فكذلك يستوي عنده مباشرة الاسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وانما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لامته فيما تمس اليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخال الاموال فان ذلك يعظم ضرره نعم التداوي لا يضر الا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهي عنه ومن حيث انه يقصد به الصحة ليستعان بها

العبد حال الانتباه قال بعضهم من لزم مطالعة الطوارق انتبه (وقال) أبو يزيد علامة الانتباه خمس اذا ذكر نفسه افتقر واذا ذكر ذنبه استغفر واذا ذكر الدنيا اعتبر واذا ذكر الآخرة استبشر واذا ذكر المولى اقشعر (وقال) بعضهم الانتباه أوائل دلالات الخير اذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه الى التيقظ فاذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب اذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع الى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ (قال) فارس أوفى الاحوال التيقظ والاعتبار (وقيل) التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة (وقيل) اذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة (وقيل) اليقظة خردة من جهة المولى لقلوب

على العاصي وذلك منهي عنه والمؤمن في غالب الامر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث انه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوي في مقصوده كحكم الكسب فانه ان اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وان اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوي قد يكون أفضل في بعض الاحوال وأن التداوي قد يكون أفضل في بعض وأن ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل الا ترك الموهومات كالكي والرقى فان ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين

﴿ بيان أحوال المتوكلين في اظهار المرض وكتمانه ﴾

اعلم أن كتمان المرض واخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات لان الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه و بين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ومع هذا فالاظهار لا بأس به اذا صحت فيه النية والمقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة ﴿ الاول ﴾ أن يكون غرضه التداوي فيحتاج الى ذكره للطبيب فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المتطبب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها و يقول انما أصف قدرة الله تعالى في (الثاني) أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم قال الحسن البصري اذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى ﴿ الثالث ﴾ أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة و يستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلي في مرضه رضي الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم الى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجلد على الله فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم اياه حيث مرض علي كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض وانما يشترط ذلك لان ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء الا بضرورة و يصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الاولى تركه لانه ربما يوهم الشكاية ولانه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوي توكلا فلا وجه في حقه للاظهار لان الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء وقد قال بعضهم من بث لم يصبر وقيل في معنى قوله فصبر جميل لا شكوى فيه وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي أذهب بصرك قال مر الزمان وطول الاحزان فأوحى الله تعالى اليه تفرغت لشكواي الى عبادي فقال يا رب أتوب اليك و روي عن طاوس ومجاهد انهما قالا يكتب على المريض أنينه في مرضه وكانوا يكرهون أنين المريض لانه اظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل ما أصاب ابليس لعنه الله من أيوب عليه السلام الا أنينه في مرضه فجعل الانين حظه منه وفي الخبر اذا مرض العبد أوحى الله تعالى الى الملكين انظرا ماذا يقول لعواده فان حمد الله وأثنى بخير دعوا له وان شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون وانما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم اذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج اليهم منهم فضيل ووهيب و بشر وكان فضيل يقول أشتهي أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة الا لاجل العواد رضي الله عنه وعنهم أجمعين كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والانس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق

﴿ كتاب المحبة والشوق والانس والرضا وهو الكتاب السادس
من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

(نقل) عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الاكبر على الله يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فالمحاسبة بحفظ الانفاس وضبط الحواس ورعاية الاوقات وايثار المهمات ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه كي لا يستعبده الهوى وتسترقه الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس الى مواطن العبودية لاداء حق

الخائفين تدلهم على طلب التوبة فاذا تمت يقظته تنقل بذلك الى مقام التوبة فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة ثم التوبة في استقامتها تحتاج الى المحاسبة ولا تستقيم التوبة الا بالمحاسبة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات الى زخرف الدنيا ونضرته وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ثم تجلى لهم باسمائه وصفاته حتى أشرقت بانوار معرفته ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما اغبر في وجه العقل وبصيرته وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته * فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته والصلاة على محمد خاتم الانبياء بكمال نبوته وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا ﴿ أما بعد ﴾ فان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والانس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات ان عز وجودها فلم تخل القلوب عن الايمان بامكانها وأما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها حتى أنكر بعض العلماء امكانها وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة الا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر الى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الافهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الانس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الانس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

﴿ بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى ﴾

اعلم أن الامة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل يحبهم ويحبونه وقوله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله وهو دليل على اثبات الحب واثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الايمان في أخبار كثيرة اذ قال أبو رزين العقيلي يا رسول الله ما الايمان قال أن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما وفي حديث آخر لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وفي حديث آخر لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه كيف وقد قال تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم الآية وانما أجرى ذلك في معرض التهديد والانكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله اياي ويروى أن رجلا قال يا رسول الله اني أحبك فقال صلى الله عليه وسلم استعد للفقر فقال اني أحب الله تعالى فقال استعد للبلاء وعن عمر رضي الله عنه قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الرجل الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ما ترون وفي الخبر المشهور أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت اذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى اليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الآن فاقبض وهذا لا يجده الا عبد يحب الله بكل قلبه فاذا علم ان الموت سبب اللقاء انزعج قلبه اليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني الى حبك

الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة الى صلاة أخرى ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ولا يدخل في الصلاة الا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لان كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت في القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة والمتفقد المحاسب يحيي الباطن للصلاة بضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته الى الصلاة الاخرى فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ووقته منورا معمورا بنور صلاته وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضا وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطا وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه

واجعل حبك أحب الى من الماء البارد وجاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها فقال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام الا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشئ بعد الاسلام فرحهم بذلك وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن وقال أبو سليمان الداراني ان من خلق الله خلقا مايشغلهم الجنان ومافيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ويروى ان عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله ان يؤمن الخائف ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق الى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كان على وجوههم المرائي من النور فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أنتم المقربون أنتم المقربون وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد فقال من شغله حب الله لم يجد البرد وعن سري السقطي قال تدعى الامم يوم القيامة بانبيائها عليهم السلام فيقال ياأمة موسى وياأمة عيسى وياأمة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون ياأولياء الله هلموا الى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل أحبه واذا أحبه أقبل اليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسي مادونه فكيف لطفه وفي بعض الكتب عبدي أنا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محبا وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب الى من عبادة سبعين سنة بلا حب وقال يحيى بن معاذ الهي اني مقيم بفنائك مشغول بثنائك صغيرا أخذتني اليك وسربلتني بمعرفتك وأمكنتني من لطفك ونقلتني في الاحوال وقلبتني في الاعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لامرك ومشغوفا بقولك ولما طرشاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي مابقيت حولك دندنة وبالضراعة اليك همهمة لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله تعالى من الاخبار والآثار مالا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وانما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به

﴿ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى ﴾

اعلم ان المطلب من هذا الفصل لا ينكشف الا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى * فأول ماينبغي أن يتحقق انه لا يتصور محبة الا بعد معرفة وادراك اذ لا يحب الانسان الا مايعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم الى مايوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه والى ماينافيه وينافره ويؤلمه والى مالا يؤثر فيه بايلام والذاذ فكل ما في ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في ادراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك ومايخلو عن استعقاب ألم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذا كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا ان في الطبع ميلا اليه ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشئ الملذ فان تاكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوي سمي مقتا فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لابد من معرفته ﴿الاصل الثاني﴾ ان الحب لما كان تابعا للادراك والمعرفة انقسم لامحالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين في الابصار وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الاذن في النغمات الطيبة الموزونة ولذة الشم في الروائح

الطيبة

نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضيق المحاسبة مجاري الشيطان والنفس الامارة بالسوء لموضع صدقه في حسن الافتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة (قال) الجنيد من حسنت رعايته دامت ولايته * وسئل الواسطي أي الاعمال أفضل قال مراعاة السر والمحاسبة في الظاهر والمراقبة في الباطن ويكمل أحدهما بالآخر وبهما تستقيم التوبة والمراقبة والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفين يصحان بصحة مقام التوبة وتستقيم التوبة على الكمال بهما فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف أبي بكر الشيرازي قال سمعت أبا عبد الرحمن

الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت
محبوبة أي كان للطبع السليم ميل اليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب
والنساء وجعل قرة عيني في الصلاة فسمى الطيب محبوبا ومعلوم انه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى
النساء محبوبات ولاحظ فيهن الا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ
المحبوبات ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه الا من كان له قلب
ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الانسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى
يقال ان الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب فاذا قد بطلت خاصية الانسان وما تميز به من
الحس السادس الذي يعبر عنه اما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيهات
فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد ادراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم
من جمال الصور الظاهرة للابصار فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الامور الشريفة الالهية التي تجل عن
أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه أقوى ولا معنى للحب الا الميل الى
ما في ادراكه لذة كما سيأتي تفصيله فلا ينكر اذا حب الله تعالى الا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز
ادراك الحواس أصلا * (الاصل الثالث) * أن الانسان لا يخفى انه يحب نفسه ولا يخفى انه قد يحب غيره لاجل نفسه
وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لاجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون انه لا يتصور أن يحب
الانسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلنبين
أسباب المحبة وأقسامها وبيانه أن المحبوب الاول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا الى
دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لان المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب وأي شئ أتم ملاءمة من نفسه
ودوام وجوده وأي شئ أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الانسان دوام الوجود ويكره
الموت والقتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من
غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض الا لمقاساة ألم في الحياة ومهما كان
مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء فان أحب العدم لم يحبه لانه عدم بل لان فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت
ودوام الوجود محبوب وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب لان الناقص فاقد للكمال
والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة اليه والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال
الوجود كما أنه ممقوت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه
غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا فاذا المحبوب الاول للانسان ذاته ثم سلامة أعضائه
ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالاعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لان كمال الوجود ودوام الوجود موقوف
عليها والمال محبوب لانه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله وكذا سائر الاسباب * فالانسان يحب هذه الاشياء
لا لاعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها حتى انه ليحب ولده وان كان لا يناله منه حظ بل يتحمل
المشاق لاجله لانه يخلفه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من
هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على
اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده لان بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لاقاربه
وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم فان العشيرة والمال
والاسباب الخارجة كالجناح المكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة فاذا المحبوب
الاول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الاسباب * السبب
الثاني الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبي اشارة الى أن حب القلب للمحسن
اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلة وفطرة لا سبيل الى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الاجنبي الذي

السلمي يقول سمعت
الحسن الفارسي يقول
سمعت الجريري يقول
أمرنا هذا مبني على
فصلين وهو أن تلزم
نفسك المراقبة لله
تعالى ويكون العلم على
ظاهرك قائما (وقال)
المرتعش المراقبة
مراعاة السر لملاحظة
الحق في كل لحظة
ولفظة قال الله تعالى
أفمن هو قائم على كل
نفس بما كسبت وهذا
هو علم القيام وبذلك
يتم علم الحال ومعرفة
الزيادة والنقصان
وهو أن يعلم معيار حاله
فيما بينه وبين الله وكل
هذا ملازم لصحة
التوبة وصحة التوبة
ملازم لها لان الخواطر
مقدمات العزائم
والعزائم مقدمات
الاعمال لان الخواطر
تحقق ارادة القلب
والقلب أمير الجوارح
ولا تتحرك الا بتحرك
القلب بالارادة وبالمراقبة
حسم مواد الخواطر
الرديئة فصار من
تمام المراقبة تمام

لاقرابة بينه و بينه ولاعلاقة وهـذا اذاحقق رجع الى السبب الاول فان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر
الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود الاأن الفرق ان أعضاء
الانسان محبوبة لان بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب
ولكن قد يكون سبباله كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الاعضاء ففرق بين حب الصحة و بين حب
الطبيب الذى هو سبب الصحة اذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لانه سبب للصحة وكذلك
العلم محبوب والاستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب وكذلك
الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لانها وسيلة الى الطعام
فاذا يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة والافكل واحد يرجع الى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن
لاحسانه فما أحب ذاته تحقيقا بل أحب احسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو
نقص نقص الحب ولو زاد زاد و يتطرق اليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه * السبب
الثالث أن يحب الشئ لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى
يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لان
ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظنن ان حب الصور الجميلة لايتصور الا
لاجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها وادراك نفس الجمال
أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل
الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء
الجارى والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش
المتناسبة الشكل حتى ان الانسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه
الاسباب ملذة وكل لذيذ محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو ادراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا
بالطبع فان ثبت ان الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال * (الاصل الرابع فى بيان معنى الحسن والجمال) * اعلم أن المحبوس فى مضيق
الخيالات والمحسوسات ربما يظن انه لا معنى للحسن والجمال الا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون
البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة الى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الانسان فان الحسن الاغلب
على الخلق حسن الابصار وأكثر التفاتهم الى صور الاشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا
ولا متلونا مقدرا فلا يتصور حسنه واذا لم يتصور حسنه لم يكن فى ادراكه لذة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فان
الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط
حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا اناء حسن فأى معنى لحسن الصوت
والخط وسائر الاشياء ان لم يكن الحسن الا فى الصورة ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر الى الخط الحسن والاذن
تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شئ من المدركات الا وهو منقسم الى حسن وقبيح فما معنى الحسن
الذى تشترك فيه هذه الاشياء فلابد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرح
بالحق ونقول كل شئ فجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو
فى غاية الجمال وان كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذى جمع كل
ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه والخط الحسن ماكل جمع ما يليق بالخط
من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شئ كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده
فحسن كل شئ فى كماله الذى يليق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت
ولا تحسن الاوانى بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الاشياء فان قلت فهذه الاشياء وان لم تدرك جميعها بحس
البصر مثل الاصوات والطعوم فانها لا تنفك عن ادراك الحواس لها فهى محسوسات وليس ينكر الحسن
والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بادراك حسنها وانما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس فاعلم أن

الحسن

التوبة لان من حصر
الخواطر كفى مؤنة
الجوارح لان بالمراقبة
اصطلام عروق
ارادة المكاره من
القلب و بالمحاسبة
استدراك ما انفلت
من المراقبة (أخبرنا)
أبو زرعة عن ابن
خلف عن السلمى قال
سمعت أبا عثمان
المغربى يقول أفضل
ما يلزم الانسان فى هذا
الطريق المحاسبة
والمراقبة وسياسة
العمل بالعلم واذا صحت
التوبة صحت الانابة
قال ابراهيم بن أدهم
اذا صدق العبد فى
توبته صار منيبا لان
الانابة ثانى درجة
التوبة (وقال) أبو
سعيد القرشى المنيب
الراجع عن كل شئ
يشغله عن الله الى الله
وقال بعضهم الانابة
الرجوع منه اليه لا من
شئ غيره فمن رجع
من غيره اليه ضيع
أحد طرفى الانابة
والمنيب على الحقيقة
من لم يكن له مرجع
سواه فيرجع اليه
من رجوعه

الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات اذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وانما الاخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الامر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الانبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع انهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم حتى ان الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في امامه ومتبوعه فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعي مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذي حمله على افراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وانما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها الا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم الا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله اذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور وتلك الصفات ترجع جملتها الى العلم والقدرة اذ علم حقائق الامور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لاجله فاذا الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السيرة الجميلة وهي الاخلاق الحميدة والفضائل الشريفة وترجع جملتها الى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى ان الصبي المخلى وطبعه اذا أردنا أن نحبب اليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل الا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض ابليس لعنه الله الا بالاطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل اذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الارض العدل والاحسان وافاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار احسانه الى المحبين لبعد المزار ونأي الديار فاذا ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن اليه بل المحسن في نفسه محبوب وان كان لا ينتهي قط احسانه الى المحب لان كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل اليها ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة (السبب الخامس) المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب اذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الارواح كما قال صلى الله عليه وسلم فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لانه أيضا من عجائب أسباب الحب فاذا ترجع أقسام الحب الى خمسة أسباب وهو حب الانسان وجود نفسه وكماله وبقائه وحبه من أحسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من

ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شبحا لا وصف له قائما بين يدي الحق مستغرقا في أعين الجمع أو بمخالفة النفس ورؤية عيوب الافعال والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة * قال أبو سليمان ما استحسنت من نفسي عملا فاحتسبه (وقال) أبو عبد الله السجزي من استحسن شيأ من أحواله في حال ارادته فسدت عليه ارادته الا أن يرجع الى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فباله وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال ورؤية عيوب الافعال من ضرورة صحة الانابة وهو في تحقيق مقام التوبة ولا تستقيم التوبة الا بصدق المجاهدة ولا يصدق العبد في المجاهدة الا بوجود الصبر (وروى) فضالة بن عبيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المجاهد من

كان محسنا فى نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه وحبه لكل ماهو جميل فى ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه و بينه مناسبة خفية فى الباطن فلو اجتمعت هذه الاسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن الى الخلق ومحسن الى الوالد كان محبوبا بالا محالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها فان كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات فلنبين الآن أن هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى

﴿بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده﴾

وان من أحب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لانه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والاتقياء لان محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع الى حب الاصل فلا يتجاوزه الى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر الا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه وايضاحه بان نرجع الى الاسباب الخمسة التى ذكرناها ونبين انها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره الا آحادها وأنها حقيقة فى حق الله تعالى ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقا وبان أن التحقيق يقتضى أن لا تحب أحدا غير الله تعالى * فأما السبب الاول وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حى ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله والى الله وبالله فهو المخترع الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخالق الاسباب الموصلة اليه وخلق الهداية الى استعمال الاسباب والا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالايجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالابقاء وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته وبالجملة فليس فى الوجود شئ له بنفسه قوام الا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فان أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له ان عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره فان كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ومعلوم ان المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الاشجار التى بها قوام الظل وكل ما فى الوجود بالاضافة الى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة الى الشجرة والنور بالاضافة الى الشمس فان الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالاضافة الى أوهام العوام اذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض اذ انكشف لارباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الابصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والاجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الامثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذا ان كان حب الانسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى ان عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلانه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطأ أرضه الا من يقرب الى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه الى حضيض عالم البهائم وأما السبب الثانى وهو حبه من أحسن اليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمده بمعونته وانتدب لنصرته وقمع

جاهد نفسه ولا يتم ذلك الا بالصبر وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه وصدق المراقبة له بالقلب وحسم مواد الخواطر والصبر ينقسم الى فرض وفضل فالفضل كالصبر على أداء المفترضات والصبر عن المحرمات ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر والصبر عند الصدمة الاولى وكتمان المصائب والاوجاع وترك الشكوى والصبر على اخفاء الفقر والصبر على كتم المنح والكرامات ورؤية العبر والآيات ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة وكثير من الناس من يقوم بهذه الاقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفي الخواطر فاذا حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات الموقنين وهو داخل

أعدائه وقام بدفع شر الاشرار عنه وانتهض وسيلة الى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لامحالة عنده وهذا بعينه يقتضى ان لايحب الا الله تعالى فانه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن اليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع احسانه الى كل عبيده فلست أعدها اذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها وقد أشرنا الى طرف منه فى كتاب الشكر ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير متصور الا بالمجاز وانما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه انما تم احسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة على صرف المال اليك فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق ارادته وداعيته ومن الذى حببه اليك وصرف وجهه اليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أودنياه فى الاحسان اليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أودنياه فى أن يسلم اليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لايستطيع مخالفته فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة الى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها احسان الله اليك وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه فان اعتقدته محسنا أوشكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الامر فانه لايتصور الاحسان من الانسان الا الى نفسه أما الاحسان الى غيره فمحال من المخلوقين لانه لايبذل ماله الا لغرض له فى البذل اما آجل وهو الثواب واما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أوجذب قلوب الخلق الى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لايلقى ماله فى البحر اذ لاغرض له فيه فلا يلقيه فى يد انسان الا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فلست مقصودا بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك فى القبض للتوصل الى غرض نفسه فهو اذا محسن الى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لاجلك أصلا البتة فاذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين أحدهما انه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الامير فانه لايرى محسنا بتسليم خلعة الامير الى من خلع عليه لانه من جهة الامير مضطر الى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولايقدر على مخالفته ولو خلاه الامير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك والثانى أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما لايعد البائع محسنا لانه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الاموال والاعيان بالاضافة اليها فالاحسان فى الجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع الى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين احسانا اليهم ولاجلهم لالحظ وغرض يرجع اليه فانه يتعالى عن الاغراض فلفظ الجود والاحسان فى حق غيره كذب أومجاز ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لايحب العارف الا الله تعالى اذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الاحسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته

*وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن فى نفسه وان لم يصل اليك احسانه وهذا أيضا موجود فى الطباع فانه اذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الارض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد فى قلبك تفرقة بينهما اذ تجد فى القلب ميلا الى الاول وهو الحب ونفرة عن الثانى وهو البغض مع أنك آيس من خير الاول وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل الى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث انه محسن فقط لامن حيث انه محسن اليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لايحب غيره أصلا الا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو

فى حقيقة التوبة (قال بعض العلماء) أى شئ أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا وما ذكر شيأ بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه ومن الصبر الصبر على النعمة وهو أنه لايصرفها فى معصية الله تعالى وهذا أيضا داخل فى صحة التوبة *وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء (وروى) عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد فى الرضا والغضب والصبر عن محمدة الناس والصبر على الخمول والتواضع والذل داخل فى الزهد وان لم يكن داخلا فى التوبة وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والاحوال وجد

المحسن الى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بايجادهم وثانيا بتكميلهم بالاعضاء والاسباب التى هى من ضرو راتهم وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الاسباب التى هى فى مظان حاجاتهم وان لم تكن فى مظان الضرورة ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضرورى من الاعضاء الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج اليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواص الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوز العينين الى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد خضرة الاشجار وحسن أشكال الانوار والازهار ولذائذ الفواكه والاطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الاقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش الى منتهى الفرش فاذا هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة الا الله تعالى *وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء ادراك الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع وأن الجمال ينقسم الى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس والى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والاول يدركه الصبيان والبهائم والثانى يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم الا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا فى المشاهدة حب الانبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والاخلاق المرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الاعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى اذا دل القلب عليه مال القلب اليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعى رحمة الله عليه فلا يحبهم الا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هى مصدر الافعال اذ الافعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الافعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع حاصلها عند البحث الى العلم والقدرة ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجل وكذا المقدور وكلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا وأجل المعلومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك ما يقارب به ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذا جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع الى ثلاثة أمور أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه والثانى قدرتهم على اصلاح أنفسهم واصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة الى طريق الشر وبمثل هذا يحب الانبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى (أما العلم) فأين علم الاولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل احاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل وما أوتيتم من العلم الا قليلا بل لو اجتمع أهل الارض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى خلق الانسان علمه البيان فان كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو فى نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغى أن يحب بهذا السبب الا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالاضافة الى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الاجهل ويترك الاعلم وان كان الاجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لان الاعلم لا يفضل الاجهل الا بعلوم معدودة متناهية يتصور فى الامكان ان ينالها الاجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم

الخلائق

فى الزهد وهو ثالث الاربعة التى ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تركيتها وتزكيتها بالتوبة فالنفس اذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية وقلة الصبر من وجود الشراسة للنفس وابائها واستعصائها والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها الى اللين لان النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى وتبلغ بطمأنينتها محل الرضا ومقامه وتطمئن فى مجارى الاقدار (قال أبو عبد الله) النباجى لله عباد يستحيون من الصبر ويتلقفون مواضع اقداره بالرضا تلقفا (وكان) عمر بن عبد العزيز يقول أصبحت ومالى سرور الا مواقع القضاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن

الخلائق كلهم خارج عن النهاية اذ معلوماته لانهاية لها ومعلومات الخلق متناهية (وأما صفة القدرة) فهي أيضا كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وادراكه لذيذ حتى ان الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله تعالى عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الاقران فيصادف في قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به فانه نوع كمال فانسب الآن قدرة الخلق كلهم الى قدرة الله تعالى فأعظم الاشخاص قوة وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته وانما غايته ان يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الامور وهو مع ذلك لايملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا بل لايقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج الى عد ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلا عما لاتتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيوانها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لاهلكه فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الارض ذي القرنين اذ قال انا مكنا له في الارض فلم يكن جميع ملكه وسلطنته الا بتمكين الله تعالى اياه في جزء من الارض والارض كلها مدرة بالاضافة الى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الارض غبرة من تلك المدرة ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل ان يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر السموات مطويات بيمينه والارض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ان أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وان خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر الا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فان كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا (وأما) صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والانبياء والصديقون وان كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه الا للواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والاكرام وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال الا بقدر ما أعطاه الله وليس في المقدور ان ينعم بمنتهى الكمال على غيره فان منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه في حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره فهذا الوصف أيضا ان كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الا له وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة الى ما هو أشد منه نقصانا كما ان للفرس كمالا بالاضافة الى الحمار وللانسان كمالا بالاضافة الى الفرس وأصل النقص شامل للكل وانما يتفاوتون في درجات النقصان فاذا الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغني الذي لا حاجة له القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والارض القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الازلي الذي لا أول لوجوده الابدي الذي لا آخر لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم امكان العدم حول حضرته القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والارض خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي

عباس حسين وصاه اعمل لله باليقين في الرضا فان لم يكن فان في الصبر خيرا كثيرا (وفي الخبر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير ما أعطي الرجل الرضا بما قسم الله تعالى له فالاخبار والآثار والحكايات في فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى والرضا ثمرة التوبة النصوح وما تخلف عبد عن الرضا الا بتخلفه عن التوبة النصوح فاذن تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر وحال الرضا ومقام الرضا والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين وهما كائنان في صلب التوبة النصوح لان خوفه حمله على التوبة ولولا خوفه ما تاب ولولا رجاؤه ما خاف فالرجاء والخوف يتلازمان في قلب المؤمن ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم في التوبة دخل رسول الله صلى

تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الالسنة الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن
معرفته ومنتهى نبوة الانبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الانبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين
لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه العجز عن درك الادراك
ادراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته فليت شعري من ينكر امكان حب الله
تعالى تحقيقا ويجعله مجازا أينكر ان هذه الاوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أو
ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه
فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه الا من سبقت له منه الحسنى الذين
هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات
البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون
والحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لان الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى الى داود
عليه السلام ان أود الاوداء الي من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها وفي الزبور من أظلم ممن
عبدني لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع ومر عيسى عليه السلام على طائفة من
العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم ومر بقوم آخرين كذلك
فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم اني لاستحي
أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل وكالاجير السوء ان لم يعط لم يعمل وفي
الخبر لا يكونن أحدكم كالاجير السوء ان لم يعط أجره لم يعمل ولا كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل (وأما)
السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لان شبه الشيء منجذب اليه والشكل الى الشكل أميل ولذلك
ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم
أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الاخبار
والآثار كما استقصيناه في باب الاخوة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه واذا كانت المناسبة سبب
التحاب فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع
عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار اليه النبي
صلى الله عليه وسلم اذ قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فالتعارف هو
التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع الى المشابهة في
الصور والاشكال بل الى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك
تحت غطاء الغيرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق اذا استكملوا شرط السلوك فالذي يذكر هو قرب العبد
من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله
وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الالهية من العلم والبر والاحسان واللطف وافاضة
الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وارشادهم الى الحق ومنعهم من الباطل الى غير ذلك من مكارم الشريعة
فكل ذلك يقرب الى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات وأما ما لا يجوز أن يسطر في
الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومئ اليها قوله تعالى ويسئلونك عن الروح
قل الروح من أمر ربي اذ بين انه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى فاذا سويته
ونفخت فيه من روحي ولذلك أسجد له ملائكته ويشير اليه قوله تعالى انا جعلناك خليفة في الارض اذ لم
يستحق آدم خلافة الله تعالى الا بتلك المناسبة واليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على
صورته حتى ظن القاصرون أن لا صورة الا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا
تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا واليه الاشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام مرضت فلم
تعدني فقال يا رب وكيف ذلك قال مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده وهذه المناسبة لا تظهر
الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض كما قال الله تعالى لا يزال يتقرب العبد الي بالنوافل حتى

احبه

الله عليه وسلم على رجل وهو في سياق الموت فقال كيف تجدك قال أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف وجاء في تفسير قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول قد هلكت لا ينفعني عمل فالتائب خاف فتاب ورجا المغفرة ولا يكون التائب تائبا الا وهو راج خائف ثم ان التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله فقد شكر النعم لان كل جارحة من الجوارح نعمة وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها في الطاعة وأي شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم فاذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها فقد جمع مقام التوبة حال الزجر وحال الانتباه وحال

أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مالوا الى التشبيه الظاهر والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر اذ غلبه الوجد في قول القائل

لازلت أنزل من ودادك منزلا * تتحير الالباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لامجازا وفي أعلى الدرجات لافي أدناها فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته اياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب الا وقد يوجد له شريك فيه فان لم يوجد فيمكن أن يوجد الا الله تعالى فانه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك امكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان الى حبه كما لا تتطرق الشركة الى صفاته فهو المستحق اذا لاصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا

﴿ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم وانه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى الا من حرم هذه اللذة ﴾

اعلم أن اللذات تابعة للادراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها المقتضى طبعها الذي خلقت له فان هذه الغرائز ما ركبت في الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لامر من الامور وهو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الابصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالاضافة الى مدركاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الالهي لقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالاسامي فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لان الضعيف يطلب المعاني من الالفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة كادراكه خلق العالم أو افتقاره الى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات الهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية والا فالصفة التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى ان الذي ينسب الى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والذي ينسب الى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به وحتى ان الانسان لا يكاد يصبر عن التحدي بالعلم والتمدح به في الاشياء الحقيرة فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع اذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويتلذ به ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة

التيقظ ومخالفة النفس والتقوى والمجاهدة ورؤية عيوب الافعال والانابة والصبر والرضا والمحاسبة والمراقبة والرعاية والشكر والخوف والرجاء واذا صحت التوبة النصوح وتزكت النفس انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيها فيحصل الزهد والزاهد يتحقق فيه التوكل لانه لا يزهد في الموجود الا لاعتماده على الموجود والسكون الى وعد الله تعالى هو عين التوكل وكلما بقي على العبد بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده في الدنيا وهو ثالث الاربعة (أخبرنا) شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري اجازة قال أنا أبو عمرو محمد ابن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعد قال حدثنا الحسين بن

الملك وتدبير أمر الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى ان الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وان جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس فان كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر لان لذته فيه أعظم فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها وشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان في المعلومات ما هو الاجل والاكمل والاشرف والاعظم فالعلم به ألذ المعلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الاشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادي جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الامور الالهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أن العلم لذيذ وان ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه الى تخوم الارضين فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهي مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل الجمال الفائق للذة النظر الى ما دونه في الجمال وانما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان المخير بين النظر الى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة اذا اختار النظر الى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة وكذلك اذا حضر الطعام وقت الاكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الاكل فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الاكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول اللذات تنقسم الى ظاهرة كلذة الحواس الخمس والى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها اذ ليست هذه اللذة للعين ولا للانف ولا للاذن ولا للمس ولا للذوق والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة وان كان علي الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره الرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر الى أسرار الامور الالهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه الا من ذاق اللذتين جميعا فانه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوبا بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذي لا بد من اتيانه مهما أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالاضافة اليها لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين فانها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وانما عرضها من حيث التقدير

السموات

الحسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم ابن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بفاطمة رضي الله عنها فرآها قد أحدثت في البيت سترا وزوائد في يديها فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ثم جلس فجعل ينكت في الارض ويقول مالي وللدنيا مالي وللدنيا فرأت فاطمة أنه انما رجع من أجل ذلك الستر فأخذت الستر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له اذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم فقل له قد تصدقت به فضعه حيث شئت فأتى بلال الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت فقال النبي صلى الله عليه وسلم بأبي وأمي قد فعلت بأبي وأمي قد فعلت اذهب فبعه

السموات والارض واذاخرج النظر عن المقدرات فلانهاية لعرضها فلايزال العارف بعطا المنهافي جنة عرضها السموات والارض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها اذثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولاممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لايقطعها الموت اذالموت لايهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي وانما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فاما أن يعدمها فلاولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتابل أحياء عندربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الاية ولاتظنن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فان للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبران الشهيد يتمنى في الآخرة ان يرد الى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم مايراه من ثواب الشهادة وان الشهداء يتمنون لو كانواعلماء لمايرونه من علودرجة العلماء فاذاجميع أقطار ملكوت السموات والارض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة الى أن يتحرك اليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والارض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا الا انهم يتفاوتون في سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عندالله ولايدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقدأظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها وان هذه اللذة لاتكون لبهيمة ولالصبي ولالمعتوه وان لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فامامعنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولايمكن اثبات ذلك عندمن لاقلب له لان القلب معدن هذه القوة كما أنه لايمكن اثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولارجحانه على لذة شم البنفسج عندالعنين لانه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لايبقى الا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وان لم يشتغلوا بطلب معرفة الامور الالهية فقداستنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها فانها أيضا معارف وعلوم وان كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الالهية فامامن طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فانه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح مايكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا ممالايدرك الابالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الاشياء وأنه لالذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولارجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض اخوان معروف الكرخي له أخبرني ياأبامحفوظ أي شيء هاجك الى العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا ان ملكا هذا كله بيده ان أحببته أنساك جميع ذلك وان كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا وفي أخبار عيسى عليه السلام اذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال مافعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فانت قال علم الله قلة رغبتي في الاكل والشرب فاعطاني النظر اليه وعن علي بن الموفق قال رأيت في النوم كاني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر الى الله تعالى لايطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لاخوفا من ناره ولاشوقا الى جنته بل حباله فاباحه النظر اليه الى يوم القيامة وذكر ان الآخرين بشر بن الحرث وأحمد حنبل ولذلك قال أبو سليمان من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثوري لرابعة ماحقيقة ايمانك قالت ماعبدته خوفا من ناره ولاحبا لجنته فاكون

(وقيل) في قوله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا قيل الزهد في الدنيا * سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الزهد فقال هو أن لاتبالي من أكل الدنيا مؤمن أو كافر (وسئل) الشبلي عن الزهد فقال ويلكم أي مقدار لجناح بعوضة ان يزهد فيها * وقال أبو بكر الواسطي الى متى تصول بترك كنيف والى متى تصول باعراضك عما لاتزن عند الله جناح بعوضة فاذا صح زهد العبد صح توكله أيضا لان صدق توكله مكنه من زهده في الموجود فن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين المقامين استوفي سائر المقامات وتكون فيهما وتحقق بهما وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط احداهما بالاخرى أن يتوب العبد

كالاجير السوء بل عبد ته حباله وشوقا اليه وقالت في معنى المحبة نظما

أحبك حبين حب الهوى * وحبا لانك أهل لذا كا * فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سوا كا * وأما الذى أنت أهل له * فكشفك لى الحجب حتى أرا كا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى * ولكن ذلك الحمد فى ذا وذا كا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ولذلك قال بعضهم انى أقول يارب ياالله فاجد ذلك على قلبى أثقل من الجبال لان النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه وقال اذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أى يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون مايقوله جنونا أو كفرا فقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهى قرة العين التى لاتعلم نفس ما أخفى لهم منها واذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية وليت شعرى من لم يفهم الا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأى معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره انه أعظم النعم بل من عرف الله عرف ان اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها انطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم

كانت لقلبى أهواء مفرقة * فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يادينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم * وهجره أعظم من ناره * ووصله أطيب من جنته *

وما أرادوا بهذا الايثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الاكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس فاما القلب فلذته فى لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق فى لذاتهم مانذكره وهو ان الصبى فى أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الاشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ماقبلها فى الوصول اليها ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ماقبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الاخير اذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز وحب النساء والزينة فى سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الاربعين وهى الغاية العليا وكما أن الصبى يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى والعارفون يقولون ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

﴿ بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا ﴾

اعلم ان المدركات تنقسم الى مايدخل فى الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات والى مالايدخل فى الخيال كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ومن رأى انسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كانه ينظر اليها ولكن اذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وانما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا وهو كشخص يرى

ثم يستقيم فى التوبة حتى لايكتب عليه صاحب الشمال شيأ ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى الى تطهير الجوارح عما لايعنى فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر الى الباطن وتستولى المراقبة على الباطن وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول فاذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الاركان والجوارح وتستقيم توبته قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم كما أمرت ومن تاب معك أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمراله ولاتباعه وأمته (وقيل) لايكون المريد مريدا حتى لايكتب عليه صاحب الشمال شيأ عشرين سنة ولايلزم من هذا

في وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤي عند تمام الضوء فانه لا تفارق احدى الحالتين الاخرى الا في مزيد الانكشاف فاذا الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لانه غاية الكشف لا لانه في العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية واذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم ان المعلومات التي لا تتشكل أيضا في الخيال لمعرفتها وادراكها درجتان احداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الاولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي فيسمى الثاني أيضا بالاضافة الى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لان الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الاجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئي ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية وما لم ترتفع كان الادراك الحاصل بمجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى ان النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهي الى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الاجفان عن رؤية الابصار والقول في سبب كونه حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام لن تراني وقال تعالى لا تدركه الابصار أي في الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الاصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك ومنها ما لم ينته الى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة الى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الاخبار سبعة آلاف سنة ولن ترتحل نفس عن هذا العالم الا ويصحبها غبرة وكدورة ما وان قلت ولذلك قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لان فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالاضافة الى ما تخيله وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية فاذا الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف الا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية فاذا لم يكن في معرفة الله تعالى اثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح الى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لانها هي بعينها لا تفترق منها الا في زيادة الكشف كما ان الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها الا في زيادة الكشف واليه الاشارة بقوله تعالى يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا اذ تمام النور لا يؤثر الا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية الا العارفون في الدنيا لان المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف

وجود العصمة ولكن الصادق التائب في النادر اذا ابتلى بذنب ينمحي أثر الذنب من باطنه في ألطف ساعة لوجود الندم في باطنه على ذلك والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيأ فاذا تاب توبة نصوحا ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم في غدائه لعشائه ولا في عشائه لغدائه ولا يرى الادخار ولا يكون له تعلق همّ بغد فقد جمع في هذا الزهد والفقر والزهد أفضل من الفقر وهو فقر وزيادة لان الفقير عادم للشيء اضطرارا والزاهد تارك للشيء اختيارا وزهده يحقق توكله وتوكله يحقق رضاه ورضاه يحقق الصبر وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات والزهد والتوبة اذا اجتمعا مع صحة الايمان وعقوده

النبات بالاضافة الى اختلاف البذر اذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام ان الله يتجلى للناس عامة ولابي بكر خاصة فلا ينبغي أن يظن ان غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدات ما يجده أبو بكر بل لا يجد الا عشر عشيره ان كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لا محالة تجل انفرد به وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والارض وسائر الامور الالهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر الى وجه الله تعالى على نعيم الجنة اذ يرجع نعيمها الى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من ايثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين في الجنة فقالت الجار ثم الدار فبينت انه ليس في قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة اذ ليس يستأنف لاحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد الا ما زرع ولا يحشر المرء الا على ما مات عليه ولا يموت الا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط الا انه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك منتهى لذته وانما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي الا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالايمان فان قلت فلذة الرؤية ان كان لها نسبة الى لذة المعرفة فهي قليلة وان كان اضعافها الا ان لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها الى حد قريب لا ينتهي في القوة الى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها فاعلم ان هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وان انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فالعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الشهية الى ذوقها ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع واظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن الا بضرب مثال فنقول لذة النظر الى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المعشوق ونقصانه فان اللذة في النظر الى الاجمل أكمل لا محالة والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه والثالث كمال الادراك فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذه بادراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا ادراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كادراكها مع التجرد والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بهم من المهمات فقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر الى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للاولى اليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر الى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الانسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال القصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق الى الملا الاعلى والتفاتها الى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته الى اللعب بالعصفور والعارف وان قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الاحوال تدوم

وشروطه نحو زهده الثلاثة رابع به تمامها وهو دوام العمل لان الاحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين في التوبة تخلفوا عن كثير من سني الاحوال لتخلفهم عن هذا الرابع ولا يراد الزهد في الدنيا الا لكمال الفراغ المستعان به على ادامة العمل لله تعالى والعمل لله أن يكون العبد لا يزال ذاكرا أو تاليا أو مصليا أو مراقبا لا يشغله عن هذه الا واجب شرعي أو مهم لا بد منه طبيعي فاذا استولى العمل القلبي على القلب مع وجود الشغل الذي أداه اليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل فاذا كان مع الزهد والتقوى متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما

فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم بل يعرض من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة الى الموت وانما الحياة الطيبة بعد الموت وانما العيش عيش الآخرة وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون وكل من انتهى الى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ولا يكرهه الا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له فالاحاطة بكنه جلال الله محال فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة وعظم كما انه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر الا في الدنيا ولا يزرع الا في صعيد القلب ولا حصاد الا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله لان المعرفة انما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ويستدعي ذلك زمانا لا محالة فمن أحب الموت أحبه لانه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالغا الى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لانه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ان اتسعت أحبوا البقاء وان ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وان لم تكن كذلك عند ذوي النقصان كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون الى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت الى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لا نظر اليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الازلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الامرين هذا في حكم الجواز فاما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك الا بالسمع والحق ما ظهر لاهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الالفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره اذ لا يجوز ازالة الظواهر الا لضرورة والله تعالى أعلم

❊ بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ❊

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقواهم حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم المحب اذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع الا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وانما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لانه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي الى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الاكثرون وانما يحصل ذلك بسببين * أحدهما قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الاناء الذي لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وكمال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الاناء ينقص من الخل المصبوب فيه والى هذا التفريد والتجريد الاشارة بقوله تعالى قل الله ثم ذرهم في خوضهم وبقوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بل هو معنى قولك لا اله الا الله أي لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه وقال صلى الله عليه وسلم أبغض اله عبد في الارض الهوى ولذلك قال عليه السلام من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى

الى حد ما في العبودية (قال أبو بكر الوراق) يا من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق (وسئل) سهل ابن عبد الله التستري أي منزلة اذا قام العبد بها قام مقام العبودية قال اذا ترك التدبير والاختيار فاذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتي ويصل الى مقام ترك التدبير والاختيار ثم يصل الى أن يملك الاختيار فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه (قال) يحيى بن معاذ الرازي ما دام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفا يقال له ان شئت اختر وان شئت لا تختر لانك ان اخترت فباختيارنا اخترت وان تركت الاختيار

فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لانها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له الا محبوب واحد وقد طال اليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلا من السجن ومكن من المحبوب وروح بالامن ابد الآباد فاحد اسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الاهل والمال والولد والاقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى ان المتفرج بطيب اصوات الطيور وروح نسيم الاسحار ملتفت الى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ما انس بالدنيا فينقص انسه بالله ولا يؤتى احد من الدنيا شيأ الا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما انه لا يقرب الانسان من المشرق الا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته الا ويضيق به قلب ضرتها فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا اوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هى مقدمات ليكتسب بها احد ركنى المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله واوله الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك الى الزهد فى الدنيا وفى المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو احد ركنى المحبة واليه الاشارة بقوله عليه السلام الطهور شطر الايمان كما ذكرناه فى اول كتاب الطهارة * السبب الثانى لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر فى الارض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثانى ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهى الكلمة الطيبة التى ضرب الله بها مثلا حيث قال ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء واليها الاشارة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب اى المعرفة والعمل الصالح يرفعه فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم وانما العمل الصالح كله فى تطهير القلب اولا من الدنيا ثم ادامة طهارته فلا يراد العمل الا لهذه المعرفة واما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الاول وهو الآخر وانما الاول علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة كما ان من كان معتدل المزاج اذا ابصر الجميل وادركه بالعين الظاهرة احبه ومال اليه ومهما احبه حصلت اللذة فاللذة تتبع المحبة بالضرورة والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب الا بالفكر الصافى والذكر الدائم والجد البالغ فى الطلب والنظر المستمر فى الله تعالى وفى صفاته وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون الى هذه الرتبة ينقسمون الى الاقوياء ويكون اول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره والى الضعفاء ويكون اول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل والى الاول الاشارة بقوله تعالى اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد وبقوله تعالى شهد الله انه لا اله الا هو ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى والى الثانى الاشارة بقوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق الآية وبقوله عز وجل اولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وبقوله تعالى قل انظروا ماذا فى السموات والارض وبقوله تعالى الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير وهذا الطريق هو الاسهل على الاكثرين وهو الاوسع على السالكين واليه اكثر دعوة القرآن عند الامر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر فان قلت كلا الطريقين مشكل فاوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به الى المحبة فاعلم ان الطريق الاعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم اكثر الخلق فلا فائدة فى ايراده فى الكتب واما الطريق الاسهل الادنى فاكثره غير خارج عن حد الافهام

فما اختيارنا تركت الاختيار فانك بنافى الاختيار وفى ترك الاختيار والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز الذى هو الغاية والنهاية وهو ان يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار الا باحكام هذه الاربعة التى ذكرناها لان ترك التدبير فناء وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ورده الى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد الى وجود يصير بالحق وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة واستقام ظاهره وباطنه فى العبودية وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدى الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكلنى الى نفسى طرفة

وانما قصرت الافهام عنه لاعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية اذ مامن ذرة من أعلى السموات الى تخوم الارضين الا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لايتناهى بل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة ولايمكن ان يتطفل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرمز الى مثال واحد على الايجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول أسهل الطريقين النظر الى الافعال فلنتكلم فيها ولنترك الاعلى ثم الافعال الالهية كثيرة فلنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها فاقل المخلوقات هو الارض وما عليها أعني بالاضافة الى الملائكة وملكوت السموات فانك ان نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ماترى من صغر حجمها هي مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة فانظر الى صغر الارض بالاضافة اليها ثم انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى فلكها الذي هي مركوزة فيه فانه لانسبة لها اليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالاضافة الى مافوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر الى ظاهر الاشخاص من حيث المقادير وما أحقر الارض كلها بالاضافة اليها بل ما أصغر الارض بالاضافة الى البحار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الارض في البحر كالاصطبل في الارض ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم ان المكشوف من الارض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة الى كل الارض ثم انظر الى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الارض والى سائر الحيوانات والى صغره بالاضافة الى الارض ودع عنك جميع ذلك فاصغر مانعرفه من الحيوانات البعوض والنحل ومايجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات اذ خلق له خرطوما مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الاعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فانبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ماركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر الى هدايته كيف هداه الله تعالى الى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران الى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس وكيف هداه الى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم وكيف علمه المص والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي الى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ثم اذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر الى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الاجفان لصغره وكانت الاجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر الى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الاجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه الى أطراف الاهداب وخلق الاهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الابصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الاهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولايمنع الابصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ولاجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لان بصرها ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم الى الموضع المضيء فلايزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه اليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود اليه مرة أخرى الى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا النقصانها وجهلها فاعلم أن جهل الانسان أعظم من جهلها بل صورة

عين فاهلك ولا الى أحد من خلقك فأضيع اكلاني كلاءة الوليد ولاتخل عني

* الباب الستون في ذكر اشارات المشايخ في المقامات على الترتيب *

(قولهم في التوبة) قال رويم معنى التوبة أن يتوب من التوبة قيل معناه قول رابعة أستغفر الله العظيم من قلة صدقي في قولي أستغفر الله (وسئل) الحسن المغازلي عن التوبة فقال تسألني عن توبة الانابة أو عن توبة الاستجابة فقال السائل ماتوبة الانابة فقال ان تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك قال فماتوبة الاستجابة قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة اذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة

الآدمى فى الاكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار اذ تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدرى أن تحتها السم الناقع القاتل فلا يزال يرمى نفسه عليها الى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الآدمى كجهل الفراش فانها باغترارها بظاهر الضوء ان احترقت تخلصت فى الحال والآدمى يبقى فى النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول انى ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى فى أصغر الحيوانات وفيها من العجائب مالو اجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا الا على أمور جلية من ظاهر صورته فأما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها الا الله تعالى ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لايشاركه فيها غيره فانظر الى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الازهار والانوار واحترازها عن النجاسات والاقذار وطاعتها لواحد من جملتها وأكبرها شخصا وهو أميرها ثم ماسخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقتل على باب المنفذ كل ماوقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب ان كنت بصيرا فى نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك وموالاة اخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر الى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال الشكل المسدس فلا تبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية فى الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الاشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لاتضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل فى الاشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لايبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قدره لطفا به وعناية بوجوده وماهو محتاج اليه ليتهنأ بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الارض والسموات فان القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الاعمار دون ايضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا الى ما أحاط به العلماء والانبياء ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم الى ما استأثر الله تعالى بعلمه بل كل ماعرفه الخلق لايستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطرق يقين وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فان كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له

﴿ بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب ﴾

اعلم ان المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا اذ الاشياء انما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى الا الصفات والاسماء التى قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الارباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها ايمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون وقد ذكر الله حال الاصناف الثلاثة فى قوله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم الآية فان كنت لاتفهم الامور والا بالامثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول أصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لانهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامى يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتم واعجابه به وحبه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لامحالة ومال اليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لامحالة

لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لايقاس به ذنب

(قال) ذو النون توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة وتوبة الانبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ مانالهغيرهم

(سئل) أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشئ ويتركه ثم يخطر ذلك الشئ بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع وليس له حيلة الا أن يرفع قلبه الى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ويدعو الله ان ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته قال وان غفل عن الانكار طرفة عين أخاف عليه أن لايسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن فانه لايضره (وهذا) الذى

حبه لانه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر انه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وانه حسن التصنيف ولكن لايدرى مافى التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير اذا فتش عن التصانيف واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لامحالة لان عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامى يعلم ذلك و يعتقده وأما البصير فانه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله و يتحير فيه لبه ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حبا وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لاساحل له فلاجرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الاسباب الخمسة التى ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا اليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته اذ تتغير بتغير الاحسان فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته ولانه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فانه لايتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

﴿ بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه ﴾

* اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها الى الافهام وأسهلها على العقول وترى الامر بالضد من ذلك فلابد من بيان السبب فيه وانما قلنا انه أظهر الموجودات وأجلاها المعنى لاتفهمه الا بمثال وهو انا اذا رأينا انسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة اذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها و بعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أما حياته وقدرته وارادته وعلمه وكونه حيوانا فانه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وارادته فان هذه الصفات لاتحس بشئ من الحواس الخمس ثم لايمكن أن نعرف حياته وقدرته وارادته الا بخياطته وحركته فلو نظرنا الى كل مافى العالم سواه لم نعرف به صفته فما عليه الا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل مانشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب و بر و بحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا وحركاتنا وسكناتنا وأظهر الاشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لاحصر لها فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها الا شاهد واحد وهو ما احسسنا به من حركة يده فكيف لايظهر عندنا مالايتصور فى الوجود شئ داخل نفوسنا وخارجها الا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله اذ كل ذرة فانها تنادى بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وانها تحتاج الى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم انها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق فى الوجود شئ مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب الا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن ادراكه فان ماتقصر عن فهمه عقولنا فله سببان * أحدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لايخفى مثاله * والآخر مايتناهى

قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته (والعارف) القوى الحال يتمكن من ازالة الحلاوة عن باطنه و يسهل عليه ذلك وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخالص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فأى حلاوة تبقى فى قلبه وانما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله (وسئل) السوسى عن التوبة فقال التوبة من كل شئ ذمه العلم الى مامدحه العلم وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لانه لابقاء للجهل مع العلم كما لابقاء لليل مع طلوع الشمس وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة

وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع ابصاره فلا يرى شيأ الا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية فى نهاية الاشراق والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والارض فصار ظهوره سبب خفائه فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الاشياء تستبان باضدادها وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر ادراكه فلو اختلفت الاشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الامر ومثاله نور الشمس المشرق على الارض فانا نعلم أنه عرض من الاعراض يحدث فى الارض ويزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة فى الاجسام الا ألوانها وهى السواد والبياض وغيرهما فانا لا نشاهد فى الاسود الا السواد وفى الابيض الا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين فعلمنا أن الاجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه الا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات اذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر فى نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فالله تعالى هو أظهر الامور وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والارض وبطل الملك والملكوت ولادرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الاشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ولكن دلالته عامة فى الاشياء على نسق واحد ووجوده دائم فى الاحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب فى قصور الافهام وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فانه فى حال اعتدال أمره لا يرى الا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس فى الوجود الا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهى تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وانما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الافعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر فى شئ من الافعال الا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث انه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث انه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له الى غيره كمن نظر فى شعر انسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث انه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر الى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر اليه من حيث انه فعل الله وعرفه من حيث انه فعل الله وأحبه من حيث انه فعل الله لم يكن ناظرا الا فى الله ولا عارفا الا بالله ولا محبا الا له وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى الا الله بل لا ينظر الى نفسه من حيث نفسه بل من حيث انه عبد الله فهذا الذى يقال فيه انه فنى فى التوحيد وانه فنى عن نفسه واليه الاشارة بقول من قال كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الافهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن ايضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض الى الافهام وباشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم فهذا هو السبب فى قصور الافهام عن معرفة الله تعالى وانضم اليه أن المدركات كلها التى هى شاهدة على الله انما يدركها الانسان فى الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك اذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الانس بها ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره الى السماء والارض والاشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها فهذا وأمثاله من الاسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على

وأعم أوصافها (وقال) أبو الحسن النورى التوبة أن تتوب عن كل شئ سوى الله تعالى (قولهم) فى الورع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملاك دينكم الورع (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبى بكر بن خلف عن أبى عبد الرحمن السلمى اجازة قال أنا أبو سعيد الخلال قال حدثنى ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن حبيب بن عبيد عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر وقال يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم (قال) عمر بن الخطاب لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف الكرخى احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم (نقل) عن الحرث

الخلق سبيل الاستضاءة بانوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة فالناس في ظلمهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل اذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره والجليات اذا صارت مطلوبة صارت معتاصة فهذا سرهذا الامر فليحقق ولذلك قيل لقد ظهرت فما تخفى على أحد * الا على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا * فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

﴿ بيان معنى الشوق الى الله تعالى ﴾

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق اذ لا يتصور الشوق الا الى محبوب ونحن نثبت وجوب الشوق الى الله تعالى وكون العارف مضطرا اليه بطريق الاعتبار والنظر بانوار البصائر وبطريق الاخبار والآثار أما الاعتبار فيكفي في اثباته ماسبق في اثبات الحب فكل محبوب يشتاق اليه في غيبته لا محالة فاما الحاصل الحاضر فلا يشتاق اليه فان الشوق طلب وتشوف الى أمر والموجود لا يطلب ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور الا الى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فاما مالا يدرك أصلا فلا يشتاق اليه فان لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق اليه وما أدرك بكماله لا يشتاق اليه وكمال الادراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوما للنظر اليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق انما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف الابمثال من المشاهدات فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق الى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق اليه ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه الى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق الى استكمال رؤيته وتمام الانكشاف في صورته باشراق الضوء عليه (والثاني) أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وان لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق الى أن ينكشف له مالم يره قط والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فان ما اتضح للعارفين من الامور الالهية وان كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات فان الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف اليها شواغل الدنيا فانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام اشراق التجلي ولا يكون ذلك الا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فانه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما الثاني ان الامور الالهية لا نهاية لها وانما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ماغاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقا الى أن يحصل له أصل المعرفة فيمالم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الاول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان ابراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فاعطني ذلك فقد أضر بي القلق قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال ياابراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك مايسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب بهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني ما أقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فان هذا الشوق يسكن في الآخرة * وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة اذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ماهو معلوم لله تعالى وهو محال لان ذلك لا نهاية له ولا يزال العبد عالما بانه بقي من الجمال والجلال مالم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة الا أنه تشوق الى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف

ابن أسد المحاسبي انه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق اذا مد يده الى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق (سئل الشبلي) عن الورع فقال الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين (وقال) أبو سليمان الداراني الورع أول الزهد كما ان القناعة طرف من الرضا وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تاويل (سئل) الخواص عن الورع فقال أن لا يتكلم العبد الا بالحق غضب أو رضي وان يكون اهتمامه بما يرضي الله تعالى (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبي بكر بن خلف اجازة عن السلمي قال سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم

والنظر متوالية الى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق الى ما يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا أصلا فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه باتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به اتمام النور فى غير ما استنار فى الدنيا استنارة محتاجة الى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا يدل على أن الانوار لا بد وأن يتزود أصلها فى الدنيا ثم يزداد فى الآخرة اشراقا فاما أن يتجدد نور فلا والحكم فى هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه * وأما شواهد الاخبار والآثار فاكثر من أن تحصى فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وقال أبو الدرداء لكعب أخبرنى عن أخص آية يعنى فى التوراة فقال يقول الله تعالى طال شوق الابرار الى لقائى وانى الى لقائهم لأشد شوقا قال ومكتوب الى جانبها من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فقال أبو الدرداء أشهد انى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا وفى أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى قال يا داود أبلغ أهل ارضى انى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسى وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا أهل الارض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع الى محبتكم فانى خلقت طينة أحبائى من طينة ابراهيم خليلى وموسى نجيى ومحمد صفيى وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى الى بعض الصديقين ان لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يا رب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما يحن الطائر الى وكره عند الغروب فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الى أقدامهم وافترشوا الى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا الى بانعامى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعينى ما يتحملون من أجلى وبسمعى ما يشتكون من حبى أول ما أعطيهم ثلاث أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم والثانية لو كانت السموات والارض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم والثالثة أقبل بوجهى عليهم فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد ان أعطيه وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه يا داود الى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق الى قال يا رب من المشتاقون اليك قال ان المشتاقين الى الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الى خرقا ينظرون الى وانى لاحمل قلوبهم بيدى فاضعها على سمائى ثم ادعو نجباء ملائكتى فاذا اجتمعوا سجدوا لى فأقول انى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين الى وأباهى بكم أهل الشوق الى فان قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لاهل الارض يا داود انى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثى وجعلت أبدانهم موضع نظرى الى الارض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الى يزدادون فى كل يوم شوقا قال داود يا رب أرنى أهل محبتك فقال يا داود ائت جبل لبنان فان فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا أتيتهم فاقرئهم منى السلام وقل لهم ان ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم أحبائى وأصفيائى

واوليائى

الامن ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيأ (وقال) الخواص الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة

﴿قولهم فى الزهد﴾

قال الجنيد الزهد خلو الايدى من الاملاك والقلوب من التتبع (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال لازهد فى الحقيقة لانه اما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد أو يزهد فيما هو له فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده فليس الا صلف النفس وبذل مواساة يشير الى الاقسام التى سبقت بها الاقلام وهذا لو اطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب ولكن مقصود الشبلى أن يقلل الزهد فى عين المعتد بالزهد لئلا يغتر به (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدا فى الدنيا ومنطقا فاقربوا

وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عز وجل فلما نظروا الى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه فقال داود انى رسول الله اليكم جئتكم لابلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم الى الارض فقال داود انى رسول الله اليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم وأنظر اليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة قال فجرت الدموع على خدودهم فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا وقال الآخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك وقال الآخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترئ على الدعاء وقد علمت انه لا حاجة لنا فى شئ من أمورنا فادم لنا لزوم الطريق اليك وأتمم بذلك المنة علينا وقال الآخر نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا عليه بجودك وقال الآخر من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترئ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك وطلبتنا الدنو من نورك وقال الآخر كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك وقال الآخر أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك وقال الآخر قد عرفت حاجتنا انما هى النظر الى وجهك وقال الآخر كيف يجترئ العبد على سيده اذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات وقال الآخر ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا وقال الآخر نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا وقال الآخر لا حاجة لنا فى شئ من خلقك فامنن علينا بالنظر الى جمال وجهك وقال الآخر أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر الى الدنيا وأهلها وقلبى عن الاشتغال بالآخرة وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شئ دونك فأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم الى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فانى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا الى نورى وجلالى فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بى ومناجاتهم لى وان هذا منزل لا يناله الا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشئ من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر الى نظر الناظر بعينه الى الشئ وأريه كرامتى فى كل ساعة وأقربه من نور وجهى ان مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها وان عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى فاذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها اليه لا يفتر عن الاشتغال بى يستعجلنى القدوم وأنا أكره أن أميته لانه موضع نظرى من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه اذا سمع بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفا وعبادة وعزتى وجلالى ياداود لاقعدنه فى الفردوس ولاشفين صدره من النظر الىّ حتى يرضى وفوق الرضا وفى أخبار داود أيضا قل لعبادى المتوجهين الى محبتى ماضركم اذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا الىّ بعيون قلوبكم وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا اذا بسطت دينى لكم وما ضركم مسخطة الخلق اذا التمستم رضائى وفى أخبار داود أيضا ان الله تعالى أوحى اليه تزعم أنك تحبنى فان كنت تحبنى فاخرج حب الدنيا من قلبك فان حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب ياداود خالص حبيبى مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال أما ما استبان لك مما وافق محبتى فتمسك به وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقا على أنى أسارع الى سياستك وتقويمك وأكون قائدك ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعينك على الشدائد وانى قد حلفت على نفسى انى لا أثيب الا عبدا قد عرفت من طلبته وارادته القاء كنفه بين يدى وانى لا غنى به عنى فاذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فانى قد حلفت على نفسى انه لا يطمئن عبد لى الى نفسه ينظر الى فعالها الا وكلته اليها أضف الاشياء الىّ لا تضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتى حدا فليس لها غاية ومتى طلبت

منه فانه يلقن الحكمة وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون فقال تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير قيل هم الزاهدون (وقال) سهل بن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا (وقيل) فى قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا قيل عن الدنيا (وفى الخبر) العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا فى الدنيا فاذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم (وجاء) فى الاثر لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين (وقال) سهل أعمال البر كلها فى موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم (وقيل) من سمى باسم

منى الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة منى حدا ثم أعلم بنى اسرائيل أنه ليس بينى و بين أحد من خلق نسب فلتعظم رغبتهم وارادتهم عندى أبح لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضعنى بين عينيك وانظر الى بصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك الى الذين حجبت عقولهم عنى فامرجوها وسخت بانقطاع ثوابى عنها فانى حلفت بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويف تواضع لمن تعلمه ولا تتطاول على المريدين فلو علم أهل محبتى منزلة المريدين عندى لكانوا لهم أرضا يمشون عليها ياداود ولان تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأ كتبك عندى جهيدا ومن كتبته عندى جهيدا لا يكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين ياداود تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فاحجب عنك محبتى لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فانما أبحت الشهوات لضعفة خلقى ما بال الاقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتى وانما عقوبة الاقوياء عندى فى موضع التناول أدنى ما يصل اليهم ان أحجب عقولهم عنى فانى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها ياداود ولا تجعل بينى و بينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين استعن على ترك الشهوات بادمان الصوم واياك والتجربة فى الافطار فان محبتى للصوم ادمانه ياداود تحبب الى بمعادات نفسك امنعها الشهوات انظر اليك وترى الحجب بينى و بينك مرفوعة انما أدارك مداراة لتقوى على ثوابى اذا امتننت عليك به وانى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتى وأوحى الله تعالى الى داود ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت أوصالهم من محبتى ياداود هذه ارادتى فى المدبرين عنى فكيف ارادتى فى المقبلين على ياداود أحوج ما يكون العبد الى اذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى اذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى اذا رجع الى فهذه الاخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على اثبات المحبة والشوق والانس وانما تحقيق معناها ينكشف بما سبق

﴿ بيان محبة الله للعبد ومعناها ﴾

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك * ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى يحبهم و يحبونه وقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وقال تعالى ان الله يحب التوابين و يحب المتطهرين ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال قل فلم يعذبكم بذنوبكم وقد روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا ان الله يحب التوابين ومعناه انه اذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وان كثرت كما لا يضر الكفر الماضى بعد الاسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الايمان الا من يحب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر خفضه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وقال عليه السلام قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به الحديث وقال زيد بن أسلم ان الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر وقد ذكرنا ان محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز اذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى الشئ الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط وقد بينا ان الاحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا وان الجمال والاحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر فاما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الاسامى كلها اذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى ان اسم الوجود الذى هو أعم الاسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع وانما الاستواء فى اطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم اذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لان يكون فيه أصلا فليست الجسمية لاحدهما مستفادة من

الآخر

الزهد فى الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم (وقال) السرى الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحب المنزلة عند الناس وحب المحمدة والثناء (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال الزهد غفلة لان الدنيا لاشئ والزهد لاشئ غفلة (وقال) بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم (وعندى) ان الزهد فى الزهد غير هذا وانما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد لان الزاهد اختار الزهد وأراده وارادته تستند الى علمه وعلمه قاصر فاذا أقيم فى مقام ترك الارادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده فيترك الدنيا بمراد

الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه وهذا التباعد في سائر الاسامي أظهر كالعلم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق و واضع اللغة انما وضع هذه الاسامي أولا للخلق فان الخلق أسبق الى العقول والافهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى موافق ملائم وهذا انما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الالهية فهو حاضر وحاصل و واجب الحصول أبدا وأزلا ولا يتصور تجدده ولا زواله فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غيره بل نظره الى ذاته وأفعاله فقط وليس في الوجود الا ذاته وأفعاله ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى يحبهم و يحبونه فقال بحق يحبهم فانه ليس يحب الا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب الا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو اذا لا يحب الا نفسه وما ورد من الالفاظ في حبه لعباده فهو مؤول و يرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه والى تمكينه اياه من القرب منه والى ارادته ذلك به في الازل فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف الى الارادة الازلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب واذا أضيف الى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى لا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ولا يفهم هذا الا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك اليه اما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه فيقال ان الملك يحبه و يكون معناه ميله اليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الاخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا فاذا رفع الملك الحجاب بينه و بينه يقال قد أحبه واذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبب نفسه الى الملك فحب الله للعبد انما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الاول وانما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق الى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الاخلاق التي هي الاخلاق الالهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار قريبا بعد ان لم يكن وهو محال في حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال ولا ينكشف هذا الا بمثال في القرب بين الاشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والاستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول الى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى ارتفاع العلم فلا يزال دائبا في التغير والترقي الى أن يقرب من أستاذه والاستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علما واحاطة بحقائق الامور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الاستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فانه لا نهاية لكماله وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي الا الى حد محدود فلا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له أيضا لاجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذا محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا و رفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه وأما محبة

الحق لا بمراد نفسه فيكون زهده بالله تعالى حينئذ أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشئ من الدنيا فما يدخل بالله في شئ من الدنيا لا ينقص عليه زهده فيكون دخوله في الشئ من الدنيا بالله و باذن منه زهدا في الزهد والزاهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ان تركها تركها بالله وان أخذها أخذها بالله وهذا هو الزهد في الزهد وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام (وفوق) هذا مقام آخر في الزهد وهو لمن يرد الحق اليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه في مقام البقاء فيزهد زهدا ثانيا و يترك الدنيا بعد ان مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة و يكون تركه الدنيا في هذا المقام باختياره واختياره من اختيار الحق فقد يختار تركها حينا تأسيا بالانبياء

العبد لله فهو ميله الى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق الى ما فاته واذا أدرك منه شيأ
يلتذ به والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب
الله فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه
قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره و يحول بينه و بين غيره قيل
لعيسى عليه السلام لم لا تشتري حمارا فتركبه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار وفي الخبر اذا
أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضي اصطفاه وقال بعض العلماء اذا رأيتك تحبه و رأيته يبتليك فاعلم
أنه يريد يصافيك وقال بعض المريدين لاستاذه قد طولعت بشيء من المحبة فقال يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه
فآثرت عليه اياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فانه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره و ينهاه وقد قال اذا أراد الله بعبد خيرا بصره
بعيوب نفسه فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن
يتولى الله تعالى أمره ظاهره و باطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لامره والمزين لاخلاقه والمستعمل
لجوارحه والمسدد لظاهره و باطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره
والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه و بين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله
للعبد فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله فانها أيضا علامات حب الله للعبد

﴿ القول في علامات محبة العبد لله تعالى ﴾

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى فلا ينبغي أن يغتر الانسان بتلبيس الشيطان وخدع
النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والادلة والمحبة شجرة طيبة أصلها
ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب
والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الاشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق
الكشف والمشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا الا و يحب مشاهدته ولقاءه واذا علم أنه
لا وصول الا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محبا للموت غير فار منه فان المحب لا يثقل عليه
السفر عن وطنه الى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول الى المشاهدة قال صلى
الله عليه وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم وقال
بعض السلف ما من خصلة أحب الى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء
الله على السجود وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا انا نحب الله فجعل
القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وقال عز وجل يقاتلون في
سبيل الله فيقتلون و يقتلون وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء والباطل
خفيف وهو مع خفته و بيء فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب اليك من الموت وهو مدركك وان ضيعت
وصيتي لم يكن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه و يروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي
ان عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب اني أقسمت
عليك اذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك و يقاتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني
و يبقر بطني فاذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك فأقول فيك يارب وفي رسولك فتقول صدقت
قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط قال سعيد بن المسيب أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما
أبر أوله وقد كان الثوري و بشر الحافي يقولان لا يكره الموت الا مريب لان الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه
وقال البويطي لبعض الزهاد أتحب الموت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته وتلا قوله تعالى فتمنوا الموت
ان كنتم صادقين فقال الرجل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يتمنين أحدكم الموت فقال انما قاله لضر نزل به لان
الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه فان قلت فمن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله فأقول
كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والمال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لان

والصالحين ويرى
ان أخذها في مقام
الزهد رفق أدخل
عليه لموضع ضعفه عن
درك شأو الاقوياء من
الانبياء والصديقين
فيترك الرفق من الحق
بالحق للحق وقد يتناوله
باختياره رفقا بالنفس
بتسديد يتر دسوسه فيه
صريح العلم (وهذا)
مقام التصرف الاقوياء
العارفين زهدوا ثالثا
بالله كما زهدوا ثانيا بالله
كما زهدوا أولا لله
(قولهم في الصبر)
قال سهل الصبر انتظار
الفرج من الله وهو
أفضل الخدمة وأعلاها
وقال بعضهم الصبر أن
تصبر في الصبر أي
لا تطالع فيه الفرج
(قال) الله تعالى
والصابرين في البأساء
والضراء وحين البأس
أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون
(وقيل) لكل شيء
جوهر وجوهر الانسان
العقل وجوهر العقل
الصبر فالصبر عرك

الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب ولكن لايبعد أن يكون له مع حب الاهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون فى الحب ويدل على التفاوت ماروى أن أباحذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحته اياها وانى لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهى أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم فهذا يدل على أن من الناس من لايحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلاجرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها (وأما السبب الثانى للكراهة) فهو ان يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وانما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لايدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لاتنافى كمال الحب أصلا وعلامته الدؤب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على مايحبه فى ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولايزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا اليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالايثار فقال يحبون من هاجر اليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل

أريد وصاله ويريد هجرى * فاترك ما أريد لما يريد

بل الحب اذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى ان زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت الى الله تعالى فكان يدعوها الى فراشه نهارا فتدافعه الى الليل فاذا دعاها ليلا سوفت به الى النهار وقالت يايوسف انما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما اذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها ان الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى انه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين فقالت أما اذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقا اليه فطاعة لامر الله تعالى فعندها سكنت اليه فاذا من أحب الله لايعصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه

تعصى الاله وأنت تظهر حبه * هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع

(وفى هذا المعنى قيل أيضا)

وأترك ما أهوى لما قد هويته * فأرضى بما ترضى وان سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب ايثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا وانما الحبيب من اجتنب المناهى وهو كما قال لان محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى يحبهم ويحبونه واذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وانما عدوه نفسه وشهواته فلايخذله الله ولايكله الى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى والله أعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا فان قلت فالعصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول انه يضاد كمالها ولايضاد أصلها فكم من انسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل مايضره مع العلم بأنه يضره وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ماروى أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها الى أن أتى به يوما فحده فلعنه رجل وقال ما أكثر مايؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لاتلعنه فانه يحب الله ورسوله فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين اذا كان الايمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا فاذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصى وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم

النفس وبالعرك تلين والصبر جار فى الصابر مجرى الانفاس لانه يحتاج الى الصبر عن كل منهى ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا والعلم يدل والصبر يقبل ولاتنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر ومن كان العلم سائسه فى الظاهر والباطن لايتم ذلك له الا اذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لايستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الغريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتحامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر يميل أحدهما على الآخر

فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحب شيأ أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب اليه فان من يحب انسانا يحب كلب محلته فالمحبة اذا قويت تعدت من المحبوب الى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لانه رسوله وكلامه لانه كلامه فلم يجاوز حبه الى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لانهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الاخوة والصحبة ولذلك قال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فانما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فانما يكرم الله تعالى وحكي عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الارادة فادمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقني فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام ان كنت تزعم انك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت الى حالي وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه الا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وان لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها الا زادا وبلغة الى الآخرة ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لابراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الانس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لا تستأنس الى أحد من خلقي فاني انما أقطع عني رجلين رجلا استبطأ ثوابي فانقطع ورجلا نسيني فرضي بحاله وعلامة ذلك أن أكله الى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الاسود الذي استسقى به موسى عليه السلام ان الله تعالى قال لموسى عليه السلام ان برخا نعم العبد هو لي الا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يعجبه نسيم الاسحار فيسكن اليه ومن أحبني لم يسكن الى شيء وروي أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهرا طويلا فنظر الى طائر وقد عشش في شجرة يأوي اليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدي الى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال ففعل فأوحى الله تعالى الى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لاحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا فاذا علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة وعلامة الانس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه فالمحب من لا يطمئن الا بمحبوبه وقال قتادة في قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب قال هشت اليه واستأنست به وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر وقال مطرف بن أبي بكر المحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى الى داود عليه

السلام

أعني النفس والروح وبيان ذلك يدق وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب كل أجير أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب (وقال) الله تعالى لنبيه واصبر وما صبرك الا بالله أضاف الصبر الى نفسه لشرف مكانه وتكميل النعمة به * وقيل وقف رجل على الشبلي فقال أي صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فغضب الشبلي وقال ويحك أي شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلي صرخة كاد أن تتلف روحه (وعندي) في معنى الصبر عن الله وجه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد

السلام قد كذب من ادعى محبتي اذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أناذا موجود لمن طلبني وقال موسى عليه السلام يارب أين أنت فاقصدك فقال اذا قصدت فقد وصلت وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل و يعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة قال بعض العارفين ان لله عبادا أحبوه واطمأنوا اليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحفظ أنفسهم اذا كان ملك مليكهم تاما وماشاء كان فما كان لهم فهو واصل اليهم وما فاتهم فيحسن تدبيره لهم وحق المحب اذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه و يشتغل بالعتاب و يسأله و يقول رب بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي و بمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر و رقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيأ الا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له الا ما فيه خيرته و يذكر قوله وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها و يسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال الجنيد علامة المحبة دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور وقال بعض العلماء والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه و يستلذ خدمته بقلبه وان كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الاشياء اليه أن تعاوده القدرة وان يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه فمن كان محبوبه أحب اليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وان كان أحب اليه من المال ترك المال في حبه وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حالك هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب ان كنت تحبني فايش تنفق علي قال ياسيدي أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبد لمعبود فكل هذا بسببه ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيأ مما يكرهه كما قال الله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف و به وصف الله أولياءه اذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء و يأوون الى ذكري كما يأوي النسر الى وكره و يغضبون لمحارمي كما يغضب النمر اذا حرد فانه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر الى هذا المثال فان الصبي اذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا وان أخذ منه لم يكن له شغل الا البكاء والصياح حتى يرد اليه فان نام أخذه معه في ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه اذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى في الابرار ان الابرار لفي نعيم ثم قال يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون فانما طاب شراب الابرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما ان الكتاب عبر به عن جميع الاعمال فقال ان كتاب الابرار لفي عليين ثم قال يشهده المقربون فكان أمارة علو كتابهم انه ارتفع الى حيث يشهده المقربون وكما ان الابرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالهم في الآخرة ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة كما بدأنا أول خلق نعيده وكما قال تعالى جزاء وفاقا أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من

عن الله استحياء واجلالا وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا ويتغيب في مفاوز استكانته وتخفيه لاحساسه بعظيم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لانه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن أن تكتحل بصيرتها باستطلاع نور الجمال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك (وقال) أبو الحسن بن سالم هم ثلاثة متصبر وصابر وصبار فالمتصبر من صبر في الله فمرة يصبر ومرة يجزع والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولكن تتوقع منه الشكوى وقد يمكن منه الجزع وأما الصبار فذاك الذي صبره في الله ولله وبالله فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لا من جهة الرسم

الشوب في حبه وأعماله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور ومكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فليلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهنالك تنتهي لذته في الآخرة لانه انما يعطى كل انسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه الا حبه بالاخلاص والصدق أنزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر فالابرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور والعين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة الى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقوام آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الالباب ولما قصرت الافهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال وما أدراك ما عليون كما قال تعالى القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل ادراك العظمة يوجب الهيبة كما ان ادراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الاعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين اذ سمع قوله تعالى ألا بعدا لثمود ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وانما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ولا يحن الى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فانا قدمنا ان درجات القرب لا نهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون وكذلك قال عليه السلام انه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة وانما كان استغفاره من القدم الاول فانه كان بعدا بالاضافة الى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات الى غير المحبوب كما روي أن الله تعالى يقول ان أدنى ما أصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي ان أسلبه لذيذ مناجاتي فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون الى ما ظهر من مبادي اللطف وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه الا ذو الاقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع ابراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل

كل شيء منك مغفو * ر سوى الاعراض عنا

قد وهبنا لك ما فا * ت فهب ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى الا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان وكما ان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه الى حب غيره وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الاوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها وظهور هذه الاسباب دليل على النقل عن مقام الحب الى مقام المقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه الامور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيأ خاف

والخلقة واشارته في هذا ظهور وحكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة (وكان) الشبلي يتمثل بهذين البيتين

ان صوت المحب من ألم الشو ق وخوف الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصبـ ر فصاح المحب بالصبر صبرا

(قال) جعفر الصادق رحمه الله أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الحظ الاعلى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره بالله لا بنفسه فقال وما صبرك الا بالله (وسئل) السري عن الصبر فتكلم فيه فدب على رجله عقرب فجعل يضربه بابرته فقيل له لم لا تدفعه قال أستحي من الله تعالى ان أتكلم في حال ثم أخالف ما أتكلم فيه (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبي بكر بن خلف اجازة عن أبي

لامحالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف اذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه فالمحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف الا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فانما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روي في بعض الاخبار ان بعض الصديقين سأله بعض الابدال ان يسأل الله تعالى ان يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب انقصه من الذرة بعضها فأوحى الله تعالى اليه انما أعطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيأ من المحبة في الوقت الذي سألني هذا فأخرت اجابتهم الى أن شفعت أنت لهذا فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانك يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيته فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين وقد قيل في وصف حال العارف

قريب الوجد ذو مرمى بعيد * عن الاحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب * كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت * عن الابصار الا للشهيد
يرى الاعياد في الاوقات تجري * له في كل يوم ألف عيد
وللاحباب أفراح بعيد * ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها الى أسرار أحوال العارفين وان كان ذلك لا يجوز اظهاره وهي هذه الابيات

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم * فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله في ظل قدسه * تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى * ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته * وفي حلل التوحيد تمشي وترفل
ومن بعد هذا ما تدق صفاته * وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمي به ما يصونه * وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم * وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه * الى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي اليها الاشارة لا يجوز ان يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الاسواق والمعايش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الالسنة والاقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخير أسرارا وحكما ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته * ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقي من اظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب واجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولانه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبى وتتعجل عليه البلوى في الدنيا نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لانه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ما أنا صانع * بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري

عبد الرحمن قال سمعت محمد بن خالد يقول سمعت الفرغاني يقول سمعت الجنيد رحمه الله يقول ان الله تعالى أكرم المؤمنين بالايمان وأكرم الايمان بالعقل وأكرم العقل بالصبر فالايمان زين المؤمن والعقل زين الايمان والصبر زين العقل وأنشد عن ابراهيم الخواص رحمه الله

صبرت على بعض الاذى خوف كله * ودافعت عن نفسي لنفسي فعزت
وجرعتها المكروه حتى تدربت * ولو لم أجرعها اذا لاشمأزت
ألا رب ذل ساق للنفس عزة * ويا رب نفس بالتذلل عزت
اذا ما مددت الكف ألتمس الغنى * الى غير من قال اسألوني فشلت
سأصبر جهدي ان في الصبر عزة * وأرضى بدنياي وان هي قلت

فمالى منه غير ذكر بخاطر * يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول يخفى فيبدى الدمع أسراره * ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا ومن قلبه مع غيره كيف حاله * ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم اشارة به كأنه أراد من يكثر التعريض به فى كل شئ ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل ودخل ذو النون المصرى على بعض اخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكنى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره فقال ذو النون ولكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب اليه فان قلت المحبة منتهى المقامات واظهارها اظهار للخير فلماذا يستنكر فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وانما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق المحب ان ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون اقواله وافعاله وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه الى اظهار الحب ولا الى اظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط فاما ارادته اطلاع غيره فشرك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الانجيل اذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية واذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم الا اذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الاعضاء فلا يلام فيه صاحبه * حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسببه أن المحب ان كان عارفا وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستنكف من نفسه ومن اظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين فى مملكته وان حبه أنقص من حب كل محب لله قال بعض المكاشفين من المحبين عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيأ فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شئ فقلت من أنتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم فاذا من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته واقدامه واحجامه وتردداته كما حكى عن الجنيد انه قال مرض استاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر اليها الطبيب وجعل ينظر اليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت الى السرى فأخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت يا أستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة لو شئت أقول ما أيبس جلدى على عظمى ولا نحل جسمى الا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على انه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته ومنها الانس والرضا كما سيأتى وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الاخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الاخلاق نعم قد يحب الله لاحسانه اليه وقد يحبه لجلاله وجماله وان لم يحسن اليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام احسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه الا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان فاما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه اذ استحق عندهم المحبة بذلك لانه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله ابليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء وقراء

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما أنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر الا كان ما عاضه خيرا مما انتزعه منه وأنشد اسمنون

تجرعت من حاليه نعمى وأبؤسا
زمانا اذا أجرى عزاليه احنسى
فكم غمرة قد جرعتنى كؤسها
فجرعتها من بحر صبرى أكؤسا
تدرعت صبرى والتحفت صروفه
وقلت لنفسى الصبر أو فاهلكى أسى
خطوب لو أن الشم زاحمن خطبها
لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

* قولهم فى الفقر *

قال ابن الجلاء الفقر أن لا يكون لك فاذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر (وقال) الكتانى اذا صح الافتقار الى الله تعالى صح الغنى

السوء أولئك بغضاء الله في أرضه وكان سهل اذا تكلم مع انسان قال يادوست أي ياحبيب فقيل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال في اذن القائل سرا لا يخلو اما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وان كان منافقا فهو حبيب ابليس وقد قال أبو تراب النخشبي في علامات المحبة أبياتا

لا تخدعن فللحبيب دلائل * ولديه من تحف الحبيب وسائل

منها تنعمه بمر بلائه * وسروره في كل ماهو فاعل

فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر اكرام وبر عاجل

ومن الدلائل أن ترى من عزمه * طوع الحبيب وان ألح العاذل

ومن الدلائل أن يرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل

ومن الدلائل أن يرى متفهما * لكلام من يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يرى متقشفا * متحفظا من كل ماهو قائل

وقال يحيى بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمرا * في خرقتين على شطوط الساحل

ومن الدلائل حزنه ونحيبه * جوف الظلام فماله من عاذل

ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى * من دار ذل والنعيم الزائل

ومن الدلائل أن تراه باكيا * أن قد رآه على قبيح فعائل

ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الامور الى المليك العادل

ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه في كل حكم نازل

ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل

﴿ بيان معنى الانس بالله تعالى ﴾

قد ذكرنا ان الانس والخوف والشوق من آثار المحبة الا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما غلب عليه في وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب الى الطلب وانزعج له وهاج اليه وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى أمر غائب واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت الى مالم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمي استبشاره انسا وان كان نظره الى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لاسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالانس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى انه اذا غلب وتجرد عن ملاحظة ماغاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا انما الشوق الى غائب فاذا كان الغائب حاضرا فالى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت الى ما بقي في الامكان من مزايا الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة كما حكى أن ابراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت فقال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الاشياء على القلب كما روى ان موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس الا أخذه الغشيان لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يامن آنسني بذكره وأوحشني من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبي مستأنسا ومن سواي مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركي مالا يعنيني وأنسي بمن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة فقال ياهذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت اليها من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت ياراهب

بالله تعالى لانهما حالان لا يتم أحدهما الا بالآخر (وقال) النوري نعت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود وقال غيره والاضطراب عند الموجود وقال الدارج فتشت كنت أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتحيرت فلما جاء قلت له اني وجدت في كنفك هذه القطعة قال قد رأيتها ردها ثم قال خذها واشتر بها شيأ فقلت ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال مارزقني الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها فأردت أن أوصي ان تشد في كفني فأردها الى الله (وقال) ابراهيم الخواص الفقر رداء الشرف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين (وسئل) سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق فقال لا يسأل ولا يرد ولا يحبس (وقال) أبو علي الروذباري رحمه الله

ماأقل مانجده فى الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت ياراهب متى يذوق العبد حلاوة الانس بالله تعالى قال اذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت ومتى يصفو الود قال اذا اجتمع الهم فصار هما واحدا فى الطاعة وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسوالك عنك * فان قلت فما علامة الانس فاعلم ان علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة وغريب فى حضر وحاضر فى سفر وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور ومخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين واستلانوا مااستوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة الى دينه فهذا معنى الانس بالله وهذه علامته وهذه شواهده وقد ذهب بعض المتكلمين الى انكار الانس والشوق والحب لظنه ان ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا وقال ليس الا الصبر فأما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين الا على القشور فظن أنه لا وجود الا للقشر فان المحسوسات وكل مايدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز الا الى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل

الانس بالله لايحويه بطال * وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب * وكلهم صفوة لله عمال

(بيان معنى الانبساط والادلال الذى تثمره غلبة الانس)

اعلم أن الانس اذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فانه يثمر نوعا من الانبساط فى الاقوال والافعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم فى مقام الانس ومن لم يقم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الاسود الذى أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام ان يسأله ليستسقى لبنى اسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم فى سبعين ألفا فأوحى الله عز وجل اليه كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين ويأمنون مكرى ارجع الى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق اذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود فى شملة قد عقدها على عنقه فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمى برخ قال فأنت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسق لنا فخرج فقال فى كلامه ماهذا من فعالك ولا هذا من حلمك وما الذى بدا لك أنقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين ألست كنت غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة قال فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى اليه ان برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات وعن الحسن قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر بذلك فبعث الى صاحب الخص قال فأتى بشيخ فقال ياشيخ مابال خصك لم يحترق قال انى أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضى الله عنه انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يكون فى أمتى قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال انى

سألنى الزقاق فقال ياأبا على لم ترك الفقراء أخذ البلغة فى وقت الحاجة قال قلت لانهم مستغنون بالمعطى عن العطايا قال نعم ولكن وقع لى شئ آخر فقلت هات أفدنى ماوقع لك قال لانهم قوم لا ينفعهم الوجود اذ الله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة اذ الله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال المسوحى الفقير الذى لاتغنيه النعم ولا تفقره المحن (وقال) يحيى ابن معاذ حقيقة الفقر أن لا يستغنى الا بالله ورسمه عدم الاسباب كلها وقال أبو بكر الطوسى بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الاشياء فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى حتى سألت نصر بن الحمامى فقال لى لانه أول منزل من منازل التوحيد فقنعت بذلك (وسئل)

اقسمت

أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فاعزم على النار أن تطفأ فأقال فعزم عليها فطفئت وكان أبو حفص عشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حفص ما أصابك فقال ضل حماري ولا أملك غيره قال فوقف أبو حفص وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره قال فظهر حماره في الوقت ومر أبو حفص رحمه الله * فهذا وأمثاله يجري لذوي الانس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم قال الجنيد رحمه الله أهل الانس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة وقال مرة لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل

قوم تخالجهم زهو بسيدهم * والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له * يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والابصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار فإنما هي عند ذوي الاعتبار من الاسمار فأول القصص قصة آدم عليه السلام وابليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتباء والعصمة أما ابليس فأبلس عن رحمته وقيل انه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيه وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الاعراض عن عبد والاقبال على عبد وهما في العبودية سيان ولكن في الحال مختلفان فقال وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى وقال في الآخر أما من استغنى فأنت له تصدى وكذلك أمره بالقعود مع طائفة فقال عز وجل وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم وأمره بالاعراض عن غيرهم فقال وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى قال فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي فكذا الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض فمن انبساط الانس قول موسى عليه السلام ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وقوله في التعلل والاعتذار لما قيل له اذهب الى فرعون فقال ولهم على ذنب وقوله اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني وقوله اننا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الادب لان الذي أقيم مقام الانس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودي عليه الى يوم القيامة لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * قال الحسن العراء هو القيامة ونهي نبينا صلى الله عليه وسلم ان يقتدي به وقيل له فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الاحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد وقد قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وقال منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولادلاله سلم على نفسه فقال والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا وهذا انبساط منه لما شاهده من اللطف في مقام الانس وأما يحيى بن زكريا عليهما السلام فانه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه فقال وسلام عليه وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء قد عددت من أول قوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا الى رأس العشرين من اخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل محي من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام ابن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه فقد روي أن الله تعالى أوحى الى سليمان عليه السلام يا رأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين الى كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزتي وجلالي لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه لاتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى اليه

ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى ثم ذهب ورجع ثم قال اني لم أسكت الا لدرهم كان عندي فذهبت فأخرجته واستحييت من الله تعالى أن أتكلم في الفقر وعندي ذلك ثم جلس وتكلم (قال) أبو بكر بن طاهر من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة فان كان ولا بد لا تجاوز رغبته كفايته (قال) فارس قلت لبعض الفقراء مرة وعليه أثر الجوع والضر لم لا تسأل فيطعموك فقال اني أخاف أن أسألهم فيمنعون فلا يفلحون وأنشد لبعضهم

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خلعة ساق عبده الجرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما
قلب يرى ربه الاعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به
يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

فخرج حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع رأسه و يديه نحو السماء وقال الهى وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب ان لم تتب على وكيف أستعصم ان لم تعصمنى لاعودن فاوحى الله تعالى اليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة فقد تبت عليك وأنا التواب الرحيم وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه اليه وناظر به اليه وفى الخبر ان الله تعالى أوحى الى عبد تداركه بعد ان كان أشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك قد أهلكت فى دونه أمة من الامم فهذه سنة الله تعالى فى عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ماسبقت به المشيئة الازلية وهذه القصص وردت فى القرآن لتعرف بها سنة الله فى عباده الذين خلوا من قبل فما فى القرآن شىء الا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى الى خلقه فتارة يتعرف اليهم بالتقديس فيقول قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وتارة يتعرف اليهم بصفات جلاله فيقول الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وتارة يتعرف اليهم فى أفعاله المخوفة المرجوة فيتلو عليهم سنته فى أعدائه وفى أنبيائه فيقول ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ولا يعدو القرآن هذه الاقسام الثلاثة وهى الارشاد الى معرفة ذات الله وتقديسه أو معرفة صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده ولما اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الاقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن لان منتهى التقديس أن يكون واحدا فى ثلاثة أمور لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله ولم يولد ولا يكون فى درجته وان لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله ولم يكن له كفوا أحد ويجمع جميع ذلك قوله تعالى قل هو الله أحد وجملته تفصيل قول لا اله الا الله فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الاسرار فى القرآن ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه نوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الاولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه الا من طال فى آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بانه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن مخبأة فى طى القصص والاخبار فكن حريصا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الانس والانبساط الذى هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ القول فى معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد فى فضيلته ﴾

اعلم ان الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الاكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف الا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه فى الدين فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا ان أمكن الرضا بكل شىء لانه فعل الله فينبغى أن يرضى بالكفر والمعاصى وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ولو انكشفت هذه الاسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصى

﴿ بيان فضيلة الرضا ﴾

﴿ أما من الآيات ﴾ فقوله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه وقد قال تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان ومنتهى الاحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر فكما ان مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان وفى الحديث ان الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته اذ تقصر افهام الخلق

الدهر لى مأتم ان غبت يا أملى
والعيد ما دمت لى مرأى ومستمعا
(قولهم فى الشكر) قال بعضهم الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم (وقال) يحيى ابن معاذ الرازى لست بشاكر ما دمت تشكر وغاية الشكر التحير وذلك ان الشكر نعمة من الله تجب الشكر عليها ﴿ وفى أخبار داود عليه السلام الهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك فاوحى الله اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتنى ومعنى الشكر فى اللغة هو الكشف والاظهار يقال شكر وكشر اذا كشف عن ثغره وأظهره فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر وباطن الشكر ان تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية فهو شكر النعمة وسمعت شيخنا

عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادرا له من نفسه وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر اليه فانما سألوا الرضا لانه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الامانى لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا الا دوامه وعلموا ان الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى ولدينا مزيد قال بعض المفسرين فيه يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين احداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها فذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم والثالثة يقول الله تعالى انى عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ورضوان من الله أكبر أى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد * وأما من الاخبار فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة ايمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة وفى خبر آخر أنه قال حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء وفى الخبر طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به وقال صلى الله عليه وسلم من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل وقال أيضا اذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه وقال أيضا اذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤا فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيأ فتقول الملائكة من أمة من أنتم فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما فيقولون كنا اذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول الملائكة يحق لكم هذا وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا وفى أخبار موسى عليه السلام أن بنى اسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا اذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام الهى قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحب ان يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده فان الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه وفى أخبار داود عليه السلام ما لاوليائى والهم بالدنيا ان الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم يا داود ان محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون وروى أن موسى عليه السلام قال يا رب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى اليه ان رضاى فى كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره قال يا رب دلنى عليه قال فان رضاى فى رضاك بقضائى وفى مناجاة موسى عليه السلام أى رب أى خلقك أحب اليك قال من اذا أخذت منه المحبوب سالمنى قال فأى خلقك أنت عليه ساخط قال من يستخيرنى فى الامر فاذا قضيت له سخط قضائى وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو ان الله تعالى قال أنا الله لا اله الا أنا من لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى وفى الخبر المشهور يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف وفى الاخبار السالفة ان نبيا من الانبياء شكا الى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب الى ما أراد ثم أوحى الله تعالى اليه كم تشكو هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والارض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لامحونك من ديوان النبوة وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك

رحمه الله ينشد عن بعضهم
أولينى نعما أبوح بشكرها
وكفيتنى كل الامور بأسرها
فلاشكرنك ما حييت وان أمت
فلتشكرنك أعظمى فى قبرها
(قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابتلى فصبر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر قيل فما باله قال أولئك لهم الامن وهم مهتدون (قال) الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان (وفى) الحديث أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله (وقال) بعضهم فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قال الظاهرة العوافى والغنى والباطنة

وهو مطرق الى الارض لا ينطق ولا يرفع رأسه فقال له بعض ولده يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا فقال يا بنى انى رأيت ما لم تروا وعلمت ما لم تعلموا انى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ومن دار النعيم الى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبنى ما لا أعلم وقال أنس بن مالك رضى الله عنه خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشئ فعلته لم فعلته ولا لشئ لم أفعله لا فعلته ولا قال فى شئ كان ليته لم يكن ولا فى شئ لم يكن ليته كان وكان اذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول دعوه لو قضى شئ لكان ويروى أن الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود انك تريد وأريد وانما يكون ما أريد فان سلمت لما أريد كفيتك ما تريد وان لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون الا ما أريد ﴿ وأما الآثار ﴾ فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال وقال عمر ابن عبد العزيز ما بقى لى سرور الا فى مواقع القدر وقيل له ما تشتهى فقال ما يقضى الله تعالى وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء وقال الفضيل ان لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن أبى رواد ليس الشان فى أكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشان فى الرضا عن الله عز وجل وقال عبد الله بن مسعود لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب الى من أن أقول لشئ كان ليته لم يكن أو لشئ لم يكن ليته كان ونظر رجل الى قرحة فى رجل محمد بن واسع فقال انى لأرحمك من هذه القرحة فقال انى لأشكرها منذ خرجت اذ لم تخرج فى عينى وروى فى الاسرائيليات أن عابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة فسأل عنها الى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر الى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة فقال أما لك عمل غير ما رأيت فقالت ما هو والله الا ما رأيت لا أعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خصيلة واحدة هى فى ان كنت فى شدة لم أتمن أن أكون فى رخاء وان كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة وان كنت فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد وعن بعض السلف ان الله تعالى اذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الارض أن يرضوا بقضائه وقال أبو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر وقال عمر رضى الله عنه ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء وقال الثورى يوما عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال أستغفر الله فقال جعفر بن سليمان الضبعى فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت اذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة وكان الفضيل يقول اذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى وقال أحمد بن أبى الحوارى قال أبو سليمان الدارانى ان الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فان محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط

﴿ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى ﴾

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء الا الصبر فاما الرضا فلا يتصور فانما أتى من ناحية انكار المحبة فاما اذا ثبتت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى ان الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين * أحدهما ان يبطل الاحساس بالالم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فانه فى حال غضبه أو فى حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى اذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذى يغدو فى شغل قريب قد تصيبه شوكة فى قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذى يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لان القلب اذا صار مستغرقا بامر من الامور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء

البلاوى والفقر فان هذه نعم أخر ويقلما يستوجب بها من الجزاء (وحقيقة) الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعما غير ما يضره فى دينه لان الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيأ الا وهو نعمة فى حقه فاما عاجلة يعرفها ويفهمها واما آجلة بما يقضى له من المكاره فاما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيرا فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم فقد شكر

﴿ قولهم فى الخوف ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الحكمة مخافة الله (وروى) عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال كان داود النبى عليه السلام يعوده الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض الا خوف الله تعالى والحياء منه (قال) أبو عمر الدمشقى الخائف من يخاف من نفسه

الحب على قلبه هذا اذا أصابه من غير حبيبه فكيف اذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل واذا تصوّر هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصوّر في الالم العظيم بالحب العظيم فان الحب أيضا يتصوّر تضاعفه في القوة كما يتصوّر تضاعف الالم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شئ منه فقد يبهره بحيث يدهش و يغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه فقد روى أن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يا دوست ضرب الحبيب لا يوجع * وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به و يدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعني بعقله وان كان كارها بطبعه كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فانه يدرك ألم ذلك الا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله فهذا حال الراضي بما يجرى عليه من الالم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بان ثوابه الذي ادخر له فوق مافاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا ان كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه و يجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ولا معنى له الا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فان نظر الى الجمال فما هو الا جلد ولحم ودم مشحون بالاقذار والاخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وان نظر الى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فاذا تصوّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الازلي الابدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار و يشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها وقال الجنيد سألت سريا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال نعم وان ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة وقال بعضهم أحببت كل شئ بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت فقال لاني عاشق فقلت له ولم سكت قال لان معشوقي كان بحذائي ينظر الى فقلت فلو نظرت الى المعشوق الاكبر قال فزعق زعقة خر ميتا وقال يحيى ابن معاذ الرازي رحمه الله تعالى اذا نظر أهل الجنة الى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر الى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع اليهم فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله اذا لاحظت جلاله هابت واذا لاحظت جماله تاهت وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني اربا اربا ما ازددت له الا حبا قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد و بين ربه فانكرتها وقال أبو عمرو ومحمد بن الاشعث ان أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء الا النظر الى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء ابن مسلم شابا وفي يده مدية وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول

يوم الفراق من يوم القيامة أطول * والموت من ألم التفرق أجمل
قالوا الرحيل فقلت لست براحل * لكن مهجتي التي تترحل

أكثر مما يخاف من الشيطان (وقال) بعضهم ليس الخائف من يبكي و يمسح عينيه ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه (وقيل) الخائف الذي لا يخاف غير الله قيل أي لا يخاف لنفسه انما يخاف اجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة (وقال) سهل الخوف ذكر والرجاء أنثى أي منهما تتولد حقائق الايمان (قال) الله تعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله (قيل) هذه الآية قطب القرآن لان مدار الامر كله على هذا (وقيل) ان الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال تعالى هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه

ثم بقر بالمدية بطنه ونحر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لي انه كان يهوى فتى لبعض الملوك فحجب عنه يوما واحدا
وروى ان يونس عليه السلام قال لجبريل دلني على أعبد أهل الارض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه
ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول الهي متعتني بهما ما شئت أنت وسلبتني ما شئت أنت وأبقيت لي فيك
الامل يابر ياوصول ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى
قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ ان حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته
وما رجل أشد سرورا أبدا منه فقيل له في ذلك فقال ابن عمر انما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به
وقال مسروق كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم
خباءهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا
ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال
عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبقوا هم قال وانما أخذوا أولئك لما
كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله
تعالى فاذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال * وروى ان عيسى عليه السلام مر برجل أعمى
أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من
خلقه فقال له عيسى ياهذا أي شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه
ما جعل في قلبي من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة وقد
أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة
خرجت بها ثم قال الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وايمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ولئن كنت ابتليت لقد
عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت ان كان
الفقر فان فيه الصبر وان كان الغنى فان فيه البذل وقال أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا الا الرضا فمالي
منه الا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا وقيل لعارف آخر هل
نلت غاية الرضا عنه فقال أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته ولو جعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق علي الى
الجنة ثم ملأ بي جهنم تحلة لقسمه وبدلا من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا كلام من علم
أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس بألم النار فان بقي احساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره
حصول رضا محبوبه بالقائه اياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وان كان بعيدا من أحوالنا
الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الاقوياء ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الاولياء
وقال الروذباري قلت لابي عبد الله بن الجلاء الدمشقي قول فلان وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وان هذا
الخلق أطاعوه ما معناه فقال ياهذا ان كان هذا من طريق التعظيم والاجلال فلا أعرف وان كان هذا من طريق
الاشفاق والنصح للخلق فاعرف قال ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره
ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف
وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي قال لاني أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فان أحبه
الى الله تعالى أحبه الي ثم قال أحدثك شيأ لعل الله أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت ان الملائكة تزورني فآنس
بها وتسلم علي فأسمع تسليمها فاعلم بذلك ان هذا البلاء ليس بعقوبة اذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة فمن يشاهد
هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيأ
حتى كشف فقالت له امرأته أهلي فداؤك ما نطعمك ما نسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت
نضوا لا أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا فذكر أياما وما يسرني اني نقصت من هذا قلامة ظفر * ولما قدم
سعد بن أبي وقاص الى مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون اليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو
لهذا ولهذا وكان مجاب الدعوة قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت اليه فعرفني وقال أنت قارئ

(وقال) سهل كمال الايمان بالعلم وكمال العلم بالخوف (وقال) أيضا العلم كسب الايمان والخوف كسب المعرفة (وقال) ذو النون لا يسقى المحب كأس المحبة الا من بعد أن ينضج الخوف قلبه (وقال) فضيل بن عياض اذا قيل لك تخاف الله اسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت فليس وصفك وصف من يخاف

﴿قولهم في الرجاء﴾
(قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان ثم يقول وعزتي وجلالي لا أجعل من آمن بي في ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بي (قيل) جاء أعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يلي حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى

أهل مكة قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها فقلت له ياعم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال يابني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي وعن بعض العباد أنه قال اني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو قال قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب الي من أن أقول لشيء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه وقيل لعبد الواحد بن زيد ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال له ياحبيبي أخبرني عنك هل قنعت به قال لا قال أنست به قال لا قال فهل رضيت عنه قال لا قال فانما مزيدك منه الصوم والصلاة قال نعم قال لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه بأنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى الى درجات القرب بأعمال القلب وانما أنت تعد في طبقات أصحاب اليمين لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم * ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال من أنتم فقالوا محبوك فاقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتم محبتي ان صدقتم فاصبروا على بلائي وللشبلي رحمه الله تعالى

ان المحبة للرحمن أسكرني * وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه وذلك ان أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يواريها يعني بذلك ان الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه * وقيل انه وقع الحريق في السوق فقيل للسري احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله فاذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا وامكانه من وجهين أحدهما الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب المرجو كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء والثاني الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ ارادته ولو في هلاك روحه كما قيل * فما لجرح اذا أرضاكم ألم * وهذا ممكن مع الاحساس بالألم وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن ادراك الألم فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه لأنه انما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه * وقد روي عن عمرو بن الحرث الرافعي قال كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى * على العاشقين البكا ولا سيما عاشق * اذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى أحسنت والله ياسيدتي أفتأذنين لي أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحركناه فاذا هو ميت وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع اليه ويظهر له المحبة فالتفت اليه الصبي وقال له الى متى ذا النفاق الذي تظهر لي فقال قد علم الله اني صادق فيما أورده حتى لو قلت لي مت لمت فقال ان كنت صادقا فمت قال فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا * وقال سمنون المحب كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبيناهو يحرك القدر اذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا قال هذا مكان قولك آه * وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا * لا خير في عشق بلا موت

قال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي فقال النبي صلى الله عليه وسلم مم ضحكت يااعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح (وقال) شاه الكرماني علامة الرجاء حسن الطاعة (وقيل الرجاء) رؤية الجلال بعين الجمال (وقيل) قرب القلب من ملاطفة الرب قال أبو علي الروذباري الخوف والرجاء كجناحي الطائر اذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه (قال) أبو عبد الله بن خفيف الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو (قال) مطرف لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا والخوف والرجاء للايمان كالجناحين ولا يكون خائفا الا وهو راج ولا راجيا الا وهو خائف لان موجب الخوف الايمان وبالايمان رجاه وموجب الرجاء الايمان ومن الايمان خوف ولهذا المعنى

ثم رمى نفسه الى الارض فحملوه ميتا فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى
لان البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم
فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور والذي فقد السمع ينكر لذة الالحان
والنغمات الموزونة فالذي فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب

﴿ بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا ﴾

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في ازالتها بالامر
بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي
والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع
فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام على ما نقلناه في
كتاب الدعوات تدل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى المقامات من الرضا وقد أثنى الله تعالى
على بعض عباده بقوله يدعوننا رغبا ورهبا وأما انكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده
وذمهم على الرضا به فقال ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها وقال تعالى رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع
الله على قلوبهم وفي الخبر المشهور من شهد منكرا فرضي به فكأنه قد فعله وفي الحديث الدال على الشر كفاعله
وعن ابن مسعود ان العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك قال يبلغه فيرضى
به وفي الخبر لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكا في قتله وقد أمر الله تعالى بالحسد
والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقال النبي صلى الله عليه
وسلم لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته
في الحق وفي لفظ آخر ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل
ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل وأما بغض الكفار والفجار والانكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد
القرآن والاخبار لا يحصى مثل قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وقال تعالى يا أيها
الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء وقال تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وفي الخبر ان الله
تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن وقال عليه السلام
المرء مع من أحب وقال من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة وقال عليه السلام أوثق عرى الايمان
الحب في الله والبغض في الله وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب
الصحبة وفي كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده فان قلت فقد وردت الآيات والاخبار
بالرضا بقضاء الله تعالى فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد وان كانت
بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى وكيف السبيل الى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه
وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد فاعلم ان هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن
الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا وسموه
حسن خلق وهو جهل محض بل نقول الرضا والكراهة يتضادان اذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة
على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه اذ قد يموت عدوك
الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في اهلاكه فتكرهه من حيث انه مات عدو عدوك وترضاه
من حيث انه مات عدوك وكذلك المعصية لها وجهان وجه الى الله تعالى من حيث انه فعله واختياره وارادته
فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك الى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه الى العبد من حيث انه كسبه
ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت فهو من هذا
الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا الا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه اني أريد
أن أميز بين من يحبني ويبغضني وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني أقصد الى فلان فأوذيه
وأضربه ضربا يضطره ذلك الى الشتم لي حتى اذا شتمني أبغضته واتخذته عدوا لي فكل من أحبه أعلم

روي عن لقمان أنه قال لابنه خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره وارجه أشد من خوفك قال فكيف أستطيع ذلك وانما لي قلب واحد قال أما علمت ان المؤمن لذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر وهذا لانهما من حكم الايمان

﴿قولهم في التوكل﴾

قال السري التوكل الانخلاع من الحول والقوة (وقال) الجنيد التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل (وقال) سهل كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فانه وجه بلا قفا (قال) بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالايمان فقال وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقال وعلى الله فليتوكل المؤمنون وقال لنبيه وتوكل على الحي الذي لا يموت (وقال) ذو النون

أيضا انه عدوى وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة لحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول أما تدبيرك في ايذاء هذا الشخص وضربه وابعاده وتعريضك اياه للبغض والعداوة فانا محب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وارادتك وأما شتمه اياك فانه عدوان من جهته اذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث انه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فانا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا في تدبيرك وتعويقا في مرادك وأنا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث انه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك اذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فانا كاره له من حيث نسبته اليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فانا راض به ومحب له لانه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له لان شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا وأما بغضه لك فاني أرضاه من حيث انك أردت أن يبغضك اذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني أبغضه من حيث انه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته اياك و بغضه ومقته لك أيضا عندي مكروه من حيث انه وصفه وكل ذلك من حيث انه مرادك فهو مرضي وانما التناقض أن يقول هو من حيث انه مرادك مرضي ومن حيث انه مرادك مكروه وأما اذا كان مكروها لا من حيث انه فعله ومراده بل من حيث انه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه و يشهد لذلك كل ما يكره من وجه و يرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى فاذا تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك الى حب المعصية و يجره الحب الى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلا ليجره الضرب الى الغضب والغضب الى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وان كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وان كان شتمه انما يحصل بتدبيره واختياره لاسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده أعني تسليط دواعي المعصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بابعاده ومقته فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله و يمقت من مقته الله و يعادي من أبعده الله عن حضرته وان اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وان كان بعيدا بابعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتا بغيضا الى جميع المحبين موافقة للمحبوب باظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بابعاده وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الاخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث انه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في افشائه وهو ان الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالاولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم القدر سر الله فلا تفشوه وذلك يتعلق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن بيان لامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة الى كشف السر فيه و بهذا يعرف أيضا ان الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الاسباب المعينة غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب و رقة التضرع و يكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الاسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا ان التمسك بالاسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لان الرضا مقام ملاصق للتوكل و يتصل به نعم اظهار البلاء في معرض الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا واظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله

التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة (قال) أبو بكر الدقاق التوكل رد العيش الى يوم واحد واسقاط هم غد (وقال) أبو بكر الواسطي أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره الى توكله لحظة في عمره (وقال) بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه وينس الدنيا وأهلها لان حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله (وقال) سهل أول مقامات التوكل ان يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير (وقال) حمدون القصار التوكل هو الاعتصام بالله (وقال) سهل أيضا العلم كله باب من التعبد والتعبد كله باب من الورع والورع

تعالى لايناقض وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لايقول هذا يوم حار أى فى معرض الشكاية وذلك فى الصيف فأما فى الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الاطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لان مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قادح فى الرضا بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ماقاله عمر رضى الله عنه لاأبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فانى لا أدرى أيهما خير لى

﴿ بيان أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لايقدح فى الرضا ﴾

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون يدل على النهى عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى لان كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة فى النهى عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الاصحاء وبقى فيه المرضى مهملين لامتعهد لهم فيهلكون هزالا وضرا ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الاخبار بالفرار من الزحف ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل واذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لابد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التى تدعو الى المعاصى والاسباب التى تدعو اليها لاجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد واظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال مارأيت بها الا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغى أن تظن أن ذلك من الغيبة لانه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وانما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج الى مكة وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الاحبار وقال ابن عمر رضى الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فما تصنع به بلغنى أنه مامن أحد يسكن العراق الاقيض الله له قرينا من البلاء وذكر كعب الاحبار يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفى متدرع بعباءة فأجلسه الى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أحدهم فى زى الرهبان فاذا سألناه أين تسكن قال فى عش الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد فى الحش وكان يقول لاتقتدوا بى فى المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى قيل وأين تختار السكنى قال بالثغور وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصى ويقل فيها الخير فلا عذر له فى المقام بها بل ينبغى ان يهاجر قال الله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فان منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغى أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس اليه بل ينبغى أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وذلك لان الظلم اذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فاذا ليس فى شئ من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق الا من حيث اضافتها الى فعل الله تعالى فاما هى فى نفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء فى الافضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لاأختار شيأ بل أرضى بما اختاره الله تعالى ورفعت هذه المسألة الى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لانه أقلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن اسباط فقال الثورى كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أنى مت فقال له

كله باب من الزهد والزهد كله باب من التوكل (وقال) التقوى واليقين مثل كفتى الميزان والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان ويقع لى أن التوكل على قدر العلم بالوكيل فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ومن كمل توكله غاب فى رؤية الوكيل عن رؤية توكله ثم ان قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل فى القسمة وأن الاقسام نصبت بازاء المقسوم لهم عدلا وموازنة فان النظر الى غير الله لوجود الجهل فى النفس وكل ما أحس بشئ يقدح فى توكله يراه من منبع النفس فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس وكماله يثبت بغيبة النفس وليس للاقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وانما شغلهم فى تغييب النفس بتقوية مواد القلب فاذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر اليه

يوسف لم قال لما أخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم قال لعلى أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقيل لوهيب أيش تقول أنت فقال أنا لا أختار شيأ أحب ذلك الى أحبه الى الله سبحانه فقبل الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة ﴿بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم﴾ قيل لبعض العارفين انك محب فقال لست محبا وانما أنا محبوب والمحب متعوب وقيل له أيضا الناس يقولون انك واحد من السبعة فقال أنا كل السبعة وكان يقول اذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لاني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما أنه لم يبق ولي لله تعالى الا عرفته الا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه وقيل لابي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي الى الله فجمحت على فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك ٭ ويحكى عن يحيى بن معاذ انه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء الى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الارض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم ان قوما طلبوك فاعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك واني أعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم طي الارض فرضوا بذلك واني أعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم كنوز الارض فرضوا بذلك واني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الاولياء ثم التفت فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذ متى أنت ههنا قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الاسفل فدورني في الملكوت السفلي وأراني الارضين وما تحتها الى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان الى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك فقلت ياسيدي ما رأيت شيأ استحسنته فاسألك اياه فقال أنت عبدي حقا تعبدني لاجلي صدقا لافعلن بك ولافعلن فذكر أشيا قال يحيى فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لاسألته المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه وحكى أن أبا تراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال اني عنه مشغول فلما أكثر أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد فقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فاغناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت فقال احملني اليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج الينا من الغيضة وكان يأوي الى غيضة فيها سباع قال فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر اليه فنظر اليه الفتى فصعق فحركناه فاذا هو ميت فتعاونا على دفنه فقلت لابي يزيد ياسيدي نظره اليك قتله قال لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لانه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك ٭ ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمع الى سهل اخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال ان لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم الامات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم قال لانهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من اجابة الله أشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا تقيم الساعة لم يقمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والايمان بامكانها فان القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت

وكل ما تحرك من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء فيغلب وجود الحق الاعيان والاكوان ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقدح في توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح في توكل الضعفاء في التوكل من وجود الاسباب والوسايط لانه يرى الاسباب مواتا لا حياة لها الا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة

﴿قولهم في الرضا﴾ قال الحرث الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم وقال ذو النون الرضا سرور القلب بمر القضاء (وقال) سفيان عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت له أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضيا

كثيرة ومقدورات الله تعالى لانهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لاغاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول ان أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة ابراهيم فاطلب ماوراء ذلك فان عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فان سكنت الى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم ومن هو فى مثل حالهم لانهم الامثل فالامثل وقد قال بعض العارفين كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت اليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال وقيل لى انظر اليهن قال فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر اليهن وقلت أعوذ بك ممن سواك لاحاجة لى بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى فأمثال هذه المكاشفات لاينبغى أن ينكرها المؤمن لافلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد الابما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسى لضاق مجال الايمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الاخلاص واخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الاعمال ظاهرا وباطنا ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحسن الخمول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهى أعز موجود فى الاتقياء من الناس والا بعد تصفية القلب عن كدورة التفات الى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادى الحق وانكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى انكار من أنكر امكان انكشاف الصورة فى الحديدة اذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة فنظر المنكر الى مافى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لايحكى صورة من الصور فانكر امكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها وانكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الاولياء اذ لامستند له الاقصوره عن ذلك وقصور من رآه وبئس المستند ذلك فى انكار قدرة الله تعالى بل انما يشم روائح المكاشفة من سلك شيأ ولو من مبادى الطريق كما قيل لبشر بأى شئ بلغت هذه المنزلة قال كنت أكاتم الله تعالى حالى معناه أسأله أن يكتم على ويخفى أمرى وروى أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له ادع الله تعالى لى فقال يسر الله عليك طاعته قلت زدنى قال وسترها عليك فقيل معناه سترها عن الخلق وقيل معناه سترها عنك حتى لاتلتفت أنت اليها وعن بعضهم أنه قال أقلقنى الشوق الى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يرينى اياه ليعلمنى شيأ كان أهم الاشياء على قال فرأيته فاغلب على همى ولاهمتى الا أن قلت له يا أبا العباس علمنى شيأ اذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر ولايعرفنى أحد بصلاح ولاديانة فقال قل اللهم أسبل على كثيف سترك وحط على سرادقات حجبك واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق اليه بعد ذلك فمازلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرون فى الطرق يحمل الاشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله فى ذله وخموله فهكذا حال أولياء الله تعالى ففى أمثال هؤلاء ينبغى أن يطلبوا والمغرورون انما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفى المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على أوليائه تابى الا اخفاءهم كما قال تعالى أوليائى تحت قبائى لايعرفهم غيرى وقال صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لابره وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها وأقرب القلوب اليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا اذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لايحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته الى الذل بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا فى حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته فمثل هذا القلب يرجى له ان يستنشق مبادى هذه الروائح فان فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغى ان يطرح الايمان بامكان ذلك لاهله فمن لايقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لاولياء الله مؤمنا بهم فعسى أن يحشر مع من أحب ويشهد لهذا ماروى ان عيسى عليه السلام قال لبنى اسرائيل أين ينبت الزرع قالوا فى التراب فقال بحق أقول لكم لاتنبت الحكمة الا فى قلب مثل التراب ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شرطها باذلال النفس الى منتهى الضعة والخسة حتى روى ان ابن الكريبى وهو أستاذ

عن الله تعالى فقالت اذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة وقال سهل اذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة فطوبى لهم وحسن مآب (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا (وقال) عليه السلام ان الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط (وقال) الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل الى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه الى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فانهما حالان لايفارقان العبد فى الدنيا والآخرة لانه فى الجنة لايستغنى عن الرضا والمحبة (وقال) ابن عطاء الرضا سكون القلب الى قديم اختيار الله للعبد لانه اختار له الافضل فيرضى له وهو ترك

الجنيد دعاه رجل الى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع اليه بعد ذلك حتى أدخله فى المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لاجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح فتشتت على قلبى فدخلت الحمام وعدلت الى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت وجعلت أمشى قليلا قليلا فلحقونى فنزعوا مرقعتى وأخذوا الثياب وصفعونى وأوجعونى ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسى فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر الى الخلق ثم من النظر الى النفس فان الملتفت الى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل وانما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ولذلك حكى ان شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبى يزيد فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد فى قلبى من هذا العلم الذى تذكر شيأ وأنا أصدق به وأحبه فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة قال ولم قال لانك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء قال نعم قال قل لى حتى أعمله قال لا تقبله قال فاذكره لى حتى أعمل قال اذهب الساعة الى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق فى عنقك مخلاة مملوأة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعنى صفعة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الاسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لى مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف قال لانك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا أفعله ولكن دلنى على غيره فقال ابتدئ بهذا قبل كل شئ فقال لا أطيقه قال قد قلت لك انك لا تقبل فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره الى نفسه ومرض بنظر الناس اليه ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغى أن ينكر امكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض أولم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فأقل درجات الصحة الايمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا وهذه أمور جلية فى الشرع واضحة وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى تكون قلة الشئ أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف وقال عليه السلام ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشئ من عمله واذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا وقال عليه السلام لا يكمل ايمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا قدر لم يتناول ما ليس له وفى حديث آخر ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر وخشية الله فى السر والعلانية فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لاولى الايمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون الا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراء الايمان وفى الاخبار أن الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه انما أتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيأ من خلقى وان حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وان قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما فمن لم يبلغ الى أن يغلبه الحب الى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الايمان ومقامات الايمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه ان الله تعالى قد أعطاك مثل ايمان كل من آمن بى من أمتى وأعطانى مثل ايمان كل من آمن به من ولد آدم وفى حديث آخر ان لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل فى منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبها الى الله السخاء وقال عليه السلام رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر فى كفة وجئ بأمتى فوضعت فى كفة فرجح بهم ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا

السخط (وقال) أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من للدنيا فى قلبه مقدار وقال السرى خمس من أخلاق المقربين الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره والحب له بالتحبب اليه والحياء من الله والانس به والوحشة مما سواه (وقال) الفضيل الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيأ وقال ابن شمعون الرضا بالحق والرضا له والرضا عنه فالرضا به مدبرا ومختارا والرضا عنه قاسما ومعطيا والرضا له الها وربا (سئل) أبو سعيد هل يجوز أن يكون العبد راضيا ساخطا قال نعم يجوز أن يكون راضيا عن ربه ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله وقيل للحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما ان أباذر يقول الفقر أحب الى من الغنى والسقم أحب الى من الصحة قال رحم الله أباذر أما

ولكن صاحبكم خليل الله تعالى يعني نفسه

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها)

قال سفيان المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الذكر وقال غيره ايثار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله اشارة الى ثمرات المحبة فاما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن ادراكه وتمتنع الالسن عن عبارته وقال الجنيد حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت المحبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف ان تكلم هلك والمحب ان سكت هلك وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم * حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني * أنت بما مر بي عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت الفي * وهل أنسى فاذكر ما نسيت
أموت اذا ذكرتك ثم أحيا * ولولا حسن ظني ما حييت
فاحيا بالمنى وأموت شوقا * فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كاسا بعد كاس * فما نفد الشراب وما رويت
فليت خياله نصب لعيني * فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله الى عيسى عليه السلام اني اذا أطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم سمنون يوما في المحبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الارض حتى سال الدم منه فمات وقال ابراهيم بن أدهم الهي انك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال الى الدنيا طاش والاحمق يغدو ويروح في لاش والعاقل عن عيوبه فتاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله اني لاحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الاعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة انما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلي الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم وقيل المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك اليك وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة المحب على أربع منازل على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لان هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل أحبه واذا أحبه أقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال عليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا الى الله تعالى وحبا للقائه قال فقلت لها فعلى ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحبي اياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الي وتقطعت أوصالهم من محبتي يا داود هذه ارادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين علي يا داود أحوج ما يكون العبد الي اذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعبدي اذا أدبر عني وأجل ما يكون عندي اذا رجع الي وقال أبو خالد الصفار لقي نبي من الانبياء عابدا فقال له انكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معاشر الانبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق وقال الشبلي رحمه الله أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود ذكري للذاكرين وجنتي للمطيعين وزيارتي

أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له وقال علي رضي الله عنه من جلس على بساط الرضا لم يناله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال (وقال) يحيى يرجع الامر كله الى هذين الاصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى بما عمل وتخلص فيما تعمل (وقال) بعضهم الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها (وقيل) ليحيى بن معاذ متى يبلغ العبد الى مقام الرضا قال اذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به يقول ان أعطيتني قبلت وان منعتني رضيت وان تركتني عبدت وان دعوتني أجبت وقال الشبلي رحمه الله بين يدي الجنيد لا حول ولا قوة

للمشتاقين

للشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى الى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فعله ومن اشتاق اليه جد فى مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره و يقول واشوقاه لمن يرانى ولا أراه وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بينى و بينك بحر من نار لخضته اليك شوقا منى اليك وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز فخرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خلقى وقرة عينى فى الصلاة وقال ذو النون سبحان من جعل الارواح جنودا مجندة فارواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا الى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا الى الجنة وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا الى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت فى جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر الى حجر و يقول

الشوق والهوى * صيرانى كما ترى

و يقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والانس والشوق والرضا * فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والانس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به ايمان الموقنين ونقر بوحدانيته اقرار الصادقين ونشهد أن لا اله الا الله رب العالمين وخالق السموات والارضين ومكلف الجن والانس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين فما لله الا الدين الخالص المتين * فانه أغنى الاغنياء عن شركة المشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد انكشف لارباب القلوب ببصيرة الايمان وأنوار القرآن أن لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير اخلاص رياء وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء والاخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بارادة غير الله مشوبا مغمورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الاولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتا العبد الى النجاة والخلاص ونحن نذكر معانى الصدق والاخلاص فى ثلاثة أبواب (الباب الاول) فى حقيقة النية ومعناها (الباب الثانى) فى الاخلاص وحقائقه (الباب الثالث) فى الصدق وحقيقته

(الباب الاول فى النية) وفيه بيان فضيلة النية و بيان حقيقة النية و بيان كون النية خيرا من العمل و بيان تفضيل الاعمال المتعلقة بالنفس و بيان خروج النية عن الاختيار

﴿ بيان فضيلة النية ﴾

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه والمراد بتلك الارادة هى النية وقال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله و رسوله فهجرته الى الله و رسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه وقال صلى الله عليه وسلم أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش و رب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته وقال تعالى ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما

الا بالله قال الجنيد قولك ذا ضيق صدر فقال صدقت قال فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء وهذا انما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضا وذلك أن الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه وانشراح القلب من نور اليقين قال الله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فاذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والتضجر لان اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق لان المحب يرى ان الفعل من المحبوب مراده واختياره فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عند اختيار نفسه كما قيل * وكل ما يفعل المحبوب محبوب ﴿ الباب الحادى والستون فى ذكر الاحوال وشرحها ﴾

ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وانما نظر الى القلوب لانها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهى ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا انه لم يعمل شيأ من ذلك فيقول الله تعالى انه نواه وقال صلى الله عليه وسلم الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الاجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما فى الوزر سواء الاترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله ومساويه وكذلك فى حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال ان بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة الا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوا بحسن النية وفى حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيأ فهو له فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس وكذلك جاء فى الخبر ان رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار لانه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فاضيف الى نيته وفى حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم من غزا وهو لا ينوى الا عقالا فله ما نوى وقال أبى استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ما جعلت له وروى فى الاسرائيليات ان رجلا مر بكثبان من رمل فى مجاعة فقال فى نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى الى نبيهم أن قل له ان الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به وقد ورد فى أخبار كثيرة من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وفى حديث عبد الله بن عمر ومن كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه فى قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها وفى حديث أم سلمة ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقالت يا رسول الله يكون فيهم المكره والاجير فقال يحشرون على نياتهم وقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما يقتتل المقتتلون على النيات وقال عليه السلام اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث كل عبد على ما مات عليه وفى حديث الاحنف عن أبى بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه أراد قتل صاحبه وفى حديث أبى هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ومن ادان دينا وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق وقال صلى الله عليه وسلم من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (وأما الآثار) فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل الاعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم ان عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره وقال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية وقال داود الطائى البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما الى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك وقال الثورى كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ومادمت تنوى الخير فانت بخير وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلنى على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى فانى لا أحب ان يأتى على ساعة من ليل أو نهار الا وأنا عامل من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا فترت أو تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله وكذلك قال بعض السلف ان نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وان ذنوبكم أخفى من ان تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت

(حدثنا) شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو طالب الزينبى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهنى قال أنا أبو عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخارى قال ثنا سليمان بن حرب قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن أحب عبدا لا يحبه الا لله ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار (وأخبرنا) شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال أنا أبو عمر بن حيوة قال حدثنى أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه قال

ولائهم بمعصية وانتهت الى عبراتهم وقال أبو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض اذا قرأ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم يبكي ويرددها ويقول انك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وقال الحسن انما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات وقال أبو هريرة مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل وقال بلال بن سعد ان العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فاذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان صلحت نيته فبالحري أن يصلح مادون ذلك فاذن عماد الاعمال النيات فالعمل مفتقر الى النية ليصير بها خيرا والنية في نفسها خير وان تعذر العمل بعائق

﴿ بيان حقيقة النية ﴾

اعلم أن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل العلم يقدمه لانه أصله وشرطه والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه وذلك لان كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم الا بثلاثة أمور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض اما في الحال أو في المآل فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور فيحتاج الى جلب الملائم الموافق الى نفسه ودفع الضار المنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة الى معرفة وادراك للشئ المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل اليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه اذ المريض يرى الغذاء ويعلم انه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة اليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة وأعني به نزوعا في نفسه اليه وتوجها في قلبه اليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة والاعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك الا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو ان يقوى في نفسه كون الشئ موافقا له فاذا جزمت المعرفة بأن الشئ موافق ولا بد وان يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل فاذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضاء فالقدرة خادمة للارادة والارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو موافق للغرض اما في الحال واما في المآل فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء هو العمل الا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا واسما (أما الاول) فهو ان ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما اذا هجم على الانسان سبع فكما رآه قام من موضعه فلا مزعج له الا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه الى الهرب ورغبت فيه فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها اخلاصا بالاضافة الى الغرض الباعث ومعناه انه خلص عن مشاركة غيره وممازجته (وأما الثاني) فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس ان يتعاون رجلان على حمل شئ بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا ان يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته وعلم انه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وانه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بان يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير

حدثني بشر بن مجد قال حدثنا عبد الملك ابن وهب عن ابراهيم ابن أبي عبلة عن العرباض بن سارية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم اجعل حبك أحب الي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب خالص الحب وخالص الحب هو ان يحب الله تعالى بكليته وذلك أن العبد قد يكون في حال قائما بشروط حاله بحكم العلم والجبلة تتقاضاه بضد ذلك العلم مثل أن يكون راضيا والجبلة قد تكره ويكون النظر الى الانقياد بالعلم لا الى الاستعصاء بالجبلة فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الايمان ويحب الاهل والولد بحكم الطبع وللمحبة وجوه وبواعث المحبة في الانسان متنوعة * فمنها محبة الروح ومحبة القلب ومحبة النفس

أجنبي فيرغب أيضا فيه وذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لولم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لاجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الاول فلنسم هذا مرافقة للبواعث (والثالث) أن لايستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوي مجموعهما على انهاض القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل مالا ينفرد أحدهما به ومثاله من غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه و يقصده الاجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء و يكون بحيث لوكان منفردا لكان لايبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولوكان الطالب فاسقا لاثواب في التصدق عليه لكان لايبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة (والرابع) أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لايستقل ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل و يؤثر في تخفيفه ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم أن عمله لولم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق الى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني اما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها تابعة لاحكم لها في نفسها وانما الحكم للمتبوع

﴿ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله ﴾

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لايطلع عليه الا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لانه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم الى آخر العمل والاعمال لاتدوم وهو ضعيف لان ذلك يرجع معناه الى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لاتدوم الا في لحظات معدودة والاعمال تدوم والعموم يقتضي أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال ان معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد اذ العمل بلانية أو على الغفلة لاخير فيه أصلا والنية بمجردها خير وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير بل المعنى به ان كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه الا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الايصال الى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الارجح بالاضافة الى المقصود فمن قال الخبز خير من الفاكهة فانما يعني به أنه خير بالاضافة الى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك الا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وان الاغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ولن يتنعم بلقاء الله الا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه الا من عرفه ولن يأنس به الا من طال ذكره له فالانس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر الا اذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها الا اذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا الى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وانما يميل الى الخيرات والطاعات اذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها كما يميل العاقل الى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما واذا

وبمحبة العقل فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الاهل والمال والماء البارد معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالبا فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته حتى يكون حب الله تعالى أغلب في الطبع أيضا والجبلة من حب الماء البارد وهذا يكون حبا صافيا للخواص تنغمر به وبنوره آثار الطبع والجبلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه الى مواطن القرب (قال) الواسطي في قوله تعالى يحبهم ويحبونه كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته فالهاء راجعة الى الذات دون النعوت والصفات (وقال) بعضهم المحب شرطه ان تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فاذا المحب حيان حب

حصل أصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان المواظبة على مقتضى صفات
القلب وارادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها فالمائل الى
طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء الا ضعيفا فان اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة
والاعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع وان خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما
زال وانمحق بل الذي ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر
والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو فطم نفسه
ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ويكون ذلك زبرا ودفعا في وجهه حتى
يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة
والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة وميل النفس الى الخيرات الاخروية وانصرافها عن الدنيوية
هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك الا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لان
بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى انه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو اذا أصابته جراحة تألم بها
القلب وترى القلب اذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الاعضاء وارتعدت
الفرائص وتغير اللون الا أن القلب هو الاصل المتبوع فكأنه الامير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع
فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والاعضاء آلات موصلة الى المقصود ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وقال عليه السلام اللهم أصلح
الراعي والرعية وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم
وهي صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثم
يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لانها عبارة عن ميل القلب الى الخير وارادته له وغرضنا من الاعمال
بالجوارح أن يعود القلب ارادة الخير ويؤكد فيه الميل اليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر
فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى الغرض لانه متمكن من نفس المقصود وهذا كما ان المعدة اذا تألمت فقد
تداوى بان يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل الى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر
لان طلاء الصدر أيضا انما أريد به ان يسري منه الاثر الى المعدة فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي
أن تفهم تأثير الطاعات كلها اذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح فلا تظنن أن في
وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والارض بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة
التواضع في القلب فان من يجد في نفسه تواضعا فاذا استكان باعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه
ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا
لان من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان انه يمسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر الى قلبه لتأكيد الرقة وكذلك
من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الارض أثر الى قلبه يتأكد به
التواضع فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالاضافة الى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا
فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه اذا فعل عن غفلة فاذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن
وجوده كعدمه بل زاده شرا فانه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء
التي هي من الميل الى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم
من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي
غاية الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا فليس المقصود من اراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل
القلب عن حب الدنيا وبذلها ايثارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وان عاق عن
العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى ههنا أعني القلب ولذلك قال صلى
الله عليه وسلم ان قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا كما تقدم ذكره لان قلوبهم في صدق ارادة الخير وبذل المال

عام وحب خاص فالحب
العام مفسر بامتثال
الامر وربما كان حبا
من معدن العلم بالآلاء
والنعماء وهذا الحب
مخرجه من الصفات
وقد ذكر جمع من
المشايخ الحب في المقامات
فيكون النظر الى هذا
الحب العام الذي يكون
لكسب العبد فيه
مدخل (وأما) الحب
الخاص فهو حب
الذات عن مطالعة
الروح وهو والحب
الذي فيه السكرات
وهو الاصطناع من الله
الكريم لعبده واصطفاؤه
اياه وهذا الحب يكون
من الاحوال لانه
محض موهبة ليس
للكسب فيه مدخل
وهو مفهوم من قول
النبي صلى الله عليه
وسلم أحب الي من
الماء البارد لانه كلام
عن وجدان روح
تلتذ بحب الذات (وهذا)
الحب روح والحب
الذي يظهر عن مطالعة
الصفات ويطلع
من مطالع الايمان
قالب هذا الروح

والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا تأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة

﴿ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية ﴾

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات ﴿ القسم الأول المعاصي ﴾ وهي لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام إنما الأعمال بالنيات فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العلم والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم وقد قال الله سبحانه فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألفي سنة وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول إنما الأعمال بالنيات وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به

الشيطان

ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله أذلة على المؤمنين لأن المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه وينشد

لعين تفدى ألف عين وتتقى
ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ما شرحناه أولا ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسمان لأنها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكمل فيه ويجتمع

الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لايزال مؤثر الدنيا على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها القلة فضله فكيف يجوز امداده بنوع علم يتمكن به من الوصول الى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد اليهم فلو رأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل أنكروه وتركوا اكرامه واذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم بان من تعلم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها الى غيرها فليس يطلب الا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل * حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله انه كان يتردد اليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لايكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لايذكره حتى قال بلغنى انك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فهذا كانت مراقبة السلف لاحوال طلاب العلم وهذا وأمثاله مما يلتبس على الاغبياء وأتباع الشيطان وان كانوا أرباب الطيالسة والاكمام الواسعة وأصحاب الالسنة الطويلة والفضل الكثير أعنى الفضل من العلوم التى لاتشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء اليها بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق ويتوصل بها الى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الاقران فاذا قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات يختص من الاقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى اذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فاما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو انه اذا انضاف اليها قصود خفيفة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة (القسم الثانى الطاعات) وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها أما الاصل فهو ان ينوى بها عبادة الله تعالى لاغير فان نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر ومثاله القعود فى المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين أولها أن يعتقد انه بيت الله وان داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره وثانيها ان ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى جملة انتظاره فى الصلاة وهو معنى قوله تعالى ورابطوا وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والاعضاء عن الحركات والترددات فان الاعتكاف كف وهو فى معنى الصوم وهو نوع ترهب ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رهبانية أمتى القعود فى المساجد ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد وخامسها التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى فى الخبر من غدا الى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى وسادسها أن يقصد افادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر اذ المسجد لايخلو عمن يسىء فى صلاته أو يتعاطى مالايحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يعلم منه فتتضاعف خيراته وسابعها أن يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله وثامنها ان يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله مايقتضى هتك الحرمة وقد قال الحسن بن على رضى الله عنهما من أدمن الاختلاف الى المسجد رزقه الله احدى سبع خصال أخا مستفادا فى الله أو رحمة مستنزلة أو علما مستطرفا أو كلمة تدله على هدى أو تصرفه عن ردى أو يترك الذنوب خشية أو حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات اذ مامن طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فبهذا تزكو الاعمال وتتضاعف الحسنات (القسم الثالث المباحات) ومامن شىء من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغى أن يستحقر العبد شيأ من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة انه لم فعله وما الذى

له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة النصوح وعند ذلك لايتقلب فى أطوار المقامات لان التقلب فى أطوار المقامات والترقى من شىء منها الى شىء طريق المحبين ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ومن قوله تعالى ويهدى اليه من ينيب أثبت كون الانابة سببا للهداية فى حق المحب وفى حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب فقال تعالى الله يجتبى اليه من يشاء فمن أخذ فى طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيها صفوها وخالصها بأتم وصفها والمقامات لاتقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها لانه حيث

قصد به هذا فى مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عقاب وفى حديث معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليسئل يوم القيامة عن كل شئ حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعه وعن لمسه ثوب أخيه وفى خبر آخر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية فان قلت فما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الاوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا أو يقصد به اظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الاقران أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ولامور أخر لاتحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة فى القيامة الا القصد الاول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية الا انه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيأ من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بان يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائر الله الا طيب الرائحة وان يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه وان يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى ايذاء مخالطيه وان يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين اذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية كما قيل

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم أشار به الى أن التسبب الى الشر شر وان يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها اذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه واذا لم يغلب على قلبه الا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وان ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها الا حديث النفس وليس ذلك من النية فى شئ والمباحات كثيرة ولا يمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف انى لاستحب أن يكون لى فى كل شئ نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى الى الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب الى الله تعالى لان كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الاكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا بأكله ونكاحه وأغلب حظوظ النفس الاكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله واذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بانه سيحمل سيا ته وستنقل الى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن الجواب ففى الخبر ان العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك وفى الخبر ان العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيا تهم ثم صكوا له صكا الى النار وبالجملة فاياك ثم اياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جارلى فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فتربته فهتف بى هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال انى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه

لغير

أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية فالزهد يصفيه عن الرغبة والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء وجود فى النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة فبقى ظلمتها وجودها فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب وجودها فاذا ينزع الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقت رغبته وماذا يصفى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة ممن لم تسلم كليته (قال) الروذبارى مالم تخرج من كليتك لا تدخل فى حد المحبة وقال أبو يزيد من قتلته محبته

لغير الله وقد قال الحسن ان الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني و بينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي فهذا وأمثاله من الاخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولي العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك به من الآخرة و بماذا ترجح الدنيا على الآخرة فاذا علمت أنه لا باعث الا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك والا فامسك ثم راقب أيضا قلبك في امساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة فلا ينبغي أن يكون لداعي هوى خفي لا يطلع عليه ولا يغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وافطن للاغوار والاسرار تخرج من حيز أهل الاغترار فقد روي عن زكريا عليه السلام انه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجير القوم فقدموا له رغيفه اذ كان لا يأكل الا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال اني أعمل لقوم بالاجرة وقدموا الى الرغيف لاتقوى به على عملهم فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة الى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال لولا أني أخذته بدين لاحببت أن تأكل منه وقال سفيان من دعا رجلا الى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وان لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق و بالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الاعمال فلا يقدم ولا يحجم الا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ماذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أتجر لله أو آكل لله و يظن ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر الى خاطر والنية بمعزل من جميع ذلك وانما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ماظهر لها أن فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا والميل اذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهي الطعام وأميل اليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي فذلك محال بل لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه الا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وانما تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالاشخاص و بالاحوال و بالاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة اذ النية هي اجابة الباعث ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد واذا لم يغلب على قلبه أن اقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة الا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية نعم طريقه اكتساب هذه النية مثلا أن يقوي أولا ايمانه بالشرع و يقوي ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم و يدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد فاذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه و يردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات اذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال

فديته رؤيته ومن قتله عشقه فديته منادمته (أخبرنا) بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول سمعت الحسين بن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فاذا التقلب في أطوار المقامات لعوام المحبين وطي بساط الاطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن هممهم المقامات وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات وهي مواطن من يتعثر في أذيال بقاياه (قال) بعض الكبار لابراهيم الخواص الى ماذا أدى بك التصوف فقال الى التوكل فقال تسعى في عمران باطنك أين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل فالنفس اذا تحركت بصفتها منفلتة من دائرة الزهد يردها الزاهد الى الدائرة بزهده والمتوكل

لبس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى فقالت أجيء بالمرآة فسكت ساعة ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كان لي في المدرى نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم اذا سئل عملا من أعمال البر يقول ان رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث الا بنية وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ولا يسئل فيبتدئ فقيل له في ذلك قال أفتحبون أن أحدث بغير نية اذا حضرتني نية فعلت وحكى أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الاسانيد فانظر فيه بعين الخبر انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال أحمد فرده علي حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية وقال بعضهم أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لان النية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا الا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وان العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى فقد تتيسر في بعض الاوقات وقد تتعذر في بعضها نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الاحوال احضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض الا بجهد جهيد وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بسيط الارض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام اذ منهم من يكون عمله اجابة لباعث الخوف فانه يتقي النار ومنهم من يعمل اجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وان كان نازلا بالاضافة الى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لامر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لانه ميل الى الموعود في الآخرة وان كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة فالعامل لاجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالاجير السوء ودرجته درجة البله وانه لينالها بعمله اذ أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوي الالباب فانها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الاعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات الى المنكوح والمطعوم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر الى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى الحور العين ممن يتنعم بالنظر الى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فان التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان واعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها والفها لها واعراضها عن النظر الى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن أبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء فانها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت اليه ولو كان لها عقل وذكرناها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم * حكي أن أحمد ابن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون مني الجنة الا أبا يزيد فانه يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يا رب كيف الطريق اليك فقال اترك نفسك وتعال الي ورؤي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطالبني على الدعاوي بالبرهان الا على قول واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات

اذا تحركت نفسه يردها بتوكله والراضي يردها برضاه وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر الى سياسة العلم وفي ذلك تنسم روح القرب من بعيد وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والكسب ومن أخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة العكوف محجبة عن الطوارق والصروف لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلب فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه وهو غير كائن فيها على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وان رغب لانه بالحق لا بنفسه وان رؤي منه الالتفات الى الاسباب فهو متوكل وان وجد منه الكراهة فهو راض لان كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد اليه

ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول الى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة اليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لان الاعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الاكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحال الى الصوم والصلاة فالاكل والنوم هو الافضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم انه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة قال أبو الدرداء انى لاستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونا لى على الحق وقال على كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها اذا أكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها الا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وانما يبتغى به أن يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق في لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك الى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدى قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره الى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغى للمريد أن يضمر انكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغى أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما الى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق

﴿ الباب الثانى في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته ﴾

﴿ فضيلة الاخلاص ﴾

قال الله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال ألا لله الدين الخالص وقال تعالى الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال ظن أبى ان له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم انما نصر الله عز وجل هذه الامة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم وصلاتهم وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل وقال عليه السلام ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال عليه السلام أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله اذ قال من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآية وفي الاسرائيليات ان عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحمك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة

نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة مجهولة ملطوف بها صار عين الداء دواءه وصار الاعلال شفاءه وناب طالب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضا أو صار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا (قالت) رابعة محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه (وقال) أبو عبد الله القرشى حقيقة المحبة ان تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شئ (وقال) أبو الحسين الوراق السرور بالله من شدة المحبة له والمحبة في القلب نار تحرق كل دنس (وقال) يحيى بن معاذ صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين واعجبا كيف يصبر الانسان عن حبيبه (وقال بعضهم) من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة الجنة من غير انفاق ملكه

قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال ان هذا من عبادتي قال فاني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه الى الارض وقعد على صدره فقال له ابليس اطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال له ابليس يا هذا ان الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبده أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الارض ولو شاء لبعثهم الى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز ابليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال ابليس أنت رجل فقير لا شيء لك انما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على اخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الامر ولك على ان أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين اذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على اخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيأ ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعك اياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد الى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيأ فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال له الى أين قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك اليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد ابليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الامر أو لأذبحنك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن فقال لانك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين اذ لا يتخلص العبد من الشيطان الا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي وقال يعقوب المكفوف المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وقال سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها الا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى أبي موسى الاشعري من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس وكتب بعض الاولياء الى أخ له أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السختياني تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الاعمال وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه ورؤي بعضهم في المنام فقيل له كيف وجدت أعمالك فقال كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها فقيل لي انه قد وجه حيث بعثت به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجرك فيه ولو قلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك وفي رواية قال وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم الي فوجدت ذلك لا علي ولا لي قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله اذ لم يكن عليه فقد أحسن اليه * وقال يحيى بن معاذ الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم وقيل كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق ان حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا ان اغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة الى الرجل والى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال ان نجوت من هذه الفضيحة لا أعود الى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا ان اطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة * وقال بعض الصوفية كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض اخوانه من الابدال فساره بشيء فقال أبو عبيد لا فمر كالسحاب يمسح الارض حتى غاب عن عيني فقلت لابي عبيد ما قال لك فقال سألني أن أحج معه قلت لا قلت فهلا فعلت قال ليس لي في الحج نية وقد نويت ان أتمم هذه الارض العشية فأخاف ان حججت معه لاجله تعرضت لمقت الله تعالى لاني أدخل في عمل

فهو كذاب ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب وكانت رابعة تنشد

تعصي الاله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته
ان المحب لمن يحب مطيع

* واذا كان الحب للاحوال كالتوبة للمقامات فمن ادعى حالا يعتبر حبه ومن ادعى محبة تعتبر توبته فان التوبة قالب روح الحب وهذا الروح قيامه بهذا القالب والاحوال أعراض قوامها بجوهر الروح (وقال) سمنون ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء مع من أحب فهم مع الله تعالى (وقال) أبو يعقوب السوسي لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة الى

الله شيأ غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة ويروى عن بعضهم قال غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة فقلت أشتريها فانتفع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كان شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه أكتب الغزاة فأملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر الي وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت الله الله في أمري ما خرجت أتجر ومامعي تجارة أتجر فيها ما خرجت الا للغزو فقال ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت لاتكتبوني تاجرا فنظر الى صاحبه وقال ماترى فقال اكتب خرج فلان غازيا الا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى وقال سري السقطي رحمه الله تعالى لان تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو وقال بعضهم في اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص وقال بعضهم اذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الاعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها وقال السوسي مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط وقال الجنيد ان لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص الى أبواب البر أجمع وقال محمد بن سعيد المروزي الامر كله يرجع الى أصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين وفزت في الدارين

﴿ بيان حقيقة الاخلاص ﴾

اعلم ان كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا قال الله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فانما خلوص اللبن أن لايكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل مايمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك الا ان الشرك درجات فالاخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الالهية والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وانما يكون ذلك في القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع الى اجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي الفعل الصادر عنه اخلاصا بالاضافة الى المنوي فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الالحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه اذ قد ذكرنا مايتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل أموره ماورد في الخبر من أن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام يامرائي يامخادع يامشرك ياكافر وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر امامن الرياء أومن غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدو في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب مايكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة أو ليكون عقاره وماله محروسا بعز العلم عن الاطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقا في الدنيا أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلو الاسناد أو اعتكف في المسجد ليخف عليه كراء المسكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الاكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع ابرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضا ليعاد اذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيأ من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب الى

رؤية المحبوب بغناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة فاذا خرج المحب الى هذه النسبة كان محبا من غير محبة (سئل) الجنيد عن المحبة قال دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب (قيل) هذا على معنى قوله تعالى فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وذلك ان المحبة اذا صفت وكملت لاتزال تجذب بوصفها الى محبوبها فاذا انتهت الى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة وكمال وصف المحبة أزال الموانع من المحب وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب المخلص من موانع قادحة في صدق الحب ونظرا الى قصوره بعد استنفاد جهده فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب فيقول عند ذلك

الله تعالى ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الامور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك وقد قال تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشركة وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قل أم كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه والانسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الاجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ ان كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الامر على صاحبه فيها وانما نظرنا فيما اذا كان القصد الاصلى هو التقرب وانضافت اليه هذه الامور ثم هذه الشوائب اما أن تكون فى رتبة الموافقة أوفى رتبة المشاركة أوفى رتبة المعاونة كما سبق فى النية وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أوأقوى منه أوأضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وانما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور الا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الاكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج الى الاكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لانه ضرورة دينه فلا يكون له هم الا الله تعالى فمثل هذا الشخص لوأكل أوشرب أوقضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلونام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص فى الاعمال مسدود عليه الا على الندور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت اخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك الا نادرا فاذا علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لانه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة صليتها فى المسجد فى الصف الاول لانى تأخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى فعرفت أن نظر الناس الى فى الصف الاول كان مسرتى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الاعمال من أمثاله وقل من يتنبه له الا من وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وبقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه السلاطين ويفرح بقبول الناس قوله واقبالهم عليه وهو يدعى انه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى اذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول انما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك الى غيرك اذلو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده وليت شعرى لواغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للامامة أكان غمه محمودا أومذموما ولا يستريب ذودين أن لو كان ذلك لكان مذموما لان انقياده للحق وتسليمه الامر الى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتنى أبصرته * واذا أبصرته أبصرتنا
وهذا الذى عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلقوا بأخلاق الله لانه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ولكن سنة الله جارية ان يزكى نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده واذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والاخلاق ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول فتارة ينبعث الشوق من باطنه الى ماوراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذى يسكن نيران شوقه وبباعث الشوق تستقر

مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالامر فابال العلماء لايفرحون بمثل ذلك وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بانه لو ظهر من هو أولى منه بالامر لفرح به واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القياد فى الوعد بامثال ذلك قبل نزول الامر ثم اذا دهاه الامر تغير و رجع ولم يف بالوعد وذلك لايعرفه الامن عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانه فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع الا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشياطين وهو لايشعر

﴿ بيان أقاويل الشيوخ فى الاخلاص ﴾

قال السوسى الاخلاص فقد رؤية الاخلاص فان من شاهد فى اخلاصه الاخلاص فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وماذكره اشارة الى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات الى الاخلاص والنظر اليه عجب وهو من جملة الآفات والخالص ماصفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفى معناه قول ابراهيم بن أدهم الاخلاص صدق النية مع الله تعالى وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس فقال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم الاخلاص فى العمل هو أن لايريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين وهذا اشارة الى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعابد لاجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول بل الحقيقة أن لايراد بالعمل الا وجه الله تعالى وهو اشارة الى اخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق فاما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة والا فهو فى طلب حظ البطن والفرج وانما المطلوب الحق لذوى الالباب وجه الله تعالى فقط وقول القائل لايتحرك الانسان الالحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات الالهية وماذكره حق ولكن القوم انما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط فاما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر الى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء وهذا لايعده الناس حظا بل يعجبون منه وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا اليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره وقال أبو عثمان الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الخالق فقط وهذا اشارة الى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص فى العمل أن لايطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه اشارة الى مجرد الاخفاء وقد قيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد وقال المحاسبى الاخلاص هو اخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا اشارة الى مجرد نفى الرياء وكذلك قول الخواص من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن اخلاص العبودية وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الاعمال فقال الذى يعمل لله تعالى لايحب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه أقوى الاسباب المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفية العمل من الكدورات وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما وقيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والاقاويل فى هذا كثيرة ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وانما البيان الشافى بيان سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم اذ سئل عن الاخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت أى لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذا اشارة الى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا

﴿ بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص ﴾

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلى و بعضها خفى و بعضها ضعيف مع الجلاء و بعضها قوى مع الخفاء ولايفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجلاء الا بمثال وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا

الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ولولا باعث الشوق رجع القهقرى وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه ومن ظن من الوصول غير ماذكرناه أوتخايل له غير هذا القدر فهو متعرض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت (واشارات) الشيوخ فى الاستغراق والفناء كلها عائدة الى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا وأمنت اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس واذا محيت المحبة ترتبت عليها الاحوال وتبعتها (سئل) الشبلى عن المحبة فقال كأس لها وهج اذا استقر فى الحواس وسكن فى النفوس تلاشت (وقيل) المحبة ظاهر

فتقول الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا في صلاته ثم نظر اليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين * الدرجة الثانية يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت اليه ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم ان أحسنت وعليك الوزر ان أسأت فاحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول وهو أيضا عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه ان كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذى استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب عليه فاما هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على اظهاره من نفسه ما ليس متصفا به * الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملا ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه في الملا ويصلي في الملا أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لانه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملا فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته في الخلوة والملا الى الخلق بل الاخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكان نفس هذا البست تسمح باساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بان تستوى صلاته في الخلا والملا وهيهات بل زوال ذلك بان لا يلتفت الى الخلق كما لا يلتفت الى الجمادات في الخلا والملا جميعا وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملا والخلا جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان * الدرجة الرابعة وهي أدق وأخفى أن ينظر اليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لاجلهم فانه قد عرف أنه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله الى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن ان ذلك عين الاخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره الى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الامن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملا ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد به الخبر ولا يسلم من الشيطان الامن دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته والا فالشيطان ملازم للمشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع فيها فيدعوه الشيطان الى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطنا لها لاجل تلك الشهوات الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس اليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الانس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع اليه ويتبين ذلك في ميله الى أحد المسجدين أو أحد الموضعين اذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري الغش الذى

وباطن ظاهرها اتباع رضا المحبوب وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شئ ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه (فن الاحوال السنية في المحبة الشوق) ولا يكون المحب الا مشتاقا أبدا لان الامر الحق تعالى لا نهاية له فامن حال يبلغها المحب الا ويعلم أن ماوراء ذلك أوفى منها وأتم حزني لحسنك لا لذا أمد ينتهي اليه ولا لذا أمد (ثم). هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه وانما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين قال أحمد بن أبي الحواري دخلت على أبي سليمان الداراني فرأيته يبكي فقلت له ما يبكيك رحمك الله قال ويحك يا أحمد اذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وأشرف الجليل جل جلاله عليهم يقول بعيني من تلذذ

يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه الا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الاعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره الى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي الى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر الغبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة الى فنون الاعمال لا يمكن حصرها واحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل

﴿ بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به ﴾

اعلم ان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابا أم يقتضي عقابا أم لا يقتضي شيأ أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به الا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وانما النظر في المشوب وظاهر الاخبار يدل على انه لا ثواب له وليس تخلو الاخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله أن ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وان كان قصد التقرب أغلب بالاضافة الى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وان كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد * وكشف الغطاء عن هذا أن الاعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وانما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على وفقها فاذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فاذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوي تلك الصفة واذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوي أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كانه لم يتناولهما وان كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في انارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو ابعاده فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد الى ما كان فلم يكن له ولا عليه وان كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه فاذا اجتمعا جميعا فلا بدوان يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا اجماع الامة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال انما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه الى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وانما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الاصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال ادراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال اذا كان الباعث الاصلي والمزعج القوي هو اعلاء كلمة الله تعالى وانما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه الى الغنيمة أصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة فان قلت فالآيات والاخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد

بكلامي واستراح الى مناجاتي واني مطلع عليهم في خلواتهم اسمع أنينهم وأرى بكاءهم يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم هل خبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحبابه بالنار كيف يجمل بي أن أعذب قوما اذا جنهم الليل تملقوا الي فبي حلفت اذا وردوا القيامة على ان أسفر لهم عن وجهي وأبيحهم رياض قدسي (وهذه) أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق والشوق من المحبة كالزهد من التوبة اذا استقرت التوبة ظهر الزهد واذا استقرت المحبة ظهر الشوق (قال) الواسطي في قوله تعالى وعجلت اليك رب لترضى قال شوقا واستهانة بمن وراءه قال هم أولاء على أثري من شوقه الى مكالمة الله ورمى بالالواح لما فاته من وقته (قال) أبو عثمان الشوق ثمرة المحبة

روى طاوس وغيره من التابعين ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وقد قصد الاجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أدنى الرياء شرك وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم يقال لمن أشرك فى عمله خذ أجرك ممن عملت له وروى عن عبادة أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الاغنياء عن الشركة من عمل لى عملا فاشرك معى غيرى ودعت نصيبى لشريكى وروى أبو موسى أن اعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وقال عمر رضى الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملا دفتى راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هاجر يبتغى شيأ من الدنيا فهو له فنقول هذه الاحاديث لاتناقض ماذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك الا الدنيا كقوله من هاجر يبتغى شيأ من الدنيا وكان ذلك هو الاغلب على همه وقد ذكرنا ان ذلك عصيان وعدوان لا لان طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركة حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه اذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغى أن يرجى عليه ثواب ثم ان الانسان عند الشركة أبدا فى خطر فانه لا يدرى أى الامرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أى لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال الا بالاخلاص فى الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه الى مجرد الغزو وان لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار احداهما غنية والاخرى فقيرة فمال الى جهة الاغنياء لاعلاء كلمة الله وللغنيمة لا ثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله أن يكون الامر كذلك فان هذا احرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين لان أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها الا على الندور فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب فأما أن يكون فى احباطه فلا نعم الانسان فيه على خطر عظيم لانه ربما يظن ان الباعث الاقوى هو قصد التقرب الى الله ويكون الاغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يخفى فى غاية الخفاء فلا يحصل الاجر الا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وان بالغ فى الاحتياط فلذلك ينبغى أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغى أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لا أعتد بما ظهر من عملى وقال عبد العزيز بن أبى رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شئ من أعمال الله تعالى الا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لى ولا على ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف فى أعماله فتكلم أبو سعيد فى الاخلاص يوما يريد اخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وانه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها فقال أبو سعيد لا تفعل اذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الاخلاص فما قلت لك اترك العمل وانما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لاجل الخلق شرك

﴿الباب الثالث فى الصدق وفضيلته وحقيقته﴾

﴿فضيلة الصدق﴾

قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم ان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدى الى الفجور والفجور يهدى الى النار

فمن أحب الله اشتاق الى لقائه (وقال) أيضا فى قوله تعالى فان أجل الله لآت تقربة للمشتاقين معناه أنى أعلم ان شوقكم الى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم الى من تشتاقون اليه (وقال) ذو النون الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات فاذا بلغها الانسان استبطأ الموت شوقا الى ربه ورجاء لقائه والنظر اليه (وعندى) ان الشوق الكائن فى المحبين الى رتب يتوقعونها فى الدنيا غير الشوق الذى يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علما ويطلبونها ذوقا فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت وربما الاحياء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة

وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الانبياء به فى معرض المدح والثناء فقال واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا وقال واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وقال تعالى واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقال أبو عبد الله الرملى رأيت منصورا الدينورى فى المنام فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لى ورحمنى وأعطانى مالم أومل فقلت له أحسن ماتوجه العبد به الى الله ماذا قال الصدق وأقبح ماتوجه به الكذب وقال أبو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك وقال رجل لحكيم مارأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن على الكتانى قال وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول وقال الثورى فى قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته وصاح رجل فى مجلس الشبلى ورمى نفسه فى دجلة فقال الشبلى ان كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وان كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون وقال بعضهم أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال انها اذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها الا ببعض الاسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى فى الاعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بنى اسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها * لا كنز أنفع من العلم ولا مال أربح من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا فقر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت * وقال محمد بن سعيد المروزى اذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شئ من عجائب الدنيا والآخرة وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذى النون هل للعبد الى صلاح أمره سبيل فقال

قد بقينا من الذنوب حيارى * نطلب الصدق ماإليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ما أصل هذا الامر الذى نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة فقيل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق وعن الجنيد فى قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم قال يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر

﴿ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه ﴾

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان صدق فى القول وصدق فى النية والارادة وصدق فى العزم وصدق فى الوفاء بالعزم وصدق فى العمل وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق لانه مبالغة فى الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شئ من الجملة فهو صادق بالاضافة الى مافيه صدقه ﴿ الصدق الاول ﴾ صدق اللسان وذلك لا يكون الا فى الاخبار أو فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه والخبر اما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ماهى عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان أحدهما الاحتراز عن المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لانها تقوم مقام الكذب اذ المحذور من الكذب تفهيم الشئ على

والسلام قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة فتمتلئ عينه من النقد ثم يكاشفه من المنح والعطايا فى الدنيا مايتحقق بمقام الشوق من غير الشوق الى مابعد الموت وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال انما يكون الشوق لغائب ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ولهذا سئل الانطاكى عن الشوق فقال انما يشتاق الى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته وانكار الشوق على الاطلاق لا أرى له وجها لان رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب اذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة الى ماوجد ولكن يكون مشتاقا الى مالم يجد من أنصبة القرب فكيف

خلاف ماهو عليه في نفسه الا أن ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ماهو عليه لان الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورّى بغيره وذلك كي لا ينتهي الخبر الى الاعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الاصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكمال الاول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا الا عند الضرورة والكمال الثاني أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب وكقوله اياك نعبد وكقوله أنا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنياه أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وانما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم قد تجاوز هذا الى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن ارادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو ابعاد فتفنى ارادته في ارادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان سكنه سكن وان ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول (الصدق الثاني) في النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كما روينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت فقال فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في ارادته ونيته وقد قال بعضهم الصدق صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقد قالوا انك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه يظهر من نفسه انه يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق الى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا (الصدق الثالث) صدق العزم فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره أو ان لقيت عدوا في سبيل

يمنع حال الشوق والامر هكذا (ووجه آخر) ان الانسان لابد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال ووجود هذه الامور مثير لنار الشوق ولا نعني بالشوق الا مطالبة تنبعث من الباطن الى الاولى والاعلى من أنصبة القرب وهذه المطالبة كائنة في المحبين فالشوق اذن كائن لا وجه لانكاره وقد قال قوم شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة فيكون في حال الغيبوبة مشتاقا الى اللقاء ويكون في حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا الى زوائد ومضار من الحب وافضاله وهذا هو الذي أراه وأختاره (وقال) فارس قلوب المشتاقين منورة بنور الله فاذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق

الله تعالى قاتلت ولم أبال وان قتلت وان أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة و يقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق و يراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه لان أقدم فتضرب عنقى أحب الى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بانه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهى به الى أن يرضى بالقتل فيه ولكن اذا خلى و رأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب اليه من حياة أبى بكر الصديق ﴿الصدق الرابع﴾ فى الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال اذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقد روى عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فشهد أحدا فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو الى أين فقال واها لريح الجنة انى أجده دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى الا بثيابه فنزلت هذه الآية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه و وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الايمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس اليه أعينهم يوم القيامة هكذا و رفع رأسه حتى وقعت قلنسوته قال الراوى فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم و رجل جيد الايمان اذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم غائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية و رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيأ لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة و رجل أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة * وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين وقال بعضهم انما هو شئ نوره فى أنفسهم لم يتكلموا به فقال ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به و تولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه و بما كانوا يكذبون فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الاسباب ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لان أقدم فتضرب عنقى أحب الى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم الا ان تسول لى نفسى عند القتل شيأ لا أجده الآن لانى لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها أشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخراز رأيت فى المنام كان ملكين نزلا من السماء فقالا لى ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لى صدقت وعرجا الى السماء ﴿الصدق الخامس﴾ فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به لا بان يترك الاعمال ولكن بان يستجر الباطن الى تصديق الظاهر وهذا مخالف ما ذكرنا من ترك الرياء لان المرائى هو الذى يقصد ذلك و رب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه

والمغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون الى أشهدكم أنى اليهم أشوق (وقال) أبو يزيد لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار (سئل) ابن عطاء عن الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الاكباد من البعد بعد القرب (سئل) بعضهم هل الشوق أعلى أم المحبة فقال المحبة لان الشوق يتولد منها فلا مشتاق الا من غلبه الحب فالحب أصل والشوق فرع وقال النصراباذى للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار (ومنها الانس) وقد سئل الجنيد عن الانس فقال ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة (وسئل) ذو النون عن الانس

غافل عن الصلاة فمن ينظر اليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن اعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الاعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وان لم يكن ملتفتا الى الخلق ولا مرائيا اياهم ولا ينجو من هذا الا باستواء السريرة والعلانية بان يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا مخالفة الظاهر للباطن ان كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وان كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة وقال يزيد بن الحرث اذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وان كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل وان كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا

اذا السر والاعلان فى المؤمن استوى * فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا

فان خالف الاعلان سرا فماله * على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار فى السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضى المنى

وقال عطية بن عبد الغافر اذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا وقال معاوية ابن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن اذا أمر بشئ كان من أعمل الناس به واذا نهى عن شئ كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول الهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالامانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ويبكى وقال أبو يعقوب النهرجورى الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية فاذا مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق (الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق فى مقامات الدين كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الامور فان هذه الامور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها واذا غلب الشئ وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هى الشهوة الصادقة وقال الله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الى قوله أولئك هم الصادقون وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله أولئك الذين صدقوا وسئل أبو ذر عن الايمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألناك عن الايمان فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ هذه الآية ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر الا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه اذا خاف سلطانا أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالانس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للاخطار كل ذلك خوفا من درك المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند جريان معصية عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها فالتحقيق فى هذه الامور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله اما ضعيف واما قوى فاذا قوى سمى صادقا فيه فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام أحب ان أراك فى صورتك التى هى صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل أرنى فواعده البقيع فى ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا هو به قد سد الافق يعنى جوانب السماء فوقع النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فافاق وقد عاد جبريل لصورته الاولى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت اسرافيل ان العرش لعلى كاهله وان رجليه قد مرقتا تخوم الارض السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع يعنى كالعصفور الصغير فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع الى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم وقال جابر

فقال هو انبساط المحب الى المحبوب قيل معناه قول الخليل أرنى كيف تحيى الموتى وقول موسى أرنى أنظر اليك وأنشد لرويم

شغلت قلبى عما لديك فلا ينفك طول الحياة عن فكر

آنستنى منك بالوداد فقد أوحشتنى من جميع ذا البشر

ذكرك لى مؤنس يعارضنى يوعدنى عنك منك بالظفر

وحيثما كنت يا مدى هممى فانت منى بموضع النظر

(وروى) أن مطرف ابن الشخير كتب الى عمر بن عبد العزيز ليكن أنسك بالله وانقطاعك اليه فان لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا فى وحدتهم أشد استئناسا من الناس فى كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة اسري بي وجبريل بالملا الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله وقال مطرف مامن الناس أحد الا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه الا أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم لايبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر في جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها احقر حقير فالصادق اذا في جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الامور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ماهي قائلة وماهو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا الا علمت انه حق فقال ابن المسيب ماظننت ان هذه الخصال تجتمع الا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الامور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الاغلب لاتتعرض الا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون وصدق الطاعة لاهل العلم والورع وصدق المعرفة لاهل الولاية الذين هم أوتاد الارض وكل هذا يدور على ماذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الاقسام وقال جعفر الصادق الصدق هو المجاهدة وان لاتختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى هو اجتباكم وقيل أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انى اذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لاتقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته ولياوحبيبا وان وجدته جزوعا يشكونى الى خلقي خذلته ولا أبالي فاذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها تم كتاب الصدق والاخلاص يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

✻ كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ✻

✻ بسم الله الرحمن الرحيم ✻

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجترحت المطلع على ضمائر القلوب اذا هجست الحسيب على خواطر عباده اذا اختلجت الذي لايعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والارض تحركت أوسكنت المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الاعمال وان خفيت المتفضل بقبول طاعات العبادة وان صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وان كثرت وانما يحاسبهم لتعلم كل نفس ماأحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم انه لولا لزومها المراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للايمان وانشرحت وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات اذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من الطاعات ماتيسرت فمنه العطاء والجزاء والابعاد والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى آله سادة الاصفياء وعلى أصحابه قادة الاتقياء (أما بعد) فقد قال الله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا وقال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد وقال تعالى يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

أوحش مايكونون قال الواسطي لايصل الى محل الانس من لم يستوحش من الاكوان كلها (وقال) أبو الحسين الوراق لايكون الانس بالله الا ومعه التعظيم لان كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه الا الله تعالى فانك لاتزايد به انسا الا ازددت منه هيبة وتعظيما (قالت) رابعة كل مطيع مستأنس وأنشدت

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي
وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

✻ (وقال مالك بن دينار) من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره ✻ قيل لبعضهم من معك في الدار قال الله تعالى معي ولا يستوحش

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال تعالى ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وقال تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا و يحذركم الله نفسه وقال تعالى واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون فى الحساب و يطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الاخطار الا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الانفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل ان يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته الى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه الا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها و بيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الاعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات و بالله التوفيق

﴿ المقام الاول من المرابطة المشارطة ﴾

اعلم ان مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم اليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وانما مطلبه وربحه تزكية النفس لان بذلك فلاحها قال الله تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وانما فلاحها بالاعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة اذ يستعملها و يستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح فيحتاج الى أن يشارطه أولا و يراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا و يعاقبه أو يعاتبه رابعا فكذلك العقل يحتاج الى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف و يشرط عليها الشروط و يرشدها الى طرق الفلاح و يجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم ير منها الا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن اذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغى ان يحاسبها و يطالبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى و بلوغ سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه فى ارباح الدنيا مع انها محتقرة بالاضافة الى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها الى التصرم والانقضاء ولا خير فى خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لان الشر الذى لا يدوم اذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر والخير الذى لا يدوم يبقى الاسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل

اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل فاذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة الى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة الا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وانسأ فى أجلى وأنعم على به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى الى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبى انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد فى الخبر انه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لادهشهم ذلك الفرح

من أنس بربه (وقال الخراز) الانس محادثة الارواح مع المحبوب فى مجالس القرب ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال جدد لهم الود فى كل طرفة بدوام الاتصال وآواهم فى كنفه بحقائق السكون اليه حتى أنت قلوبهم وحنت أرواحهم شوقا وكان الحب والشوق منهم اشارة من الحق اليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ولو أن الحق تعالى أمر بجميع الانبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعد لهم من من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ هممهم عليه واجتماع أهوائهم فيه فصار يحسدهم من عبيده الهموم أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم (وأنشد فى معناه)

عند الاحساس بألم النار و يفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها و يغشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها و يفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوؤه وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها و يناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير اذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزائنك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق وان كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب ان المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين أشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة وهى العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها اليها فانها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة وان لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وانما تتعين تلك الابواب لمن عصى الله تعالى بهذه الاعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم أو الى عورة مسلم أو النظر الى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فان الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم اذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها و ربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغى أن يفصل الامر عليها فى عضو عضو لا سيما اللسان والبطن أما اللسان فلانه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والاطعمة واللعن والدعاء على الاعداء والمماراة فى الكلام وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وارشاد عباد الله الى طريق الله واصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار الا فى الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الاكل من الحلال واجتناب الشبهات و يمنعه من الشهوات و يقتصر على قدر الضرورة و يشرط على نفسه أنها ان خالفت شيأ من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشرط عليها فى جميع الاعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصى الاعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تتكرر عليه فى اليوم والليلة ثم فى النوافل التى يقدر عليها و يقدر على الاستكثار منها و يرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفتقر اليها فى كل يوم ولكن اذا تعود الانسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه فى الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وان أطاع فى بعضها بقيت الحاجة الى تجديد المشارطة فيما بقى ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد و واقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه فى ذلك حق و يكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس اذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج الى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها و يحذرها مغبة الاهمال و يعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه وهذا للمستقبل وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها

كانت لقلبى أهواء مفرقة * فاستجمعت اذ رأتك النفس أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

(وقد) يكون من الانس الانس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات وهذا القدر من الانس نعمة من الله تعالى ومنحة منه ولكن ليس هو حال الانس الذى يكون للمحبين والانس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الاسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس وحقيقته عندى كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح فى ميادين الفتوح وله استقلال

للاحتراز منه فى المستقبل و روى عبادة بن الصامت انه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه و يعظه اذا أردت
أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وقال بعض الحكماء اذا أردت أن يكون العقل غالبا
للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال
لقمان ان المؤمن اذا أبصر العاقبة أمن الندامة و روى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الكيس
من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله دان نفسه أى حاسبها و يوم الدين
يوم الحساب وقوله أئنا لمدينون أى لمحاسبون وقال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و زنوها
قبل ان توزنوا وتهيؤا للعرض الاكبر وكتب الى أبى موسى الاشعرى حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب
الشدة وقال لكعب كيف تجدها فى كتاب الله قال و يل لديان الارض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال الامن
حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين انها الى جنبها فى التوراة ما بينهما حرف الا من حاسب نفسه وهذا كله
اشارة الى المحاسبة للمستقبل اذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه و زن الامور أولا وقدرها وانظر فيها
وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها

﴿المرابطة الثانية المراقبة﴾

اذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ماذكرناه فلا يبقى الا المراقبة لها عند الخوض فى الاعمال وملاحظتها
بالعين الكالئة فانها ان تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها (أما الفضيلة) فقد سأل جبريل
عليه السلام عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه وقال عليه السلام اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه
فانه يراك وقد قال تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقال تعالى ألم يعلم بأن الله يرى وقال الله تعالى
ان الله كان عليكم رقيبا وقال تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون
وقال ابن المبارك لرجل راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل وقال عبد
الواحد بن زيد اذا كان سيدى رقيبا على فلا أبالى بغيره وقال أبو عثمان المغربى أفضل ما يلزم الانسان نفسه فى
هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم وقال ابن عطاء أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام
الاوقات وقال الجريرى أمرنا هذا مبنى على أصلين ان تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل و يكون العلم على ظاهرك
قائما وقال أبو عثمان قال لى أبو حفص اذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم
عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك * وحكى انه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ
شاب وكان يكرمه و يقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيو ر وناول
كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه احد ودفع الى الشاب مثل
ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال مالك لم
تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يرانى فيه أحد اذ الله مطلع على فى كل مكان فاستحسنوا منه
هذه المراقبة وقالوا حق لك ان تكرم * وحكى ان زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه
صنم كان لها فقال يوسف مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار وحكى عن
بعض الاحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحيى فقال ممن أستحيى وما يرانا الا الكواكب
قالت فأين مكوكبها وقال رجل للجنيد بم أستعين على غض البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر اليك أسبق
من نظرك الى المنظور اليه وقال الجنيد انما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل
وعن مالك بن دينار قال جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له
ومن يسكنها قال يقول الله عز وجل انما يسكن جنات عدن الذين اذا هموا بالمعاصى ذكروا عظمتى فراقبونى
والذين انثنت أصلابهم من خشيتى وعزتى وجلالى انى لاهم بعذاب أهل الارض فاذا نظرت الى أهل الجوع
والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال أولها علم القلب بقرب الرب
تعالى وقال المرتعش المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة و يروى أن الله تعالى قال
لملائكته أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن وقال محمد بن على الترمذى اجعل مراقبتك لمن لا تغيب
عن نظره اليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل

بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه بعين الهيبة وفى الهيبة اجتماع الروح ورسوبه الى محل النفس وهذا الذى وصفناه من انس الذات وهيبة الذات يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء وهما غير الانس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الفناء لان الهيبة والانس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلوين وما ذكرناه بعد الفناء فى مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات ومن الانس خضوع النفس المطمئنة ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان و يفترقان بفرق لطيف يدرك بايماء الروح (ومنها) القرب قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام واسجد واقترب وقد ورد أقرب ما يكون العبد من ربه فى سجوده

خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه وقال سهل لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان وسئل بعضهم عن قوله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب * وإن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظني فقال لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت وقال سفيان الثوري عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة وقال فرقد السنجي إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له يا راعي بعني شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك فقال قل لسيدك أكلها الذئب قال فأين الله قال فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة

﴿ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها ﴾

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعي جانبه ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا أعني أنها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين الدرجة الأولى مراقبة المقربين من الصديقين وهي مراقبة التعظيم والإجلال وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي والقلب هو الراعي فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذي صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه إذا مررت بي فحركني ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له وقد قيل لعبد الواحد بن زيد هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق فقال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عتبة فقال من موضع

فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب (قال) بعضهم إني لأجد الحضور فأقول يا الله أو يا رب فأجد ذلك علي أثقل من الجبال قيل ولم قال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه وإنما هي إشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات وهذا الذي وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ولكنه مشعر بمحو ومؤذن بسكر يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور روحه لغلبة سكره وقوة محوه فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه فيقول يا الله ويا رب بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى

كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت فى الطريق فقال ما رأيت أحدا ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا فقال ما ظننتها الا جدارا وحكى عن بعضهم انه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيد منهم فتقدمت اليه فاردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى فقلت أنت وحدك فقال معى ربى وملكاى فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم الا منه ولا يسمع الا فيه فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك الا بما هو فيه ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه المراقبة والسكون فقال من سنور كانت لنا فكانت اذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزهد ان فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت اليهما نظرة لعلك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب فقلت نشدتكما بالله الا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر الى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل الا القليل فخذ من القليل الكثير يا ابن خفيف ما أقل شغلك حتى تتفرغ الى لقائنا قال فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه الى وقال يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيأ ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعظانى لعلى أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك * الدرجة الثانية مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الاحوال والاعمال الا انها مع ممارسة الاعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون الا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فانهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن اجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وان كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الاكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله تعالى أمضاه وان كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وانها عدوة نفسها ان لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف فى بداية الامور الى حد البيان واجب محتوم لا محيص لاحد عنه فان فى الخبر أنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وان صغرت ثلاثة دواوين الديوان الاول لم والثانى كيف والثالث لمن ومعنى لم أى لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت اليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا فان لله فى كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته الا بعلم فيقال له كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو

مقام حاجتها ومحل عبوديتها والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الاقوال وهذا أتم وأقرب من الاول لانه وفى حق القرب باستقلال الروح بالفتوح وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس الى محل الافتقار وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح باقامة رسم العبودية من النفس (وقال) الجنيد ان الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر ماذا يقرب من قلبك (قال أبو يعقوب السوسى) ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فاذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب وقد قال قائلهم

قد تحققتك فى السـ ـر فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان

المطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت ألوجه الله خالصا وفاء بقولك لا اله الا الله فيكون أجرك على الله والمرآة
خلق مثالك نخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد
سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وان عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي اذ كنت عبدالي
تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ان الذين
تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ويحك أما سمعتني أقول ألا لله
الدين الخالص فاذا عرف العبد انه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال
جوابا وليكن الجواب صوابا فلا يبدئ ولا يعيد الا بعد التثبت ولا يحرك جفنا ولا أنملة الا بعد التأمل وقد قال
النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ ان الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه
وقال الحسن كان أحدهم اذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فان كان لله أمضاه وقال الحسن رحمه الله تعالى
رحم الله عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وان كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان اتق الله عند
همك اذ هممت وقال محمد بن علي ان المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الاول
في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا الا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الاعمال واغوار النفس ومكايد
الشيطان فمتى لم يعرف نفسه و ربه وعدوه ابليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه و بين ما يحبه الله و يرضاه
في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الاكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله
تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم
فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لانه يعلم آفات النفوس
ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في تعب
والشيطان منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم
الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى
ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به
فان الخطرة الاولى في الباطل اذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد
يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الاول وهو الخاطر فان جميع
ما وراءه يتبعه ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ
بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضئ بنور علماء الدين وليفر
من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد فقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام
لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي فالقلوب المظلمة
بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية
فكيف يستضئ بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا فلتكن همة
المريد أولا في احكام العلم أو في طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها ان لم يجد من هو عديم الرغبة
فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل
عند هجوم الشهوات جمع بين الامرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له
بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا فما قدر العقل الضعيف
الذي سعد الآدمي به حتى يعمد الى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست في هذه
الاعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع
الشهوات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا الفقه الدنيا
الذي ما قصد به الا دفع الشواغل عن القلوب لتتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه
وفي الخبر أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت ولهذا توقف طائفة من

ان يدن غيبك التعظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد من الاحشاء داني
قال ذو النون ما ازداد أحد من الله قربة الا ازداد هيبة (وقال سهل) أدنى مقام من مقامات القرب الحياء وقال النصراباذي باتباع السنة تنال المعرفة و باداء الفرائض تنال القربة و بالمواظبة على النوافل تنال المحبة
* ومنها الحياء والحياء على الوصف العام والوصف الخاص فاما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله استحيوا من الله حق الحياء قالوا انا نستحيي يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء وهذا الحياء من

الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الامر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقوله عليه السلام اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث وأراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه واصعوبة هذا الامر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابها على فأتبع الهوى وقال عيسى عليه السلام الامور ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله الى عالمه وقد كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم اللهم انى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم فاعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والايمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده وكان فضل الله عليك عظيما وأراد به العلم وقال تعالى فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال تعالى ان علينا للهدى وقال ثم ان علينا بيانه وقال وعلى الله قصد السبيل وقال على كرم الله وجهه الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب الى كل جميل وأوثق العرى التقوى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى انما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك وان كنت جازعا على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على ما لم يصل اليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الامور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة * فاذا النظر الاول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشئ من عمله واذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه * النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى اتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له فى جميع أحواله فانه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فاذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الادب فان كان قاعدا مثلا فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم خير المجالس ما استقبل به القبلة ولا يجلس متربعا اذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه قال ابراهيم ابن أدهم رحمه الله جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس الملوك فلم أجلس بعد ذلك متربعا وان كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذا لا يخلو العبد اما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح فراقبته فى الطاعة بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات وان كان فى معصية فراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وان كان فى مباح فراقبته بمراعاة الادب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه اما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به الى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود ولا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الاقسام

المقامات وأما الحياء الخاص فمن الاحوال وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه انه قال انى لاغتسل فى البيت المظلم فانطوى حياء من الله (أخبرنا أبو زرعة) عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادى يقول سمعت أحمد السقطى بن صالح يقول سمعت محمد ابن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول قال لى سرى احفظ عنى ما أقول لك ان الحياء والانس يطوفان بالقلب فاذا وجدا فيه الزهد والورع حطا والا رحلا والحياء اطراق الروح اجلالا لعظيم الجلال والانس التذاذ الروح بكمال الجمال فاذا اجتمعا فهو الغاية فى المنى والنهاية فى العطاء وأنشد شيخ الاسلام

أشتاقه فاذا بدا
أطرقت من اجلاله
لا خيفة بل هيبة
وصيانة لجماله

الثالثة فاذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الاعمال ليشتغل بها فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والارباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ولا تنس نصيبك من الدنيا وكل ذلك انما يمكن بصبر ساعة واحدة فان الساعات ثلاثة ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش اليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فان لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وان أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الاولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري واذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام لا يكون المؤمن طامعا الا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم وما روى عنه أيضا في معناه وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فان في هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الاعمال وهو الذكر والفكر فان الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام قسم ينظرون اليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لاسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الالباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار اليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها الى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين اذ المحب اذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه الى الصانع مجال رحب ان فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا وقسم رابع ينظرون اليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ واقدرته ولعلمه هو الله تعالى وان من ذم شيأ من خلق الله بغير اذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الاعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الاصول ﴿ المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها ﴾ ﴿ أما الفضيلة ﴾ فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد وهذه اشارة الى المحاسبة على ما مضى من الاعمال ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا وفي الخبر انه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال اذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اني لاستغفر الله تعالى وأتوب اليه في اليوم مائة مرة وقال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه كان يضرب قدميه بالدرة اذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران انه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب الي من عمر ثم قال لها كيف

الموت في ادباره والعيش في اقباله وأصد عنه اذا بدا وأروم طيف خياله قال بعض الحكماء من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج (وقال ذو النون) الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك الى ربك (وقال ابن عطاء) العلم الاكبر الهيبة والحياء فاذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه (وقال أبو سليمان) ان العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحياء من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيآتهم (وقال بعضهم) الغالب على قلوب المستحيين الاجلال والتعظيم دائما عند نظر الله اليهم

قلت فاعادت عليه ماقال فقال لا أحد اعز على من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها فابدلها بكلمة غيرها وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله وانما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الامر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال ان المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله انك لتعجبني وانك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع الى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا ان شاء الله وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك وقال الحسن في قوله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة قال لا يلقى المؤمن الا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربتي والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه وقال ميمون بن مهران التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح وقال ابراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسي يانفس أي شيء تريدين فقالت أريد أن أرد الى الدنيا فاعمل صالحا قلت فأنت في الامنية فاعملي وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب الى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله رحم الله امرأ نظر في ميزانه فمازال يقول حتى أبكاني وحكى صاحب للاحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء الى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه ياحنيف ماحملك على ماصنعت يوم كذا ماحملك على ماصنعت يوم كذا

﴿ بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل ﴾

اعلم ان العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي ان يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها مالو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى الا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ماهذه المساهلة الا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الامارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به مافرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وافكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته انه لم سكت وعن سكونه لم سكن فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب

﴿ومنها الاتصال (قال النوري) الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الاسرار وقال بعضهم الاتصال وصول السر الى مقام الذهول وقال بعضهم الاتصال ان لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه (وقال) سهل بن عبد الله حركوا بالبلاء فتحركوا ولو سكنوا اتصلوا (وقال يحيى بن معاذ الرازي) العمال أربعة تائب وزاهد ومشتاق وواصل فالتائب محجوب بتوبته والزاهد محجوب بزهده والمشتاق محجوب بحاله والواصل لا يحجبه عن الحق شيء (وقال أبو سعيد القرشي) الواصل الذي يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا والمتصل الذي بجهده يتصل وكلما دنا انقطع وكان هذا الذي ذكره حال المريد والمراد لكون أحدهما مبادأ

الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شئ من ذلك الا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الاعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فاذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة الى الفردوس الاعلى فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه

﴿ المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها ﴾

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فانه ان أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فاذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع واذا نظر الى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست وروى أنه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زمنا طويلا فأشرف ذات يوم فاذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل اليها فأدركه الله بسابقة فقال ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت اليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد أن يعيد رجله الى الصومعة قال هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي لا يكون والله ذلك أبدا فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الامطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكريبي يقول أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء وأدخل الحمام ولا أعنى على نفسي فقلت واعجباه أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخير آليت أن لا أغتسل الا في مرقعتي هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهم فانكشفت جارية فنظر اليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال انك للحاظة الى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة الى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش ويحكى ان حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعنيك لاعاقبنك بصوم سنة فصامها وقال مالك بن ضيغم جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا انه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم ثم ولى منصرفا فاتبعناه رسولا وقلنا الا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عنى شيأ أدركته وهو يدخل المقابر ويعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء وما يدريك ان هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين أما ان لله على عهدا لا أنقضه أبدا لا وسدتك الارض لنوم حولا الا لمرض حائل أو لعقل زائل سوأة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيك لا تنتهين قال وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته * ويحكى عن تميم الدارى انه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقي ونار جهنم أشد حرا أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك اذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذي صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لاصحابه

بالكشوف وكون الآخر مردودا الى الاجتهاد (وقال أبو يزيد) الواصلون في ثلاثة أحرف همهم لله وشغلهم في الله ورجوعهم الى الله وقال السياري الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى اذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب اليه البعيد وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم أهل الوصول أوصل الله اليهم قلوبهم فهم محفوظون القوى ممنوعون من الخلق أبدا (وقال) ذو النون ما رجع من رجع الا من الطريق وما وصل اليه أحد فرجع عنه واعلم ان الاتصال والمواصلة أشار اليه الشيوخ وكل من وصل الى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الافعال فهو رتبة في التجلي

تزودوا من أخيكم فجعل الرجل يقول له يافلان ادع لي يافلان ادع لي فقال النبي صلى الله عليه وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم وقال حذيفة بن قتادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما على وجه الارض نفس أبغض الي منها فكيف أعطيها شهواتها ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال ياداود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له وعن وهب بن منبه ان رجلا تعبد زمانا ثم بدت له الى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت احدى عشرة تمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع الى نفسه وقال منك أتيت لو كان فيك خير لاعطيت حاجتك فنزل اليه ملك وقال ياابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس فقاموا الى المصاف في يوم شديد الريح واذا رجل امامي وهو يخاطب نفسه ويقول أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فاطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فاطعتك ورجعت والله لاعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت لارمقنه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم ثم ان العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله مازال ذاك دأبه حتى رأيته صريعا فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وان عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه الى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع راسه الى السماء مادام في الدنيا وكان الاحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ماحملك على أن صنعت يوم كذا كذا وأنكر وهيب بن الورد شيأ على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك انما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند افطاره خبزا بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال ان نفسي لتدعوني الى الملح منذ سنة ولاذاق داود ملحا مادام في الدنيا فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لانفسهم والعجب انك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف انك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك وأشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فان غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وان فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها (المرابطة الخامسة المجاهدة) وهو أنه اذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وان رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الاوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الاوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بان تصدق بارض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر اذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها فان قلت ان كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الاوراد فما سبيل معالجتها فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الاخبار من فضل المجتهدين ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدي به وكان بعضهم يقول كنت اذا اعترتني فترة في العبادة نظرت الى أحوال محمد بن واسع والى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا الا أن هذا العلاج قد تعذر اذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الاولين فينبغي أن يعدل من المشاهدة الى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة

فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والانس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبا في شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين وهذا المقام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى رتب الوصول فاذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الاحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين

ثم يأتيه الموت و يحال بينه و بين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر و يخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ويروى ان الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادي مجتهدين فيقولون الهنا خوفتهم شيأ فخافوه وشوقتهم الى شيء فاشتاقوا اليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشد اجتهادا وقال الحسن أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤنه بأرجلكم ان كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه و بين الارض شيأ قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم اذا جنهم الليل فقيام على اطرافهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم اذا عملوا الحسنة فرحوا بها وداْبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها واذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك و والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة و يحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه واذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله الا صدقتني فقال يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكاني أنظر الى عرش ربي والناس يساقون الى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه وقال أبو نعيم كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال ان في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن أخي ان لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت الى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام وقال محمد بن عبد العزيز جلسنا الى أحمد بن رزين من غدوة الى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له في ذلك فقال ان الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد الى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة وقالت امرأة مسروق ما كان يوجد مسروق الا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله ان كنت لاجلس خلفه فابكي رحمة له وقال أبو الدرداء لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر وكان الاسود ابن يزيد يجتهد في العبادة و يصوم في الحر حتى يخضر جسده و يصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده و يصلي حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له ان الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا فقال انما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيأ الا جئت به وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلي جالسا ألف ركعة فاذا صلى العصر احتبى ثم قال عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك عجبت للخليقة كيف أنست بسواك بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البناني قد حببت اليه الصلاة فكان يقول اللهم ان كنت أذنت لاحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري وقال الجنيد ما رأيت أعبد من السري أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا الا في علة الموت وقال الحرث بن سعد مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الاهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الاكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم وعلى أبي محمد المغازلي قال جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند الى عمود ولا الى حائط ولم يمد رجليه فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني فأعانني على ظاهري فاطرق الكتاني ومشى مفكرا وعن بعضهم قال دخلت على فتح الموصلي فرأيته قد مد كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه

الوصول هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الابدي فكيف في العمر القصير الدنيوي

*ومنها القبض والبسط وهما حالان شريفان قال الله تعالى والله يقبض و يبسط وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا باشارات هي علامات القبض والبسط ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لانهم اكتفوا بالاشارة والاشارة تقنع الاهل وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق الى ذلك طالب و يحب بسط القول فيه والله أعلم (واعلم) أن القبض والبسط لهما موسم معلوم و وقت مختوم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده و وقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخالصة لا في نهايتها ولا قبل حال المحبة الخاصة فمن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الايمان لا يكون له

فدنوت منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت ولم بالله يا فتح بكيت الدم فقال لولا انك أحلفتني بالله ما أخبرتك نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى و بكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع قال فرأيته بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك قال غفر لي فقلت له فماذا صنع في دموعك فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يا فتح الدمع على ماذا قلت يارب على تخلفي عن واجب حقك فقال والدم على ماذا قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يا فتح ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة وقيل ان قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا يا راهب انا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه الى السماء فعلم القوم ما أراد فقالوا يا راهب انا سائلوك فهل أنت مجيبنا فقال سلوا ولا تكثروا فان النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير الزاد ما بلغ البغية ثم أرشدهم الى الطريق وأدخل رأسه في صومعته وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف علي وقال يا هذا ما أنا براهب انما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه فقال يا أخي لم يقطع الخلق عن الله الا حب الدنيا وزينتها لانها محل المعاصي والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب الى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه * وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال اني اذا لفارغ وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة واذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك قال الرفق أطلب دعيني أتعب قليلا وأتنعم طويلا وحج مسروق فما نام قط الا ساجدا وقال سفيان الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى وقال عبد الله بن داود كان أحدهم اذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام فيقول يا ابنتاه ان أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لعلك قتلت قتيلا قال نعم يا أماه قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفوا عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول يا أماه هي نفسي وعن عمر ابن أخت بشر بن الحرث قال سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لامي يا أختي جوفي وخواصري تضرب علي فقالت له أمي يا أخي تأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك فقال لها ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري ايش أقول له فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعته يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني واذ ولدتني لم يدر ثديها علي قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار وقال الربيع أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام الى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم اني أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل الى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم وقال أحمد بن حرب يا عجبا لمن يعرف أن

قبض ولا بسط وانما يكون له خوف ورجاء وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضا وبسطا وليس هو ذلك وانما هو هم يعتريه فيظنه قبضا واهتزاز نفساني ونشاط طبيعي يظنه بسطا والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها وما دامت صفة الامارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهم وهيج ساجور النفس والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة الى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لانه ارتقى من رتبة الايمان الى رتبة الايقان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى

الجنة تزين فوقه وان النار تسعر تحته كيف ينام بينهما وقال رجل من النساك أتيت ابراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب الى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب الى الصلاة ولم يحدث وضوأ فحاك ذلك في صدري فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم وقال ثابت البناني أدركت رجالا كان أحدهم يصلي فيعجز عن ان يأتي فراشه الاحبوا وقيل مكث أبو بكر ابن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في احدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان وردسمنون في كل يوم خمسمائة ركعة وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه قل هو الله أحد احدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوي وكان منصور بن المعتمر اذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ان حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يابني أصبت نفسا العلك قتلت قتيلا فيقول ياأمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو الا أني صرفت طعام النهار الى الليل ونوم الليل الى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان اذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فاذا جاء الليل قال من خاف أدلج عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيأ يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا اذا ذكر والله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لازحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لا مني فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ان يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا وكان اذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضر به البرد واذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وانه مات وهو ساجد وانه كان يقول اللهم اني أحب لقاءك فأحب لقائي وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت اذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما اليها فاذا هي تصلي صلاة الضحى وهي تقرأ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وتبكي وتدعو وتردد الآية فقمت حتى مللت وهي كما هي فلما رأيت ذلك ذهبت الى السوق فقلت أفرغ من حاجتي ثم ارجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو وقال محمد بن اسحق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الاسود حاجا اعتلت احدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء وقال بعضهم ما أخاف من الموت الا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفرة الالوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين وقيل للحسن ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها فقال لانهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول الهي خلقتني ولم تؤامرني وتميتني ولا تعلمني وخلقت معي عدوا وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا أراه ثم قلت لي استمسك الهي كيف أستمسك ان لم تمسكني الهي في الدنيا الهموم والاحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان اذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى الثلث

(قال) الواسطي يقبضك عما لك ويبسطك فيما له (وقال) النوري يقبضك بابك ويبسطك لاياه واعلم ان وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة والقبض والبسط باعتبار ذلك منهما وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه فاذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب فاذا عاد الى الوجود من الفناء والبقاء يعود الى الوجود النوراني

الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد فحدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر الى صياحه ولكن انظر الى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح وعن القاسم ابن راشد الشيبانى قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب وكان له أهل و بنات وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا فاذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ فاذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعض الحكماء ان لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر اليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين و بيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها طرائف من لطائف الفوائد ومالا يمكن واصفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا وهذه طريقة لا يبلغ اليها بالتكلف وانما هو فضل الله يؤتيه من يشاء وقال بعض الصالحين بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس اذ هبطت الى واد هناك فاذا أنا بصوت قد علا واذا لتلك الجبال تجيبه له دوى عال فاتبعت الصوت فاذا أنا بروضة عليها شجر ملتف واذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الى قوله ويحذركم الله نفسه قال فجلست خلفه اسمع كلامه وهو يردد هذه الآية اذ صاح صيحة خر مغشيا عليه فقلت وا أسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت افاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من اعراض الغافلين ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين واليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال مالى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك يا دنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك الى محبيك فاذهبى واياهم فاخدعى ثم قال أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته يا عبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الاوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت الى نفسه أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه و بقيت آثامه ثم قال أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ثم صاح صيحة أخرى أشد من الاولى وخر مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فاذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول من أنا ما خطرى هب لى اساءتى من فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك اذا وقفت بين يديك فقلت له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به الا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه انى لفى هذا الموضع منذ شاء الله أجاهد ابليس و يجاهدنى فلم يجد عونا على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك فاليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت الى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه و يتفضل على برحمته قال فقلت هذا ولى لله أخاف ان أشغله فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته وقال بعض الصالحين بينما أنا أسير فى مسير لى اذ ملت الى شجرة لاستريح تحتها فاذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى يا هذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفيما بعد الموت فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ثم قال يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر اليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الاعراض عنك ثم قال لولا حلمك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ثم مضى وتركنى وقد أنشدوا فى هذا المعنى

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد * تراه بقنة أو بطن وادى * ينوح على معاص فاضحات
يكدر ثقلها صفو الرقاد * فان هاجت مخاوفه و زادت * فدعوته أغثنى يا عمادى
فأنت بما ألاقيه عليم * كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا
ألذ من التلذذ بالغوانى * اذا أقبلن فى حلل حسان * منيب فر من أهل ومال
يسيح الى مكان من مكان * ليخمل ذكره ويعيش فردا * و يظفر فى العبادة بالامانى

الذى هو القلب فيعود القبض والبسط اليه عند ذلك ومهما تخلص الى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أولا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لان القبض والبسط يقع فى الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم ان القبض قد يكون عقوبة الافراط فى البسط وذلك ان الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها فاذا وصل أثر الوارد الى النفس طغت بطبعها وأفرطت فى البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض اذا فتش لا يكون الا من حركة النفس وظهورها بصفتها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب

تلذذه التلاوة أين ولي * وذكر بالفؤاد وباللسان * وعند الموت يأتيه بشير
يبشر بالنجاة من الهوان * فيدرك ما أراد وما تمنى * من الراحات في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقيل خمسون ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعني انك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها هكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة واذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن ابل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالاغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت اذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت الهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها فاذا طلع الفجر قالت الهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها علي فأعزى وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك ويروى عن عجردة أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر فاذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون اليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون الى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا الهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وان تلحقني بعبادك الصالحين فانت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي الى الفجر وقال يحيى بن بسطام كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها اذا أخلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيأ فكان لك أقوى على ما تريدين قال فبكت ثم قالت والله لوددت اني أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء حتى غشي عليها وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتعبدات قالت رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة فاذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون الى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل أمة سوداء من أهل الايلة يقال لها شعوانة قالت فقلت أختي والله قالت فبينما أنا كذلك اذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك قالت فتبسمت الي وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين ألزمي الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة الى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فاذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي الا ما غفرت لي ذنوبي فقلت لها لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك فقالت يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك الى الاسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام وقال أبو هاشم القرشي قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لخادمي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيأ غير أنها لا ترد

القبض ومادام روحه وأنسه ورعاية الاعتدال الذي لا يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض سيما اذا الطف بالفرح بالوارد بالابواء الى الله واذا لم يلتج بالابواء الى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى الممنوع منه فمن ذلك القبض في بعض الاحايين وهذا

طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال الى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن انك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شئ قدير * وقال ذو النون المصرى خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى اذا سواد مقبل على وهو يقول و بدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون و يبكى فلما قرب منى السواد اذا هى امرأة عليها جبة صوف و بيدها ركوة فقالت لى من أنت غير فزعة منى فقلت رجل غريب فقالت ياهذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لى ما الذى أبكاك فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فاسرع فى نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكى قالت لا قلت ولم ذلك قالت لان البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها * وقال أحمد بن على استاذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعناها وهى تقول اللهم انى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعى لنا فقالت جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر الى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فأصابه فتق فى بطنه فياليت عفيرة اذ رفعت رأسها لم تعص و ياليتها اذ عصت لم تعد وقال بعض الصالحين خرجت يوما الى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت لا تبرحى حتى أنصرف اليك قال فانصرفت فلم أجدها فى الموضع فانصرفت الى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت يامولاى لا تعجل على انك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكرا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرة فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى اجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما وقال ابن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا الى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت ان يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ماذهب منهما فى الدنيا وان كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ثم أعرضت قال فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شئ غير ما نحن فيه * وكانت معاذة العدوية اذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فاذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح وقال أبو سليمان الدارانى بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقمت أنا الى ناحية من البيت فلم تزل قائمة الى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن نصوم له غدا وكانت شعوانة تقول فى دعائها الهى ما أشوقنى الى لقائك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين الهى ان كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عملى فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فان عفوت فمن أولى منك بذلك وان عذبت فمن أعدل منك هنالك الهى قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك فالويل لها ان لم تسعدها الهى انك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى باحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه الهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى الا الجميل فى حياتى الهى ان كانت ذنوبى قد أخافتنى فان محبتى لك قد أجارتنى فتول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله الهى لو أردت اهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فتعنى بما له هديتنى وأدم لى ما به سترتنى الهى ما أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى الهى لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرنا لها شيأ من العفو ليهون عليها الامر قال فشهقت ثم قالت علمى بنفسى قرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيأ مذكورا ثم أقبلت على صلاتها * فعليك ان كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك واياك أن تنظر الى أهل عصرك فانك

من ألطف الذنوب الموجبة للقبض وفى النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الانس والهيبة لانهما من ضرورة الايمان فلا ينعدمان وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الايمان لنقصان الحظ من القلب وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب وقد يرد على الباطن قبض وبسط

ان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وان أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الاولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فان حدثتك نفسك بالنظر الى أهل زمانك وقالت انما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الاعوان والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجري عليك الاما يجري عليهم والمصيبة اذا عمت طابت فاياك أن تدلي بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك ان المصيبة اذا عمت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجهليهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك فاذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وهذا الغرق لايتمادى الاساعة فكيف لاتهربين من عذاب الابد وأنت متعرضة له في كل حال ومن أين تطيب المصيبة اذا عمت ولاهل النار شغل شاغل عن الالتفات الى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار الابموافقة أهل زمانهم حيث قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون فعليك اذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لاتترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها

﴿ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها ﴾

اعلم ان أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة الى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال تعالى وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وانها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها وبشتد أنفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يانفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا فاراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا أما تعلمين أن كل ماهو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وانه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فان لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي الى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب اليك من كل قريب أما تتدبرين قوله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ويحك يانفس ان كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك ان الله لا يراك فما أعظم كفرك وان كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين انك تطيقين عذابه هيهات هيهات جربي نفسك ان ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه الى كرم الله تعالى واذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي الا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل

ولا يعرف سببهما ولا يخفى سبب القبض والبسط الاعلى قليل الحظ من العلم الذي يحكم على الحال ولا علم المقام (ومن) أحكم علم الحال والمقام لايخفى عليه سبب القبض والبسط وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط وانما علم ذلك لمن استقام قلبه ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لاتنقدح من جوهرها نار توجب القبض ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط

اليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت ان سنة الله لا تبديل لها وان رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان الا ما سعى ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وقال في أمر الآخرة وأن ليس للانسان الا ما سعى فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة الى سعيك فاعرضت عنها اعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الاسفل من النار ويحك يا نفس كانك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت وهيهات أتحسبين انك تتركين سدى ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فان كان هذا من اضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين انه مماذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فاقبرك أفتكذبينه في قوله ثم اذا شاء أنشرك فان لم تكوني مكذبة فما بالك لا تأخذين حذرك ولو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بانه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم والعجب انه لو أخبرك طفل بان في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة الاولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الاغبياء أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها الا يوما أو أقل منه ماهذه أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الاجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ان ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فاقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه في السنة الاخيرة عند رجوعه الى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه ان مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه ثم هبي ان الجهد في آخر العمر نافع وانه موصل الى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك فان أوحي اليك بالامهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدت أما علمت ان الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الامس لا بل ماتعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز لان الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فاذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فاخرها الى سنة أخرى مع العلم بان طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فاذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الامور الجلية وتركنين الى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذا الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة الا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك ان كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك الا في الجنة فان كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره وأخبره انه ان شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى

و ربما صار لمثل هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجري القبض والبسط في نفسه المطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط لان القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر في دعة القرب فلا قبض ولا بسط

(ومنها الفناء والبقاء) قد قيل الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ بل يفنى عن الاشياء كلها شغلا بمن فني فيه وقد قال عامر بن عبد الله لا أبالي امرأة رأيت أم حائطا ويكون محفوظا فيما لله عليه

العقل فى قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاث آلاف يوم وجميع عمرك بالاضافة الى الابد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالاضافة الى جميع العمر وان طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك الا لكفر خفى أو لحمق جلى أما الكفر الخفى فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات الى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع انك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين الى غرضك فى ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالانفاس معدودة فاذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الاسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات كما لا يندفع برد الشتاء الا بالجبة والنار وسائر الاسباب فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وانما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وانما تشترينه لنفسك اذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وانما هى طريقك الى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين ويحك يا نفس انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده وكما بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا ويحك يا نفس وما أراك الا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مفارقتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك أفترين ان من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره الى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة الى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى أما تعلمين ان الدنيا دار الملك الملوك ومالك فيها الا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزى به وعش ما شئت فانك ميت ويحك يا نفس أما تعلمين أن كل من يلتفت الى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع ان الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وانما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى أوما تنظرين الى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون يبنى كل واحد قصرا مرفوعا الى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الارض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر اليها قطعا أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى الى هذه الامور وانما تميلين بالطبع الى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الانبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا

عمر وفاء عن جميع المخالفات والبقاء بعقبه وهو أن يفنى عماله ويبقى بما لله تعالى (وقيل) الباقى أن يصير الاشياء كلها له شيأ واحدا فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته فكان فانيا عن المخالفات باقيا فى الموافقات (وعندى) أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح وليس من الفناء والبقاء فى شئ ومن الاشارة الى الفناء ماروى عن عبد الله بن عمر أنه سلم عليه انسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه فشكا الى بعض أصحابه فقال له كنا

واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك ان كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء يانفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك عجبا لك كيف تعمين عن هذه الامور الواضحة الجلية ولعلك يانفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها أوما تتفكرين ان الجاه لامعنى له الاميل القلوب من بعض الناس اليك فاحسبي ان كل من على وجه الارض سجد لك وأطاعك أفاتعرفين أنه بعد خمسين سنة لاتبقين أنت ولاأحد ممن على وجه الارض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لايبقى ذكرك ولاذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فكيف تبيعين يانفس مايبقى أبد الآباد بمالايبقى أكثر من خمسين سنة ان بقي هذا ان كنت ملكا من ملوك الارض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الاسباب كيف ويأبى ادبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يانفس لاتتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فمالك لاتتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها أم مالك لاتزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ومالك تفرحين بدنيا ان ساعدتك فلاتخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الاخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك اذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل فياحسرة عليك اذ خسرت الدنيا والدين فبادري ويحك يانفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ويحك يانفس مالك الا أيام معدودة هي بضاعتك ان اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ماضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف اذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك أما تعلمين يانفس ان الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الاكبر بين يديك أما علمت يانفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالايمان المغلظة أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم أما تعلمين يانفس انهم يتمنون الرجعة الى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك مافرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه ولو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة ويحك يانفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولاتستحيين من الخالق ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين الى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية أما تعلمين يانفس ان المذنب أنتن من العذرة وان العذرة لاتطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ويحك يانفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس مايصيبهم بلاء الا بشؤمك ويحك يانفس قد جعلت نفسك حمارا لابليس يقودك الى حيث يريد ويسخر بك ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات مالو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يديك وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله ابليس بخطيئة واحدة بعد ان عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك يانفس ما أغدرك ويحك يانفس ما أوقحك ويحك يانفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يانفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين الى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يانفس أمالك بهم عبرة أمالك اليهم نظرة أتظنين انهم دعوا الى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ماتتوهمين ما أنت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الارض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين اذا بلغت النفس منك التراقي ان تبدو رسل ربك منحدرة اليك بسواد الالوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يانفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولاتحزنين

ثم تراءى الله في ذلك المكان (وقيل) الفناء هو الغيبة عن الاشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل (وقال الخراز) الفناء هو التلاشي بالحق والبقاء هو الحضور مع الحق (وقال) الجنيد الفناء استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته وقال ابراهيم بن شيبان علم الفناء والبقاء يدور على اخلاص الوحدانية وصحة العبودية وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة (وسئل) الخراز ما علامة الفاني قال علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من

بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص و يحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فانت تشاهدين ذلك في اخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه ان لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله و بأي لسان تجيبين وأعدي للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملي ببقية عمرك في أيام قصار لايام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملي قبل ان لا تعملي اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل ان تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك و يفرح و يلهو و يمرح و يأكل و يشرب وقد حق له في كتاب الله انه من وقود النار فليكن نظرك يا نفس الى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي و يبتغي الزيادة فيما بقي و ينهى الناس ولا ينتهي واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام فان لم تزل فبصلة الارحام واللطف بالايتام فان لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وانه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره و باطنه فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك الى القنوط ولا سبيل لك الى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستغيثي بأرحم الراحمين واشتكي الى أكرم الاكرمين وأدمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك يغثك فان مصيبتك قد عظمت و بليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا الا الى مولاك فافزعي اليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لانه يرحم المتضرع الذليل و يغيث الطالب المتلهف و يجيب دعوة المضطر وقد أصبحت اليه اليوم مضطرة والى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسؤل جواد والمستغاث به رؤف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجريء الذي لا أقلع أنا المتمادي الذي لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريب فعجل اغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة الى الارض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك قال يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا أبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الارض رجالا كلهم مثلك يعبدوني و يسبحوني ثم عصوني

الدنيا والآخرة الا من الله تعالى (وقال أبو سعيد الخراز) أهل الفناء في الفناء محنهم ان يصحبهم علم البقاء وأهل البقاء في البقاء محنهم أن يصحبهم علم الفناء * واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة فبعضها اشارة الى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة و بعضها يشير الى زوال الرغبة والحرص والامل وهذا يقتضيه الزهد و بعضها اشارة الى فناء الاوصاف المذمومة و بقاء

لانزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله الهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى واعبيداه ان كانت النار لك مقيلا ومأوى واعبيداه ان كانت المقامع لرأسك تهيأ واعبيداه قضيت حوائج الطالبين واهل حاجتك لا تقضى وقال منصور بن عمار سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك اذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخي على فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم ان قطعت حبلك عني واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا اذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ويلي كلما كبرسني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فالى متى أتوب والى متى أعود أما آن لي أن أستحي من ربي فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وانما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام * تم كتاب المحاسبة والمراقبة يتلوه كتاب التفكر ان شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

﴿ كتاب التفكر وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ولم يجعل لمراقي أقدام الاوهام ومرمى سهام الافهام الى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا واذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ثم قيل لها أجيلي في ذل العبودية منك فكرا لانك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدرا وان طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى وجددي لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وايمانا وكفرا وعرفانا ونكرا فان جاوزت النظر في الافعال الى النظر في الذات فقد حاولت أمرا امرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا فقد انبهرت العقول دون مبادي اشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وان كان لم يعد سيادته فخرا صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فقد وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الانوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره وموارده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه فان كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الاحوال أو منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجاري الفكر ومسارحه ان شاء الله تعالى

﴿ فضيلة التفكر ﴾

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تتكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فان بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها أو بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله

الاوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها اشارة الى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستوي من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد وهو ينقسم الى فناء ظاهر وفناء باطن فاما الفناء الظاهر فهو ان يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الافعال ويسلب عن العبد اختياره وارادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا الا بالحق ثم يأخذ

عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يا رسول الله فاين الشيطان منهم قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم قال لا يدرون خلق آدم أم لا وعن عطاء قال انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير الى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فاخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام الى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها فقيل للاوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن وعن محمد ابن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب الى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم انك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل

اذا المرء كانت له فكرة ✽ ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم يا روح الله هل على الارض اليوم مثلك فقال نعم من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قال أمنع قلوبهم التفكر في أمري وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة قال النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها الى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان انك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان ان طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه ما طالت فكرة امرئ قط الا علم وما علم امرؤ قط الا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن علي ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل وعن ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب وبينا أبو شريح يمشي اذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له ما يبكيك قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لاهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب وقال حاتم من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف وقال ابن عباس التفكر في الخير يدعو الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه اني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر الى همه وهواه فاذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وان لم يتكلم وقال الحسن ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة وقال اسحاق ابن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والارض وهو ينظر الى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص فلما نظر الى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكاس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن

في المعاملة مع الله تعالى بحسبه حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان بقي أياما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقيض الله تعالى له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا أمر فناء لانه فني عن نفسه وعن الغير نظرا الى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولي على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس

رزقه وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الامور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم وقال أيضا الفضائل أربع احداها الحكمة وقوامها الفكر والثانية العفة وقوامها في الشهوة والثالثة القوة وقوامها في الغضب والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكر وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقته وبيان مجاريه

﴿ بيان حقيقة الفكر وثمرته ﴾

اعلم أن معنى الفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله أن من مال الى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالايثار من العاجلة فله طريقان أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالايثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الامر فيميل بعمله الى ايثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة والطريق الثاني أن يعرف أن الابقى أولى بالايثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالايثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالايثار الا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وان كان أصل المسمى واحدا كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته الى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير اشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث انه يعبر منهما الى معرفة ثالثة وان لم يقع العبور ولم يمكن الا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث ان فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا فائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف اذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فاذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر الى غير نهاية وانما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي الى طريق التفكر وأما أكثر الناس فانما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كالذي لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيأ فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وايقاع الازدواج المفضي الى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور الهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الاكثر ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الايراد فكم من انسان يعلم أن الآخرة أولى بالايثار علما حقيقيا ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على ايراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته الا عن المعرفتين السابقتين وهو أن الابقى أولى بالايثار وان الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالايثار فرجع حاصل حقيقة التفكر الى احضار معرفتين للتوصل بهما الى معرفة ثالثة وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والاحوال والاعمال ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير نعم اذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وانه خير من الذكر والتذكر لان الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب

ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب احساسه وقد يتفق غيبة الاحساس لبعض الاشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الاطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري وقلت له هل يكون بقاء المتخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الخفي وكان عندي أن ذلك من الشرك الخفي فقال لي هذا يكون في مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفي أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوقعت اسطوانة

خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر فاذا التفكر أفضل من جملة الاعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فقيل هو الذى ينقل من المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا وان أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ماذكرناه من أمر الآخرة فان الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالايثار فاذا رسخت هذه المعرفة يقينا فى قلوبنا تغيرت القلوب الى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال اذا كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل اليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت ارادته ورغبته ثم أثمر تغير الارادة أعمال الجوارح فى اطراح الدنيا والاقبال على أعمال الآخرة فههنا خمس درجات أولاها التذكر وهو احضار المعرفتين فى القلب وثانيتها التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضئ بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنهض الاعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل الى ما لم يكن يميل اليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنهض الاعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند ادراك البصر ما لم يكن يبصره فاذا ثمرة الفكر العلوم والاحوال والعلوم لا نهاية لها والاحوال التى تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لان مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالاضافة الى مهمات العلوم الدينية وبالاضافة الى الاحوال التى هى مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جمليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر الى ضبط المجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر

﴿بيان مجارى الفكر﴾

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين وانما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى فجميع أفكار العبد اما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله واما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد اما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة الى الفكر فى غير هذين القسمين وما يتعلق بالرب تعالى اما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى واما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما فى السموات والارض وما بينهما وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الاقسام بمثال وهو ان حال السائرين الى الله تعالى والمشتاقين الى لقائه يضاهى حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا فنقول العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه فان تفكر فى معشوقه فاما ان يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته واما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته وان تفكر فى نفسه فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فان تفكر فى شئ خارج عن هذه الاقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لان العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الاقسام الاربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدأ بالقسم الاول وهو تفكره فى صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة ثم

فى الجامع فانزعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحس بالاسطوانة ووقوعها فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه الى الله وينتظر الاذن فى كليات أموره ليكون فى الاشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لاذن

كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات والمعاصي والى باطن كالصفات المنجيات
والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصي تنقسم الى
ما يتعلق بالاعضاء السبعة والى ما ينسب الى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في
المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور الاول التفكر في أنه هل هو مكروه عند
الله أم لا فرب شئ لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر والثاني التفكر في أنه ان كان مكروها
فما طريق الاحتراز عنه والثالث ان هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في
الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات
ينقسم الى هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الاقسام زادت مجارى الفكر في هذه الاقسام على مائة والعبد مدفوع
الى الفكر اما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة
أنواع الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به
المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه * النوع الاول المعاصي * ينبغي أن يفتش الانسان
صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها
أو لابسها بالامس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر
في اللسان ويقول انه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والممارات والممازحة
والخوض فيما لا يعني الى غير ذلك من المكاره فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في
شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله انه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم
يتفكر انه كيف يحترز منه ويعلم انه لا يتم له ذلك الا بالعزلة والانفراد أو بأن لا يجالس الا صالحا تقيا ينكر عليه
مهما تكلم بما يكرهه الله والا فيضع حجرا في فيه اذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا يكون الفكر
في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه انه يصغى به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو والبدعة
وأن ذلك انما يسمعه من زيد ومن عمرو وانه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر فمهما كان
ذلك فيتفكر في بطنه انه انما يعصى الله تعالى فيه بالاكل والشرب اما بكثرة الاكل من الحلال فان ذلك مكروه
عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله واما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه
ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب
منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو
أساس العبادات كلها وان الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر
في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الاحوال اشتغل
بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الاعضاء عنها * وأما النوع الثاني وهو الطاعات * فينظر أولا في الفرائض
المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة
النوافل ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر في الافعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلا ان
العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والارض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر على أن
أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فادخل السرور على قلبه وأنظر الى فلان الفاسق بعين الازدراء فازجره
بذلك عن معصيته فلم لا أفعله وكذلك يقول في سمعه اني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو
استماع قراءة وذكر فمالي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لاشكره فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله
وكذلك يتفكر في اللسان ويقول اني قادر على أن أتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب
أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة
وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فاني مستغن عنه
ومهما احتجت اليه رزقني الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فانا الى ثواب الايثار أحوج مني الى ذلك المال

الحق في كليات أموره
راجع الى الله بباطنه
في جزئياتها فان ومن
ملكه الله تعالى اختياره
وأطلقه في التصرف
يختار كيف شاء وأراد
لا منتظرا للفعل ولا
للاذن هو باق والباقي
في مقام لا يحجبه الحق
عن الخلق ولا الخلق
عن الحق والفاني
محجوب بالحق عن
الخلق والفناء الظاهر
لارباب القلوب
والاحوال والفناء
الباطن لمن أطلق عن
وثاق الاحوال وصار
بالله لا بالاحوال وخرج
من القلب فصار مع
مقلبه لا مع قلبه
* الباب الثاني والستون

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه فى البدار الى تلك الطاعات ويتفكر فى اخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات ❁ وأما النوع الثالث فهى الصفات المهلكة التى محلها القلب ❁ فيعرفها ماذكرناه فى ربع المهلكات وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات فان ظن ان قلبه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فان النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق كما كان الاولون يجربون به أنفسهم واذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها فى كظم الغيظ وكذلك فى سائر الصفات وهذا تفكر فى أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ولذلك علامات ذكرناها فى ربع المهلكات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الاسباب التى تقبح تلك الصفات عنده وتبين ان منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كما لو رأى فى نفسه عجبا بالعمل فيتفكر ويقول انما عملى ببدنى وجارحتى وبقدرتى وارادتى وكل ذلك ليس منى ولا الى وانما هو من خلق الله وفضله على فهو الذى خلقنى وخلق جارحتى وخلق قدرتى وارادتى وهو الذى حرك أعضائى بقدرته وكذلك قدرتى وارادتى فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ولا أقوم لنفسى بنفسى فاذا أحس فى نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر فى الحال يموت مقربا الى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فاذا عرف أن الكبر مهلك وان أصله الحماقة فيتفكر فى علاج ازالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين واذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر فى أن هذه صفة البهائم ولو كان فى شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب ثم يتفكر فى طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلابد له من تحصيل ما فى هذه الكتب ❁ وأما النوع الرابع وهو المنجيات ❁ فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد فى الدنيا والاخلاص والصدق فى الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه فى هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم فى قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شئ منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها الا علوم وان العلوم لا يثمرها الا أفكار فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها فى قلبه ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها وليتحقق عند نفسه انه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم واذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى احسان الله اليه وأياديه عليه وفى ارساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه فى كتاب الشكر فليطالع ذلك واذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير الى طرف منه فى القسم الثانى من الفكر واذا أراد حال الخوف فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر فى الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ثم فى هول النداء عند نفخة الصور ثم فى هول المحشر عند جميع الخلائق على صعيد واحد ثم فى المناقشة فى الحساب والمضايقة فى النقير والقطمير ثم فى الصراط ودقته وحدته ثم فى خطر الامر عنده انه يصرف الى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف الى اليمين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد أهوال القيامة فى قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وانهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وانهم اذا رأوها من مكان

في شرح كلمات مشيرة الى بعض الاحوال فى اصطلاح الصوفية ❁ (أخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى بن سليمان اجازة قال أنا أبو الفضل حمد ابن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم الاصفهانى قال ثنا محمد بن ابراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشى قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبى الزبير عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان من معادن التقوى تعلمك الى ما قد علمت علم ما لم تعلم والنقص فيما علمت قلة

بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا الى جميع ما ورد فى القرآن من شرحها واذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب محبوب به أو التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الاحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فانه جامع لجميع المقامات والاحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الاحوال وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغى أن يقرأه العبد ويردد الآية التى هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسرارا لا تنحصر ولا يوقف عليها الا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتى جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والاخبار يطول فانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزى به فان هذه الكلمات جامعة حكم الاولين والآخرين وهى كافية للمتأملين فيها طول العمر اذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت الى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر فى علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هى محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة والمبتدئ ينبغى أن يكون مستغرق الوقت فى هذه الافكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر فى جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر فى أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق فاما ما ذكرناه فهو تفكر فى عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره فى اصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور فى البوادى فلقيه الحسين بن منصور وقال فيم أنت قال أدور فى البوادى أصلح حالى فى التوكل فقال الحسين أفنيت عمرك فى عمران باطنك فاين الفناء فى التوحيد فالفناء فى الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة فى النكاح وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها فى تبرئة الرحم وتزين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب فهكذا ينبغى أن تفهم طريق الدين ان كنت من أهل المجالسة وان كنت كالعبد السوء لا يتحرك الا خوفا من الضرب وطمعا فى الاجرة فدونك واتعاب البدن بالاعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الاعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون واذا عرفت مجال الفكر فى علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة اليه سبحانه وتعالى بل كل مريد فينبغى أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة فانه ان سلم منها سلم من غيرها وهى البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه ومن المنجيات عشرة الندم على الذنوب والصبر على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجاء والزهد فى الدنيا والاخلاص فى الاعمال وحسن الخلق مع الخلق وحب الله تعالى والخشوع له فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته اياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم الا بتوفيق الله تعالى وعونه

الزيادة فيه وانما يزهد الرجل فى علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا والموضع تقواهم فعلمهم الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الاشارات واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الاسرار وترسخ قدمهم فى العلم (قال) أبو سعيد الخراز أول الفهم لكلام الله العمل به لان فيه العلم والفهم والاستنباط وأول الفهم القاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى

ولو وكله الى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على التسعة الباقية وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي وهذا يحتاج اليه المريد المشمر وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة واطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الاعداء وموالاة الاولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها مثاله العالم الورع فانه لا يخلو في غالب الامر عن اظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت اما بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها الا الصديقون فانه ان كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الاعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وان رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول ان غيظك من حيث انه رد الحق وأنكره فان وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والايراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول انما حرصك على تحسين الالفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب اعلاء لدين الله فان كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وانما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو في موالاة غيره وان كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهي الامر بأهل العلم الى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته الى غيره وان كان يعلم انه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وانما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو اما مالك واما هالك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الانس اذا قالوا لا تفعل هذا فان هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق وليقل لهم ان دين الاسلام مستغن عني فانه قد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدي ولو مت لم تنهدم أركان الاسلام فان الدين مستغن عني وأنا فلست مستغنيا عن اصلاح قلبي وأما اداء ذلك الى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فان الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب الى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتر عن عمله الى يوم القيامة بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فان ذلك بذر النفاق قال صلى الله عليه وسلم حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر افسادا فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم ولا ينقلع حب الجاه من القلب الا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها

ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (وقال أبو بكر) الواسطي الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر فعرفهم ما عرفهم وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة (وقد ورد في

وهذه وظيفة العالم المتقى فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى ايماننا بيوم الحساب اذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا ان هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيأ هرب منه ومن رجا شيأ طلبه وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام و بترك المعاصى ونحن منهمكون فيها وان طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون فى الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم الا أنه يقتدى بنا فى الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام اذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا و يصلح بنا و يوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا انه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين فى علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها الى التفكر فى جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك الا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات وان ظهر شئ منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم و يكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ولا طريق له فى كمال التنعم الا باخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهى مؤذيات ومشوشات وفى القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف فى التنبيه على مجارى فكر العبد فى صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى * القسم الثانى الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامات * المقام الاعلى الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تتفكروا فى ذات الله وذلك لان العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالاضافة الى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالاضافة الى نور الشمس فانه لا يطيقه ألبتة بل يختفى نهارا وانما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس اذا وقع على الارض وأحوال الصديقين كحال الانسان فى النظر الى الشمس فانه يقدر على النظر اليها ولا يطيق دوامه و يخشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف اليها يورث العمش و يفرق البصر وكذلك النظر الى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب اذا أن لا يتعرض لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته فان أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الاقطار والجهات وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه اذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا اذ قيل لهم انه يتعاظم و يتعالى عن أن يكون له رأس و رجل و يد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح فى عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام ان هذا وصف بطيخ هندى لا وصف الاله لظن المسكين أن الجلالة والعظمة فى هذه الاعضاء وهذا لان الانسان لا يعرف الا نفسه فلا يستعظم الا نفسه فكل ما لا يساويه فى صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره و بين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك فى حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لانكر ذلك وقال كيف يكون خالقى أنقص منى أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لى آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقى ومصورى وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل وأن الانسان لجهول ظلوم كفار ولذلك أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه لا تخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه لكنا نعدل الى المقام الثانى وهو النظر فى أفعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر الى صفاته من آثار صفاته فانا لا نطيق النظر الى صفاته كما أنا نطيق النظر الى الارض مهما استنارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور

الخبر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أنه قال ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله فاذا نطقوا به لا ينكره الا أهل الغرة بالله (أخبرنا) أبو زرعة قال أنا أبو بكر بن خلف قال ثنا أبو عبد الرحمن قال سمعت النصرآباذى يقول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشى يقول هى أسرار الله تعالى يبديها الى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة

الشمس بالاضافة الى نور القمر وسائر الكواكب لان نور الارض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وان كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الاشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس اذ قوام وجود الاشياء بذاته القيوم بنفسه كما ان قوام نور الاجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر اليها فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر اليها فكذلك الافعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد ان تباعدنا عنها بواسطة الافعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى

﴿ بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى ﴾

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن لانه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ولكنا نشير الى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى ويخلق ما لا تعلمون سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون وقال وننشئكم فيما لا تعلمون والى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها وهي منقسمة الى ما أدركناه بحس البصر والى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الاشياء مما يضيق ويغمض فلنعدل الى الاقرب الى الافهام وهي المدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والارض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والارض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والارض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها فهذه هي الاجناس المشاهدة من السموات والارض وما بينهما وكل جنس منها ينقسم الى أنواع وكل نوع ينقسم الى أقسام ويتشعب كل قسم الى أصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والارض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب الا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب وكما قال تعالى ومن آياته من أول القرآن الى آخره فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات ﴿ فمن آياته ﴾ الانسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الاعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال وفي أنفسكم أفلا تبصرون وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره وقال تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون وقال تعالى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى وقال تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم وقال أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة الآية فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه فانظر الآن الى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الارباب من الصلب والترائب وكيف جمع

وهي من الاسرار التي لم يطلع عليها الا الخواص (وقال) أبو سعيد الخراز للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الابدية ويخبرون عنها بعبارة الازلية وهي من العلم المجهول فقوله بلسان الابدية وعبارة الازلية اشارة الى انهم بالله ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بي ينطق وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (فما) تداولته

بين الذكر والانثى أو التى الالفة والمحبة فى قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية الى العظام والاعصاب والعروق والاوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والاعصاب والعروق الاعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر والانف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤسها بالاصابع وقسم الاصابع بالانامل ثم كيف ركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه الاعضاء باقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الابصار فلو ذهبنا الى أن نصف ما فى آحاد هذه الاعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الاعمار فانظر الآن الى العظام وهى اجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه مفتقرا للتردد فى حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفى العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه وفى الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد ان أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الاشكال والصور فألف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف وأربعة عشر للحى الاعلى واثنان للحى الاسفل والبقية هى الاسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهى الانياب والاضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام فى بدن الانسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الاطباء والمشرحون وانما الغرض أن ينظر منها فى مدبرها وخالقها انه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص لانه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحد لكان نقصانا يحتاج الى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين النظرين ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهى العضلات فخلق فى بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهى مختلفة المقادير والاشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هى لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الاعصاب والعروق والاوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول فللفكر مجال فى آحاد هذه الاجزاء ثم فى آحاد هذه الاعضاء ثم فى جملة البدن فكل ذلك نظر الى عجائب أجسام البدن

وعجائب

ألسنتهم من الكلمات تفهيما من بعضهم للبعض واشارة منهم الى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والتفرقة قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو فهذا جمع ثم فرق فقال والملائكة وأولو العلم وقوله تعالى آمنا بالله جمع ثم فرق بقوله وما أنزل الينا والجمع أصل والتفرقة فرع فكل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل (وقال الجنيد) القرب بالوجد جمع وغيبته فى البشرية تفرقة وقيل جمعهم فى

وعجائب المعانى والصفات التى لا تدرك بالحواس أعظم فانظر الآن الى ظاهر الانسان و باطنه والى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته فى أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هى أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما فى الارض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا هل يقدرون على ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت الى صورة انسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الانسان وقال الناظر اليها كأنه انسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم فى قلبك محله مع أنك تعلم أن تلك الصورة انما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط و بالقدرة و بالعلم و بالارادة وشىء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وانما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الاصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها و زين ظاهرها و باطنها و رتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ففتح العينين و رتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيأتها ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر اليها ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها و يدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها و يطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها اذا قصدها دابة فى حال النوم ثم رفع الانف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب و زين الفم بالاسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها و بيض لونها و رتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الاشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر و رخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الاصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والاصداغ و زين الوجه باللحية والحاجبين و زين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل و زين العينين بالاهداب ثم خلق الاعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها والكلية تخدمها بجذب المائية عنها والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه فى طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد فى ايصال الدم الى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد الى المقاصد وعرض الكف وقسم الاصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل و وضع الاربعة فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع ولو

المعرفة وفرقهم فى الاحوال والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه الا الحق فمتى شاهد غيره فما جمع والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة وعباراتهم فى ذلك كثيرة والمقصود أنهم أشاروا بالجمع الى تجريد التوحيد وأشاروا بالتفرقة الى الاكتساب فعلى هذا لا جمع الا بتفرقة و يقولون فلان فى عين الجمع يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه فاذا دعا الى شىء من أعماله عاد الى التفرقة فصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع فهذا يرجع

اجتمع الاولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الاصابع سوى ما وضعت
عليه من بعد الابهام عن الاربع وتفاوت الاربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه اذ بهذا الترتيب
صلحت اليد للقبض والاعطاء فان بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وان جمعها كانت له آلة للضرب وان
ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له وان بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ثم خلق الاظفار على رؤسها زينة
للانامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تتناولها الانامل وليحك بها بدنه
عند الحاجة فالظفر الذي هو أخس الاعضاء لو عدمه الانسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم
يقم أحد مقامه في حك بدنه ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى
طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل
الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر اليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها
شيأ فشيأ ولا يرى المصور ولا آلته فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف
فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما
كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج اليه
ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدي ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الاغذية الكثيفة
كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً وكيف خلق الثديين وجمع
فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى
لا يخرج اللبن منه الا بعد المص تدريجاً فان الطفل لا يطيق منه الا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج
من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى
تمام الحولين لانه في الحولين لا يتغذى الا باللبن فيستغني عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى
طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فأنبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف
أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان
عاجزاً عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف
رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً اما كفوراً
أو شكوراً مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ
مذكوراً انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً
فانظر الى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى
خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه الى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف
نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته
ثم ينظر الى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله
وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة
خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك الا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام
وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وانما خاصية الانسان التي حجبت البهائم
عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والارض وعجائب الآفاق والانفس اذ بها يدخل العبد في
زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقرباً من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة
للبهائم ولا لانسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير اذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد
خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا واذا عرفت طريق الفكر في
نفسك فتفكر في الارض التي هي مقرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت
السموات ﴿أما الارض﴾ فمن آياته أن خلق الارض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً

لتمشوا

حاصله الى أن الجمع
من العلم بالله والتفرقة
من العلم بأمر الله ولابد
منهما جميعا (قال)
المزين الجمع عين
الفناء بالله والتفرقة
العبودية متصل
بعضها بالبعض وقد
غلط قوم وادعوا انهم
في عين الجمع وأشاروا
الى صرف التوحيد
وعطلوا الاكتساب
فتزندقوا وانما الجمع
حكم الروح والتفرقة
حكم القالب ومادام هذا
التركيب باقيا فلابد
من الجمع والتفرقة
(وقال) الواسطي اذا
نظرت الى نفسك
فرقت واذا نظرت الى
ربك جمعت واذا

لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وان طالت أعمارهم وكثر تطوافهم فقال تعالى والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون وقال تعالى هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وقال تعالى الذي جعل لكم الارض فراشا وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الارض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر للاحياء وبطنها مرقد للاموات قال الله تعالى ألم نجعل الارض كفاتا أحياء وأمواتا فانظر الى الارض وهي ميتة فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها فتفجر العيون وأسال الانهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حي فأخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والارايبح يفضل بعضها على بعض في الاكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة فان قلت ان اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذي وهذا يقوي وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا اذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل الى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوي وهذا يضعف فلا تنبت من الارض ورقة ولا تبنة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته الى عمل مخصوص فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنها الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الارض وبعضه بغرس الاغصان وبعضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الايام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات ❊ ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الارض ❊ ففي الارض قطع متجاورات مختلفة فانظر الى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل وكيف هدى الله الناس الى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الاواني والآلات والنقود والحلي منها ثم انظر الى معادن الارض من النفط والكبريت والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج اليه الا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك اليها فانظر الى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الاراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييبا للطعام اذا أكلته فيتهنا عيشك ومامن جماد ولا حيوان ولا نبات الا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ماخلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا بل خلق الخلق بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ❊ ومن آياته أصناف الحيوانات ❊ وانقسامها الى ما يطير والى ما يمشي وانقسام ما يمشي الى ما يمشي على رجلين والى ما يمشي على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات ثم انقسامها في المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهائم الاهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي الفها زوجها

كنت قائما بغيرك فانت فان بلا جمع ولا تفرقة (وقيل) جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته وقد يريدون بالجمع والتفرقة انه اذا أثبت لنفسه كسبا ونظر الى أعماله فهو في التفرقة واذا أثبت الاشياء بالحق فهو في الجمع ومجموع الاشارات ينبئ أن الكون يفرق والمكون يجمع فمن أفرد المكون جمع ومن نظر الى الكون فرق فالتفرقة عبودية والجمع توحيد فاذا أثبت طاعته نظرا الى كسبه فرق واذا أثبتها بالله جمع اذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ويمكن أن

وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها الى حاجاتها لم تقدر على ذلك فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ و يلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو الى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا و يجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى اذا أحكم معاقد القمط و رتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى و يضيف بعضه الى بعض و يحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى و يراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة و يجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب و يقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة فاذا وقع الصيد بادر الى أخذه وأكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط و وصل بين طرفى الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر و بقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير فاذا طارت رمى بنفسه اليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير الا وفيه من العجائب مالا يحصى أفترى انه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادى له ولا معلم أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضا لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة نعم اذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التى ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه وأكنانا لهم فى ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب و بعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه اياها فسبحان من الامور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فالخلق الا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته ﴿ ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض ﴾ التى هى قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتى ان جميع المكشوف من البوادى والجبال من الماء بالاضافة الى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم و بقية الارض مستورة بالماء قال النبى صلى الله عليه وسلم الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض فانسب اصطبلا الى جميع الارض واعلم ان الارض بالاضافة الى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الارض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر فان عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الارض كما أن سعته أضعاف سعة الارض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران اذا اشتعلت فتتحرك و يعلم انها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو انسان الا وفى البحر أمثاله وأضعافه وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر وقد ذكرت أوصافها فى مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وانما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف الملاحين موارد الرياح

يقال رؤية الافعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع (سئل) بعضهم عن حال موسى عليه السلام فى وقت الكلام فقال أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كلم فكان المكلم والمكلم هو وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب و رد الجواب لولا اياه سمع ومعنى هذا ان الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ولولا تلك القوة ما قدر على السمع ثم أنشد القائل متمثلا

ومهابها ومواقيتها ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كانه شئ واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كانه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى اخراجها فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر و يغفل عن نعمة الله فى شربة ماء اذا احتاج الى شربها او الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذى لب أما ترانى وترى صورتى وتركيبى وصفاتى ومنافعى واختلاف حالاتى وكثرة فوائدى أتظن أنى كونت نفسى أوخلقنى أحد من جنسى أو ماتستحى أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمى عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر الى عجائب الخطوط الالهية المرقومة على صفحات وجهى بالقلم الالهى الذى لا تدرك الابصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لارباب السمع والقلب لاللذين هم عن السمع معزولون توهمنى فى ظلمة الاحشاء مغموسة فى دم الحيض فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى فينقش النقاش حدقتى وأجفانى وجبهتى وخدى وشفتى فترى التقويس يظهر شيأ فشيأ على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجه ولا خبر منها للام ولا للاب ولا للنطفة ولا للرحم أفما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت اليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذى صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين فان كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه أعجب من كل عجيب فان الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه فله الخلق والامر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ✽ ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الارض ✽ لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة فى جو السماء ومستقلة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فان شاء جعله نشرا بين يدى رحمته كما قال سبحانه وأرسلنا الرياح لواقح فيصل بحركته روح الهواء الى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء وان شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ثم انظر الى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما انضغط فى الماء فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوى ليغمسه فى الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص فى الماء لان الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوى ممتنع عن الهوى فى البئر فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والغوص فى الماء فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر الى عجائب الجو

و بدا له من بعد ما اندمل الهوى
برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه
صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق
نظرا اليه وردّه أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
والماء ما سمحت به أجفانه
(ومنها) قولهم التجلى والاستتار (قال) الجنيد انما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلى

ومايظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والامطار والثلوج والشهب والصواعق فهي عجائب ما بين السماء والارض وقد أشار القرآن الى جملة ذلك فى قوله تعالى وماخلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين وهذا هو الذى بينهما وأشار الى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى والسحاب المسخر بين السماء والارض وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة الا ان ترى المطر بعينك وتسمع الرعد باذنك فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم الى عالم الملا الاعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها فاغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه اذ لامطمع فى استقصائه فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى اذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جو السماء الى أن يأذن الله فى ارسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى وعلى الشكل الذى شاءه فترى السحاب يرش الماء على الارض و يرسله قطرات متفاصلة لاتدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لاتعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الارض قطرة قطرة فلو اجتمع الاولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ماينزل منها فى بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها الا الذى أوجدها ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الارض ولكل حيوان فيها من طير و وحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط الهى لايدرك بالبصر الظاهر انها رزق الدودة الفلانية التى فى ناحية الجبل الفلانى تصل اليها عند عطشها فى الوقت الفلانى هذا مع مافى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لاتحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالاحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمؤمنين من خلقه الا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للعميان الجاحدين الا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور انما ينزل الماء لانه ثقيل بطبعه وانما هذا سبب نزوله و يظن أن هذه معرفة انكشفت له و يفرح بها ولو قيل له مامعنى الطبع وما الذى خلقه ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر الى أعالى الاغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى الى أسفل ثم ارتفع الى فوق فى داخل تجاويف الاشجار شيأ فشيأ بحيث لايرى ولايشاهد حتى ينتشر فى جميع اطراف الاوراق فيغذى كل جزء من كل ورقة و يجرى اليها فى تجاويف عروق شعرية صغار ير وى منه العرق الذى هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن ادراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة فيصل الماء فى أجوافها الى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها و يزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك الى سائر أجزاء الفواكه فان كان الماء يتحرك بطبعه الى أسفل فكيف تحرك الى فوق فان كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب وان كان ينتهى بالآخرة الى خالق السموات والارض وجبار الملك والملكوت فلم لايحال عليه من أول الامر فنهاية الجاهل بداية العاقل (ومن آياته ملكوت السموات ومافيها من الكواكب) وهو الامر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالارض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالاضافة الى السموات كقطرة فى بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه فمامن من سورة الا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى والسماء ذات البروج والسماء والطارق والسماء ذات الحبك والسماء ومابناها وكقوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها وقوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس وقوله تعالى والنجم اذا هوى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الاولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الارزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالى وفى السماء رزقكم وماتوعدون وأثنى على المتفكرين فيه فقال و يتفكرون فى خلق السموات والارض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ

والتذويب للاولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات فى الاستتار والتجلى راجع الى ظهور صفات النفس *(ومنها)* الاستتار وهو اشارة الى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب *(ومنها)* التجلى ثم التجلى قد يكون بطريق الافعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم فاما لهم فلانهم به يرجعون الى مصالح

هذه الآية ثم مسح بهاسبلته أى تجاوزها من غير فكر وذم المعرضين عنها فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون فاى نسبة لجميع البحار والارض الى السماء وهى متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير الى أن يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقال سبحانه وبنينا فوقكم سبعا شدادا وقال أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها فانظر الى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ولا تظنن أن معنى النظر الى الملكوت بأن تمد البصر اليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فان البهائم تشاركك فى هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض لا بل كل مايدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وماغاب عن الابصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشئ من علمه الا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها الى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال رأى قلبى ربى وهذا لان بلوغ الاقصى لا يكون الا بعد مجاوزة الادنى وأدنى شئ اليك نفسك ثم الارض التى هى مقرك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحيوان وما على وجه الارض ثم عجائب الجو وهو مابين السماء والارض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسى ثم العرش ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز الى النظر الى رب العرش والكرسى والسموات والارض ومابينهما فبينك وبينه هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهى معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر والى ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك الى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص الا أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل الى الحمرة وبعضها الى البياض وبعضها الى اللون الرصاصى ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والاسد والانسان ومامن صورة فى الارض الاولها مثال فى السماء ثم انظر الى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولاطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر الى ايلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر الى امالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فاذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء واذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ واذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لا مطمع فى احصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على الجملة أنه مامن كوكب من الكواكب الا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ثم فى مقداره ثم فى شكله ثم فى لونه ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده وقس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك اذ مامن جزء الا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الارض الى عالم السماء لافى كبر جسم ولافى كثرة معانيه وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الارض فانت تعرف من كبر الارض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمى على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة وفى الاخبار مايدل على عظمها ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الارض ثمانى مرات وأكبرها ينتهى الى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الارض وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها اذ للبعد

النفوس وأما لغيرهم فلانه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم فى جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار (قال بعضهم) علامة تجلى الحق للاسرار هو أن يشهد السر مالا يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر اجلال (وقال بعضهم) التجلى رفع حجبة البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب (ومنها التجريد والتفريد) الاشارة منهم

صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى الى بعدها فقال رفع سمكها فسواها وفى الاخبار أن ما بين كل سماء الى الاخرى مسيرة خمسمائة عام فاذا كان مقدار كوكب واحد مثل الارض أضعافا فانظر الى كثرة الكواكب ثم انظر الى السماء التى الكواكب مركوزة فيها والى عظمها ثم انظر الى سرعة حركتها وأنت لاتحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لاتشك أنها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب لان الزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الارض مائة مرة وزيادة فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الارض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته اذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حين قلت لا الى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام فانظر الى عظم شخصها ثم الى خفة حركتها ثم انظر الى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الارض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر اليها بل انظر الى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك انك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لاتتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الارض التى هى أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر اليه ليس له سبب الا أنه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم الا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملا بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك ان تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وان صدقوك فى مودتهم اياك فلا يملكون لك ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والارض ثم غفلت عن التنعم بالنظر الى جلال مالك الملكوت والملك وما مثالك ومثل عقلك الا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجوارى والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق الا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات الا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك نعم ليس للنملة طريق الى ان تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة الى ما عرفه جملة العلماء والاولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالاضافة الى ما عرفه الانبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالاضافة الى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الانبياء كلهم قليل بالاضافة الى ما عرفته الملائكة المقربون كاسرافيل وجبريل أو غيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والانس اذا أضيف الى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو الى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال وما أوتيتم من العلم الا قليلا فهذا بيان مجامع الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت

من

فى التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الاغراض فيما يفعله لايأتى بما يأتى به نظرا الى الاغراض فى الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه بحسب جهده عبودية وانقيادا والتفريد أن لايرى نفسه فيما يأتى به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنفى الاغيار والتفريد بنفى نفسه واستغراقه فى رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه

(ومنها الوجد والتواجد والوجود)

فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو

من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم وهذا كما انك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى ان كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر في الفكر فيه لا يتناهى أبدا وانما لكل عبد منهما بقدر ما رزق فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف الى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو احسان الينا وانعام علينا وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث انه فعل الله فقط وكل ما نظرنا فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والارض الا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء فمن نظر في هذه الامور من حيث انها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الاسباب فقد شقي وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته * تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

﴿ كتاب ذكر الموت وما بعده وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات وبه اختتام كتاب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابره وكسر به ظهور الاكاسره وقصر به آمال القياصره الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافره حتى جاءهم الوعد الحق فارداهم في الحافره فنقلوا من القصور الى القبور ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجواري والغلمان الى مقاساة الهوام والديدان ومن التنعم بالطعام والشراب الى التمرغ في التراب ومن أنس العشرة الى وحشة الوحدة ومن المضجع الوثير الى المصرع الوبيل فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا واتخذوا من دونه حجابا وحرزا وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ثم جعل الموت مخلصا للاتقياء وموعدا في حقهم للقاء وجعل القبر سجنا للاشقياء وحبسا ضيقا عليهم الى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام بالنقم القاهرة وله الشكر في السموات والارض وله الحمد في الاولى والآخرة والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فجدير بمن الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره وبطن الارض مستقره والقيامة موعده والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر الا في الموت ولا ذكر الا له ولا استعداد الا لاجله ولا تدبير الا فيه ولا تطلع الا اليه ولا تعريج الا عليه ولا اهتمام الا به ولا حول الا حوله ولا انتظار وتربص الا له وحقيق بان يعد نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور فان كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وقد قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ولن يتيسر الاستعداد للشيء الا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره الا عند التذكر بالاصغاء الى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر الا القليل والخلق عنه غافلون اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين ﴿ الشطر الاول في مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور وفيه ثمانية أبواب ﴾

الباب الاول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه الباب الثاني في ذكر طول الامل وقصره * الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الاحوال عند الموت الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء

حزنا ويغيره عن هيئته ويتطلع الى الله تعالى وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منهما الى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج الى فضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال وقد قيل.
قد كان يطربني وجدي فاقعدني
عن رؤية الوجد من في الوجد موجود

الراشدين من بعده الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور والباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر الى نفخة الصور والباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

﴿ الباب الاول فى ذكر الموت والترغيب فى الاكثار من ذكره ﴾

اعلم ان المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلايذكره واذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ثم الناس اما منهمك واما تائب مبتدئ أو عارف منته أما المنهمك فلايذكر الموت وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد وهو معذور فى كراهة الموت ولايدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم من كره لقاء الله كره الله لقاءه فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلايعد كارها للقائه وعلامة هذا ان يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواه والا التحق بالمنهمك فى الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لانه موعد للقائه لحبيبه والمحب لاينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا فى غالب الامر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لاافلح من ندم اللهم ان كنت تعلم أن الفقر أحب الى من الغنى والسقم أحب الى من الصحة والموت أحب الى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك فاذا التائب معذور فى كراهة الموت وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره الى الله تعالى فصار لايختار لنفسه موتا ولاحياة بل يكون أحب الاشياء اليه أحبها الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا اذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته وكل مايكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة

﴿ بيان فضل ذكر الموت كيفما كان ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر هاذم اللذات معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لوتعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ماأكلتم منها سمينا وقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة وانما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو الى الانهماك فى شهوات الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن الموت وانما قال هذا لان الدنيا سجن المؤمن اذلايزال فيها فى عناء من مقاسات نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت اطلاق له من هذا العذاب والاطلاق تحفة فى حقه وقال صلى الله عليه وسلم الموت كفارة لكل مسلم وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصى الا باللمم والصغائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر واقامته الفرائض قال عطاء الخراسانى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم كفى بالموت مفرقا وقال عليه السلام كفى بالموت واعظا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لوتعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك وقال ابن

والوجد يطرب من فى الوجد راحته
والوجد عند حضور الحق مفقود

﴿ ومنها الغلبة ﴾

الغلبة وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز فالوجد ينطفى شرر بما والغلبة تسبق للاسرار حرزا منها

﴿ ومنها المسامرة ﴾

وهى تفرد الارواح بخفى مناجاتها ولطيف منافثاتها فى سر السر بلطيف ادراكها للقلب لتفرد الروح بها فاتلذذ بها دون القلب

﴿ ومنها السكر والصحو ﴾

عمر رضي الله عنهما أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الانصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة (وأما الآثار) فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا وقال الربيع بن خيثم ما غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسلوني الى ربي سلا وكتب بعض الحكماء الى رجل من اخوانه يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير الى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده وكان ابن سيرين اذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كان بين أيديهم جنازة وقال ابراهيم التيمي شيآن قطعا عني لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها وقال مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول في وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم الا والهين وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فانما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت وقالت صفية رضي الله عنها ان امرأة اشتكت الى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أكثري ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها وكان عيسى عليه السلام اذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما وكان داود عليه السلام اذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت اليه نفسه وقال الحسن ما رأيت عاقلا قط الا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظني فقال أنت أول خليفة تموت قال زدني قال ليس من آبائك أحد الى آدم الا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد وقال مطرف ابن عبد الله بن الشخير ان هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لا موت فيه وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة أكثر ذكر الموت فان كنت واسع العيش ضيقه عليك وان كنت ضيق العيش وسعه عليك وقال أبو سليمان الداراني قلت لام هرون أتحبين الموت قالت لا قلت لم قالت لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته

(بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء الا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر الا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فهما تذكر رجلا رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الاسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وانه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج اليه الى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت الا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء اما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم قال أبو الدرداء رضي الله عنه اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ بغيره وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا الى الله عز وجل تضعونه في صدع من الارض قد توسد التراب وخلف

فالسكر استيلاء سلطان الحال والصحو العود الى ترتيب الافعال وتهذيب الاقوال قال محمد بن خفيف السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب وقال الواسطي مقامات الوجد أربعة الذهول ثم الحيرة ثم السكر ثم الصحو كمن سمع بالبحر ثم دنا منه ثم دخل فيه ثم أخذته الامواج فعلى هذا من بقي عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ومن عاد كل شيء منه الى مستقره فهو صاح فالسكر لارباب القلوب والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب

الاحباب وقطع الاسباب فلازمة هذه الافكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور والا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد له من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا مانصير اليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

﴿الباب الثاني في طول الامل وفضيلة قصر الامل وسبب طوله وكيفية معالجته﴾

﴿فضيلة قصر الامل﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك يا عبد الله لاتدري ما اسمك غدا وروى على كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق وأما طول الامل فانه الحب للدنيا ثم قال الا ان الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض واذا أحب عبدا أعطاه الايمان الا ان للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا الا ان الدنيا قد ارتحلت موليه الا ان الآخرة قد ارتحلت مقبلة الا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب الا وانكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل وقالت أم المنذر اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية الى الناس فقال أيها الناس أما تستحيون من الله قالوا وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون مالا تأكلون وتأملون مالا تدركون وتبنون مالا تسكنون وقال أبو سعيد الخدري اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الا تعجبون من أسامة المشترى الى شهران أسامة لطويل الامل والذي نفسي بيده ماطرفت عيناي الا ظننت أن شفري لايلتقيان حتى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفي فظننت اني واضعه حتى أقبض ولا لقمت لقمة الا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده ان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله ان الماء منك قريب فيقول مايدريني لعلي لا أبلغه وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه والآخر الى جنبه وأما الثالث فأبعده فقال هل تدرون ماهذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان وهذا الاجل وذاك الامل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الاجل دون الامل وقال عليه السلام مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية ان أخطأته المنايا وقع في الهرم قال ابن مسعود هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع اليه والهرم وراء الحتوف والامل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع اليه فأيها أمر به أخذه فان اخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الامل وقال عبد الله خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا الى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ماهذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان للخط الذي في الوسط وهذا الاجل محيط به وهذه الاعراض للخطوط التي حوله تنهشه ان أخطأه هذا نهشه هذا وذاك الامل يعني الخط الخارج وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والامل وفي رواية وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نجا أول هذه الامة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الارض فقال عيسى اللهم انزع منه الامل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد اليه الامل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما أنا أعمل اذ قالت لي نفسي الى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لابد لك من عيش مابقيت فقمت الى مسحاتي وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصروا من الامل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء وكان صلى الله عليه وسلم

(ومنها المحو والاثبات) المحو بازالة أوصاف النفوس والاثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤس أو المحو محو رسوم الاعمال بنظر الفناء الى نفسه ومامنه والاثبات اثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به فهو بالحق لابنفسه باثبات الحق اياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه * قال ابن عطاء يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم

﴿ومنها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين﴾ فعلم اليقين ما كان من طريق النظر

يقول في دعائه اللهم اني أعوذبك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذبك من حياة تمنع خير الممات وأعوذبك من أمل يمنع خير العمل (الآثار) قال مطرف بن عبد الله لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤا بعيش ولا قامت بينهم الاسواق وقال الحسن السهو والامل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغني أن الانسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن انما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك مل فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الاحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري الى الجنة يؤمر بي أو الى النار * وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت أي الاعمال أبلغ عندكم قال التوكل وقصر الامل وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الامل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الامل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الامل فرجع الى الطعام والشراب وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك فقال الامر أعجل من ذلك وقال الحسن الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه وقال داود الطائي لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت عظيما وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار * وحكي أنه جاء شقيق البلخي الى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شئ مصرور فقال له أستاذه ايش هذا معك فقال لوزات دفعها الى أخ لي وقال أحب أن تفطر عليها فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى الى الليل لا كلمتك أبدا قال فاغلق في وجهي الباب ودخل * وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته ان لكل سفر زادا لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا الى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا وانما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وانما يفرح من أمن من أهوال القيامة فأما من لا يداوي كلما الا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الارض لتشققت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وانكم صائرون الى احداهما وكتب رجل الى أخ له أما بعد فان الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر الى أخ له ان الحزن على الدنيا طويل والموت من الانسان قريب وللنقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه دبيب فبادر قبل أن تنادي بالرحيل والسلام وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره * وقال عبد الله بن سميط سمعت أبي يقول أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة انك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترؤن ان ملك الموت اذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت وقال أبو زكريا التيمي بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام اذ أتي بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتي بوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم انك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت الى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة

والاستدلال وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال قال فارس علم اليقين لا اضطراب فيه وعين اليقين هو العلم الذي أودعه الله الاسرار والعلم اذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة فاذا انضم اليه اليقين كان علما بلا شبهة وحق اليقين هو حقيقة ما أشار اليه علم اليقين وعين اليقين وقال الجنيد حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات

فبكى سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف الى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو أما بعد فانى أحذرك متحولك من دار مهلتك الى دار اقامتك وجزاء أعمالك فتصير فى قرار باطن الارض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وان يكن غير ذلك فاعاذنى الله واياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الارض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الاسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فياليت شعرى ما حالى وحالك يومئذ ففى هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الامل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله واياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فانما نحن به وله والسلام * وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس انكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وان لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقى غدا عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شئ وجنته التى عرضها السموات والارض وانما يكون الامان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسعادة الا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الارض غير موسد ولا ممهد قد خلع الاسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب وايم الله انى لاقول مقالتى هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله ووضع كمه على وجهه وجعل يبكى حتى بلت دموعه لحيته وما عاد الى مجلسه حتى مات وقال القعقاع بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتانى ما أحببت تأخير شئ عن شئ وقال الثورى رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول أنا فى هذا المسجد ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بى ولو أتانى ما أمرته بشئ ولا نهيته عن شئ ولالى على أحد شئ ولا لاحد عندى شئ وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار وقال أبو محمد بن على الزاهد خرجنا فى جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائى فانتبذ فقعد ناحية وهى تدفن فجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب واعلم يا أخى أن كل شئ يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور انما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون وروى أن معروفا الكرخى رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبى توبة فقال لى تقدم فقلت انى ان صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك ان تصلى صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته ان الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فاحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى انما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرير العين اذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه أن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر انها تسر قليلا وتحزن طويلا * وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول فى خطبته أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب قد تضعضع بهم الدهر فاصبحوا فى ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا

مشاهدة عيان ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا أبقيت لعيالك قال الله ورسوله وقال بعضهم علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالاسم والرسم للعوام وعلم اليقين للاولياء وعين اليقين لخواص الاولياء وحق اليقين للانبياء عليهم الصلاة والسلام وحقيقة حق اليقين

﴿ بيان السبب فى طول الامل وعلاجه ﴾

اعلم أن طول الامل له سببان أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه اذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها وكل من كره شيأ دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالامانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده وانما يوافق مراده البقاء

فى الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له فى بعض الاحوال أمر الموت والحاجة الى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال الايام بين يديك الى أن تكبر ثم تتوب واذا كبر فيقول الى أن تصير شيخا فاذا صار شيخا قال الى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض فى شغل الا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل الى شغل بل الى أشغال الى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف والمسوّف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها الا من اطرحها

فما قضى أحد منها لبانته * وما انتهى أرب الا الى أرب

وأصل هذه الامانى كلها حب الدنيا والانس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم أحبب من أحببت فانك مفارقه وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وانما قلوا لان الموت فى الشباب أكثر فالى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد وان كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فانما يقع فجأة واذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الامور وحب الدنيا دعواه الى طول الامل والى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته لان هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه فانه لم يقع واذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الاول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابد وان تحمل جنازته ويدفن فى قبره ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدرى فتسويفه جهل محض واذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج فى اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذى أعيا الاولين والآخرين علاجه ولا علاج له الا الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وان أعطى ملك الارض من المشرق الى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا الا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها مع الايمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر الى من مات من الاقران والاشكال وانهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا أما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما وأما من كان مغرورا بطول الامل فقد خسر خسرانا مبينا فلينظر الانسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة وكيف تتفتت عظامها وليتفكر ان الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى فما على بدنه شئ الا وهو طعمة الدود وماله من نفسه الا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الاكبر فامثال هذه الافكار هى التى تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه الى الاستعداد له

اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ومنها الوقت﴾ والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد وأغلب ما على العبد وقته فانه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا بكسبه فيتصرف فيه فيكون بحكمه يقال فلان الوقت بمعنى مأخوذا عما منه بما للحق ﴿ومنها الغيبة والشهود﴾ فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ووقتا بوصف المشاهدة فما دام العبد موصوفا بالشهود أو الرعاية فهو حاضر فاذا

﴿بيان مراتب الناس فى طول الامل وقصره﴾

اعلم ان الناس فى ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهى ذلك أبدا قال الله تعالى يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ومنهم من يأمل البقاء الى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه وهو الذى يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ماهم ومنهم من يامل الى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجودا فى عام قابل ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء للصيف فاذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر فى الصيف ثياب الشتاء ولا فى الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله الى يوم وليلة فلا يستعد الا لنهاره وأما للغد فلا * قال عيسى عليه السلام لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا الآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم يا عبد الله اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول لعلى لا أبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كانه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذى يصلى صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة ايمانه فقال ما خطوت خطوة الا ظننت أنى لا أتبعها أخرى وكما نقل عن الاسود وهو حبشى انه كان يصلى ليلا و يلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ما هذا قال انظر ملك الموت من أى جهة يأتينى فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت فى الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ثم يظهر أثر قصر الامل فى المبادرة الى العمل وكل انسان يدعى انه قصير الامل وهو كاذب وانما يظهر ذلك بأعماله فانه يعتنى بأسباب ربما لا يحتاج اليها فى سنة فيدل ذلك على طول أمله وانما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فليستعد للموت الذى يرد عليه فى الوقت فان عاش الى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله الى الصباح وهكذا اذا أصبح ولا يتيسر هذا الا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا اذا مات سعد وغنم وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يا مسكين فان السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك الا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه

﴿ بيان المبادرة الى العمل وحذر آفات التأخير ﴾

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما فى غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذى يقدم الى شهر أو سنة وانما يستعد للذى ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجىء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذى مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسعا فى تلك السنة فيؤخر العمل كما قال صلى الله عليه وسلم ما ينتظر أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر وقال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ أى انه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم من خاف ادلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه وكان رسول الله صلى الله عليه اذا آنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة اما بشقاوة واما بسعادة وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد وقال ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال ما بقى من الدنيا الا كما بقى من يومنا هذا فى مثل ما مضى منه وقال صلى الله عليه وسلم مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقى متعلقا

فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد يعنون بالغيبة الغيبة عن الاشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا الى مقام الفناء (ومنها الذوق والشرب والرى) فالذوق ايمان والشرب علم والرى حال فالذوق لاربات البواده والشرب لارباب الطوالع واللوائح واللوامع والرى لارباب الاحوال وذلك أن الاحوال هى التى تستقر فالم يستقر فليس بحال وانما هى لوامع وطوالع وقيل

بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع وقال جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحتكم ومستكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه وقال ابن مسعود رضي الله عنه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل الصدر انفسح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وقال السدي الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء الا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى انها لاحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر في الموت وقال سحيم مولى بني تميم جلست الى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل علي فقال أرحني بحاجتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقمت عنه وقام الى صلاته ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني انما أبادر خروج نفسي قال عمر رضي الله عنه التؤدة في كل شيء خير الا في أعمال الخير للآخرة وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل أن يأتيك الامر ويحك بادري قبل أن يأتيك الامر حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني وكان الحسن يقول في موعظته المبادرة المبادرة فانما هي الانفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها الى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية انما نعد لهم عدا يعني الانفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الاشعري قبل موته اجتهادا شديدا فقيل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال ان الخيل اذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من اجلي اقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات وكان يقول لامرأته شدي رحالك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جد بكم وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وان غائبا يحدبه الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الاوبة وان قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لافضل العدة فالتقي عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين اليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وانه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار الا الموت أن ينزل به فيا لها حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة وان ترديه أيامه الى شقوة جعلنا الله واياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة انه سميع الدعاء وانه بيده الخير دائما فعال لما يشاء وقال بعض المفسرين في قوله تعالى فتنتم أنفسكم قال بالشهوات واللذات وتربصتم قال بالتوبة وارتبتم قال شككتم حتى جاء أمر الله قال الموت وغركم بالله الغرور قال الشيطان وقال الحسن تصبروا وتشددوا فانما هي أيام قلائل وانما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح الا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأحلنا واياكم دار المقام هذه علانية حسنة ان صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الاذن وتخرجوه من هذه الاذن فان من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر اليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنكم والامر معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالارض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك وقال عاصم الاحول قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فان الامر يخلص اليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لا شيء فان الامر محفوظ عليك ولم تر شيأ قط أحسن طلبا ولا أسرع ادراكا من حسنة حديثة

الحال لا تستقر لانها تحول فاذا استقرت تكون مقاما

﴿ ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة ﴾ فالمحاضرة لارباب التلوين والمشاهدة لارباب التمكين والمكاشفة بينهما الى أن تستقر فالمشاهدة والمحاضرة لاهل العلم والمكاشفة لاهل العين والمشاهدة لاهل الحق أي حق اليقين

﴿ ومنها الطوارق والبوادي والباده والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح ﴾ وهذه كلها ألفاظ متقاربة

لذنب قديم

﴿الباب الثالث فى سكرات الموت وشدته ومايستحب من الاحوال عنده﴾

اعلم أنه لولم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولاعذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه و يتكدر عليه سروره و يفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بأن يطول فيه فكره و يعظم له استعداده لاسيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لاتدرى متى يغشاك* وقال لقمان لابنه يابنى أمر لاتدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب أن الانسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر ان يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب الا الجهل والغرور * واعلم أن شدة الالم فى سكرات الموت لايعرفها بالحقيقة الا من ذاقها ومن لم يذقها فانما يعرفها اما بالقياس الى الآلام التى أدركها واما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه فاما القياس الذى يشهد له فهو أن كل عضو لاروح فيه فلا يحس بالالم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح فهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الاثر الى الروح فبقدر ما يسرى الى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح الا بعض الالم فان كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم ذلك الالم وما أشده * والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن الاوقد حل به الالم فلو أصابته شوكة فالالم الذى يجده انما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة وانما يعظم أثر الاحتراق لان أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا او باطنا الاوتصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم وأما الجراحة فانما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فالم النزع يهجم على نفس الروح و يستغرق جميع أجزائه فان المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الاعصاب وجزء من الاجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة و بشرة من الفرق الى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا ان الموت لاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لان قطع البدن بالسيف انما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف اذا كان المتناول المباشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب و يصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه وانما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لان الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه و بلغ كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الاطراف فقد ضعفها و يود لوقدر على الاستراحة بالانين والصياح والاستغاثة ولكنه لايقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه وار بد حتى كانه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالالم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان الى أعالى أجفانه وتتقلص الشفتان و يتقلص اللسان الى أصله وترتفع الانثيان الى أعالى موضعهما وتخضر أنامله فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لامن عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها الى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها و يغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبل توبة العبد مالم يغرغر وقال مجاهد فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن قال اذا عاين الرسل فعند ذلك تبدوله صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل على طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت والناس انما لايستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الاشياء قبل وقوعها انما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الانبياء عليهم السلام والاولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يامعشر الحوار يين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة يعنى الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت

المعنى و يمكن بسط القول فيها ويكون حاصل ذلك راجعا الى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه والمقصود أن هذه الاسماء كلها مبادى الحال ومقدماته واذا صح الحال استوعب هذه الاسماء كلها ومعانيها

﴿ومنها التلوين والتمكين﴾

فالتلوين لارباب القلوب لانهم تحت حجب القلوب والقلوب تخلص الى الصفات وللصفات تعدد بتعدد جهاتها فظهر لارباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ولا

على الموت و روى أن نفرا من بني اسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم برجل قد قام و بين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال ياقوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم و روي أنه عليه السلام كان يقول اللهم انك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والانامل اللهم فأعني على الموت وهونه علي وعن الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال ان أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف الا ومعها صوف ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال اني أعلم ما يلقى ما منه عرق الا ويألم للموت على حدته وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال و يقول ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لالف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الاذرعي بلغنا أن الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره وقال شداد ابن أوس الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدر ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال اذا بقي على المؤمن من درجاته شئ لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة واذا كان للكافر معروف لم يجز به هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير الى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الارض وكأن نفسي يخرج من ثقب ابرة وقال صلى الله عليه وسلم موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر و روي عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والارض لماتوا باذن الله تعالى لان في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشئ الا مات و روي لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت و روي ان ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت ياخليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما انا قد هونا عليك و روي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه الى الله تعالى قال له ربه ياموسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير و روي عنه أنه قال وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب و روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه و يقول اللهم هون على سكرات الموت وفاطمة رضي الله عنها تقول واكرباه لكربك ياأبتاه وهو يقول لا كرب على أبيك بعد اليوم وقال عمر رضي الله عنه لكعب الاحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم ياأمير المؤمنين ان الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقني وأفارقك الى يوم القيامة فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث ﴿الاولى﴾ شدة النزع كما ذكرناه ﴿الداهية الثانية﴾ مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته فقد روي عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر قال لا تطيق ذلك قال بلى قال فأعرض عني فاعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فغشي على ابراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت الى صورته الاولى فقال ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت الا صورة وجهك لكان حسبه و روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان اذا خرج أغلق الابواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي برجل

تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الاحوال وخرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التغير في الذات اذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا الى مواطن القرب من أنصبة تجلي الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لانها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع في النفوس لايخرج صاحبه عن حال

فى الدار فقالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمنع منى الحجاب فقال فأنت والله اذاً ملك الموت و زمل داود عليه السلام مكانه و روى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال تكلمى باذن الله فقالت يار وح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى اذ بدا الى ملك الموت فزال منى كل عضو على حياله ثم خرجت نفسى اليه فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة و ياليت ما كان من ذلك الانس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة و يكفاها المطيعون فقد حكى الانبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال وأما المطيع فانه يراه فى أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن ابراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل فى جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربها فقال أنا ربها فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن قال نعم فأعرض عنى فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال ياملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت الا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهيب بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله فان كان مطيعا قالا له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتناوان كان فاجرا قالا له لاجزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر الميت اليهما ولا يرجع الى الدنيا أبدا (الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم فى حال السكران قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين اما أبشر ياعدو الله بالنار أو أبشر ياولى الله بالجنة ومن هذا كان خوف أرباب الالباب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار وقال صلى الله عليه وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذاك بذاك ان المؤمن اذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه و روى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظر أى ساعة هى فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح الى النار ودخل مروان على أبى هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشدد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر احدى البشريين من ربى بجنة أم بنار و روى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله اذا رضى عن عبد قال ياملك الموت اذهب الى فلان فائتنى بروحه لاريحه حسبى من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فاذا نظر اليهم ابليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك ياسيدنا فيقول أماترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان معصوما وقال الحسن لاراحة للمؤمن الا فى لقاء الله ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه وقيل لجابر بن زيد عند الموت ماتشتهى قال نظرة الى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه اليه ثم قال ياأخوتاه الساعة والله أفارقكم الى النار أو الى الجنة وقال محمد بن واسع عند الموت ياأخوتاه عليكم السلام الى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع أبدا ولايبعث لثواب ولا لعقاب * فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهى العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه فى كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع ولكنا لانطول بذكره واعادته

﴿ بيان مايستحب من أحوال المحتضر عند الموت ﴾

التمكين لان جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الانسانية وثبوت القدم فى التمكين كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمكين أن لا يكون للعبد تغير فانه بشر وانما المعنى به ان ما كوشف به من الحقيقة لايتوارى عنه أبدا ولايتناقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشئ فى حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الاحوال ويكون ثبوته على مستقر الايمان وتلوينه فى زوائد الاحوال (ومنها النفس) ويقال النفس للمنتهى والوقت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى أما الصورة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ارقبوا الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به واذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه وازبدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقنوا موتاكم لا اله الا الله وفي رواية حذيفة فانها تهدم ما قبلها من الخطايا وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات وهو يعلم أنه لا اله الا الله دخل الجنة وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان اذا احتضر الميت فلقنوه لا اله الا الله فانه ما من عبد يختم له بها عند موته الا كانت زاده الى الجنة وقال عمر رضي الله عنه احضروا موتاكم وذكروهم فانهم يرون ما لا ترون ولقنوهم لا اله الا الله وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيأ ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا اله الا الله فغفر له بكلمة الاخلاص وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي الى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة وانما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله فاذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وان كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا اليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الامر في خطر المشيئة فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى الا أن يتفضل الله تعالى بالقبول وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الاخبار بفضل حسن الظن بالله * دخل واثلة ابن الاسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا أعطاه الله الذي يرجو وأمنه من الذي يخاف وقال ثابت البناني كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له يا بني ان لك يوما فاذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول ان لك يوما فقال يا أمه ان لي ربا كثير المعروف واني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بني توصي بشيء قال نعم خاتمي لا تسلبينيه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن رؤي في المنام فقال أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني وان الله غفر لي * ومرض أعرابي فقيل له انك تموت فقال أين يذهب بي قالوا الى الله قال فما كراهتي أن أذهب الى من لا يرى الخير الا منه وقال أبو المعتمر بن سليمان قال أبي لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

﴿ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها ﴾

قال أشعث بن أسلم سأل ابراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع اذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع قال أدعو الارواح باذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الارض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بانه خليل الله عز وجل وقال سليمان بن داود عليه السلام لملك الموت عليه السلام مالي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك انما هي صحف أو كتب تلقى الي فيها أسماء وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب الى أرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه حتى أتي بدواب فركب أحسنها فجاء ابليس فنفخ في منخره فملأه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر الى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم

للمبتدي والحال للمتوسط فكأنه اشارة منهم الى أن المبتدئ يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه مقيمة لا تتناوب عليه وهذه كلها أحوال لاربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع ببركتهم آمين

(الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها)

فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً قال ان لي اليك حاجة قال اصبر
حتى أنزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فادنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت
فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع الى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى
أهلك وثقلك أبداً فقبض روحه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام
فقال ان لي اليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته
عليّ فوالله ما كان في الارض غائب أحب الي أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال
مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على
ذلك قال نعم اني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد فقبض روحه وهو ساجد
وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني اسرائيل مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف
أموالي فأتي بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر اليه بكى تحسراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي
فقال له ما يبكيك فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال
هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه * وروي أن رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم
يدع صنفاً من المال الا اتخذه وابتنى قصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرساً من غلمانه ثم جمع أهله وصنع
لهم طعاماً وقعد على سريره ورفع احدى رجليه على الاخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يا نفس أنعمي لسنين
فقد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل اليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب في
عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين فقرع الباب بشدة عظيمة قرعاً أفزعه وهو على فراشه فوثب اليه الغلمان وقالوا
ما شأنك فقال ادعوا الي مولاكم فقالوا والى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم فقرع
الباب قرعة أشد من الاولى فوثب اليه الحرس فقال أخبروه أني ملك الموت فلما سمعوه ألقي عليهم الرعب ووقع
على مولاهم الذل والتخشع فقال قولوا له قولاً ليناً وقولوا هل تأخذ به أحداً فدخل عليه وقال اصنع في مالك
ما أنت صانع فاني لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله
من مال أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي فأنطق الله المال فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على
السلاطين بي ويرد المتقي عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بي وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل
الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق باثم ثم
قبض ملك الموت روحه فسقط وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الارض مثله
ثم عرج الى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة
من الارض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا متعهد له بها فقالت
الملائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما
يشاء قال عطاء بن يسار اذا كان ليلة النصف من شعبان دفع الى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه
السنة من في هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس الغراس وينكح الازواج ويبني البنيان وان اسمه في
تلك الصحيفة وهو لا يدري * وقال الحسن ما من يوم الا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم
قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت
بعضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقاً ولا أفنيت له عمراً ولا انتقصت له أجلاً وان لي فيكم لعودة بعد عودة
حتى لا أبقي منكم أحداً قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على
أنفسهم وقال يزيد الرقاشي بينا جبار من الجبابرة من بني اسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله اذ نظر
الى شخص قد دخل من باب بيته فثار اليه فزعاً مغضباً فقال له من أنت ومن أدخلك على داري فقال أما الذي
أدخلني الدار فربها وأما أنا فالذي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطنين ولا يمتنع
مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكباً على وجهه ثم رفع رأسه
اليه مستجدياً متذللاً له فقال له أنت اذاً ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهداً قال هيهات

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينبي قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميهني قال أنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن اسمعيل ابن ابراهيم البخاري قال حدثنا الحميدي قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى ابن سعيد الانصاري قال أخبرني محمد بن ابراهيم التيمي أنه سمع علقمة ابن وقاص قال سمعت عمر

انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس الى تأخيرك سبيل قال فالى أين تذهب بي قال الى عملك الذي قدمته والى بيتك الذي مهدته قال فاني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فالى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ و باك قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الاعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيته ينظر الي كأنه يريدني قال فماذا تريد قال أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتى تحملني الى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر الى واحد من جلسائي قال نعم كنت أتعجب منه لاني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك

﴿ الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ﴾

﴿ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة حيا وميتا وفعلا وقولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين اذلم يكن أحد أكرم على الله منه اذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا بل أرسل اليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الانام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر الى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل الى مقعد صدق في جوار الرحمن اشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل سامحه اذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيهات بل امتثل ما كان به مأمورا واتبع ما وجده في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الارض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيآت فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وامام المتقين وحبيب رب العالمين لعلنا نظن أننا مخلدون أو نتوهم ان مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيهات هيهات بل نتيقن انا جميعا على النار واردون ثم لا ينجو منها الا المتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا بل ظلمنا أنفسنا ان كنا كذلك لغالب الظن منتظرين فما نحن والله من المتقين وقد قال الله رب العالمين وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فلينظر كل عبد الى نفسه انه الى الظالمين أقرب أم الى المتقين فانظر الى نفسك بعد أن تنظر الى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين ثم انظر الى سيد المرسلين فانه كان من أمره على يقين اذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب الى جنة المأوى قال ابن مسعود رضي الله عنه دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق فنظر الينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصي بكم الله اني لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الاجل والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى والى جنة المأوى والى الكاس الاوفى فاقرؤا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله * وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته من لأمتي بعدي فأوحى الله تعالى الى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الارض اذا بعثوا وسيدهم اذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الامم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عيني وقالت عائشة رضي الله عنها أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لاهل أحد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت

ابن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو الى امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه * النية أول العمل وبحسبها يكون العمل وأهم ما للمريد في ابتداء أمره في طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيهم ويجالس طائفتهم لله تعالى فان دخوله

الانصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم وان الانصار عيبتي التي أويت اليها فاكرموا كريمهم يعني محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال ان عبدا خير بين الدنيا و بين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الابواب الشوارع في المسجد الا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر قالت عائشة رضي الله عنها فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومي و بين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي و ريقه عند الموت فدخل علي أخي عبد الرحمن و بيده سواك فجعل ينظر اليه فعرفت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأومأ برأسه أن نعم فناولته اياه فادخله في فيه فاشتد عليه فقلت ألينه لك فأومأ برأسه أن نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده و يقول لا اله الا الله ان للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الاعلى الرفيق الاعلى فقلت اذا والله لا يختارنا وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الانصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فاعلمه بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فاعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فاعلمه بمثله فمد يده وقال هافتناولوه فقال ما يقولون قالوا يقولون نخشى أن يموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج متوكئا على علي والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثاب الناس اليه فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس انه بلغني أنكم تخافون على الموت كانه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع اليكم وتنعى اليكم أنفسكم هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فاخلد فيكم ألا اني لاحق بربي وانكم لاحقون به واني أوصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله عز وجل قال والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا الى آخرها وان الامور تجرى باذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فان الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالانصار خيرا فانهم الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا واني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وان موعدكم الحوض حوضي أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد من شرب منه لم يظمأ أبدا حصباؤه اللؤلؤ و بطحاؤه المسك من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله الا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه و يده الا مما ينبغي فقال العباس يا نبي الله أوص بقريش فقال انما أوصي بهذا الامر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس ان الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فاذا بر الناس برهم أئمتهم واذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابي بكر رضي الله عنه سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الاجل فقال قد دنا الاجل وتدلى فقال ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا فقال الى الله والى سدرة المنتهى ثم الى جنة المأوى والفردوس الاعلى والكاس الاوفى والرفيق الاعلى والحظ والعيش المهنا فقال يا نبي الله من يلي غسلك قال رجال من أهل بيتي الادنى فالادنى قال ففيم نكفنك قال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي بياض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا وبكينا و بكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا اذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فان أول من يصلي على الله عز وجل هو الذي يصلي عليكم وملائكته ثم يأذن للملائكة في الصلاة علي فأول من يدخل علي من خلق الله و يصلي علي جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ثم أنتم فادخلوا علي أفواجا فصلوا علي أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الامام وأهل بيتي الادنى فالادنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان قال

في طريقهم هجرة خاله ووقته (وقد ورد) المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه وقد قال الله تعالى * ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله و رسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله فالمريد ينبغي أن يخرج الى طريق القوم لله تعالى فانه ان وصل الى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وان أدركه الموت قبل الوصول الى نهايات القوم فاجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف عن

فمن يدخل ذلك القبر قال زمر من أهل بيتي الادنى فالادنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عني الى من بعدي وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الاول فاذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر يصلي بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب الا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون قالها ثلاث مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله ان أبا بكر رجل رقيق القلب اذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال انكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك مافعلت فيقول عبد الله اني لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها وماقلت ذلك ولاصرفته عن أبي بكر الا رغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة الامن سلم الله وخشيت أيضا أن لايكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا الا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فاذا الامر أمر الله والقضاء قضاؤه وعصمه الله من كل ماتخوفت عليه من أمر الدنيا والدين * وقالت عائشة رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عني هذا الملك يستأذن علي فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم انه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة ادخلن فقلت ماهذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال ان الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك الا باذن فان لم تأذن لي أرجع وان أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك فقلت اكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي فوجمنا وكأنما ضرب بنا بصاخة مانحير اليه شيأ وما يتكلم أحد من أهل البيت اعظاما لذلك الامر وهيبة ملأت أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وان يتم كرامتك وشرفك على الخلق وان تكون سنة في أمتك فقال أجدني وجعا فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال يا جبريل ان ملك الموت استأذن علي وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد ان ربك اليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا الا أن ربك متم شرفك وهو اليك مشتاق قال فلا تبرح اذا حتى يجيء وأذن للنساء فقال يا فاطمة أدني فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وماتطيق الكلام ثم قال أدني منك رأسك فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وماتطيق الكلام وكان الذي رأينا منها عجبا فسألتها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال اني ميت اليوم فبكيت ثم قال اني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي وأن يجعلك معي فضحكت وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك ماتأمرنا يا محمد قال ألحقني بربي الآن فقال بلى من يومك هذا أما ان ربك اليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد الا باذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه الى الارض أبدا طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الارض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة الا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدا بالحق مافي البيت أحد يستطيع أن يحير اليه في ذلك كلمة ولا يبعث الى أحد من رجاله لعظم مايسمع من حديثه ووجدنا واشفاقنا قالت فقمت الى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من انسان قط فجعلت أسلت ذلك العرق وماوجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له اذا أفاق

أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الخلدي قال سمعت الجنيد يقول أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج الى احكام النية واحكام النية تنزيهها من دواعي الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى (وكتب) سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له ومن قصرت

بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة ان نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبعثنا الى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه الى أبي فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وانما صدهم الله عنه لانه ولاه جبريل وميكائيل وجعل اذا أغمي عليه قال بل الرفيق الاعلى كان الخيرة تعاد عليه فاذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة انكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين قالت فاطمة رضي الله عنها ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الامة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم يوم أصيب علي كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل بعلي وفيه قتل أبي فما لقيت من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حتى ارتفعت الرنة وسجي رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبي فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم الا بعد البعد وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلي فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت انما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم وفي رواية أنه قال يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يمت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات الا علوته بسيفي هذا * وأما علي فانه أقعد فلم يبرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فان الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وان كان الناس لم يرعووا الا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا اله الا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج الى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم الآية فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية الا يومئذ وفي رواية ان أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقطع الجرة وهو في ذلك جلد العقل والمقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الانبياء والنبوة فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا انك نهيت عن البكاء لانفدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا *
وعن ابن عمر انه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى كلما ذكر شيأ ازدادوا فما سكن عجيجهم الا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال السلام عليك يا أهل البيت كل نفس ذائقة الموت الآية ان في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فأطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ان في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغيبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا

عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك (وكتب) بعض الصالحين الى أخيه أخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل ومن لم يهتد الى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية قال سهل بن عبد الله التستري أول ما يؤمر به المريد المبتدئ التبري من الحركات المذمومة ثم النقل الى الحركات المحمودة ثم التفرد لامر الله تعالى ثم التوقف في الرشاد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ويكون الرضا والتسليم مراده

النبى صلى الله عليه وسلم واستوفى القعقاع بن عمر وحكاية خطبة أبى بكر رضى الله عنه فقال قام أبو بكر فى الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال أشهد أن لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الاحزاب وحده فلله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد ان الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وامام المتقين محمد قائد الخير وامام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الاولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة فى الجنة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم انك حميد مجيد أيها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لم يمت وان الله قد تقدم اليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا فان الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عنده على ما عندكم وقبضه الى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذى بلغنى انك تقول ما مات نبى الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا كذا وكذا ويوم كذا كذا وكذا وقال تعالى فى كتابه انك ميت وانهم ميتون فقال والله لكانى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وان الحديث كما حدث وأن الله حى لا يموت انا لله وانا اليه راجعون وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس الى أبى بكر * وقالت عائشة رضى الله عنها لما اجتمعوا لغسله قالوا والله ما ندرى كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله فى ثيابه قالت فارسل الله عليهم النوم حتى ما بقى منهم رجل الا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل لا يدرى من هو غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه حتى اذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فاقررناه فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه الا قلب لنا حتى نفرغ منه وان معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا الا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها فى أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة ففى وفاته عبرة تامة وللمسلمين به اسوة حسنة (وفاة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه) لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما فان الحى الى الجديد أحوج من الميت وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ربيع اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعو لك طبيبا ينظر اليك قال قد نظر الى طبيبى وقال انى فعال لما أريد ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه يعوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال ان الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها الا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا تخفرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك ولما ثقل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف

والتفويض والتوكل حاله ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام هذا من كلام سهل جمع فيه ما فى البداية والنهاية ومتى تمسك المريد بالصدق والاخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه واخلاصه شئ مثل متابعة أمر الشرع واقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التى دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم الى الخلق وبلغنا عن رسول

عمر رضى الله عنه فقال الناس له استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك فقال أقول استخلفت على خلقك خير خلقك ثم أرسل الى عمر رضى الله عنه فجاء فقال انى موصيك بوصية اعلم أن لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل وأن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار وانه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يثقل وانما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يخف وان الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيآتهم فيقول القائل أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء وان الله ذكر أهل النار باسوا أعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وان الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ولا يلقى بيديه الى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق فان حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب اليك من الموت ولا بد لك منه وان ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض اليك من الموت ولا بد لك منه ولست بمعجزه وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فانا نراك لما بك فقال أبو بكر من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الافق المبين قالوا وما الافق المبين قال قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى ذلك المكان اللهم انك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك اليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير اللهم انك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقنى بمعاصيك اللهم انك علمت ما تكسب كل نفس قبل ان تخلقها ولا محيص لها مما علمت فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك اللهم ان أحدا لا يشاء حتى تشاء فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى اليك اللهم انك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شئ الا باذنك فاجعل حركاتى فى تقواك اللهم انك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلنى من خير القسمين اللهم انك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلنى من سكان جنتك اللهم انك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدرى للايمان وزينه فى قلبى اللهم انك دبرت الامور وجعلت مصيرها اليك فاحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى اليك زلفى اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فانت ثقتى ورجائى ولا حول ولا قوة الا بالله قال أبو بكر هذا كله فى كتاب الله عز وجل

﴿وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه﴾

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر ما بينى وبينه الا عبد الله بن عباس وكان اذا مر بين الصفين قام بينهما فاذا رأى خللا قال استووا حتى اذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الاولى حتى يجتمع الناس فما هو الا أن كبر فسمعته يقول قتلنى أو أكلنى الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا أو شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفى رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج انه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر رضى الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحى المسجد ما يدرون ما الامر غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلنى قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة فقال عمر رضى الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس ان شئت فعلت أى ان شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا الى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لا بأس فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فعرفوا انه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال ابشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى

الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يكمل ايمان المرء حتى يكون الناس عنده كالاباعر ثم يرجع الى نفسه فيراها أصغر صاغر اشارة الى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعاداتهم (قال) أحمد بن خضرويه من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدق يهدى الى البر ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن

الاسلام ماقد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت ان ذلك كان كفافا لا على ولا لى فلما أدبر الرجل اذا ازاره يمس الارض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخى ارفع ثوبك فانه أبقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ماعلى من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه فقال ان وفى به مال آل عمر فاده من أموالهم والا فسل فى بنى عدى بن كعب فان لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم الى غيرهم وأد عنى هذا المال انطلق الى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعونى فاسنده رجل اليه فقال مالديك قال الذى تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شئ أهم الى من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لى فأدخلونى وان ردتنى ردونى الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شئ كهيئة التعزية له فان أصابت الامارة سعدا فذاك والا فليستعن به أيكم أمر فانى لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وجباة الاموال وغيظ العدو وان لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالاعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام وان يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل لهم من ورائهم ولا يكلفهم الا طاقتهم قال ولما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فادخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه الحديث وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال لى جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى الا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فاذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فترحم على عمر وقال ماخلفت أحدا أحب الى أن ألقى الله بمثل عمله منك وايم الله ان كنت لاظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك انى كنت كثيرا أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر فانى كنت لارجو أو لاظن أن يجعلك الله معهما

﴿ وفاة عثمان رضى الله عنه ﴾

الحديث فى قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لاسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة وهى خوخة فى البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فادلى الى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى انى لاجد برده بين ثديى وبين كتفى وقال لى ان شئت نصرت عليهم وان شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا الى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيرى قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم على قال فجئ بهما كأنهما جملان أو حماران فاشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى فانتم اليوم

الخلق بقطع النظر عنهم الى أن يحكم أساسه فيه لم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأنفع شئ للمريد معرفة النفس ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية (قال) زيد بن أسلم خصلتان هما كمال أمرك تصبح لا تهم لله بمعصية وتمسى ولا تهم لله بمعصية فاذا أحكم الزهد والتقوى انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها

تمنعونى ان أشرب منها ومن ماء البحر قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون انى جهزت جيش العسرة من مالى قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى فانتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن ثبير فما عليك الا نبى وصديق وشهيدان قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا والى ورب الكعبة انى شهيد وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين اللهم انى أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتنى

﴿ وفاة على كرم الله وجهه ﴾

قال الاصبغ الحنظلى لما كانت الليلة التى أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول

اشدد حيازيمك للمو * ت فان الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت * اذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبى صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن على أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض ولما ثقل الحسن بن على رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لاى شئ تجزع تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى على بن أبى طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك وعلى حمزة وجعفر وهما عماك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله وعن محمد بن الحسين رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن انهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الامر ما ترون وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها الا كصبابة الاناء الا خسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى وانى لا أرى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا جرما

﴿ الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين ﴾

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال اقعدونى فاقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطام ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان وبكى حتى علا بكاؤه وقال يارب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غضونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا أجمع الا ما جربنا ورأينا أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا واستلذذنا بعيشنا فلبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فاصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلامت الينا أف للدنيا من دار ثم أف لها من دار ويروى ان آخر خطبة خطبها معاوية أن قال أيها الناس انى من زرع قد استحصد وانى قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى الا وهو شر منى كما كان من قبلى خيرا منى ويا يزيد اذا وفى أجلى فول غسلى رجلا لبيبا فان اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد الى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين فاذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين وقال عقبة بن محمد لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وأنى لم أل من هذا الامر شيأ ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر الى غسال بجانب

وخفى شهواتها ودسائسها وتلبيساتها ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى (قال ذو النون) لله تعالى فى أرضه سيف ما وضع على شئ الا قطع وهو الصدق ونقل فى معنى الصدق أن عابدا من بنى اسرائيل راودته ملكة عن نفسه فقال اجعلوا لى ماء فى الخلاء أتنظف به ثم صعد على موضع فى القصر فرمى بنفسه فاوحى الله تعالى الى ملك الهواء ان الزم عبدى قال فلزمه ووضعه على الارض وضعا رفيقا فقيل لابليس ألا أغويته

دمشق بلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك ليتني كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيأ فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم اذا حضرهم الموت يتمنون مانحن فيه واذا حضرنا الموت لم نتمن ماهم فيه وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين قال أجدنى كما قال الله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم الآية ومات وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب وهو فى قبة له فسمعته يقول تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ثم هدأ فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنائم هو فلما دخل صاح فوثبت فاذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصرعى هذا فانه لا بد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر اليه قال أرى رجلا قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال فتعالج يا أمير المؤمنين فانى أخاف أن تذهب نفسك قال ربى خير مذهوب اليه والله لو علمت ان شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى الى أذنى فتناولته اللهم خر لعمر فى لقائك فلم يلبث الا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ان لا تقوم بحجتها بين يدى الله الا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث الا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسونى فاجلسوه فقال أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ثلاث مرات ولكن لا اله الا الله ثم رفع رأسه فاحد النظر فقيل له فى ذلك فقال انى لارى خضرة ماهم بانس ولا جن ثم قبض رحمه الله وحكى عن هرون الرشيد انه انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر اليها ويقول ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان المعتصم يقول عند موته لو علمت ان عمرى هكذا قصير مافعلت مافعلت وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين قال ليس الا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر الى صناديق لبنيه من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لى فان الناس يقولون انك لا تغفر لى فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أقالها قيل نعم قال عسى

﴿ بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين ﴾

لما حضر معاذا رضى الله عنه الوفاة قال اللهم انى قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم انك تعلم انى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الانهار ولا لغرس الاشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب اخنقنى خنقك فوعزتك انك تعلم أن قلبى يحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال ما أبكى جزعا على الدنيا ولكن عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فاذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناه فقال بل واطرباه غدا نلقى الاحبه محمدا وحزبه وقيل فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون ولما حضر ابراهيم النخعى الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرنى بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له مايبكيك فقال والله ما أبكى لذنب أعلم انى أتيته ولكن أخاف انى أتيت شيأ حسبته هينا وهو عند الله عظيم ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له مايبكيك

فقال ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى (وينبغى) للمريد أن تكون له فى كل شئ نية لله تعالى حتى فى أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس الا لله ولا يأكل الا لله ولا يشرب الا لله ولا ينام الا لله لان هذه كلها ارفاق أدخلها على النفس فكانت لله لا تستعصى النفس وتجيب الى مايراد منها من المعاملة لله والاخلاص واذا دخل فى شئ من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه وقد ورد فى الخبر من

قال ماأبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكي على مايفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وا بعد سفراه واقلة زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له مايبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الاغنياء وان يميتني موت الفقراء ثم قال له لقني ولا تعد على مالم أتكلم بكلام ثان وقال عطاء بن يسار تبدى ابليس لرجل عند الموت فقال له نجوت فقال ما آمنك بعد و بكى بعضهم عند الموت فقيل له مايبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل انما يتقبل الله من المتقين ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال ان أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره وان أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة و يوم النيروز وهو يقرأ القرآن فختم له فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم فقال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول

حنين قلوب العارفين الى الذكر * وتذكارهم وقت المناجاة للسر * أديرت كؤس للمنايا عليهم
فاغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي السكر * همومهمو جوالة بمعسكر * به أهل ود الله كالانجم الزهر
فاجسامهم في الارض قتلى بحبه * وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرسوا الا بقرب حبيبهم * وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد ان أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لذي النون عند موته ماتشتهي قال ان أعرفه قبل موتي بلحظة وقيل لبعضهم وهو في النزع قل الله فقال الى متى تقولون الله وأنا محترق بالله وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الانسان أن يموت فيه قال فأشاروا اليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى الى ذلك المكان ومد رجليه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت اليه وقالت قد مت وقعت ميتة ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجري فتح عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وان لم تردها ثم أنشأ يقول

وحقك لانظرت الى سواكا * بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ * و بالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد قل لا اله الا الله فقال ما نسيته فاذكره وسال جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال علي درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئني للصلاة ففعلت فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته حتى مات فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال القدوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار ألا توصي بابنك وعيالك فقال اني لاستحي من الله أن أوصي بهم الى غيره ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير و يعاقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عليك أبكي فقال ان كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فأنشأ يقول

كيف أشكو الى طبيبي ما بي * والذي بي أصابني من طبيبي

فاخذت المروحة لاروحه فقال كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق ثم أنشأ يقول

القلب محترق والدمع مستبق * والكرب مجتمع والصبر مفترق

تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة و ريحه أطيب من المسك الاذفر ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (وقيل) كان أنس يقول طيبوا كفي بمسك فان ثابتا يصافحني و يقبل يدي وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك الى الله بنيتهم فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولا يسامح نفسه ان تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة الا لله تعالى وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوي عند كل لقمة

كيف القرار على من لاقرار له * مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب ان يك شئ فيه لى فرج * فامنن على به مادام بى رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلى دخلوا عليه وهو فى الموت فقالوا له قل لا اله الا الله فأنشأ يقول

ان بيتا أنت ساكنه * غير محتاج الى السرج * وجهك المأمول حجتنا
يوم يأتى الناس بالحجج * لا أتاح الله لى فرجا * يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد فى وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرنى فانى كنت فى وردى ثم ولى وجهه الى القبلة وكبر ومات وقيل للكتانى لما حضرته الوفاة ماكان عملك فقال لولم يقرب أجلى ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبى أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه وحكى عن المعتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من المتكلم فقلت أنا فقال ان ملك الموت عليه السلام يقول لى انى بكل سخى رفيق ثم طفئ ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا فقال يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وانى لا أعلم أنى صدقت الله فى شئ من عملى فقال حذيفة واعجبا لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله فى شئ من عمله وعن المغازلى قال دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول بمكنك أن تعمل ماتريد فارفق بى ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى وقيل لرويم عند الموت قل لا اله الا الله فقال لا أحسن غيره ولما حضر الثورى الوفاة قيل له قل لا اله الا الله فقال أليس ثم أمر ودخل المدنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا ولكاس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدرى أروحى تصير الى الجنة فاهنيها أم الى النار فأعزيها ثم أنشأ يقول

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى * جعلت رجائى نحو عفوك سلما * تعاظمنى ذنبى فلما قرنته
بعفوك ربى كان عفوك أعظما * فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغو بابليس عابد * فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يابنى باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى لا أدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فانى لى أوان الجواب فهذه أقاويلهم وانما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة الى أحوالهم

﴿ الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور ﴾

اعلم ان الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لاهل الغفلة فانها لاتزيدهم مشاهدتها الا قساوة لانهم يظنون أنهم أبدا الى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد الى جنازة الا ويقدر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكان قد ولعله فى غد أو بعد غد ويروى عن أبى هريرة أنه كان اذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الاثر وكان مكحول الدمشقى اذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رائحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الاول والآخر لاعقل له وقال أسيد بن حضير ماشهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشئ سوى ماهو مفعول به وماهو صائر اليه ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول والله لا تقر عينى حتى أعلم الى ماذا صرت اليه ولا أعلم مادمت حيا وقال الاعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نعزى لحزن الجميع وقال ثابت البنانى كنا نشهد الجنائز فلا نرى الا متقنعا باكيا فهذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر الى جماعة يحضرون جنازة الا وأكثرهم يضحكون ويلهون

ويقول بلسانه أيضا آكل هذه اللقمة لله تعالى ولا ينفع القول اذا لم تكن النية فى القلب لان النية عمل القلب وانما اللسان ترجمان فما لم تشتمل عليها عزيمة القلب لله لاتكون نية (ونادى) رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال هات المدرى أراد الميل ليفرق شعره فقالت له امرأته أجئ بالمدرى والمرآة فسكت ثم قال نعم فقال له من سمعه سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم فقال انى قلت لها هات المدرى بنية فلما قالت والمرآة لم يكن لى فى المرآة

ولا يتكلمون الا في ميراثه وما خلفه لو رثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه الا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم الى ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله اذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة الا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والاهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت نظر ابراهيم الزيات الى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم انه نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ومرارة الموت وقد ذاق وخوف الخاتمة وقد أمن وقال أبو عمرو بن العلاء جلست الى جرير وهو يملي على كاتبه شعرا فاطلعت جنازة فامسك وقال شيبتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول

تروعنا الجنائز مقبلات * ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمغار ذئب * فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساءة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا تدرى حقيقتها ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وان قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا ويحكى أن رجلا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته اذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملها الى المصلى فما صلى عليه أحد فحملها الى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلي عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لي في المنام انزل الى موضع فلان ترفيه جنازة ليس معها أحد الا امرأة فصل عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظري هل تعرفين منه شيأ من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعة ثم يعود الى الماخور ويشتغل بالفسق والثاني أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان احسانه اليهم أكثر من احسانه الى أولاده وكان شديد التفقد لهم والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث يعني نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع اشكاله من أمره * وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره

فان تنج منها تنج من ذي عظيمة * والا فاني لا اخالك ناجيا

﴿ بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور ﴾

قال الضحاك قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور وقيل لعلي كرم الله وجهه ما شأنك جاورت المقبرة قال اني أجدهم خير جيران اني أجدهم جيران صدق يكفون الالسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت منظرا الا والقبر أفظع منه وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس الى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكيت وبكوا فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لبكائك قال هذا قبر أمي آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى علي فادركني ما يدرك الولد من الرقة وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي اذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان القبر أول منازل الآخرة فان نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وان لم ينج منه فما بعده أشد وقيل ان عمرو بن

تنبيه فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لي نية فقلت نعم وكل مبتدئ لا يحكم أساس بدايته بمهاجرة الالاف والاصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة ولا تستقر بدايته وقد قيل من قلة الصدق كثرة الخلطاء وأنفع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرق سمعه كلام الناس فان باطنه يتغير ويتأثر بالاقوال المختلفة وكل من لا يعلم كمال زهده في الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا يعرفه أبدا فان عدم معرفته لا يفتح عليه خيرا وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش وربما استحضر

العاص نظر الى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقيل له هذا شئ لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فاحببت أن أتقرب الى الله بهما وقال مجاهد أول مايكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لى وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع فى قبرى وكان أبو الدرداء يقعد الى القبور فقيل له فى ذلك فقال أجلس الى قوم يذكرونى معادى واذا قمت لم يغتابونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا و يقول يا أهل القبور مالى اذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابى وكانى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة الى طلوع الفجر * وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه انك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الانس منك به ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام و يجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الاكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشى يقول أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الارض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت و بأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان اذا نظر الى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الاصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يا أماه ليتك كنت بى عقيما ان لابنك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك الى دار السلام فانظر من أين تجيبه ان أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة اليه دخلتها وان أجبته من قبرك منعتها وكان الحسن بن صالح اذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك انما الدواهى فى بواطنك وكان عطاء السلمى اذا جن عليه الليل خرج الى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فوا موتاه وعاينتم أعمالكم فوا عملاه ثم يقول غدا عطاء فى القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت يرددها ثم يرد على نفسه يا ربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تتعجب الارض من رجل يمهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك ومابينى وبينك شئ وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة فلما نظر الى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كانهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلا فى أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البنانى دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فاذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها ويروى أن فاطمة بنت الحسن نظرت الى جنازة زوجها الحسن بن الحسين فغطت وجهها وقالت

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية * لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل انها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يئسوا فانقلبوا وقال أبو موسى التميمى توفيت امرأة الفرزدق فخرج فى جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا اله الا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال

أخاف وراء القبر ان لم تعافنى * أشد من القبر التهابا وأضيقا
اذا جاءنى يوم القيامة قائد * عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى * الى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا فى أهل القبور

المبتدى بمجرد النظر الى الناس ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشى فيقف من الاشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره الى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه و يساره ثم يتقى موضع نظر الناس اليه واحساسهم منه بالرعاية والاحتراز فان علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله ولا يستحقر فضول المشى فان كل شئ من قول وأهل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة

قف بالقبور وقل على ساحاتها * من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرم منكم فى قعرها * قد ذاق برد الامن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد * لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لاخبروك بألسن * تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة * يفضى الى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب * فى حفرة يأوى الى حياتها
وعقارب تسعى اليه فروحه * فى شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهى تقول

عدمت الحياة ولا نلتها * اذا كنت فى القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى * وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناه ليت شعرى بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فأنشدت أقول أتيت القبور فناديتها * فأين المعظم والمحتقر

وأين المدل بسلطانه * وأين المزكى اذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول

تفانوا جميعا فما مخبر * وماتوا جميعا ومات الخبر * تروح وتغدو بنات الثرى
فتمحو محاسن تلك الصور * فيا سائلى عن أناس مضوا * أمالك فيما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك

﴿ أبيات وجدت مكتوبة على القبور ﴾

(وجد مكتوبا على قبر)

تناجيك أجداث وهن صموت * وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه * لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا

أبا غانم أما ذراك فواسع * وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره * اذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك مررت على المقابر فاذا على قبر مكتوب

يمر أقاربى جنبات قبرى * كأن أقاربى لم يعرفونى * ذوو الميراث يقتسمون مالى
وما يألون ان جحدوا ديونى * وقد أخذوا سهامهم وعاشوا * فيا لله أسرع ما نسونى

ووجد على قبر مكتوبا

ان الحبيب من الاحباب مختلس * لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها * يا من يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا فى النقص منغمسا * وأنت دهرك فى اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته * ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به * عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف * فقبرك اليوم فى الاجداث مندرس

(ووجد على قبر آخر مكتوبا)

وقفت على الاحبة حين صفت * قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعى * رأت عيناى بينهم مكانى

جر الى الفضول ثم يجر الى تضييع الاصول (قال سفيان) انما حرموا الوصول بتضييع الاصول فكل من لا يتمسك بالضرورة فى القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وانحلت شيأ بعد شئ (قال سهل ابن عبد الله) من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخلق اضطرارا وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع ويهلك مع الهالكين ولا ينبغى للمبتدئ أن يعرف أحدا من أرباب

ووجد على قبر طبيب مكتوبا

قد قلت لما قال لي قائل * قد صار لقمان الى رمسه * فاين ما يوصف من طبه
وحذقه في الماء مع جسه * هيهات لا يدفع عن غيره * من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا

يا أيها الناس كان لي أمل * قصر بي عن بلوغه الاجل * فليتق الله ربه رجل
أمكنه في حياته العمل * ما أنا وحدي نقلت حيث ترى * كل الى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذي ينظر الى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم و يعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب اليهم من الدنيا بحذافيرها لانهم عرفوا قدر الاعمار وانكشفت لهم حقائق الامور فانما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموافق به رتبته فيتضاعف له الثواب فانهم انما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الامر من الاختيار اذلم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين رأيت أخالي في الله فيما يرى النائم فقلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لان أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله رب العالمين أحب الي من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فان فلانا قد قام فصلى ركعتين لان أكون أقدر على أن أصليهما أحب الي من الدنيا وما فيها

* بيان أقاويل يلهم عند موت الولد *

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة مالو كانا في سفر فسبقه الولد الى البلد الذي هو مستقره و وطنه فانه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما الا تقدم وتأخر وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن الى أن يلحق المتأخر واذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان أقدم سقطا أحب الي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله وانما ذكر السقط تنبيها بالادنى على الاعلى والا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فقيل له ما كان عدله عندك قال ملء الارض ذهبا قيل له فان لك من الاجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال أو اثنان وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقربه الى الاجابة ووقف محمد ابن سليمان على قبر ولده فقال اللهم اني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم اني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ووقف اعرابي على قبر ابنه فقال اللهم اني قد وهبت له ما قصر فيه من بري فهب له ما قصر فيه من طاعتك ولما مات ذر بن عمر ابن ذر قام أبوه عمر بن ذر بعد ما وضع في لحده فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم ان هذا ذر متعتني به ما متعتني و وفيته أجله و رزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي اللهم وما وعدتني عليه من الاجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا الى انسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك ونظر رجل الى امرأة بالبصرة فقال ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك الا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله اني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت ان زوجي ذبح شاة في يوم عيد الاضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وماشعرنا به الا متشحطا في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ الى جبل فرهقه ذئب فأكله وخرج أبوه

الدنيا فان معرفته لهم سم قاتل وقد ورد الدنيا مبغوضة الله فمن تمسك بحبل منها قادته الى النار وما حبل من حبالها الا كابنائها والطالبين لها والمحبين فمن عرفهم انجذب اليها شاء أو أبى و يحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار فانه يدخل عليه منهم أشر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا و بما يشيرون الى أن الاعمال شغل المتعبدين وان أرباب الاحوال ارتقوا عن ذلك و ينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض

يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فافردني الدهر كما ترى فامثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الاولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فما من مصيبة الا ويتصور ماهو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الاكثر

﴿ بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به ﴾

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لاجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار كما أوردنا من قبل * وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج الى المقابر فانهن يكثرن الهجر على رؤس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لاجلها نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر * وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله * وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة وعن نافع عن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد الا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه ان فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الايام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين وقال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي وقال صلى الله عليه وسلم من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة وقال كعب الاحبار ما من فجر يطلع الا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى اذا انشقت الارض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبرا القبلة مستقبلا بوجهه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى * قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء الى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وينصرف * وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت انه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الا استأنس به ورد عليه حتى يقوم وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم قلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة اذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه واذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصما في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها الى أبي بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيهات بليت الاجسام وانما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا ايا كم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت الى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الايام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت الى يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته قيل وكيف ذاك قال لمكان يوم الجمعة وقال بشر بن منصور لما كان

وصوم رمضان فحسب ولا ينبغي أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسا فانا اختبرنا ومارسنا الامور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء في أحوالهم فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه في بدايته ويراعي يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشيء من أحوال نفسه وما تجر بها ويبكر الى

آزمن الطاعون كان رجل يختلف الى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فاذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيآتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فامسيت ذات ليلة فانصرفت الى أهلي ولم آت المقابر فأدعوا كما كنت ادعو فبينما أنا نائم اذا بخلق كثير قد جاؤني فقلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا انك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك الى أهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك وقال بشار بن غالب النجراني رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الاحياء اذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان اليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الميت في قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فاذا لحقته كانت أحب اليه من الدنيا وما فيها وان هدايا الاحياء للاموات الدعاء والاستغفار * وقال بعضهم مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك قال أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الاودي شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال يا سعيد اذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان بن فلانة فانه يسمع ولا يجيب ثم ليقل يا فلان بن فلانة الثانية فانه يستوي قاعدا ثم ليقل يا فلان بن فلانة الثالثة فانه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وانك رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن اماما فان منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال رجل يا رسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه الى حواء ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روي عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع احمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا ان القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لاحمد يا أبا عبد الله ما تقولون في مبشر بن اسماعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيأ قال نعم قال أخبرني مبشر بن اسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه انه أوصى اذا دفن ان يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال له أحمد فارجع الى الرجل فقل له يقرأ * وقال محمد بن أحمد المروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول اذا دخلتم المقابر فاقرؤا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لاهل المقابر فانه يصل اليهم وقال أبو قلابة اقبلت من الشام الى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فاذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال انكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا اقرئهم السلام فانه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وانما يحصل له الاعتبار بان يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وانه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان اذا جاء الليل تحزمت ثم قامت الى المحراب واذا جاء النهار خرجت الى القبور فبلغني انها عوتبت في كثرة اتيانها المقابر فقالت ان القلب القاسي اذا جفا لم يلينه الا رسوم البلى واني لآتي القبور فكاني أنظر وقد خرجوا من بين اطباقها وكاني أنظر الى تلك الوجوه المتعفرة والى تلك الاجسام المتغيرة والى تلك الاجفان الدسمة فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للانفس وأشد تلفها للابدان بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر ابن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان لو رأيتني بعد

الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة وان اغتسل قريبا من وقت الصلاة اذا أمكنه ذلك فحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بعشائك وما من نبي الا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة فان غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع

ثلاث وقد ادخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الاسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت وأن لا يذكر الا بالجميل قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه وقال صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ما قدموا وقال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم الا بخير فانهم ان يكونوا من أهل الجنة تأثموا وان يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه وقال أنس بن مالك مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاثنوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومر وا بأخرى فأثنوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال ان هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء الله في الارض وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى لملائكته أشهدكم أني قد قبلت شهادة عبيدي على عبدي وتجاوزت عن علمي في عبدي

﴿ الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر الى نفخة الصور ﴾

﴿ بيان حقيقة الموت ﴾

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطؤا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر الى أن يعاد في وقت الحشر وقال آخرون ان الروح باقية لا تنعدم بالموت وانما المثاب والمعاقب هي الارواح دون الاجساد وان الاجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والاخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد اما معذبة واما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الاعضاء آلات للروح تستعملها حتى انها لتبطش باليد وتسمع بالاذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الاشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد الى أن تعاد الروح الى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح الى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وانما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الاعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الاعضاء كلها وكل الاعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الانسان العلوم وآلام الغموم ولذات الافراح ومهما بطل تصرفها في الاعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها الافراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت أي لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما ان معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقة في الاعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهي باقية نعم تغير حاله من جهتين احداهما انه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الاشياء من الانسان وبين ان يسلب الانسان من هذه الاشياء فان المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والالم واحد في الحالتين وانما معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح اليه

الا ذاكرا من غير فتور الى أن يصلي الجمعة ويجلس معتكفا في الجامع الى أن يصلي فرض العصر وبقية النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فانه يرى بركة ذلك في جميع الاسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الاسبوع لانه يوم المزيد لكل صادق ويكون ما يجده يوم

و يعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت و يصعب شقاؤه في مفارقته بل يلتفت قلبه الى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى الى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وان لم يكن يفرح الا بذكر الله ولم يأنس الا به عظم نعيمه وتمت سعادته اذ خلي بينه و بين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل اذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة والثاني أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ مالم يكن مكشوفا في النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره و ينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر الى سيئة الا و يتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا و ينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن اليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لاجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد اذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا الا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه الى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه و يكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن اليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتمادا على أن الملك يتساهل في أمره أوعلى أن الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت الى من يتشفع اليه في العصاة عليه فانظر الى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن اليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فان الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما فهذه اشارة الى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت اذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وادراك ماهية ذاتها ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربي فليس لاحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وان اطلع عليه وانما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت و يدل على ان الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام ادراكها آيات وأخبار كثيرة أما الآيات فما ورد في الشهداء اذ قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انهم لاسمع لهذا الكلام منكم الا أنهم لا يقدرون على الجواب فهذا نص في بقاء روح الشقي و بقاء ادراكها ومعرفتها والآية نص في أرواح الشهداء ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وهذا نص صريح على ان الموت معناه تغير حال فقط وان ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر وانما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله و روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته وقال صلى الله عليه وسلم اذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية ان كان من أهل الجنة فمن الجنة وان كان من أهل النار فمن النار و يقال هذا مقعدك حتى تبعث اليه يوم القيامة وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال كنا مع علقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته وقال علي كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات

الجمعة معيارا يعتبر به سائر الاسبوع الذي مضى فانه اذا كان الاسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الانوار والبركات وما يجد في يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح فلما ضيع في الاسبوع يعرف ذلك و يعتبره و يتقي جدا أن يلبس للناس اما المرتفع من الثياب أوثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد في لبس المرتفع للناس

غريبامات شهيدا او وقى فتانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة وقال مسروق ماغبطت أحدا ماغبطت مؤمنا فى اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله وقال يعلى بن الوليد كنت أمشى يوما مع أبى الدرداء فقلت له ماتحب لمن تحب قال الموت قلت فان لم يمت قال يقل ماله و ولده وانما أحب الموت لانه لايحبه الا المؤمن والموت اطلاق المؤمن من السجن وانما أحب قلة المال والولد لانه فتنة وسبب للانس بالدنيا والانس بمن لابد من فراقه غاية الشقاء فكل ماسوى الله وذكره والانس به فلابد من فراقه عند الموت لامحالة ولهذا قال عبد الله بن عمر وانما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات فى سجن فأخرج منه فهو يتفسح فى الارض و يتقلب فيها وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس الا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان فى الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذى كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله لانهم ما أقدموا على القتال الا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين الى لقاء الله راضين بالقتل فى طلب مرضاته فان نظر الى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لايلتفت قلبه الى المبيع وان نظر الى الآخرة فقد اشتراها وتشوق اليها فما أعظم فرحه بما اشتراه اذا رآه وما أقل التفاته الى ماباعه اذا فارقه وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق فى بعض الاحوال ولكن لايدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لادراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا اعظم النعيم اذ معنى النعيم أن ينال الانسان مايريده قال الله تعالى ولهم مايشتهون فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الانسان عن مراده كما قال الله تعالى وحيل بينهم و بين مايشتهون فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لارباب القلوب بنور اليقين وان أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر الا أبشرك ياجابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالخير فقال ان الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال تمن على عبدى ماشئت أعطيكه فقال يارب ماعبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردنى الى الدنيا فأقاتل مع نبيك فاقتل فيك مرة أخرى قال له انه قد سبق منى أنك اليها لاترجع وقال كعب يوجد رجل فى الجنة يبكى فيقال له لم تبكى وأنت فى الجنة قال أبكى لانى لم أقتل فى الله الا قتلة واحدة فكنت أشتهى أن أرد فاقتل فيه قتلات واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ماتكون الدنيا بالاضافة اليه كالسجن والمضيق ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب الى بستان واسع الاكناف لايبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الاشجار والازهار والثمار والطيور فلايشتهى العود الى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا فقال لرجل مات أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لاهلها فان كان قد رضى فلايسره أن يرجع الى الدنيا كما لايسر أحدكم أن يرجع الى بطن أمه فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة الى الدنيا كنسبة سعة الدنيا الى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم ان مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع الى مكانه وكذلك المؤمن يجزع من الموت فاذا أفضى الى ربه لم يحب أن يرجع الى الدنيا كما لايحب الجنين أن يرجع الى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه أشار بالمستريح الى المؤمن و بالمستراح منه الى الفاجر اذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر الى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلا فواراها ثم قال ان هذه الابدان ليس يضرها هذا الثرى شيأ وانما الارواح التى تعاقب وتثاب الى يوم القيامة وعن عمرو بن دينار قال مامن ميت يموت الا وهو يعلم مايكون فى أهله بعده وانهم ليغسلونه و يكفنونه وانه لينظر اليهم وقال مالك بن أنس بلغنى أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول ألا انه لم يبق من الدنيا الامثل الذباب يمور فى جوها فالله الله

هوى وفى لبس الخشن رياء فلايلبس الا لله (بلغنا) أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغيره ثم أمسك وقال لبسته بنية لله فلا أغيره قالبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولابد للمبتدى أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ من القرآن من السبع الى

فى اخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ولذلك قال أبو الدرداء اللهم انى أعوذ بك ان أعمل عملا أخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين اذا ماتوا أين هى قال فى حواصل طير بيض فى ظل العرش وأرواح الكافرين فى الارض السابعة وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره وقال صالح المرى بلغنى ان الارواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج اليهم كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أو خبيث وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الاخبار فاذا أتاهم الميت قالوا مافعل فلان فيقول ألم يأتكم أوما قدم عليكم فيقولون انا لله وانا اليه راجعون سلك به غير سبيلنا وعن جعفر بن سعيد قال اذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب وقال مجاهد ان الرجل ليبشر بصلاح ولده فى قبره وروى أبو أيوب الانصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح فانه كان فى كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فاذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلى قالوا انا لله وانا اليه راجعون ذهب به الى أمه الهاوية

﴿بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى اما بلسان المقال أو بلسان الحال﴾

التى هى أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الاحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ماغرك بى ألم تعلم انى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ماغرك بى اذ كنت تمر بى فذاذا فان كان مصلحا أجاب عنه مجيب للقبر فيقول أرأيت ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر انى اذا أتحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه الى الله تعالى والفذاذ هو الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى وقال عبيد بن عمير الليثى ليس من ميت يموت الا نادته حفرته التى يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت فى حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وان كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل اذا وضع فى قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف فى الدنيا بعد اخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك فى متقدمنا اياك فكرة أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهلة فهلا استدركت مافات اخوانك وتناديه بقاع الارض أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الارض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله الى القبور وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته الى المنزل الذى لابد له منه وقال يزيد الرقاشى بلغنى أن الميت اذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت أيها العبد المنفرد فى حفرته انقطع عنك الاخلاء والاهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا وقال كعب اذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة اليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بى القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد اليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبى فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيأ طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له فى قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضىء بنوره الى يوم يبعثه الله من قبره وقال عبيد الله بن عبيد بن عمير فى جنازة بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شىء الا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتنى وحذرت ضيقى ونتنى وهولى ودودى فماذا أعددت لى

﴿بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير﴾

الجميع الى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصغى الى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى وانما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه ومن لازم التلاوة فى الخلوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أوفى

قال البراء بن عازب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال ان المؤمن اذا كان فى قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كان وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فاذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك فى السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب الا يحب أن يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فاروه ما أعددت له من الكرامة فانى وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم الآية وانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال ياهذا من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم قال فينتهرانه انتهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فاذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول ابشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت فيقول أنا عملك الصالح والله ماعلمت ان كنت لسريعا الى طاعة الله بطيأ عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب الى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع الى أهلى ومالى قال وأما الكافر فانه اذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فاذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك فى السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب الا يكره أن يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه نبذ وقيل أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فاروه ما أعددت له من الشر انى وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم الآية وانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال له ياهذا من ربك ومن نبيك ومادينك فيقول لا أدرى فيقال لادريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عملك الخبيث والله ان كنت لسريعا فى معصية الله بطيأ عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وأنت فجزاك الله شرا ثم يقيض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم يعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الارضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا الى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب الى النار وقال محمد بن على ما من ميت يموت الا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص الى حسناته ويطرق عن سيئاته وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن اذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال أيتها النفس المطمئنة اخرجى راضية ومرضيا عنك الى روح الله وكرامته فاذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها الى عليين وان الكافر اذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا ويقال أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة ومسخوطا عليك الى هوان الله وعذابه فاذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وان لها نشيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها الى سجين وعن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقرأ قوله تعالى حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال أى شىء تريد فى أى شىء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتشقق الانهار قال لا لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار كلا انها كلمة هو قائلها أى ليقولنها عند الموت وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما اذا أنزلت فان له معيشة ضنكا قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون ولا ينبغى أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فان أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الاخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل

والحقد

مايفيده الذكر الواحد فاذا سئم فى بعض الاحايين بصانع النفس على الذكر مصانعة وينزل من التلاوة الى الذكر فانه أخف على النفس وينبغى أن يعلم ان الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فانه مضر وداء

والحقد وسائر الصفات فان لها أصولا معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها الى أقسام وتلك الصفات باعيانها هي المهلكات وهي باعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذى ايذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها الا ان مقدار عددها لا يوقف عليه الا بنور النبوة فامثال هذه الاخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي ان ينكر ظواهرها بل أقل درجات الايمان التصديق والتسليم فان قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيأ من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة فاعلم أن لك ثلاث مقدمات في التصديق بامثال هذا (أحدها) وهو الاظهر والاصح والاسلم ان تصدق بانها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الامور الملكوتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت أما ترى الصحابة رضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بانه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح اصل الايمان بالملائكة والوحي أهم عليك وان كنت آمنت به وجوزت ان يشاهد النبي مالا تشاهده الامة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى ❊(المقام الثاني)❊ ان تتذكر أمر النائم وانه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد واذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد ❊(المقام الثالث)❊ انك تعلم ان الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم ثم السم ليس هو الالم بل عذابك في الاثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الاثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب الا بان يضاف الى السبب الذي يفضي اليه في العادة فانه لو خلق في الانسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها الا بالاضافة اليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وان لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق فانه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فاذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ما حال من كان له واحد ❊ غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم الى أعدائه ثم ينضاف الى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته على ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يعذب به اذ لا يقبح نار الفراق الا نار جهنم كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب الا الله وكان مشتاقا الى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الامن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب فاذا ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذي

ءضال فيطالب نفسه أن تصير في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما ان التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وان كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حليته باطنة فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله اليه مكان حديث

يلدغه اذا أخذ منه فرسه فليستعد لهذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك اليه فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حى فيعظم عقابه فكذلك اذا مات لانا قد بينا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لانه فى الحياة يتسلى باسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود اليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت اذ قد انسد عليه طرق التسلى وحصل اليأس فاذا كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فانه يبقى متاسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا فى الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم نجا المخفون وان كان مثقلا لاعظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين ومامن شىء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت الا وهو حسرة عليك بعد الموت فان شئت فاستكثر وان شئت فاستقلل فان استكثرت فلست بمستكثر الا من الحسرة وان استقللت فلست تخفف الا عن ظهرك وانما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الاغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا اليها فهذه مقامات الايمان فى حيات القبر وعقاربه وفى سائر أنواع عذابه رأى أبو سعيد الخدرى ابناله قد مات فى المنام فقال له يا بنى عظنى قال لا تخالف الله تعالى فيما يريد قال يا بنى زدنى قال يا أبت لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قميصا فما لبس قميصا الاثنين سنة فان قلت فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث فاعلم أن فى الناس من لم يثبت الا الاول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر الاول وأثبت الثانى ومنهم من لم يثبت الا الثالث وانما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الامكان وان من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الانواع ورب عبد تجمع عليه هذه الانواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط الارض من يعرف ذلك تحقيقا والذى أوصيك به أن لا تكثر نظرك فى تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغى أن يكون الاستعداد له فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

﴿ بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر ﴾

قال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لاحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول فى النبى فان كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان ان كنا لنعلم انك تقول ذلك ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ذراعا وينور له فى قبره ثم يقال له نم فيقول دعونى أرجع الى أهلى فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لا يوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وان كان منافقا قال لا أدرى كنت أسمع الناس يقولون شيأ وكنت أقوله فيقولون ان كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للارض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يا عمر كيف بك اذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ثم رجعوا اليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فاذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران

النفس فانه بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة (قال مالك) قلوب الصديقين اذا سمعت القرآن طربت الى الآخرة فليتمسك المريد بهذه الاصول وليستعن بدوام الافتقار الى الله فبذلك ثبات قدمه قال سهل على قدر لزوم الالتجاء والافتقار الى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره الى الله فدوام

أشعارهما و يبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك كيف بك عند ذلك يا عمر فقال عمر و يكون معي مثل عقلي الآن قال نعم قال اذاً أكفيكهما وهذا نص صريح فى أن العقل لا يتغير بالموت انما يتغير البدن والاعضاء فيكون الميت عاقلا مدركا عالما بالآلام واللذات كما كان لا يتغير من عقله شئ وليس العقل المدرك هذه الاعضاء بل هو شئ باطن ليس له طول ولا عرض بل الذى لا ينقسم فى نفسه هو المدرك الاشياء ولو تناثرت أعضاء الانسان كلها ولم يبق الا الجزء المدرك الذى لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الانسان العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنكدر بلغنى أن الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء صماء فى يدها سوط من حديد فى رأسه مثل غرب الجمل تضربه به الى يوم القيامة لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه وقال أبو هريرة اذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فان أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن وان آتاه من قبل رجليه جاء قيامه وان أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه وان جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما انى لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه قال سفيان تحاحش عنه أعماله الصالحة كما يحاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك فى مضجعك فنعم الاخلاء أخلاؤك ونعم الاصحاب أصحابك وعن حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال يضغط المؤمن فى هذا ضغطة ترد منها حمائله وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ وعن أنس قال توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله فلما انتهينا الى القبر فدخله التمع وجهه صفرة فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأنا فمم ذلك قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر فاتيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين

﴿ الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام ﴾

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم الى سعداء وأشقياء ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف بذلك أصلا فانا ان عولنا على ايمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له وان عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو الا بمشاهدته ومشاهدة ما يجرى عليه واذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة الى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وانما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين فى قلب كل انسان ولكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيأ من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الانبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا الى الملكوت وشاهدوا عجائبه والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال أبى جابر لما استشهد اذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الانبياء والاولياء الذين تقرب درجتهم منهم وانما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة الا أنها أيضا مشاهدة نبوية وأعنى بها المشاهدة فى المنام وهى من أنوار النبوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهو أيضا انكشاف لا يحصل الا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق الا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا وهو اشارة الى طهارة الباطن أيضا فهو الاصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ما سيكون فى المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى نزل قوله

الافتقار الى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق فى طريق القوم وهذا الافتقار مع كل الانفاس لا ينشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار الى الله فيها وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا علمنا ذلك وتحققناه قال سهل من انتقل من نفس الى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله

تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقلما يخلو الانسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمى وهو من أوضح الادلة على عالم الملكوت والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الامور وان كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم الى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب المبين وتارة بامام مبين كما ورد فى القرآن فجميع ما جرى فى العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وان الكتاب من كاغد أو رق بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل ان كنت تطلب له مثالا يقربه الى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حتى كانه حين يقرؤه ينظر اليه ولو فتشت دماغه جزأ جزأ لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وان كان ليس هنالك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه واللوح فى المثال كمرآة تظهر فيها الصور فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه الا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت فان هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ فى مرآة القلب شئ من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد يثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب فاذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع فى قلبه شئ مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى اذا ارتفع الحجاب بينهما الا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون المتخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ فاذا انتبه لم يتذكر الا الخيال فيحتاج المعبر أن ينظر الى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع الى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير ويكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كان بيدى خاتما اختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولاجله يراد الختم وانما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الاكل والشرب ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ الا الصورة الخيالية فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت وانما الموت هو عجب من العجائب وهذا لانه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل فما ذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية حتى يرى الانسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه اما محفوفة بالانكال والمخازى والفضائح نعوذ بالله من ذلك واما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للاشقياء وقد انكشف الغطاء لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ويقال أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون واليهم الاشارة بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فاعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم الا الفكرة فى خطر تلك الحال ان الحجاب عما ذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافيا فى استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين

وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه (وبلغنا) أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه الدار ثم رجع الى نفسه وقال مالى وهذا السؤال وهل هذه الا كلمة لا تعنينى وهل هذا الا لاستيلاء نفسى وقلة أدبها وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا بقوة العزائم

أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل باعضائنا وسمعنا وبصرنا مع انا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ما قال لسيد النبيين أحبب من أحببت فانك مفارقه وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولم يخلف دينارا ولا درهما ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب وقد قال لامته ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله فانما أمته من اتبعه وما اتبعه الا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادعا الا الى الله واليوم الآخر وما صرف الا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذى سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى فلو خرجت من مكمن الغرور وانصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت انك من حين تصبح الى حين تمسى لاتسعى الا فى الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن الا للعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمته واتباعه ما أبعد ظنك وما أبرد طمعك أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ✻ ولنرجع الى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان الكلام الى غير مقصده ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لاحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به اذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك الا المنامات

✻ بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والاعمال النافعة فى الآخرة ✻

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فان الشيطان لايتمثل بى وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فرأيته لاينظر الى فقلت يارسول الله ماشأنى فالتفت الى وقال ألست المقبل وأنت صائم قال والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا وقال العباس رضى الله عنه كنت ودا لعمر فاشتهيت أن أراه فى المنام فما رأيته الا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى ان كان عرشى ليهد لولا أنى لقيته رؤفا رحيما وقال الحسن بن على قال لى على رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى فقلت يارسول الله مالقيت من أمتك قال ادع عليهم فقلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله استغفر لى فأعرض عنى فقلت يارسول الله أن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله انك لم تسأل شيأ قط فقلت لا فاقبل على فقال غفر الله لك وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لابى لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمنى أمره فسألت الله تعالى حولا أن يرينى اياه فى المنام قال فرأيته يلتهب نارا فسألته عن حاله فقال صرت الى النار فى العذاب لايخفف عنى ولا يروح الا ليلة الاثنين فى كل الايام والليالى قلت وكيف ذلك قال ولد فى تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتنى أميمة فبشرتنى بولادة آمنة اياه ففرحت به وأعتقت وليدة لى فرحا به فأثابنى الله بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل ليلة اثنين وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجا فصحبنى رجل كان لايقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن الا صلى على النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة الى مكة ومعى أبى فلما انصرفنا نمت فى بعض المنازل فبينا أنا نائم اذ أتانى آت فقال لى قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فاذا هو ميت أسود الوجه فداخلنى من ذلك رعب فبينا أنا فى ذلك الغم اذ غلبتنى عينى فنمت فاذا على رأس أبى أربعة سودان معهم أعمدة حديد اذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فسح وجهه بيده ثم أتانى فقال قم فقد بيض الله وجه أبيك فقلت له من أنت بأبى أنت وأمى فقال أنا محمد قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبى فاذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ✻ وعن عمر بن

عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا (أخبرنا) أبو زرعة اجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الانماطى يقول سمعت الجنيد يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان مافاته من الله أكثر مما ناله وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يحكمها والمنتهى عالم بها عامل

عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسان عنده فسلمت وجلست فبينما أنا جالس اذ أتى بعلى ومعاوية فادخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج على رضى الله عنه وهو يقول قضى لى ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لى ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضى الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فانكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتى بعدى قتلوا ابنى الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها الى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه ورؤى الصديق رضى الله عنه فقيل له انك كنت تقول أبدا فى لسانك هذا أوردنى الموارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا اله الا الله فأوردنى الجنة

﴿ بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين ﴾

قال بعض المشايخ رأيت متمما الدورقى فى المنام فقلت ياسيدى مافعل الله بك فقال دبرنى فى الجنان فقيل لى يا متمم هل استحسنت فيها شيأ قلت لا ياسيدى فقال لو استحسنت منها شيأ لوكلتك اليه ولم أوصلك الى ورؤى يوسف بن الحسين فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال غفر لى قيل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل وعن منصور بن اسمعيل قال رأيت عبد الله البزار فى النوم فقلت مافعل الله بك قال أوقفنى بين يديه فغفر لى كل ذنب أقررت به الا ذنبا واحدا فانى استحييت ان أقر به فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت الى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله ان أذكره وقال أبو جعفر الصيدلانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك اذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما بيده طشت وبيد الآخر ابريق فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدى فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فانه ليس منهم فقلت يارسول الله أليس قد روى عنك انك قلت المرء مع من أحب قال بلى قلت يارسول الله فانى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فانه منهم وقال الجنيد رأيت فى المنام كانى أتكلم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به المتقربون الى الله تعالى ماذا فقلت عمل خفى بميزان وفى فولى الملك وهو يقول كلام موفق والله ورئى مجمع فى النوم فقيل له كيف رأيت الامر فقال رأيت الزاهدين فى الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد رأيتك فى النوم كانك فى الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه فاشخص رجلا يقتلنى وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلمى فى النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا قال أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائما فقلت فى أى الدرجات أنت فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وسئل زرارة بن أبى أوفى فى المنام أى الاعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الامل وقال يزيد بن مذعور رأيت الاوزاعى فى المنام فقلت يا أبا عمرو دلنى على عمل أتقرب به الى الله تعالى قال ما رأيت هنالك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى فى المنام فقلت يا أخى مافعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لى ومالم أستغفر منه لم يغفر لى وقال على الطلحى رأيت فى المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجينى نفسك قالت اخطبنى الى سيدى وأمهرنى قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتها وقال ابراهيم بن اسحق الحربى رأيت زبيدة فى المنام فقلت مافعل الله بك قالت غفر لى فقلت لها بما أنفقت فى طريق مكة قالت أما النفقات التى أنفقتها رجعت أجورها الى أربابها وغفر لى بنيتى ولما مات سفيان الثورى رئى فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال وضعت أول قدمى على الصراط والثانى فى الجنة وقال أحمد بن أبى الحوارى رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا فقلت لها مما ذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهى فمن ثم ضوء وجهى كما ترى وقال الكتانى رأيت الجنيد فى المنام فقلت له مافعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا الا على ركعتين كنا نصليهما فى الليل ورئى

بحقائقها فالمبتدئ صادق والمنتهى صديق قال أبو سعيد القرشى الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا الى حظ النفس وعلامته أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض واذا اشتغل بالذكر نور الروح واذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الاذكار والصديق الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى

زبيدة في المنام فقيل لها مافعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الاربع لا اله الا الله أفني بها عمري لا اله الا الله أدخل بها قبري لا اله الا الله أخلو بها وحدي لا اله الا الله ألقى بها ربي وروىء بشر في المنام فقيل له مافعل الله بك قال رحمني ربي عزوجل وقال يابشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف ورؤي أبوسليمان في النوم فقيل له مافعل الله بك قال رحمني وما كان شيء أضر علي من اشارات القوم الي وقال أبو بكر الكتاني رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له من أنت قال التقوى قلت فاين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فاذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك الا غلبة وقال أبو سعيد الخراز رأيت في المنام كان ابليس وثب علي فاخذت العصا لاضربه فلم يفزع منها فهتف بي هاتف ان هذا لايخاف من هذه وانما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحي رأيت ابليس في النوم يمشي عريانا فقلت ألا تستحيي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي وأشار بيده الى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخراز كنت في دمشق فرأيت في المنام كان النبي صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فجاء فوقف علي وأنا أقول شيأ من الاصوات وأدق في صدري فقال شر هذا أكثر من خيره *وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثوري في المنام كانه في الجنة يطير من شجرة الى شجرة يقول لمثل هذا فليعمل العاملون فقلت له اوصني قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثوري فقلت مافعل الله بك فقال

نظرت الى ربي كفاحا فقال لي * هنيأ رضائي عنك ياابن سعيد
فقد كنت قواما اذا أظلم الدجى * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته * وزرني فاني منك غير بعيد

ورؤي الشبلي بعد موته بثلاثة أيام فقيل له مافعل الله بك قال ناقشني حتى أيست فلما رأى يأسي تغمدني برحمته ورؤي مجنون بني عامر بعد موته في المنام فقيل له مافعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على المحبين ورؤي الثوري في المنام فقيل له مافعل الله بك قال رحمني فقيل له ماحال عبد الله بن المبارك فقال هو ممن يلج على ربه في كل يوم مرتين ورؤي بعضهم فسئل عن حاله فقال حاسبونا فدققوا ثم منوا فاعتقوا ورؤي مالك بن أنس فقيل له مافعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحي الذي لايموت ورىء في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كان أبواب السماء مفتحة وكان مناديا ينادي ألا ان الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض ورىء الجاحظ فقيل له مافعل الله بك فقال

ولاتكتب بخطك غير شيء * يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد ابليس في المنام عريانا فقال ألا تستحيي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي قال الجنيد فلما انتبهت غدوت الى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لايغرنك حديث الخبيث ورؤي النصراباذي بمكة بعد وفاته في النوم فقيل له مافعل الله بك قال عوتبت عتاب الاشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال فقلت لا ياذا الجلال فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت ياعتبة أنا لك عاشقة فانظر لاتعمل من الاعمال شيأ فيحال بيني وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لي عليها حتى ألقاك وقيل رأى أيوب السختياني جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلي عليها فرأى الميت بعضهم في المنام فقال له مافعل الله بك قال غفر لي وقال قل لايوب قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكتم خشية الانفاق وقال بعضهم رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نورا وملائكة نزولا وملائكة صعودا فقلت أي ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكي في المنام فقلت أيها الشيخ قال دع التشييخ قلت تلك الاحوال التي شاهدتها فقال لم تغن عنا فقلت مافعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز وقال أبو بكر الرشيدي رأيت محمدا الطوسي المعلم في النوم فقال لي قل لابي سعيد الصفار المؤدب

وكنا على أن لانحول عن الهوى * فقد وحياة الحب حلتم وماحلنا

بتلوين الاحوال لايحجبه عن الله وعن الاذكار أكل ولانوم ولاشرب ولاطعام والصديق يريد نفسه لله وأقرب الاحوال الى النبوة الصديقية (وقال أبو يزيد) آخر نهايات الصديقين أول درجات الانبياء *واعلم ان أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس ووطئت بساط القرب

قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مت قال بلى قلت فما صنع الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال بخ بخ ذاك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك قال أجلسني على كرسي من ذهب ونثر علي اللؤلؤ الرطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كان مناديا ينادي ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي رأيت في منامي رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أويس القرني فاتبعته فقلت أوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فارشدني أرشدك الله فاقبل علي وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ثم ولى وتركني وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت وفاء بن بشر الحضرمي فقلت ما فعلت يا وفاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأي الاعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية في الطاعون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب الي من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت الى بيتي فاذا خط عتبة الغلام في حائط البيت ياهادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الاحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة الى نخلة ومن شجرة الى شجرة فقلت يا أبا عبد الله بم نلت هذا قال بالورع قلت فما بال علي بن عاصم قال ذاك لا يكاد يرى الا كما يرى الكوكب ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا رسول الله عظني قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له وقال الشافعي رحمة الله عليه دهمني في هذه الايام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا محمد بن ادريس قل اللهم اني لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع ان آخذ الا ما أعطيتني ولا أتقي الا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الاعمال المقربة الى الله زلفى فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور الى آخر القرار اما في الجنة أو في النار والحمد لله حمد الشاكرين

﴿الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور الى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الاهوال والاخطار﴾ وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصماء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر الى وجه الله تعالى وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه نختم الكتاب ان شاء الله تعالى

﴿صفة نفخة الصور﴾

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مغضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الاخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة

ونفوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب محببة الى كل ما تحبب اليه القلوب أرواحهم متعلقة بالمقام الاعلى انطفأت فيهم نيران الهوى وتخمر في بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر رضي الله عنه من أراد أن ينظر الى ميت يمشي على وجه الارض فلينظر الى أبي

المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء اما بالاسعاد واما بالاشقاء فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والاهوال بل اذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بان ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه اياي فيقول ان لي ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني وانما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لامثال تلك الامور ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له ان صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال تعالى أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الاعاجيب في بعثه واعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته فان كان في ايمانك ضعف فقو الايمان بالنظر في النشأة الاولى فان الثانية مثلها وأسهل منها وان كنت قوي الايمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والاخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور فانها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك الى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا الى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الامر كما قال تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال تعالى فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وقال تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون فلو لم يكن بين يدي الموتى الا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بان يتقى فانها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والارض يعني يموتون بها الا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالاذن ينتظر متى يؤمر فينفخ قال مقاتل الصور هو القرن وذلك ان اسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والارض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الاولى فاذا نفخ صعق من في السموات والارض أي مات كل حيوان من شدة الفزع الا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح اسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الاولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله اسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون على أرجلهم ينظرون الى البعث وقال صلى الله عليه وسلم حين بعث أنى صاحب الصور فأهوى به الى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ الا فاتقوا النفخة فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظار الما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل ان كنت في الدنيا من المترفهين والاغنياء المتنعمين فلوك الارض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالاقدام مثل الذر

بكر اشارة منه عليه الصلاة والسلام الى ما كوشف به من صريح العلم الذي لا يصل اليه عوام المؤمنين الا بعد الموت حيث يقال فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد فار باب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم (قال) يحيي ابن معاذ وقد سئل عن وصف العارف فقال رجل معهم بائن منهم وقال مرة عبد كان فبان فار باب النهايات هم عند

وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى واذا الوحوش حشرت ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها واذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك

﴿ صفة أرض المحشر وأهله ﴾

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا الى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ولا ترى عليها ربوة يختفي الانسان وراءها ولا وهدة ينخفض عن الاعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون اليه زمرا فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الارض اذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الاولى والرادفة هي الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الابصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لاحد قال الراوي والعفرة بياض ليس بالناصع والنقي هو النقي عن القشر والنخالة ومعلم أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر ولا تظنن أن تلك الارض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها الا في الاسم قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات قال ابن عباس يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الاديم العكاظي أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدته فانه اذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الارض لخمود سراجها فبيناهم كذلك اذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه فاعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات الى غيرهم قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم في طبع الآدمي انكار كل مالم يانس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لانكر تصور المشي على غير رجل والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فاياك أن تنكر شيأ من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد انكارا لها فاحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة

﴿ صفة العرق ﴾

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والارضين السبع من ملك وجن وانس وشيطان ووحش وسبع وطير فاشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الارض ظل الا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به الا المقربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الاقدام وانضاف اليه شدة

الله بحقيقتهم معوقين بتوقيت الاجل جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهدى وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الارادة كلامهم دواء ونظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم (قال ذو النون) علامة العارف ثلاثة لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا يحمله كثرة نعم

الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الانفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه و بعضهم حقويه و بعضهم الى شحمة أذنيه و بعضهم كاد يغيب فيه قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى أنصاف أذنيه وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الارض سبعين باعا و يلجمهم و يبلغ آذانهم كذا رواه البخارى ومسلم في الصحيح وفي حديث آخر قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة الى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدنو الشمس من الارض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه وأشار بيده فالجمها فاه ومنهم من يغطيه العرق وضرب بيده على رأسه هكذا فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو الى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدرى الى أين يبلغ بك العرق واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة و يطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فانه يوم عظيمة شدته طويلة مدته

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم قال كعب وقتادة يوم يقوم الناس لرب العالمين قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبد الله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال كيف بكم اذا جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر اليكم وقال الحسن ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى اذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم الى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي الا دفعهم وقال دعونى نفسى نفسى شغلنى أمرى عن أمر غيرى واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لا يملكون الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى في عمرك المختصر واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فانه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالامر اليك والاستعداد بيديك فاعمل في أيام قصار لايام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه يوم ترى السماء فيه قد انفطرت والكواكب من هوله قد انتثرت والنجوم الزاهرة قد انكدرت والشمس قد كورت والجبال قد سيرت والعشار قد عطلت والوحوش قد حشرت والبحار قد سجرت والنفوس الى الابدان قد زوجت والجحيم قد سعرت والجنة قد أزلفت والجبال قد نسفت والارض قد مدت يوم ترى الارض قد زلزلت

الله وكرامته على هتك أستار محارم الله فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا وكلما ازدادوا جاها و رفعة ازدادوا تواضعا وذلة أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرا صافيا بتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لانها

فيه زلزالها وأخرجت الارض أثقالها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم يوم تحمل الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية يوم تسير الجبال وترى الارض بارزة يوم ترج الارض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولا جان يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولايسئل فيه عن الاجرام بل يؤخذ بالنواصي والاقدام يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا يوم تعلم فيه كل نفس ماأحضرت وتشهد ماقدمت وأخرت يوم تخرس فيه الالسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين اذ قال له الصديق رضي الله عنه أراك قد شبت يارسول الله قال شيبتني هود وأخواتها وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت فما أيها القارئ العاجز انما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين واذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ماذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الاسامي تكرير الاسامي والالقاب بل الغرض تنبيه أولي الالباب فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميها وهي يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزي ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لاريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لاتجزي نفس عن نفس شيأ ويوم تشخص فيه الابصار ويوم لايغني مولى عن مولى شيأ ويوم لاتملك نفس لنفس شيأ ويوم يدعون الى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لايجزي والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون يوم لامرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لاينفع مال ولابنون يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الاستار يوم تخشع فيه الابصار وتسكن الاصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيآت يوم يساق العباد ومعهم الاشهاد ويشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلي الحميم وزفرت النار ويئس الكفار وسعرت النيران وتغيرت الالوان وخرس

معهم كالطفل الذي يلطف بالشئ ويهدى اليه الشئ لانه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به وتارة يغنون نفوسهم الشهوات تأسيا بالانبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية قال يحيى بن معاذ الدنيا عروس تطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف بالله مشتغل بسيده ولايلتفت اليها

اللسان ونطقت جوارح الانسان فيا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الابواب وأرخيت الستور واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة وانشق القمر انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة ان لم يتداركنا الله بواسع رحمته

﴿ صفة المساءلة ﴾

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الاحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها اذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين الى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عز وجل ملكا ما بين شفري عينيه مسيرة مائة عام فما ظنك بنفسك اذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا اليك ليأخذوك الى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح الا ويخرون لاذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذين فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفيكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم اجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الارض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين وقوله فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون فيبدأ سبحانه بالانبياء يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الانبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة اذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم الى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا انك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون اذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم الى أن يقويهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لامته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الانبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يا فلان ابن فلانة هلم الى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش وأشرقت الارض بنور ربها وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وانه المقصود بالاخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل ائتني بالنار فيجيء بها جبريل ويقول يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت الى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهضت خزنتها متوثبة الى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فاخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب وولوا مدبرين يوم ترى كل أمة جاثية وسقط بعضهم على الوجوه منكبين

(واعلم) ان المنتهي مع كمال حاله لا يستغني أيضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر وقد غلط في هذا خلق وظنوا أن المنتهي استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ والشهوات وهذا خطأ لانه من حيث انه يحجب العارف عن معرفته ولكن يوقف

و ينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور و ينادى الصديقون نفسى نفسى فبيناهم كذلك اذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السعداء والاشقياء أجمعين و بعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم فاذا رأوا ماقد أقيم من السياسة على الانبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والاخ من أخيه والزوج من زوجته و بقى كل واحد منتظر لامره ثم يؤخذ واحدا واحدا فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فو الذى نفسى بيده لاتضارون فى رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملاقى فيقول لا فيقول فانا أنساك كما نسيتنى فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته ألم أمهل لك فى العمر ففيماذا أفنيته ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيماذا أنفقته ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك انعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك * قال أنس رضى الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال أتدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فانى لا أجيز على نفسى الا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه و يقال لاركانه انطقى قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه و بين الكلام فيقول لاعضائه بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل فنعوذ بالله من الافتضاح على ملا الخلق بشهادة الاعضاء الا ان الله تعالى وعد المؤمن بان يستر عليه ولا يطلع عليه غيره * سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول انى سترتها عليك فى الدنيا وانى أغفرها لك اليوم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة فهذا انما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بان يجازى بمثله فى القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء الى العرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك اذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم فتوهم نفسك انك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك الى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن منى فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وعجز فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه و بأى لسان تجيب و بأى قلب تعقل ماتقول ثم تفكر فى عظم حيائك اذا ذكرك ذنوبك شفاها اذ يقول ياعبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فاظهرت لهم الجميل أكنت أهون عليك من سائر عبادى استخففت بنظرى اليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى ألم أنعم عليك فماذا غرك بى أظننت أنى لا أراك وانك لاتلقانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنكم من أحد الا و يسأله الله رب العالمين ليس بينه و بينه حجاب ولا ترجمان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقفن أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه و بينه حجاب فيقول له ألم أنعم

عن مقام المزيد وقوم لما رأوا ان هذه الاشياء لاتؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا اليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض وانسعوا فى المأكل والمشرب وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الاحوال وتقيد بنور الحال وعدم التخلص بالكلية الى نور الحق ومن تخلص من نور الحال الى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر

عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل اليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى الا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى الا النار فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فان لم يجد فبكلمة طيبة وقال ابن مسعود مامنكم من أحد الا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ماغرك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها الى مالا يحل لك ألم أكن رقيبا على أذنيك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن علمه ماعمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه فاعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الاولون والآخرون واما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والارض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك

﴿ صفة الميزان ﴾

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب الى الايمان والشمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوي عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادي مناد ليقم الحامدون لله على كل حال فيقومون ويسرحون الى الجنة ثم يفعل ذلك باهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ويبقى قسم ثالث وهم الاكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى ان الغالب حسناتهم أو سيآتهم ولكن يأبى الله الا ان يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب فتتطاير الصحف والكتب منطرية على الحسنات والسيآت وينصب الميزان وتشخص الابصار الى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال ثم الى لسان الميزان أيميل الى جانب السيآت أو الى جانب الحسنات وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فانقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال مايبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فان أحدا لا يذكر الا نفسه اذا وضعت الموازين ووزنت الاعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط وعن أنس قال يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وان خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار الى النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة أنه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ان معكم لخليقتين ماكانتا مع أحد قط الا كثرتاه مع من هلك من بني آدم وبني ابليس قالوا وماهما يارسول الله قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة الا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة

﴿ صفة الخصماء ورد المظالم ﴾

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الاعين شاخصة الى لسان الميزان فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ومن خفت موازينه فامه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان الا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضي الله عنه حاسبوا أنفسكم

و يوقف نفسه مقام العبيد كاحد عوام المؤمنين بتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى باماطة الاذى عن الطريق ولا يستكثر ولا يستنكف أن يعود في صور عوام المؤمنين من اظهار الارادة بكل بر وصلة فيتناول الشهوات وقتا رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة لانها أسيرته ويمنعها الشهوات وقتا

قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وانما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وان مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلببه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوؤني وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري وهذا يقول عاملتني فغششتني وهذا يقول بايعتني فغبنتني واخفيت عني عيب سلعتك وهذا يقول كذبت في سعر متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتني وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عني فداهنت الظالم وما راعيتني فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس الا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء الى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم اذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك باعراض الناس وتناولك اموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم اذا وقف بك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل الى خصمائك عوضا عن حقوقهم قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون من المفلس قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته وان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار فانظر الى مصيبتك في مثل هذا اليوم اذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان فان سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت انه لا ينقضي عنك يوم الا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء فقد روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة وقال أبو هريرة في قوله عز وجل وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم انه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني ترابا فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا فكيف أنت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي فيقال نقلت الى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان قد يئس أن تعبد الاصنام بارض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليجيء يوم القيامة بامثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه فما يزال عبد يجيء فيقول رب ان فلانا ظلمني بمظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الارض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير

لان في ذلك صلاحها واعتبر هذا سواء بحال الصبي فانه ان جاوز حد الاعتدال من اعطاء المراد وقتاومنعه وقتا انفسد طبعه لان الجبلة لابد من قمعها بسياسة العلم ومادامت الجبلة باقية لابد من سياسة العلم وهذا باب غامض دخل في النهايات على المنتهي من ذلك دواخل ووقع الركون وانسد به باب المزيد فالمنتهي ملك ناصية الاختيار في الاخذ والترك

يارسول الله أيكر رعلينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب قال نعم ليكر رن عليكم حتى تؤدوا الى كل ذى حق حقه قال الزبير والله ان الامر لشديد فاعظم بشدة يوم لايسامح فيه بخطوة ولايتجاوز فيه عن لطمة ولاعن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله العباد عراة غبرابهما قال قلنا ما بهما قال ليس معهم شئ ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لاينبغى لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لاحد من أهل النار عليه مظلمة حتى اقتصه منه ولا لاحد من أهل النار ان يدخل النار ولاحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه حتى اللطمة قلنا وكيف وانما نأتى الله عز وجل عراة غبرابهما فقال بالحسنات والسيئات فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لاعراضهم وتضييق قلوبهم واساءة الخلق فى معاشرتهم فان ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة اليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الاخلاص بحيث لايطلع عليه الا الله فعساه يقربه ذلك الى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لاحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما يارب خذلى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى أعط أخاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتى شئ فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شئ قال يارب يتحمل عنى من أوزارى قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال ان ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس الى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكالة باللؤلؤة لاى نبى هذا أولاى صديق هذا أولاى شهيد هذا قال لمن أعطانى الثمن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب انى قد عفوت عنه قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين وهذا تنبيه على أن ذلك انما ينال بالتخلق باخلاق الله وهوا صلاح ذات البين وسائر الاخلاق فتفكر الآن فى نفسك ان خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الابد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الاوزار ظهرك ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلالا من جبينك وخلق الاولين والآخرين ينظرون اليك والى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤس الاشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لايشقى بعدها أبدا أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فان كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له اليه فتوسل الى ادراك هذه الرتبة بالاخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك الا به وان تكن الاخرى والعياذ بالله بان خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لاجلها فقال عليك لعنتى ياعبد السوء لاأتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء الا ويسود وجهك ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تتناول اليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فاقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملا الخلق وهم ينظرون الى اسوداد وجهك والى ظهور خزيك وأنت تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لاتدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى الملائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة فى

ولا بدله من أخذ وترك فى الاعمال والحظوظ ففى الاعمال لا بدله من أخذ وترك فتارة يأتى بالاعمال كما حاد الصادقين وتارة يترك زيادة الاعمال رفقا بالنفس وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس وتارة يتركها افتقاد النفس بحسن السياسة فيكون فى ذلك كله مختارا فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية

قلوبهم أوخوفا من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك اذتحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملا العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الاليم والسياق بأيدى الزبانية الى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الاعظم وهو خطر الصراط

﴿ صفة الصراط ﴾

ثم تفكر بعد هذه الاهوال فى قول الله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وفى قوله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم أنهم مسؤلون فالناس بعد هذه الاهوال يساقون الى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالاوزار وعصى تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك اذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالاوزار المانعة لك عن المشى على بساط الارض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك اذا وضعت عليه احدى رجليك فاحسست بحدته واضطررت الى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب وأنت تنظر اليهم كيف ينكسون فتتسفل الى جهة النار رؤسهم وتعلو أرجلهم فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر الى حالك وأنت ترحف عليه وتصعد اليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالا الى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول يارب سلم سلم والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت اليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتنى قدمت لحياتى ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ياليتنى كنت ترابا ياليتنى كنت نسيا منسيا ياليت أمى لم تلدنى وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله وينادى المنادى اخسؤا فيها ولاتكلمون فلايبقى سبيل الا الصياح والانين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الاخطار بين يديك فان كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم وان كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك ايمانك اذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك الا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وان سلمت فناهيك به هولا وفزعا ورعبا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم يارسول الله قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها الا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشى مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأما أهل النار الذين هم أهلها فلايموتون ولايحيون وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما ثم يؤذن فى الشفاعة وذكر الى آخر الحديث وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء وذكر الحديث الى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤسكم فيرفعون رؤسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على ابهام قدمه فيضىء مرة ويخبو مرة فاذا أضاء قدم

ومن استرسل فى أخذها فهو راغب بالكلية والمنهى شمل الطرفين فانه على غاية الاعتدال واقف على الصراط بين الافراط والتفريط فمن ردت اليه الاقسام فى النهاية فاخذها زاهد فى الزهد فهو بحت قهر الحال من ترك الاختيار وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك

قدمه فمشى واذا أظلم قام ثم ذكر مر ورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذى أعطى نوره على ابهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فاذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطانى الله مالم يعط أحدا اذ نجانى منها بعد اذ رأيتها فينطلق به الى غدير عند باب الجنة فيغتسل وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وان الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وان جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتى وانى لاقول يارب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير فهذه أهوال الصراط وعظائمه فطول فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا فان الله لايجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الاهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود الى لهوك ولعبك فما هذا من الخوف فى شئ بل من خاف شيأ هرب منه ومن رجا شيأ طلبه فلا ينجيك الاخوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ويحثك على طاعته وأبعد من رقة النساء خوف الحمق اذا سمعوا الاهوال سبق الى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هى سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ووراءه حصن فاذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه واحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه فأنى يغنى ذلك عنه من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن الاقول لا اله الا الله صادقا ومعنى صدقه أن لايكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن اتخذ الهه هواه فهو بعيد من الصدق فى توحيده وأمره مخطر فى نفسه فان عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا الى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بادعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة ان كنت قليل البضاعة

﴿ صفة الشفاعة ﴾

اعلم انه اذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الانبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة فى اهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بان لاتحقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده فلعل الذى تزدريه عينك هو ولى الله ولا تستصغر معصية أصلا فان الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو مايجرى مجراه وشواهد الشفاعة فى القرآن والاخبار كثيرة قال الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى روى عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول ابراهيم عليه السلام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم وقول عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه وقال أمتى أمتى ثم بكى فقال الله عز وجل ياجبريل اذهب الى محمد فسله مايبكيك فأتاه جبريل فسأله فاخبره والله أعلم به فقال ياجبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك وقال صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وجعلت لى الارض مسجدا وترابها طهورا فايما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة وكل نبى بعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقال صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر وقال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الارض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه وقال صلى الله عليه وسلم لكل نبى دعوة مستجابة فاريد أن أختبئ دعوتى شفاعة لامتى يوم القيامة وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله

الاختيار فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ماسيق اليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالاخذ واذا استقرت النهاية لايتقيد بالاخذ ولا بالترك بل يترك وقتا واختياره من اختيار الله ويأخذ وقتا واختياره من اختيار الله وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتى بها وقتا ويسمح للنفس وقتا لانه مختار صحيح فى الاختيار فى الحالين وهذا هو الصحيح

صلى الله عليه وسلم ينصب للانبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعث بي الى الجنة وتبقى أمتي بعدي فاقول يارب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد ان أصنع بأمتك فاقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى اعطى صكا كا برجال قد بعث بهم الى النار وحتى ان مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لغضب ربك فى أمتك من بقية وقال صلى الله عليه وسلم انى لاشفع يوم القيامة لا كثر مما على وجه الارض من حجر ومدر وقال أبو هريرة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع اليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس بعضهم لبعض ألا ترون ماقد بلغكم الا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه قد نهانى عن الشجرة فعصيته نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يانوح أنت أول الرسل الى أهل الارض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى ابراهيم خليل الله فيأتون ابراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبى الله وخليله من أهل الارض اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون ياموسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانى قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى عليه السلام ان ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتونى فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فانطلق فآتى تحت العرش فاقع ساجدا لربى ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيأ لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فارفع رأسى فاقول أمتى أمتى يارب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الايمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الابواب ثم قال والذى نفسى بيده ان بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وفى حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا ابراهيم وهو قوله فى الكوكب هذا ربى وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا وقوله انى سقيم فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولاهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار و يقول يافلان هل تعرفنى فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذى مررت بى فى الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لى بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره و يقول انى أشرفت على أهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال هل تعرفنى فقلت لا من أنت فقال أنا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند ربك فشفعنى

ونهاية النهاية وكل حال يستقر ويستقيم بشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل انى عزمت أن لا آكل اللحم قال فانى آكل اللحم وأحبه ولو سألت ربى أن يطعمنى كل يوم لاطعمنى وذلك

فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أقوم بين يدى ربى عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وتعجبكم ان ابراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجى الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فادخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الاولين والآخرين ولا فخر

﴿ صفة الحوض ﴾

اعلم ان الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الاخبار على وصفه ونحن نرجوان يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه فان من صفاته ان من شرب منه لم يظمأ أبدا قال أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت فقال آية أنزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر قالوا الله ورسوله أعلم قال انه نهر وعدنيه ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أنا أسير فى الجنة اذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك أذفر وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين لابتى حوضى مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان وروى ابن عمر أنه لما نزل قوله تعالى انا أعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل اللؤلؤ والمرجان وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حوضى ما بين عدن الى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن هم يا رسول الله قال هم الشعث رؤسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد فقال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى أبواب السدد الا ان يرحمنى الله لا جرم لا ادهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ وعن أبى ذر قال قلت يا رسول الله ما آنية الحوض قال والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المصحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ما بين عمان وايلة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبى حوضا وانهم يتباهون أيهم أكثر واردة وانى لارجو ان أكون أكثرهم واردة فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن أنه راج فان الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الارض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالانبات ودفع الصواعق الى أوان الحصاد فاما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الارض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين فى شىء وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة فان الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى فلا تغرنكم الحيوة الدنيا

يدلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختارا فى ذلك ان شاء أكل وان شاء لم يأكل وكان يترك الاكل اختيارا وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعا وهذا اذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسى به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة

ولا يغرنكم بالله الغرور

﴿ القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها ﴾

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر الى موردك فانك أخبرت بان النار مورد للجميع اذ قيل وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فانت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها اذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الامم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب وخرج المنادي من الزبانية قائلا أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الامل المضيع عمره في سوء العمل فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه الى العذاب الشديد وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق انك أنت العزيز الكريم فاسكنوا دارا ضيقة الارجاء مظلمة المسالك * مبهمة المهالك يخلد فيها الاسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك قد شدت أقدامهم الى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد نضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فانا لا نعود فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسؤا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم الى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الاسف بل يكبون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الاطراف شعورها بل جلودها وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الارواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت اليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم الى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤن حسك الحديد باحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله وقال علي كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أو جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المرائين فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الاعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض الاعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية فانظر الآن في عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا الا الى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم الا الى

التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لارباب الرخص وفعله لارباب العزائم ثم ان المنتهي يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق الى الحق فكل ما كان يعتمده رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمده فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يخلوا اما انه كان ليقتدى به وأما انه كان لمزيد كان يجده بذلك فان

هاوية أعمق منها قال أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى الى قعرها ثم انظر الى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن اكباب الناس على الدنيا بتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها الى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه الا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه فانظر الآن الى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم انك أخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه وعن هذا عبر في بعض الاخبار حيث قيل ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة وقال صلى الله عليه وسلم اشتكت النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها في نفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدونه في الصيف من حرها وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها وقال أنس بن مالك يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا وقال أبو هريرة لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا وقد قال بعض العلماء في قوله تلفح وجوههم النار انها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم الا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ان دلوا من غساق جهنم ألقي في الدنيا لانتن أهل الارض فهذا شرابهم اذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ثم انظر الى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم وقال تعالى انها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم وقال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية وقال تعالى ان لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبثتها عليكم وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع اليهم الحميم بكلاليب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال قال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون

كان ليقتدى به فالمنتهي أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلة * قال الله تعالى خطابا له واعبد ربك حتى يأتيك اليقين لانه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الالهية وقرع باب الكرم والنبي عليه الصلاة والسلام

فيقولون يامالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم انكم ماكثون قال الاعمش أنبئت أن بين دعائهم و بين اجابة مالك اياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخسؤا فيها ولا تكلمون قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل وقال أبو امامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه قال يقرب اليه فيتكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن الى حيات جهنم وعقاربها والى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها واغريت بهم فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه يعني أشداقه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ان في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حمتها أربعين خريفا وان فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حمتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب انما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وايذاء الناس ومن وقي ذلك وقي هذه الحيات فلم تمثل له ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه وقال عليه السلام ان الكافر ليجر لسانه في سجين يوم القيامة يتواطؤه الناس ومع عظم الاجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول القائهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الاخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك قال محمد بن كعب لاهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيقول الله تعالى مجيبا لهم ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ثم يقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب قال مالك بن أنس رضي الله عنه قال زيد بن أسلم في قوله تعالى سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا وقال صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة كانه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل ورؤي الحسن رضي الله عنه جالسا

في

مفتقر الى الزيادة من الله تعالى غير مستغن عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق الى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا اليه ولا انتفعوا به وبين نفسه الطاهرة ونفوس الاتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورابطة التأليف ان النفوس ألفت آنفا كما أن الارواح ألفت

فى زاوية وهو يبكى فقيل له لم تبكى فقال أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية له فاعظم الامور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة اذ لم يبيعوا ذلك الا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منغصة فيقولون فى أنفسهم وا حسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولذاتها ثم انهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا الى قصورها والى ما أعد الله لاهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الاولون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لاوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم اذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤن الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركتم للناس ولم تتركوا لى فاليوم أذيقكم العذاب الاليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم قال أحمد بن حرب ان أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح وقال داود الهى لا صبر لى على حر شمسك فكيف صبرى على حر نارك ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين فى هذه الاهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار باهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وان هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ولعمرى الاشارة به الى يوم القيامة بل فى أزل الازل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك فان قلت فليت شعرى ماذا موردى والى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهو ان تنظر الى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فابشر فانك مبعد عن النار وان كنت لا تقصد خيرا الا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا الا ويتيسر لك أسبابه فاعلم انك مقضى عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم فاعرض على نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم

﴿ القول فى صفة الجنة وأصناف نعيمها ﴾

اعلم ان تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الاخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لاهل الجنان وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء الى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الاليم فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت الاحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض فيها بسط من العبقرى الاخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان يمشين فى درجات الجنان اذا اختالت احداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الابيض ما تتحير فيه الابصار مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف

أولا ولكل روح مع نفسه تأليف خاص والسكون والتآلف والامتزاج واقع بين الارواح والنفوس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفسه ونفوس الاتباع فما احتاج اليه نفسه من ذلك ناله وما فضل من ذلك وصل الى نفوس الامة وهكذا المنتهى مع الاصحاب والاتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل ولا يسترسل فى

عليهم وعليهن با كواب وأباريق وكاس من معين بيضاء لذة للشاربين و يطوف عليهم خدام و ولدان كامثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون و بأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون فهم فيها يتنعمون و يأكلون من أطعمتها و يشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا فى أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران و يمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور و يؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى اشراقها ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها و يوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الاحداث بعين التغيير الى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها و يتهنأ بعيش دونها والله لولم يكن فيها الا سلامة الابدان مع الامن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بان يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون والى وجه الله الكريم ينظرون و ينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى مناد يا أهل الجنة ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان واقرأ من قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان الى آخر سورة الرحمن واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وان أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الاخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولا (عدد الجنان) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم و بين أن ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن ثم انظر الى (أبواب الجنة) فانها كثيرة بحسب أصول الطاعات كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصى قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد فقال أبو بكر رضى الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها قال نعم وأرجو أن تكون منهم وعن عاصم بن ضمرة عن على كرم الله وجهه انه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لا أحفظه ثم قال وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا انتهوا الى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا الى احداهما كما أمروا به فشربوا منها فاذهبت ما فى بطونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا الى الاخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رؤسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا الى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان الى بعض أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا فتقول أنت رأيته فيقول أنا رأيته وهو بأثرى فيستخفها الفرح حتى تقوم الى أسكفة بابها فاذا انتهى الى منزله نظر الى أساس بنيانه فاذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع

الشهوات واللذات الابدلالة تخص النفس ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك الا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة وكل من يحتاج الى صحة الجلوة للغير لا بدله من خلوة صحيحة بالحق حتى تكون جلوته فى حماية خلوته ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجبه شئ وأن أوقاته بالله ولله ولا يرى نقصانا لان الله ما فطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح فى حاله غير أنه تحت قصور

رأسه فينظر الى سقفه فاذا مثل البرق ولولا ان الله تعالى قدره لالم ان يذهب بصره ثم يطأطئ رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ثم اتكا فقال الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ثم ينادى مناد تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فاقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لاحد قبلك ثم تأمل الآن فى ﴿غرف الجنة﴾ واختلاف درجات العلو فيها فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والاخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها فقد قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وقال أيضا ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء وان أبا بكر وعمر منهم وأنعما وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أحدثكم بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمنا قال ان فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف قال لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك قال أمتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقى أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام يعنى اليهود والنصارى والمجوس وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر فى كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر فى كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام فى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن فى كل غداة يعنى من القوة ما يأتى على ذلك أجمع

لانه ما تنبه لسياسة الجبل وما عرف سر عليك الاختيار وما وقف من البيان على البيضاء النقية وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه فقد يسمعها الانسان ويبنى عليها والاولى أن يفتقر الى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يسمعه الله من ذلك الصواب (نقل) عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال اذا اجتمعت المتفرقات واستوت الاحوال والاماكن وسقطت

﴿صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها﴾

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به فى الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤا ان شئتم وظل ممدود وقال أبو أمامة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ان الله عز وجل ينفعنا بالاعراب ومسائلهم أقبل اعرابى فقال يا رسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدرى ان فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هى قال السدر فان لها شوكا فقال قد قال

الله تعالى فى سدر مخضود يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر وقال جرير بن عبد الله نزلنا الصفاح فاذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فاذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فان من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة قلت لا أدرى قال ظلم الناس بعضهم بعضا ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فاين النخل والشجر قال أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر

﴿ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم ﴾

قال الله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير والآيات فى ذلك كثيرة وانما تفصيله فى الاخبار فقد روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق تخلقا أم تنسج نسجا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مم تضحكون من جاهل سأل عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون آنيتهم وامشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية وفى رواية على كل زوجة سبعون حلة وقال صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ان عليهم التيجان ان أدنى لؤلؤة فيها تضىء ما بين المشرق والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون رواه البخارى فى الصحيح قال ابن عباس الخيمة درة مجوفة فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والارض

﴿ صفة طعام أهل الجنة ﴾

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة فى مواضع كثيرة وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة الى أن قال فمن أول اجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد الحوت قال فما غذاؤهم على أثرها قال ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى اطرافها قال فما شرابهم عليه قال من عين فيها تسمى سلسبيلا فقال صدقت وقال زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم ألست تزعم ان أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لاصحابه ان أقر لى بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده ان أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى المطعم والمشرب والجماع فقال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فاذا البطن قد ضمر وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتنظر الى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة طيرا أمثال البخاتى قال أبو بكر رضى الله عنه انها الناعمة يا رسول الله قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر وقال عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى يطاف عليهم بصحاف قال يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس فى الاخرى مثله وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ومزاجه من تسنيم قال يمزج لاصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا وقال أبو الدرداء رضى الله عنه فى قوله تعالى ختامه مسك قال هو شراب أبيض مثل الفضة

رواية التمييز ومثل هذا القول يوهم أن لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الاعمال وبين تركها ولم يفهم منه ان القائل أراد بذلك معنى خاصا يعنى أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الاحوال وهذا صحيح لان حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر الى التمييز وتستوى الاحوال فيه ولكن حظ المريد يتغير ويحتاج الى التمييز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه (قيل) لمحمد

يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح الا وجد ريح طيبها

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر في القرآن وصفهم ووردت الاخبار بزيادة شرح فيه روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت الى الارض لاضاءت ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها يعني الخمار وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى كأنهن الياقوت والمرجان قال ينظر الى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وان أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وانه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري بي دخلت الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الاخضر والياقوت الاحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ما هذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى حور مقصورات في الخيام وقال مجاهد في قوله تعالى وأزواج مطهرة قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد وقال الاوزاعي في شغل فاكهون قال شغلهم افتضاض الابكار وقال رجل يا رسول الله أيباضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم وقال عبد الله بن عمر ان أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء الا الصور من الرجال والنساء فاذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وان فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحور في الجنة يتغنين نحن الحور الحسان خبئنا لازواج كرام وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى في روضة يحبرون قال السماع في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد يدخل الجنة الا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه

(بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار)

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ألا هل مشمر للجنة ان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بهية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا ان شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هل في الجنة خيل فانها تعجبني قال ان أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت وقال له رجل ان الابل تعجبني فهل في الجنة من ابل فقال يا عبد الله ان أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخي تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد

ابن الفضل حاجة العارفين الى ماذا قال حاجتهم الى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلها ألا وهي الاستقامة وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التمام والمبتدي في الابتداء مأخوذ في الاعمال محجوب بها عن الاحوال وفي التوسط محفوظ بالاحوال فقد يحجب عن الاعمال وفي الانتهاء لا تحجبه الاعمال عن

و ياقوت كما بين الجابية الى صنعاء وان عليهم التيجان وان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم نظرت الى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كخلف البعير المقتب واذا طيرها كالبخت واذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت فقالت لزيد بن حارثة واذا في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال كعب خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال ان رمانها مثل الدلاء وان أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الاحلام ولا تصدع منها الرؤس وان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار وان أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وان عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها الا الله تعالى وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وان لهم فيها خيلا وابلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون وان المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله الاخلاق من السوء والاجساد من الموت لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وانما هو جشاء ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما انه ليس ليل يكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو وان آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويفسح له في بصره حتى ينظر الى أقصاه كما ينظر الى أدناه يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها في كل صحفة لون ليس في الاخرى مثله ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله وان في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب وقال مجاهد ان أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرفعهم الذي ينظر الى ربه بالغداة والعشي وقال سعيد بن المسيب ليس أحد من أهل الجنة الا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة وقال أبو هريرة رضي الله عنه ان في الجنة حوراء يقال لها العيناء اذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال يحيى بن معاذ ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فيا عجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى.

(صفة الرؤية والنظر الى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وهذه الزيادة هي النظر الى وجه الله تعالى وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا وما هذا الموعد ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون الى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيأ أحب اليهم من النظر اليه وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء وقد أوجزنا في الكلام

الاحوال ولا الاحوال عن الاعمال وذلك هو الفضل العظيم (سئل الجنيد) عن النهاية فقال هي الرجوع الى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه انه كان في ابتداء أمره في جهل ثم وصل الى المعرفة ثم رد الى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى لكيلا يعلم بعد علم شيأ (وقال بعضهم) أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه ويجوز أن

هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى وأما سائر نعيم الجنة فانه يشاركه فيه البهيمة المسرحة في المرعى

﴿ نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك ﴾

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل وليس لنا من الاعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم في التفاؤل ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن يكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيآت ظاهرا وباطنا فان الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا اليه الا فضله وكرمه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ويروى أنه اذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فانه ليس منكم أحد الا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا وقال النبي صلى الله عليه وسلم يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم اسلامكم اذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر باخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فاذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وقال جابر بن عبد الله من زادت حسناته على سيآته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وانما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لاغثته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما الى النار فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا الى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ حسن ظني بك كان يشعرني أن لا تردني اليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما الى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي مناد

يكون معنى ذلك ماذكرناه أنه يبادئ الاعمال ثم يرقى الى الاحوال ثم يجمع له بين الاعمال والاحوال وهذا يكون للمنتهي المراد المأخوذ في طريق المحبوبين تنجذب روحه الى الحضرة الالهية وتستتبع القلب والقلب يستتبع النفس والنفس تستتبع القالب فيكون بكليته قائما بالله ساجدا بين يدي الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد لك

من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم و بقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي ويروى أن اعرابيا سمع ابن عباس يقرأ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها فقال الاعرابي والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال الصنابحي دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال مهلا لم تبكي فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير الا حدثتكموه الا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيأ أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة وأنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط ان الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يار بنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يار بنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يار بنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول ان لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا ان شئتم ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون الى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها الى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى ان لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يار بنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الامم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه رجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الافق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وعن عمرو بن حزم الانصاري قال تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج الا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج الينا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث الا خير ان ربي عز وجل وعدني ان يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم واني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قال قلت يارب وتبلغ أمتي هذا قال أكمل لك العدد من الاعراب وقال أبو ذر قال رسول

سوادي وخيالي وقال الله تعالى ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال والظلال القوالب تسجد بسجود الارواح وعند ذلك تسري روح المحبة في جميع اجزائهم وابعاضهم فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا فيحبهم الله تعالى ويحببهم الى خلقه نعمة منه عليهم وفضلا على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو

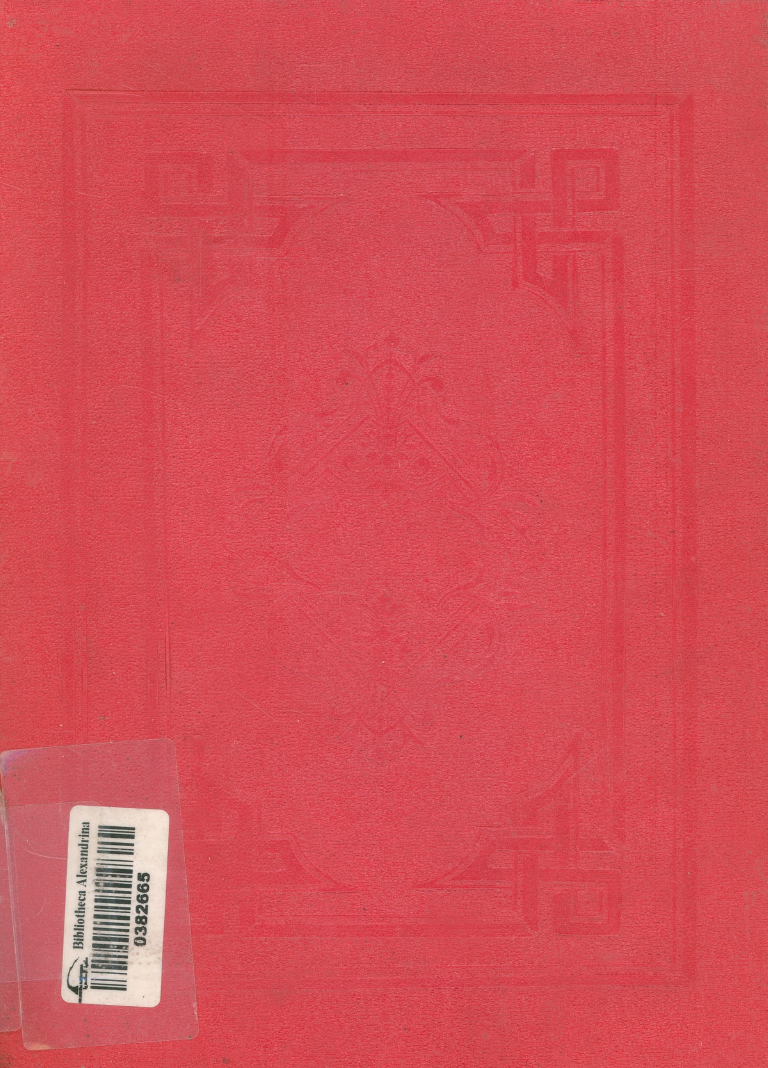
الله صلى الله عليه وسلم عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك انه من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة فقلت يا جبريل وان سرق وان زنى قال نعم وان سرق وان زنى قلت وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى قلت وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى وان شرب الخمر قال أبو الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى يا رسول الله فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى يا رسول الله قال وان رغم أنف أبي الدرداء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة انه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله تعالى مكانه النار يهوديا أو نصرانيا فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا اله الا هو ثلاث مرات ان أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف له وروي انه وقف صبي في بعض المغازي ينادى عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة في خباء القوم فاقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبي وألصقته الى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر وقالت ابني ابني فبكى الناس وتركوا ما هم فيه فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فاخبر وما لخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال أعجبتم من رحمة هذه لابنها قالوا نعم قال صلى الله عليه وسلم فان الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة فهذه الاحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته

النجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو طالب الزينبي قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهني قال أنا أبو عبد الله الفربري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال حدثني اسحق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا

أحب عبدا نادى جبريل ان الله تعالى قد أحب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل فى السماء ان الله قد أحب فلانا فاحبوه فيحبه أهل السماء و يوضع له القبول فى الارض وبالله العون والعصمة والتوفيق تم بحمد الله المعيد المبدى كتاب عوارف المعارف للامام السهروردى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿ يقول الراجى عفو ربه الكريم * ابن الشيخ حسن الفيومى ابراهيم ﴾

نحمدك يامن شرحت الحقائق لقلوب غرست فى رياضها أشجار محبتك وسقيت بغيوث رحائك وازعجت بسوط خوفك فاحسنت متابعة شريعتك وأثمرت غصونها احياء هدايتك ومنحت زائد عنايتك فصحت بعد غفلتها ونهضت فى اقتفاء مرضاتك بعد طول رقدتها ونشكرك وفقت من أبان عن واضح الحق اللثام حتى اتضح للسالك خزى من أثار فى وجه الصدق القتام ونسألك أن تديم وافر صلواتك وكامل تسليماتك على خاتم النبيين و رسولك الى الخلق أجمعين من جعلت سنته فى قوله وفعله هى الطريق اليك فمن شذ عنها ولو قلامة ظفر لا يظفر من مرضاتك بما يدله عليك وعلى آله سفن النجاه الذين هم العروة الوثقى لمن يرجو شفاعته و رضاه وأصحابه الذين تهذبت نفوسهم بمتابعته فصاروا أنجما يهتدى بهم فى شريعته وكل من اقتفى آثارهم وجاهد نفسه ليلتقط من رياض أحوالهم أزهارهم ﴿أما بعد﴾ فان أولى ما يهتم الانسان بتحصيله وصرف العناية لى قراءته وترتيله ما تستطب به النفوس من أمراضها وتستعز به فى تقويم أغراضها ولا شىء أوفى بذلك مع مزيد حسن مبين من كتاب احياء علوم الدين لامام الائمة ومحجة الامة الشيخ محمد بن محمد بن محمد الغزالى طيب الله ثراه ولقاه بما يتمناه وهو كتاب لا يستطيع البيان وصف محاسنه ولا يستجرئ البنان حصر درر معادنه وقد حسن الطبع شكل وضعه و زين مبانى صنعه محلى الهوامش والطرر ومزين الحواشى والغرر بالكتابين الجليلين الاول كتاب تعريف الاحيا بفضائل الاحيا للعلامة الشيخ محيى الدين قدوة المسلمين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوى والثانى عوارف المعارف للامام السهروردى رحمهم الله وذلك بالمطبعة الشرفيه الثابت محل ادارتها خرنفش مصر المحميه وكان هذا الطبع الفائق المصون وهذا التمثيل الزاهر الميمون أواخر ذى الحجة الحرام سنة ١٣٢٧ من هجرة النبى الختام عليه الصلاة والسلام وآله الغر الكرام وصحابته الاعلام


Bibliotheca Alexandrina
0382665